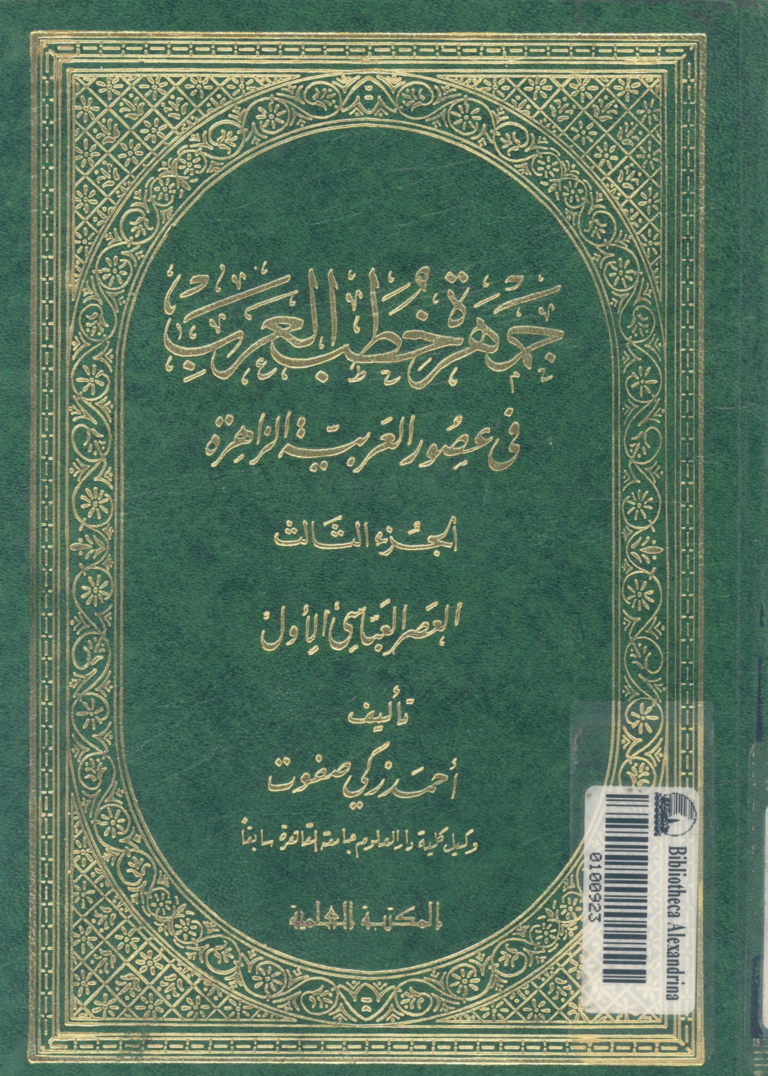

جمهرة خطب العرب
في عصور العربية الزاهرة
الجزء الثالث
العصر العباسي الأول
تأليف
أحمد زكي صفوت
وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقاً
المكتبة العلمية



جمهرة خطب العرب

في عصور العربية الزاهرة

الجزء الثالث

العصر العباسي الأول

ويليه ذيل الجمهرة

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقاً

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

تصدير

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم وفقتنى إلى إتمام ما بدأت ، فلك الشكر والمنة فى البدء والنهاية ، وأصلى وأسلم على خاتم رسلك ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فهذا ثالث الأجزاء من « جمهرة خطب العرب » فى خطب العصر العباسى الأول ، وهو على نسق سابقيه ضبطا وتحريرا ، وشرحا وتعليقا ، ويليه ذيل الجمهرة ، فى خمسة أبواب من الخطب :

الباب الأول : فى خطب الأندلسيين والمغاربة .

« الثانى : فى خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

« الثالث : فى نثر الأعراب .

« الرابع : فى خطب النكاح .

« الخامس: فى خطب من أرتج عليهم ، ونوادر طريفة لبعض الخطباء .

وبذا تم ما قصدت إلى جمعه فى هذا المؤلف ، وإنى أبتهل إلى المولى القدير أن يحقق ما رجوته من استفادة قارئيه به ، وأن يسدد خطانا جميعا إلى سبيل الرشاد ، إنه الكبير المتعال ؟

أحمد زكى صفوت

حرر بالقاهرة فى { ذى القعدة سنة ١٣٥٢ هـ
مارس سنة ١٩٣٤ م

فهرس

مآخذ الخطب فى هذا الجزء

الأمالى : لأبى علىّ القالى	: الجزء الأول ــ الثانى ــ ذيل الأمالى
الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى	: « التاسع
صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى	: « الأول ــ التاسع
نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى	: « السادس
عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى	: المجلد الثانى
الكامل : لأبى العباس المبرد	: الجزء الأول
العقد الفريد : لابن عبد ربه	: « الأول ــ الثانى ــ الثالث
زهر الآداب : لأبى إسحق الحصرى	: « الأول ــ الثانى ــ الثالث
البيان والتبيين : للجاحظ	: « الأول ــ الثانى ــ الثالث
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد	: المجلد الأول ــ الثانى
أمالى السيد المرتضى	: « الأول ــ الرابع
مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى	: « الأول
تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى	: « التاسع ــ العاشر
تاريخ الكامل : لابن الأثير	: « السادس
مروج الذهب : للمسعودى	: « الثانى
وفيات الأعيان : لابن خلكان	: « الأول ــ الثانى

— ٥ —

مواسم الأدب: للسيد جعفر البيتى العلوى : الجزء الثانى

الصناعتين : لأبى هلال العسكرى

مقدمة ابن خلدون

المنية والأمل : لأحمد بن يحيي المرتضى



الباب الرابع

الخطب والوصايا

فى

العصر العباسى الأول

١ — خطبة أبى العباس السفاح وقد بويع بالخلافة

(توفى سنة ١٣٦ هـ)

صَعِد أبو العباس[1] السَّفاح المِنْبَر حين بويع له بالخلافة ، فقام فى أعلاه ، وصعد عمه داود بن علىّ فقام دونه ، وتـكلم أبو العباس ، فقال :

« الحمد لله الذى اصطفى الإسلامَ لنفسهِ تـكرِمَةً ، وَشَرَّفَهُ وعظَّمَهُ ، واختاره لنا وأيَّده بنا، وجعَلَنَا أهلَه وَكَهْفَهُ[2] وحِصْنَه، والقُوَّام به ، والذابِّين عنهُ، والناصرين له ، وأَلْزَمَنا كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَجَعَلَنَا أَحَقَّ بها وَأَهْلَهَا ، وخصَّنا بِرَحِم رسول الله صلى الله

(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس أول الخلفاء العباسيين ، بويع بالخلافة سنة ١٣٢ هـ . (٢) الكهف : الوزر والملجأ .

عليه وسلم وقرابته ، وأنشأنا من آبائه ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقّنا من نَبْعَته[١] ، جعله من أنفسنا عَزِيزاً عليهِ ماعَنِتْنا[٢] ، حَرِيصاً علَيْنا، بالْمُؤْمِنِينَ رَءوفاً رحيماً ، ووضعَنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم ، فقال عزَّ مِن قائل فيا أنزل من مُحْكَمَ القرآن : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ[٣] أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » وقال: « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى »، وقال «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» وقال : « مَا أَفَاءَ[٤] اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » ، وقال : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » فأعلمهم جل ثناؤه فَضْلَنا ، وأوجب عليهم حقَّنا ومودَّتنا ، وأجزل من الفَيْء[٥] والغنيمة نصيبَنا، تكرِمةً لنا ، وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم .

وزعمت السَّبَئِية الضُّلَّال أن غَيْرَنا[٦] أحقُّ بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت[٧] وُجوهُهُم ! بِمَ ولِمَ أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضَلالتهم ، وبصَّرهم بعد جَهالتهم ، وأنقذهم بعد هَلَكَتهم ، وأظهر بنا الحقَّ ، وأدْحَضَ بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة ،وأتمَّ بنا النَّقِيصة ، وجمع الفُرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهلَ تَعاطُف وبِرّ، ومواساة فى دينهم ودنياهم ، وإخواناً على سُرُرٍ متقابلين فى آخرتهم ، ففتح الله ذلك مِنَّة وَمِنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمرِ من بعده أصحابُه ، وأمْرُهم شُورَى بينهم ، فحَوَوا مَوارِيثَ الأمم، فعدلوا فيها،

(١) النبع فى الأصل : شجر تتخذ منه القسى والسهام .
(٢) العنت بالتحريك: دخول المشقة على الإنسان.
(٣) القذر ، وكل ما استقذر من العمل .
(٤) ما أعاده عليه أى صيره له .
(٥) الغنيمة .
(٦) يريد العلويين .
(٧) شاه وجهه شوها بالفتح : قبح .

وَوَضعوها مواضعَها ، وأعطَوها أهلَها ، وخرجوا خِماصاً[1] منها ، ثم وثب بنو حرب ومرْوان فابتزّوها وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها ، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى[2] الله لهم حيناً حتى آسَفوه[3] ، فلما آسَفوه انتقمَ منهم بأيدينا ، وَرَدّ علينا حقّنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وَوَلِيَ نصرنا وَالقيام بأمرنا ، لِيَمُنَّ بنا على الذين اُستُضعِفوا فى الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإنى لأرجو ألّا يأتيكم الجوْر من حيثُ أتاكم الخير ، ولا الفسادُ من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهلَ البيت إلا بالله .

يأهل الكوفة ، أنتم مَحلّ محبّتنا ، ومنزِلُ مودّتنا ، أنتم الذين لم تتغيّروا عن ذلك ، ولم يَثْنِكم عن ذلك تحامُلُ أهل الجوْر عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زِدتكم فى أعْطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا ، فأنا السّفّاح المُبيح ، وَالثائرُ المُبير[4] » .

وكان موعوكاً فاشتد به الوَعْك[5] ، فجلس على المنبر ، وصَعِد داود بن علىّ ، فقام دونه على مَرَاقِى[6] المنبر . فقال :

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٢٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢١٣)

٢ ـــ خطبة داود بن علىّ

« الحمد لله ، شُكراً شُكراً شُكراً ، الذى أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس : الآن أقشعَتْ[7] حَنَادِسُ الدنيا ، وانكشف

---

(١) جياعا جمع خميص من خمص البطن مثلثة الميم أى خلا ، والخمصة : المجاعة ، وهو خمصان بالضم ، وخميص الحشا : ضامر البطن . (٢) أمهلهم . (٣) أغضبوه . (٤) أباره : أهلكه .

(٥) الوعك : أذى الحمى ووجعها ، وألم من شدة التعب . (٦) جمع مرقاة بفتح الميم وكسرها .

(٧) قشعت الريح السحاب : كشفته كأقشعته فأقشع وانقشع وتقشع ، والحنادس جمع حندس بكسر الحاء والدال وهو الظلمة .

غِطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطَلَعت الشمس من مَطلعها وبَزغ القمر من مَبْزَغه . وأخذ القوسَ باريها ، وعاد السهم إلى النَّزَعة[١] . ورجع الحق إلى نِصابه[٢] ، فى أهل بيت نبيكم ، أهلِ الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .

أيها الناس : إنا والله ماخرجنا فى طلب هذا الأمر لنُكثِرَ لُجَيْنا . ولا عِقْيانا[٣] ، ولا نَحفِرَ نهراً ، ولا نَبنى قصراً ، وإنما أخرجَنا الأنفة من ابتزازهم حقَّنا ، والغضبُ لبنى عمنا ، وما كَرَثَنا[٤] من أموركم ، وبَهَظَنا من شئونكم . ولقد كانت أموركم تُرْمِضنا[٥] ونحن على فُرُشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، وخُرْقهم بكم . واستذلالهم لكم ، واستئثارُهم بفيئكم وصدقاتكم ومَغانِمكم عليكم . لكم ذمةُ الله تبارك وتعالى وذمةُ رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونَسِير فى العامَّة منكم والخاصَّة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تَبًّا تَبًّا لبنى حرب بن أمية وبنى مروان ، آثَرُوا فى مدتهم وعَصرهم العاجلةَ على الآجلةِ ، والدارَ الفانية على الدار الباقية . فركِبوا الآثام ، وظلموا الأَنام ، وانتهكوا المَحَارم ، وغَشُوا الجرائم ، وجاروا فى سيرتهم فى العباد ، وسُنَّتهم فى البلاد ، التى بها استلذوا تَسَرْبُل الأوزار ، وتَجَلْبُب الآصار[٦] ، ومرَحوا فى أعِنَّة المعاصى ، ورَكَضوا فى ميادين الغَىّ ، جهلا باستدراج الله ، وأمْناً لمكر الله ، فأتاهم بأسُ الله بَياتاً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديثَ ، ومُزِّقوا كل مُمَزَّق ، فبُعداً للقوم الظالمين ، وأدالنا[٧] الله من مَرْوان ، وقد غرَّه بالله الغَرُور ، أُرسِل لعدو الله فى عِنانه ، حتى عَثَرَ فى فَضْل خِطامه ، فظن عدو الله أن لن نَقْدِر عليهِ ، فنادى حِزبه ، وجمع مكايده ، ورمى بكتائبه ، فوجد أمامهُ ووراءه ، وعن يمينهِ وشماله ، من مكر الله وبأسه

---

(١) جمع نازع : وهو الرامى يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم ، وصار الأمر إلى النزعة أى قام بإصلاحه أهل الأناة ، وعاد السهم إلى النزعة : رجع الحق إلى أهله . (٢) أصله . (٣) ذهباً .

(٤) كرثه الغم كضرب ونصر : اشتد عليه كأكرثه . (٥) أرمضه : أوجعه وأحرقه ، وأرمض الحر القوم : اشتد عليهم فآذاهم . (٦) جمع إصر كحمل وهو الذنب . (٧) نصرنا عليه .

ونِقمته ، ما أمات باطله ، ومَحَق ضلاله ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ، وردَّ إلينا حقنا وإرثنا .

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين ـ نصره الله نصراً عزيزاً ـ إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، أنه كَرِه[1] أن يَخلِط بكلام الجمعة غيرَه ، وإنما قطعهُ عن استتمام الكلام بعد أن اسْحَنْفَرَ[2] فيه شدةُ الوعْك ، وادعُوا الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروانَ عدوِّ الرحمن ، وخليفةِ الشيطان ، المتبع للسَّفَلة الذين أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، بإبدال الدين ، وانتهاكِ حريم المسلمين ، الشابَّ[3] المتكهِّلَ المتمهِّلَ ، المقتدى بسَلَفه الأبرار الأخيار ، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ، ومناهج التقوى » ـ فعجَّ الناس له بالدعاء ـ ثم قال :

« يأهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعَتنا أهلَ خُراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج[4] بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وَأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوَّفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيَّض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشأم ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، ومَنَّ عليكم بإمام مَنحهُ العدالةَ ، وأعطاه حسن الإيالة[5] ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ، ولا تخدَعوا عن أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصراً ، وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ماصَعِد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ـ وأشار بيده إلى أبى العباس ـ فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا ، حتى نسلمهُ إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٢٦ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢١٣)

---

(١) أى لأنه كره . (٢) اسحنفر الخطيب : اتسع فى كلامه . (٣) كانت سنه حين ولى الخلافة ٢٨ سنة إذ ولد سنة ١٠٤ هـ . (٤) نصر . (٥) آل الملك رعيته إيالا : ساسهم ، وآل على القوم إيالا وإيالة : ولى .

٣ — خطبة داود بن علىّ وقد أرتج على السفاح

وروى أنه لمّا قام أبو العباس فى أول خلافته على المنبر، قام بوجه كورقة المصحف فاستحيا فلم يتكلم، فنهض داود بن علىّ حتى صعد المنبر، فقال المنصور: فقلت فى نفسى: شيخُنا وكبيرنا ويدعو إلى نفسه، فلا يختلف عليه اثنان، فانتضَيْت سيفى، وغطيته بثوبى[1]، وقلت: إن فعل ناجزْتُه، فلما رقِىَ عَتَبا استقبل الناس بوجهه دون أبى العباس، ثم قال: «أيها الناس، إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قولُه فعلَه، وَلَأَثَرُ الفِعال أجْدَى عليكم من تشقيق[2] المقال، وحَسْبُكم بكتاب الله مُمْتَثَلاً[3] فيكم، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفةً عليكم، واللهِ ـ قسما بَرّا لا أريد به إلا اللهَ ـ ما قام هذا المقامَ أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحقُّ به من علىّ بن أبى طالب، وأمير المؤمنين هذا، فلْيَظُنَّ ظانُّكم، ولْيَهْمِسْ هامِسُكم» قال أبو جعفر: ثم نزل، وشِمْتُ[4] سيفى.

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢١٣ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

٤ — خطبة أخرى له

وروى السيد المرتضى فى أماليه قال:

أراد أبو العباس السفاح يوما أن يتكلم بأمر من الأمور بعد ما أفضت الخلافة إليه — وكان فيه حياء مُفْرِط — فأُرْتِجَ عليه، فقال داود بن علىّ بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس، إن أمير المؤمنين الذى قلّده الله سياسة رعيته، عُقِل من لسانه،

---

(١) فى عيون الأخبار: «وغطيت ثوبى» وهو تحريف. (٢) شقق الكلام: أخرجه أحسن مخرج. (٣) امتثل طريقته: تبعها فلم يعدها. (٤) شام سيفه يشيمه: غمده (وامتله أيضا: ضد).

عند ما يُفهَد من بَيانه ، ولكل مرتقٍ بُهرٌ[1] ، حتى تنفسّه العاداتُ ، فأبشِرُوا بنعمةِ الله فى صلاح دينكم ، ورَغَد عيشِكم » . (أمالى السيد المرتضى ٤ : ١٩)

٥ — خطبة أخرى للسفاح بالكوفة

وخطب السفاح فى الجمعة الثانية بالكوفة ، فقال :

« يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » والله لا أعِدكم شيئاً إلا وفيت بالوعد والوعيد ، ولأعمِلَن اللين حتى لاتنفع إلا الشدة ، ولأغمِدنَّ السيف إلا فى إقامة حد ، أو بلوغ حق ، ولأعطينَّكم حتى أرى العطيةَ ضَياعاً ، إن أهل بيت اللعنة والشجرةِ[2] الملعونةِ فى القرآن ، كانوا لكم أعداء ، لا يرجِعون معكم من حالة إلا إلى ماهو أشدُّ منها، وَلا يَلِى عليكم منهم وَالٍ إلا تمنَّيَ مَن كان قبله ، وإن كان لاخيرَ فى جميعهم ، مَنَعوكم الصلاة فى أوقاتها ، وطالبوكم بأدائها فى غير وقتها ، وَأخذوا المُقْبِلَ بالمُدْبِر[3] ، والجار بالجار ، وسلَّطوا شِرارِكم على خيارِكم ، فقد مَحَق الله جَورهم ، وأزهق باطلَهم ، بأهل بيت نبيِّكم ، فما نؤخِّر لكم عَطاء ، ولا نضيع لأحد منكم حقا ، ولا نُجمِّرُكم فى بَعث ، وَلا نخاطِر بكم فى قتال ، ولا نَبذُلكم دون أنفسنا ، وَاللهُ عَلَى مَانقُولُ وَكِيلٌ بالوفاء والاجتهاد ، وعليكم بالسمع وَالطاعة » ثم نزل . (شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢١٣)

٦ — خطبة السفاح بالشام حين قتل مروان

ولما قُتل مروان بن محمد — آخر خلفاء بنى أمية — خطب السفاح ، فقال :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا ، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ، جَهَنَّمَ

---

(١) البهر : انقطاع النفس من الإعياء . (٢) هى شجرة الزقوم التى تنبت فى أصل الجحيم ، جعلها الله فتنة للمشركين إذ قالوا : إن النار تحرق الشجر فكيف تنبته .

(٣) انظر قول زياد بن أبيه فى خطبته البتراء الجزء الثانى ص ٢٧٢ .

يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ » تَـكَعَّص بكم يأهل الشأم آلُ حرب وآل مروان، يتسكَّعون[١] بكم الظُّلَم، ويتهوَّرون بكم مَدَاحِضَ[٢] الزَّلَق، يطئون بكم حَرَم الله[٣] وَحَرَم رسوله[٤]، ماذا يقول زعماؤكم غداً؟ يقولون: « رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ » إذن يقول الله عز وجل: « لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ » أما أمير المؤمنين فقد ائتنفَ[٥] بكم التوبة، واغتفر لكم الزَّلة، وبَسط لكم الإقالة[٦]، وعاد بفضله على نقصكم، وبحلمه على جهلكم، فليُفْرِخْ رُوعُكم[٧]، ولتطمئن به داركم، وليُقطع مَصَارِعُ أوائلكم، « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ». (العقد الفريد ٢ : ١٤٥)

٧ — خطبة عيسى بن علىّ حين قتل مروان

وخطب عيسى بن علىّ — عم السفاح — لما قتل مروان، فقال:

« الحمد لله الذى لا يفوته مَن طَلَب، ولا يُعجزه من هرَب، خَدَعَتْ وَالله الأشقرَ نفسُه، إذ ظن أن الله مُمْهِله، وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، فحتى متى، وإلى متى؟ أمَا والله لقد كَرِهَتْهم العِيدان[٨] التى افترعوها، وأمسكت السماء دَرَّها[٩]، وَالأرضُ رَيْعَها[١٠]، وقَحَل الضَّرْع[١١]، وجفز الفَنِيق[١٢]، وَأَسْمَل[١٣]

---

(١) تسكع: مشى مشيا متعسفا. (٢) جمع مدحضة: وهى المزلة. (٣) يشير إلى ما كان من مقاتلة الحجاج عبد الله بن الزبير بمكة، ورميه الكعبة بالمنجنيق فى عهد عبد الملك بن مروان.

(٤) يشير إلى وقعة الحرة وما أحدثه جيش مسلم بن عقبة المرى بالمدينة على عهد يزيد بن معاوية.

(٥) استأنف وابتدأ. (٦) أقال عثرته: رفعه من سقوطه. (٧) الروع: بالضم القلب، أو موضع الفزع منه والروع بالفتح: الفزع. وأفرخت البيضة: خرج الفرخ منها، أى ليخرج الروع من روعكم ولتهدءوا وتطمئنوا.

(٨) أى أعواد المنابر، وافترعوها: أى علوها. (٩) مطرها. (١٠) الريع: النماء والزيادة. (١١) قحل: يبس جلده على عظمه. (١٢) الفنيق: الفحل المكرم لايؤذى لكرامته على أهله ولا يركب، والجفز: كشمس السرعة فى المشى، ولم تذكر كتب اللغة ضبط فعله، وجاء فى اللسان: « الجفز: سرعة المشى بِزِنَةٍ، حكاها ابن دريد، قال: ولا أدرى ما صحتها »، وفى رواية مواسم الأدب: « وجفل فنيق الشرك ». (١٣) أسمل الثوب وسمل، كنصر وكرم: أخلق.

جلبابُ الدين، وأبطلتِ المحدود، وأهدرت الدماء، وكان ربك بالمِرْصاد، فَدَمْدَمَ[١] عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا، وملّكنا الله أمركم عبادَ الله، لينظر كيف تعملون، فالشكر الشكر، فإنه من دواعي المزيد، أعاذنا الله وإياكم من مُضِلَّات الأهواء، وبَغَتات الفِتَن، فإنما نحن به وله ».

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٥)

٨ — خطبة داود بن عليّ بمكة[٢]

وخطب داود بن عليّ الناس بمكة فى أول موسم مَلَكه بنو العباس، فقال:

« شكراً شكراً، إنا والله ما خرجنا لنَحْفِر فيكم نهراً، ولا لنبني فيكم قصراً، أظَنَّ عدوُّ الله أن لن نقدِر عليه، أنْ رُوخِي[٣] له من خِطامه، حتى عثَر فى فضل زمامه؟ فالآن حيث أخذ القوسَ باريها، وعادت النَّبْل إلى النَّزَعة، ورَجع الملك فى نِصابه من أهل بيت النبوّة والرحمة — والله لقد كنا نتوجَّع لكم ونحن فى فُرُشنا — أمِنَ الأسود والأحمر[٤]، لكم ذمةُ الله، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكم ذمة العباس. لا وربِّ هذه البنِيَّة — وأومأ بيده إلى الكعبة — لا نَهِيج منكم أحداً ».

(تهذيب الكامل ١ : ١٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٠ ، وابن أبي الحديد ٢ : ٢١٣ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

---

(١) دمدم القوم، ودمدم عليهم: طحنهم فأهلكهم، فسواها: أى الدمدمة، أى عمهم بها فلم يفلت منهم أحد. (٢) ولاه أبو العباس الكوفة وسوادها، ثم ولاه المدينة ومكة واليمن واليمامة سنة ١٣٢ وولاه إمارة الحاج فى هذه السنة، ومات بالمدينة فى ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ (الطبرى ج ٩ ص ١٤٧) (٣) أى لأن روخى له، ظن أن لن نقدر عليه.

(٤) الحمراء: العجم لأن الغالب على ألوانهم البياض والحمرة.

٩ — خطبته بالمدينة

قال : « أيها الناس : حَتَّامَ يَهتِفُ بكم صَرِيخُكم[1] ؟ أما آنَ لِراقدكم أن يهُبَّ من نومه ؟ كَلَّا بَلْ رَانَ[2] عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، أغرَّكم الإمهالُ حتى حسِبتموه الإهمالَ ؟ هيهات منكم وكيف بكم ، والسوطُ كفِّى ، والسيف مُشَهَّر[3] !

حتى يُبِيدَ قبيلةً فقبيلةً ... وَيَعَضَّ كلُّ مُثَقَّفٍ بالهَامِ[4]

ويُقِمْنَ رَبَّاتِ الخُدُور حَوَاسِرًا ... يَمسحْنَ عُرضَ ذوائبِ الأيتامِ[5]

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

١٠ — خطبة أخرى له[6]

وخطب فقال: « أحرز لسان رأسَه، اتعظ امرؤ بغيره ، اعتبَر عاقل قبل أن يعتبَر به ، فأمسَكَ الفضلَ من قوله ، وقدَّم الفضلَ من عمله » ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال : « إن بكم داءً هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، وما بعد الوعيد إلا الإيقاع » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٢ ، وسوامر الأدب ٢ : ١١٤)

---

(١) الصريخ : المستغيث (والمغيث أيضا) (٢) غلب. (٣) شهر سيفه كمنع ، وشهره بالتشديد : انتضاه فرفعه على الناس . (٤) تثقيف الرماح : تسويتها . (٥) قوله ويقمن : أى الرماح ، والضمير يعود على (كل مثقف) . حواسر : جمع حاسر وهى كل مكشوفة الرأس والذراعين.

(٦) هذه الخطبة أوردها ابن قتيبة ، وعزاها إلى داود بن على ، ونسبها صاحب العقد إلى المنصور ، وأنه قالها لما قتل الأمويين (راجع العقد ج ٧ : ص ١٤٥) .

ونصها كما أوردها : « أحرزَ لسان رأسَه، انتبه امرؤ لحظِّه ، نظر امرؤ فى يومه لغَده ، فشى القَصْدَ ، وقال الفَصْلَ ، وجانبَ الهُجْر » ، ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال :

« أيها الناس : إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتبر عبد قبل أن يُعتَبَر به ، فإنما بعد الوعيد الانقطاع ، و « إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ » .

والهجر : القبيح من الكلام .

١١ — خطبته وقد بلغه أن قوما أظهروا شكاة بنى العباس

وبلغه أن قوماً أظهروا شَكاةَ بنى العباس ، فافترع المِنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أغَدْراً يأهل الخَتْر[١] والتبديل ؟ ألم يَرْدَعْكم الفتحُ المبين[٢] ، عن الخوض فى ذمّ أمير المؤمنين ؟ كلا والله حتى تحملوا أوزاركم وأوزار الذين كانوا من قبلكم ، كيف قامت شِفاهكم بالشكوى لأمير المؤمنين ؟ بعد أن حانت آجالُكم فأرجأها ، وانبعث دماؤكم فحقنها ، الآن يامَنابِتَ الدِّمَنِ ، مشيتم الضَّرَاء[٣] ، ودَبَبتم الخَمَرَ[٤] ، أما ومحمدٍ والعباسِ إن عُدتم لمثل ما بدأتم ، لأَحْصُدَنّكم بظُبَاتِ السيوف ، ثم يُغنِى ربُّنا عنكم ، ونستبدل غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم .

مهلا يارَوايا[٥] الإرجاف ، وأبناء النفاق ، عن الخوض فيما كُفيتم ، والتخطى إلى ما حُذِّرتم ، قبل أن تتلف نفوس ، ويقلَّ عَدَد ، ويذلَّ عِز ، وما أنتم وتلك ؟ ألم تجدوا ما وعد ربكم حقاً من إيراث المستضعَفين مشارقَ الأرض ومغاربَها ؟ بَلَى والحِجْرِ والحِجرِ[٦] ، ولكنهُ حسدٌ مُضمَر ، وحَسَكٌ[٧] فى الصدور ، فرَغْماً للمَعَاطِس[٨] ، وبُعْداً للقوم الظالمين[٩] » . (مواسم الأدب ٢ : ١١٤)

---

(١) الختر : الغدر ، أو أقبحه . (٢) فى الأصل « ألم يرعكم الفتح المبين عن الخوض فى ذم أمير المؤمنين » وهو تحريف . (٣) الضراء : الشجر الملتف فى الوادى ، يقال : توارى الصيد منه فى ضراء ، وفلان يمشى الضراء : إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر . (٤) فى الأصل « ودبيتم الحمراء » وهو تحريف ، وصوابه ما ذكرنا ، والخمر بالتحريك : كل ما واراك من شجر أوبناء أو غيره ، وخمر كفرح : توارى ، ومن أمثالهم : « يدب له الضراء ، ويمشى له الخمر » وهو مثل يضرب للرجل يختل صاحبه . (٥) الروايا جمع راوية : وهى المزادة فيها الماء . (٦) الحجر : حجر الكعبة ، وهو ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال . (٧) الحسك : الحقد والعداوة .

(٨) المعاطس جمع معطس كمجلس ومقعد وهو الأنف ، والرغم : الذل . (٩) وروى صاحب العقد

١٢ — خطبته وقد أرتج عليه

وخطب داود بن عليّ ، فحمد الله جل وعز ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قال : أما بعدُ ، امتنع عليه الكلام ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد يَجِدُ المُعْسِر ، ويَعْسِرُ المُوسِر ، ويُفَلُّ الحديد ، ويَقْطع الكَليل ، وإنما الكلام بعد الإفحام ، كالإشراق بعد الإظلام ، وقد يعزُب البيان ، ويُعْقَم الصواب ، وإنما اللسان ، مُضْغة من الإنسان ، يَفْتر بفُتُوره إذا نَكَل ، ويثوبُ بانبساطه إذا ارتجَل ؛ ألَا وإننا لاننطِق بَطَرًا ، ولا نسكُت حَصَرًا ، بل نسكت مُعتبرين ، وننطق مُرْشِدين ، ونحن بَعْدُ أمراء القول ، فينا وَشَجَت[1] أعراقُه ، وعلينا عطَفَتْ أغصانُه ، ولنا تَهَدَّلَتْ ثمرتُه ، فنتخيَّر منه ما احْلَوْلَى وعَذُب ، ونطَّرِح منه ما امْلَوْلَحَ وخَبُث ، ومن بعد مَقامِنا هذا مَقامٌ ، وبعد أيامنا أيام ، يُعرف فيها فضلُ البيان ، وفَصْلُ الخطاب والله أفضلُ مُسْتَعان » ثم نزل[2] .

(كتاب الصناعتين ص ٢١ ، وأمالى السيد المرتضى ٤ : ١٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٥)

بعض هذه الخطبة وعزاها إلى أبي جعفر المنصور ، فقال : « خطب المنصور حين خروجه إلى الشأم فقال :

شِنْشِنَةٌ أعْرِفها من أخْزَم   مَنْ يَلْقَ أبْطَالَ الرِّجال يُكْلَمِ

مهلا مهلا روايا الإرجاف ، وكهوف النفاق . . . إلى آخر الخطبة » ، راجع العقد الفريد ٢ : ١٤٥ — والشنشنة : الطبيعة والعادة ، وهو مثل لأبي أخزم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم ، وكان عاقا ، فمات وترك بنين ، فوثبوا يوما على جدهم أبي أخزم فأدموه فقال :

إن بني ضرجوني بالدم   شنشنة أعرفها من أخزم

أي إن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق : يضرب في قرب الشبه ، ويكلم : يجرح .

(١) وشجت العروق والأغصان كوعد وشجا ووشيجا : اشتبكت ، والواشجة : الرحم المشتبكة .

(٢) وروى الحصري في زهر الآداب بعض هذا القول وعزاه إلى عبد الله بن صالح ، وروى السيد المرتضى في أماليه قال :

« صعد أبو العباس السفاح المنبر ، فأُرْتج عليه فقال : « أيها الناسُ ، إن اللسان ، بضعة

١٣ — خطبة صالح بن على

وخطب صالح بن على[1] عم السفاح ، فقال :

يا أعضادَ النفاق ، وعُبُد الضلالة ، أغرَّكم لِين أساسى ، وطولُ إينامى ؟ حتى ظن جاهِلُكم أن ذلك لفُلُولِ حَدّ ، وفتور جِدّ ، وخَوَر[2] قناةٍ ، كذَبتِ الظنونُ ، إنها العِترة بعضها من بعض ، فإذ قد استوليتم العافية ، فعندى فِطام وفِكاك ، وسيف يَقُدُّ الهَامَ ، وإنى أقول :

أغرَّكمُ أنى بأكرمِ شيمةٍ رفيقٌ ، وأنّى بالفواحِشِ أخْرقُ ؟
ومِثْلِى إذا لم يُجْزَ أحسنَ سَعيِه تَكلَّمَ نُعماه بِفِيها فتنطِقُ
لَعَمْرِى لقد فاحشْتَنى فغلبتَنى هنيئا مريئا أنتَ بالفُحشِ أرفقُ

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

١٤ — خطبة سديف بن ميمون

وروى صاحب العقد قال :

لما قَدِم الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك على أبى العباس السَّفَّاح فى ثمانين رجلا من

من الإنسان ، يكِلُّ إذا كَلَّ ، وينفسِح بانفساحه إذا فَسح ، ونحن أمراء الكلام ، منا تفرعت فروعه ، وعلينا تهدلت غصونه ، ألا وإنا لانتكلم هَذرا ، ولا نسكت إلا معتبرين » ثم نزل ، فبلغ ذلك أبا جعفر ، فقال : « لله هو لو خطب بمثل ما اعتذر ، لكان من أخطب الناس » ، وهذا الكلام يروى لداود بن على اهـ .

والبضعة بفتح الباء وقد تكسر : القطعة من اللحم ، والهذر بالتحريك : سقط الكلام وبسكون الذال مصدر هذر فى منطقه كضرب ونصر .

(١) هو صالح بن على بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وقد ولاه السفاح مصر سنة ١٣٢ ثم فلسطين ، ثم ولاه مصر ثانية سنة ١٣٦ ، حتى قدم الخبر بموت السفاح فى ذى الحجة سنة ١٣٦ ، فأقره المنصور على مصر ثم خرج إلى فلسطين ، ومات وهو عامل حمص بقنسرين .

(٢) ضعف .

بنى أمية ، وُضعت لهم الكراسىّ ، ووضعت لهم نَمارق[١] ، وأُجلسوا عليها ، وأجلس الغمرَ مع نفسه فى المصلّى ، ثم أذِن لشيعته فدخلوا ودخل فيهم سُدَيْف بن ميْمُون[٢] ، وكان متوشّحاً سَيْفاً ، متنكِّباً قوساً ، وكان طويلا آدمَ[٣] ، فقام خطيباً .

فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيزعم الضُّلّال بما حَبِطَت[٤] أعمالهم أنَّ غيرَ آلِ محمد أولى بالخلافة ؟ فلِمَ وبِمَ أيها الناس ؟ لكم الفضلُ بالصَّحابة ، دون حقِّ ذوى القرابة ، الشركاءِ فى النسب ، الأكْفاءِ فى الحسَب ، الخاصَّةِ فى الحياة ، الوُفاةِ[٥] عند الوَفاة ، مع ضَرْبِهم على الدين جاهلَكم ، وإطعامِهم فى الأُولى جائعَكم ، فكم قَصم الله بهم من جبّار باغٍ ، وفاسق ظالم ، لم يُسْمَع بمِثْل العباس ، لم تخضع له أمة بواجب حق ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وجِلدة مابين عينيه[٦] ، أمينُه ليلةَ العَقَبة[٧] ورسولُه إلى أهل مكة ، وحاميه يوم حُنَين[٨] ، لا يَرُدُّ له رأياً ، ولا يخالِف له قَسَماً ، إنكم والله معاشرَ قريش ما اخترتم لأنفسكم من حَيثُ ما اختاره الله لكم ، تَيْمِىٌّ[٩] مرَّةً ، وعَدَوِىٌّ[١٠] مرة ، وكنتم بين ظَهْرَانَىْ قوم قد آثَروا العاجلَ على الآجل ، والفانِىَ على الباقى ، وجعلوا الصدقات فى الشهوات ، والفَىْءَ فى اللذات والغناء ، والمغانِمَ ،

---

(١) نمارق جمع نمرقة كقنفذة : وهى الوسادة الصغيرة . (٢) مولى أبى العباس السفاح .
(٣) وصف من الأدمة ، وهى كالسمرة وزنا ومعنى . (٤) فسدت . (٥) الوفاة جمع واف . (٦) خطب الوليد بن عبد الملك فقال : « إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : « إنه الحجاج جلدة ما بين عينى » ألا وإنه جلدة وجهى كله » — البيان والتبيين ١ : ١٦٠ و ٣ : ٢١ — .
(٧) يوم مبايعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا معهم امرأتان وليس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عمه العباس — وهو على دين قومه — ولكنه رأى أن يحضر أمر ابن أخيه ليتوثق له . (٨) كان العباس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة حنين ، حين انهزم المسلمون أول الموقعة ، وكان آخذاً بلجام بغلته . (٩) يريد أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى . (١٠) يريد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو من عدى بن كعب بن لؤى .

فى المحارم ، إذا ذُكِّرُوا بالله لم يَذْكروا ، وَإذا قدِّموا بالحق أدْبَرُوا ، فذلك زمانُهم، وبذلك كان يعملُ شيطانُهم[1] » . (العقد الفريد: ٢: ٢٠١)

١٥ — خطبة أبى مسلم الخراسانى

وروى ابن أبى الحديد قال :

وخطب أبو مسلم بالمدينة فى السنة التى حج فيها فى خلافة السفاح[2] ، فقال :

« الحمد لله الذى حَمِد نفسه، وَاختار الإسلام ديناً لعباده، ثم أوحى إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحَى ، وَاختاره من خَلقه ، نفسُه من أنفسهم ، وَبيتُه من بيوتهم ، ثم أنزل عليه فى كتابه الناطق الذى حفِظهُ بعلمه ، وَأشهَدَ ملائكتَه على حقِّه ، قولَه: « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » ، ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآله فى أهل بيته ، فصبَرَ مَن صبر منهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على اللَّأْواء[3] والشدة ، وَأغضَى على الاستبداد والأَثَرة ، ثم إن قوماً من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله ، جاهدوا على مِلَّة نبيِّه وسُنَّته بعد عصر من الزمان ، مَن عمِلَ بطاعة الشيطان ، وعداوة الرحمن ، بين ظَهرانَىْ قومٍ آثروا العاجِلَ على الآجل، والفانِىَ على الباقى، إن رَتقَ جَوْر فتقوه، أو فُتِقَ حق رَتَقوه، أهل خُمور ومَاخُور ، وطَنَابير[4] ومَزَامير ، إن ذُكِّروا لم يَذْكروا ، أو قُدِّمُوا إلى الحق أدْبَروا وجعلوا الصدقاتِ ، فى الشُّبُهات ، والمغانمَ فى المحارم ، والفَىْء فى الغَىِّ ، هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلطانُهم ، وزعمو أن غير آل محمد أولى بالأمر منهم ، فلِمَ وَبِمَ أيها الناس؟ ألكم الفضل بالصَّحابة ، دون ذوى القرابة ، الشركاء

---

(١) فقر هذه الخطبة مروية فى خطبة أبى مسلم الخراسانى الآتية بعدها ، ولكنى آثرت إيراد الروايتين جميعاً كما وردتا . (٢) وذلك فى سنة ١٣٦ هـ . (٣) الشدة .

(٤) الطنابير : جمع طنبور كعصفور ، وهو الذى يلعب به .

فى النسب ، وَالوَرَثة فى السَّلَب[1] ، مع ضربهم على الدين جاهلَكم ، وإطعامِهم فى الجَدْب جائعَكم ، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قطُّ ، وَما زلتم بعد نبيه تختارون تَيميًّا مرة ، وَعَدَويًّا مرة ، وأمَوِيًّا مرة ، وأسَدِيًّا[2] مرة ، وسُفيانيًّا مرة ، ومَرْوانيًّا مرة ، حتى جاءكم من لاتعرفون اسمه ولا بيته[3] يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عَنوةً ، وأنتم صاغِرون ؛ ألا إن آل محمد أئمّة الهدى ، ومَنارُ سبيلِ التقى ، القادة الذَّادة السَّادة ، بنو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَمَنْزَلِ جبريل بالتنزيل ، كم قصم الله

---

(١) ما يسلب ، والمراد ورثته فى الخلافة . (٢) هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد ابن أسد . (٣) قال ابن أبى الحديد : « يعنى نفسه لأنه لم يكن معلوم النسب ، وقد اختلف فيه أهو مولى أم عربى » وقال ابن خلكان فى (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٠) فى ترجمته : « وأبو مسلم عبد الرحمن ابن مسلم وقيل عثمان الخراسانى القائم بالدعوة العباسية ، وقيل هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس بن جودرن من ولد بزرجمهر بن البختكان الفارسى ، وقد اختلف الناس فى نسبه ، فقيل إنه من العرب ، وقيل إنه من العجم ، وقيل من الأكراد ، وفى ذلك يقول أبو دلامة :

أبا مجرم ما غير الله نعمة   على عبده حتى يغيرها العبد
أفى دولة المنصور حاولت غدرة   ألا إن أهل الغدر آباؤك الكرد

وقال ابن طباطبا فى الفخرى ص ١٢٣ : « وأما نسبه ففيه اختلاف كثير ، فقيل : هو حر من ولد بزرجمهر ، وأنه ولد بأصفهان ، ونشأ بالكوفة ، فاتصل بإبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس فغير اسمه وكناه بأبى مسلم ، وثقفه وفقهه ، حتى كان منه ما كان .

وقيل هو عبد تنقل فى الرق ، حتى وصل إلى إبرهيم الإمام ، فلما رآه أعجبه سمته وعقله ، فابتاعه من مولاه وثقفه وفهمه ، وصار يرسله إلى شيعته وأصحاب دعوته بخراسان ، وما زال على ذلك حتى كان من الأمر ما كان .

وأما هو فإنه لما قويت شوكته ادعى أنه ابن سليط بن عبد الله بن عباس ، وكان لعبد الله بن عباس جارية فوقع عليها مرة ، ثم اعتزلها مدة فاستنكحها عبدا فوطئها ، فولدت منه غلاما سمته سليطا ، ثم ألصقته بعبد الله بن عباس ، وأنكره عبد الله ولم يعترف به ، ونشأ سليط ، وهو أكره الخلق إلى عبد الله بن عباس ، فلما مات عبد الله نازع سليط ورثته فى ميراثه ، وأعجب ذلك بنى أمية ليغضوا من على بن عبد الله ابن عباس ، فأعانوه وأوصوا قاضى دمشق فى الباطن ، فمال إليه فى الحكم وحكم له بالميراث ، فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط هذا » .

وذكر ابن خلكان أن المنصور قال له قبل قتله ، وقد عدد له مساوئ وقعت عنه : « تزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس! لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعبا ! » .

بهم من جبَّار طاغٍ ، وفاسق باغٍ ، شَيَّد الله بهم الهدى ، وَجَلَّى بهم العَمَى ، لم يُسمع بمثل العباس ، وكيف لاتخضع له الأمم لِواجب حقِّ الحرمة ؟ أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وَجِلْدَة بين عينيه ، أَمِينه يوم العَقَبة ، وَناصِرُه بمكة[1] ، ورسوله إلى أهلها ، وَحامِيه يوم حُنَين ، عند ملتقَى الفِئَتين ، لايخالف له رسما ، ولا يَعْصِى له حكما ، الشافع يوم نِيقِ العُقَاب[2] ، إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فى الأحزاب ، ها إن فى هذا أيها الناس لَعِبْرَةً لِأُولى الأبصار » .

(شرح ابن أبى الحديد م : ٢ : ٢١٥)

١٦ — خالد بن صفوان وأخوال السفاح

روى الجاحظ قال :

كان خالد بن صَفْوان الأَهْتَمِىّ من سُمَّار أبى العباس السَّفَّاح ، وأهل المنزلة عنده ، ففخَرَ عليه ناس من بَلْحارِث[3] ، وأكثروا فى القول ، فقال أبو العباس : لِمَ لاتتكلم ياخالد ؟ فقال : « أَخْوَال[4] أمير المؤمنين وَعَصَبَته » قال : « فأنتم أعمام أمير المؤمنين وَعَصَبَته » قال خالد : وما عسى أن أقول لقوم ، كانوا بين ناسج بُرْد ، ودابغ جِلْد ،

---

(١) يشير إلى ما كان من العباس فى غزوة أحد ، وذلك أن جيش المشركين خرج من مكة لمحاربة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا مقابل المدينة ، وبلغ الخبر الرسول من كتاب بعث به إليه عمه العباس الذى لم يخرج معهم فى هذه الحرب محتجا بما أصابه يوم بدر ، وكان بمكة يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار المشركين (وقيل إنه كان قد أسلم قبل الهجرة ، وكان يكتم إسلامه) .

(٢) موضع بين مكة والمدينة . وذلك أن العباس شفع فيه يوم فتح مكة فى أبى سفيان ، وفى أهل مكة فعفا النبى صلى الله عليه وسلم عنهم .

(٣) انظر الجزء الثانى ٢٣٥ . (٤) كانت أم السفاح من بنى الحارث ، وهى ريطة بنت عبيد الله ابن عبد الله بن عبد المدان بن الديان الحارثى ، ولذا كان يقال له ابن الحارثية .

وسائس قِرْد ، وراكب عَرْد[١] ، دَلَّ عليهم هُدْهُد[٢] ، وغرَّقتهم فأرة[٣] ، وملكتهم امرأة[٤] ؟ » .

(البيان والتبيين ١ : ١٨٤)

* * *

وروى الحصْرىّ فى زهر الآداب قال :

« دخل خالد بن صَفوان على أبى العباس السفاح ، وعنده أخواله من بنى الحارث ابن كعب ، فقال : ما تقول فى أخوالى ؟ فقال : « هم هَامَة[٥] الشرف ، وعِرْنِين[٦] الكرم ، وغَرْس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت فى غيرهم من قومهم ، لأنهم أطولهم لِمَماً[٧] ، وأكرم شِيَماً ، وأطيبهم طُعَماً[٨] ، وأوفاهم ذِمَماً ، وأبعدهم هِمَماً ، الجمرة فى الحرب ، والرِّفْد[٩] فى الجدْب ، والرأس فى كل خَطْب ، وغيرهم بمنزلة العَجْب[١٠] » .

فقال : وصفتَ أبا صفوان فأحسنتَ ، فزاد أخواله فى الفخر ، فغضب أبو العباس

---

(١) العرد : الحمار .

(٢) يشير إلى حديث الهدهد مع سليمان عليه السلام فى قوله تعالى : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . . . الآيات » .

(٣) يشير إلى ما يزعمه المؤرخون من أن سيل العرم الذى خرب اليمن كان سببه قرض الجرذ لسد مأرب انظر الجزء الأول ص ١٠٥ .

(٤) هى بلقيس (بالكسر) ملكة سبأ .

(٥) الهامة : رأس كل شىء .

(٦) العرنين : الأنف ، أو ما صلب من عظمه ، ومن كل شىء أوله .

(٧) فى الأصل « أمما » وأراه محرفا، وصوابه « لمما » واللمم جمع لمة بالكسر ، وهى الشعر المجاوز شحمة الأذن .

(٨) الطعم : الطعام .

(٩) الرفد : العطاء والصلة.

(١٠) العجب : أصل الذنب ، ومؤخر كل شىء .

لأعمامه ، فقال : افخَر ياخالد على أخوال أمير المؤمنين ، قال : وأنت من أعمامه ، قال :

« كيف أفاخر قوماً بين ناسج بُرْد ، وسائس قِرد ، ودابغ جِلد ، وراكب عَرْد ، دلَّ عليهم هُدهد ، وغرَّقهم جُرَذ ، وملكتهم امرأة ؟ » ، فأشرق وجه أبي العباس .

(زهر الآداب ٣ : ١٣٠ ، ٣٤٦)

١٧ — خالد بن صفوان ورجل من بنى عبد الدار

وفاخر خالد بن صَفْوان رجلا من بنى عبد الدّار الذين يسكنون اليمامة ، فقال له العَبْدَرِىّ : مَن أنت ؟ قال : أنا خالد بن صَفْوان بن الأهتَم ، فقال له العبدرى : أنت خالد « كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ[1] » وأنت ابن صفوان ، وقال الله تعالى : « كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ[2] » ، وأنت ابن الأهتم ، والصحيح خير من الأهتم[3] ، فقال له خالد ابن صفوان: يا أخا بنى عبد الدار ، أتتكلم ؟ وقد هَشَمَتك هاشم ، وأمَّتك[4] بنو أمية ، وخَزَمتك بنو مخزوم ، وجَمَحتك بنو جُمَح[5] ؟ فأنت عَبْد دارهم[6] تفتح إذا دخلوا ، وتُغلق إذا خرجوا » فقام العبدرى مَحموماً .

(أمالى السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٢)

---

(١) وتمام الآية الكريمة : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » .

(٢) صفوان جمع صفوانة: وهى الحجر الصلد الضخم كالصفواء والصفاة، والآية الكريمة: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ، فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .

(٣) هتم كفرح : انكسرت ثناياه من أصولها فهو أهتم . (٤) قادتك (٥) انظر الجزء الثانى ص ٩٨ . (٦) وكانت الحجابة فى بنى عبد الدار ، انظر الجزء الثانى ص ٩٨ أيضا.

١٨ — خالد بن صفوان يرثى صديقا له

وقال الجاحظ : قيل لرجل ـ أراه خالد بن صفوان[1] ـ مات صديق لك ، فقال :

« رحمة الله عليه ، لقد كان يملأ العينَ جمالا ، والأذُنَ بياناً ، ولقد كان يُرْجَى فلا يُخْشَى ، ويُغْشَى فلا يَغْشَى ، ويُعْطِى فلا يُعْطَى ، قليلًا لَدَى الشرِّ حضورُه ، سليماً للصديق ضميرُه » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والأمالى ٢ : ١٧٤)

١٩ — خالد بن صفوان يمدح رجلا

وذكر خالد رجلا ، فقال :

« كان والله بديع المنطِق ، دَلِقَ[2] الجُرأة ، جَزْل الألفاظ ، عربىَّ اللسان ، ثابت العُقْدة ، رقيقَ الحواشى ، خفيفَ الشَّفَتين ، بَليلَ الريق ، رَحْب الشرف ، قليل الحركات ، خفِىَّ الإشارات ، حُلْو الشمائل ، حَسَن الطلاوة[3] ، حَيِيّا جَرِيئاً ، قَئُولا صَمُوتاً ، يفلّ الحزَّ[4] ويُصيب المفاصِلَ ، لم يكن بالمعذِّر[5] فى منطِقه ، ولا بالزَّمِن[6] فى مُرُوءته ، ولا بالخرِق[7] فى خليقته ، متبوعاً غير تابع ، كأنه عَلَم فى رأسه نار » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

٢٠ — كلمات بليغة لخالد بن صفوان

وقال خالد بن صفوان لبعض الوُلاة : « قَدِمتَ فأعطيتَ كُلًّا بقِسْطه من وَجْهك

---

(١) ورواية القالى : عن الأصمعى قال خالد بن صفوان لفتى بين يديه : رحم الله أباك . . . الخ .

(٢) مأخوذ من « سيف دلق » أى سهل الخروج من غمده ، ويقال : اندلق السيل أى اندفع ، واندلق السيف : أى شق جفنه فخرج منه . (٣) الطلاوة مثلثة : القبول . (٤) الحز : القطع .

(٥) عذر فى الأمر تعذيرا ، إذا قصر ولم يجتهد . (٦) أى المعيب ، والزمانة كسحابة : العاهة ، زمن كفرح فهو زمن وزمين . (٨) الخرق : الذى لا يحسن العمل والتصرف فى الأمور .

وكرامتك[1] ، حتى كأنك من كلّ أحد ، وحتى كأنك لست من أحد » .

(الأمالى ١ : ٢١٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٣٤٧ ، ١٦٧)

وقال شَبيب بن شَيْبة لخالد بن صفوان : « مَنْ أَحَبُّ إخوانك إليك ؟ » قال : « مَنْ سَدَّ خَلَلِى ، وغفر زَلَلى ، وقَبِلَ عِلَلى » . (الأمالى ١ : ١٩٨)

وَذُكر شبيب عنده مرة ، فقال: « ليس له صديق فى السر ، ولا عَدُوّ فى العلانية » .

قال الجاحظ : « وهذا كلام ليس يعرف قدره إلا الراسخون فى هذه الصناعة » .

(البيان والتبيين ١ : ١٨٤ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

وقال خالد : « ما الإنسانُ ، لولا اللسانُ ، إلا صورةٌ ممثَّلَة ، أو بهيمةٌ مُهْمَلة » ، وقال « أتقوا مَجَانيقَ[2] الضُّعفاء » يريد الدعاء . (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وذُكر المِزاح بحضرة خالد بن صفوان ، فقال : « يُنْشِق أحدكم أخاه مثل الخَرْدَل ، يُفْرِغ عليه مثل المِرْجل ، ويَرْميه بمثل الجَنْدَل ، ثم يقول : إنما كنت أَمْزَح ! » .

(زهر الآداب ٢ : ٥٢)

٢١ — عمارة بن حمزة والسفاح

وقال عُمَارة بن حمزة لأبى العباس السَّفاح — وقد أمَرَ له بجوائزَ نفيسة وَكُسْوة وصِلة ، وأدنَى مجلسه :

« وَصَلَكَ الله يا أمير المؤمنين وبرَّك ، فوالله لَئِن أردْنا شُكْرَكَ على كُنْهِ[3] صِلَتك ، إن الشكر لَيَقْصُر عن نعمتك ، كما قصُرنا عن منزلتك ، ثم إن الله تعالى جعل لك فضلا علينا ، بالتقصير منا ، ولم تَحرِمْنا الزيادةَ منك لنقْصِ[4] شكرنا » .

(زهر الآداب ٣ : ٢١٦)

---

(١) وفى رواية زهر الآداب : « من نظرك ومجلسك فى صوتك ومدك » .

(٢) جمع منجنيق بفتح الميم وكسرها : آلة ترمى بها الحجارة . (٣) كنه الشيء : حقيقته .

(٤) فى الأصل : « لبعض » وأراه محرفا .

خطب أبى جعفر المنصور (توفى سنة ١٥٨ هـ)

٢٢ — خطبته بمكة

خطب أبو جعفر المنصور بمكة ، فقال :

« أيها الناس : إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسُوسُكم بتوفيقه ، وتسديده وتأييده ، وحارسُه على ماله ، أعمَل فيه بمشيئته وإرادته ، وأُعطيه بإذنه ، فقد جعلنى الله عليه قُفلا ، إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم ، وَقَسْم أرزاقكم ، فإن شاء أن يُقفِلنى عليها أقفلنى ، فارغبوا إلى الله وسَلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعلمكم به إذ يقول : « اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً » أنْ يوفقنى للرّشاد والصواب ، وأن يُلهمنى الرأفة بكم وَالإحسانَ إليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٥١ ، تاريخ الطبرى ٩ : ٣١)

٢٣ — خطبته بمكة بعد بناء بغداد

وحج بعد بناء بَغداد فقام خطيباً بمكة، فكان مما حفظ من كلامه[١] : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ[٢] مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ، أمرٌ مُبْرَمٌ ، وَقَوْلٌ عَدْل ، وَقَضَاءٌ فَصْل ، وَالحمد لله الذى أفلج[٣] حُجَّته ، وَبُعْداً للقوم الظالمين ،

---

(١) عزا صاحب العقد هذه الخطبة إلى سليمان بن على (انظرج ٢ ص ١٤٥)، وكذا صاحب مواسم الأدب (انظرج ٢ : ص ١١٥) . (٢) قيل المراد بالزبور جنس الكتب المنزلة ، وبالذكر اللوح المحفوظ . (٣) نصر .

الذين اتخذوا الكعبة غَرَضاً ، وَالفَيْءَ إرثاً ، وَجَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ[1] ، لَقَدْ حاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، فكم ترى من بئر مُعَطَّلة[2] وَقَصْرٍ مَشِيد ، أمهلهم الله حتى بدَّلوا السُّنةَ ، واضطهدوا العِتْرة[3] وَعَنَدوا[4] واعتَدَوْا وَاسْتَكْبَرُوا ، وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، ثم أخذهم فهل تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ؟[5] » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣١١ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢)

٢٤ — خطبته بمدينة السلام

وخطب بمدينة السلام « بغداد » فقال :

« يا عباد الله ، لا تَظَالَموا ، فإنها مَظْلِمة يوم القيامة ، والله لولا يدٌ خاطئة ، وظلمُ ظالم ، لمشَيْتُ بين أظهُرِكم فى أسواقكم ، ولو علِمتُ مكانَ من هو أحقُّ بهذا الأمر منى لأتيتهُ حتى أدفعهُ إليه » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣١٠)

٢٥ — خطبته وقد أخذ عبد الله بن حسن وأهل بيته

ولما أخذ عبد الله بن حسن[6] وإخوته ، والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، صعِد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

---

(١) العضة : الفرقة والقطعة والجمع عضون ، وجعل المشركون القرآن عضين أى فرقا : فرقوا فيه القول ، فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا ، فهم قد (عضوه) بالتشديد أعضاء أى جزءوه أجزاء ، وهو يريد هنا الأمويين يشير إلى أنهم عطلوا بعض أوامر القرآن بما أتوه من الأعمال من رمى الكعبة ، واضطهاد أهل البيت الخ . (٢) متروكة لا يستقى منها لهلاك أهلها ، ومشيد : مرفوع أو مطلى بالشيد (بالكسر) وهو ما طلى به الحائط من جص ونحوه ، أى معطل خال من ساكنيه أيضا . (٣) العترة نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون . (٤) عند (مثلث النون) عن الطريق : مال (٥) الصوت الخفى

(٦) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وقد حمله المنصور هو وأهل بيته ، من المدينة إلى العراق سنة ١٤٤ هـ ، وألقاهم فى غيابات السجون حتى ماتوا بسجن الكوفة ، وكان يتخوف أن يغالبه على الخلافة محمد بن عبد الله هذا (وهو محمد الملقب بالنفس الزكية) وقد خرج عليه بالمدينة فوجه المنصور جيشا لقتاله فقتل سنة ١٤٥ ، وخرج أخوه إبراهيم على المنصور بالبصرة فقتل أيضا فى هذه السنة .

« يأهل خراسان : أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا مَن هو خيرٌ منا ، وإن أهل بيتى هؤلاء من ولد علىّ بن أبى طالب ، تركناهم والله الذى لا إله إلا هو والخلافةَ ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام فيها علىّ ابن أبى طالب ، فتلطّخ ، وحكّم عليه الحكمين ، فافترقت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه ، وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن علىّ ، فوالله ما كان فيها برَجُل ، قد عُرضت عليه الأموال فقَبلها ، فدسَّ إليه معاوية : إنى أجعلك ولىَّ عهدى من بعدى ، فخدعه فانسلخ له مما كان فيه ، وسلّمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلّقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علىّ ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق ، والإغراق فى الفتن ، أهل هذه المَدَرة السوداء — وأشار إلى الكوفة — فوالله ماهى بحَرْب فأحاربَها ولا سِلْم فأسالِمَها ، فرّق الله بينى وبينها ، فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علىّ ، فخدعه أهل الكوفة وغرّوه ، فلما أخرجوه[١] وأظهروه أسلموه وقد كان أتى محمد بن علىّ[٢] ، فناشده فى الخروج ، وسأله ألّا يقبل أقاويلَ أهل الكوفة ، وقال له : إنا نجد فى بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يُصْلَب بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوبَ ، وناشده عمّى داود بن علىّ ، وحذّره غَدْرَ أهل الكوفة ، فلم يقبل وتَمّ[٣] على خروجه ، فَقُتِل وصلب بالكُناسة[٤] ثم وثب علينا بنو أمية ، فأماتوا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا تِرَةٌ[٥] يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم عليهم ، فنفَونا من البلاد فصِرنا مرة بالطّائف . ومرة بالشّام ، ومرة بالشَّراة[٦] ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة

---

(١) وقد خرج فى خلافة هشام بن عبد الملك ، فقاتله يوسف بن عمر الثقفى والى العراق ، وقتل وصلب سنة ١٢١ هـ . (٢) يريد أباه محمد بن على بن عبد الله بن عباس .

(٣) تم على الأمر : استمر عليه . (٤) موضع بقرب الكوفة .

(٥) ثأر . (٦) موضع بين دمشق والمدينة (الكرك الآن) .

وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهلَ خراسان ، ودَمَغ بحقكم أهلَ الباطل ، وأظهر حقَّنا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم، فقَرَّ الحق مَقَرّه، وأظهر منارَه، وأعز أنصاره ، وَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فلما استقرت الأمور فينا على قَرارها مِن فضل الله فيها وحُكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا ، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خِلافته ، ومِيراثِ نبيه صلى الله عليه وسلم :

جَهْلا علىَّ وجُبنا عن عدُوهمُ ... لَبِئست الخَلَّتان الجهلُ والجُبْنُ

فإنى والله يأهل خراسان ما أتيتُ من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغنى عنهم بعض السَّقَم والتعرُّم[1] ، وقد دسَسْت لهم رجالا ، فقلت : قم يا فلان ، قم يا فلان ، فخذ معك من المال كذا ، وحذَوتُ لهم مِثالا يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتَوهم بالمدينة ، فدسُّوا إليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ، ولا صغير ولا كبير ، إلا بايعهم بيعةً استحللتُ بها دماءَهم وأموالهم ، وحَلَّت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى ، وطلبِهم الفتنةَ ، والتماسِهم الخروجَ علىَّ ، فلا يرَون أنى أتيت ذلك على غير يقين » ثم نزل وهو يتلو على دَرَج المنبر هذه الآية « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣١٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٤١)

٣٦ — خطبته حين خروج محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن

ولما خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله ، شَنَّ[2] المنصور عليه دِرعه ، وتقلَّد سيفه ، وصَعِدَ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال :

مالى أُكَفْكِفُ عن سَعْدٍ وتشتُمُنى؟ ... ولو شَتَمْتُ بنى سعدٍ لقد سكَنُوا

---

(١) الأصل فيه : تعرمه : تعرقه ونزع ما عليه من اللحم . (٢) شن عليه درعه : صبها .

جَهْلًا علينا وجُبْنا عن عدوهمُ   لَبِئستِ الخلتان الجهْلُ والجُبْنُ

أمَا والله لقد عَجَزوا عما قمنا به ، فما عَضَدوا الكافِيَ ، وما شكروا المُنْعِم ، فإذا حاولوا أشرب رَنْقًا على غَصَص ، وأبيتُ منهم على مَضَض ، كلا والله لا أصِل ذا رَحِم حاول قطيعتها ، ولئن لم يَرْضَ بالعفو ليطابَنَّ مالم يوجد عندى ، فليُبْقِ ذو نفس على نفسه ، قبل أن تمضى ، فلا يُبكى عليه » .   (مواسم الأدب ٢ : ١١٩)

٢٧ — خطبته وقد قتل أبا مسلم الخراسانى

وخطب بالمدائن عند قتل أبى مسلم الخراسانى(١) ، فقال :

« أيها الناس : لا تخرجوا من أُنس الطاعة إلى وَحْشة المعصية ، ولا تُسِرُّوا غشَّ الأئمة ، فإنه لم يُسِرَّ أحد قطُّ منكرةً إلا ظهرت فى آثار يده ، وَفَلَتات لسانه ، وَصَفَحات وجهه ، وأبداها الله لإمامه ، بإعزاز دينه ، وإعلاء حقه ، إنا لن نَبْخَسكم حقوقكم ، ولن نبخَسَ الدينَ حَقَّه عليكم ، إنه من نازَعنا عُرْوةَ هذا القميص أجْزَرناه خَبِيَّ هذا الغِمْد ، وإن أبا مسلم بايَعَنا وبايعَ الناسَ لنا ، على أنه من نكَثَ بنا فقد أباح دَمَهُ ، ثم نكث بنا ، فحكَمْنا عليه لأنفسنا حُكْمَهُ على غيره لنا ، ولم تمنعْنا رعايةُ الحقِّ له ، من إقامة الحق عليه » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣١٣ ، ومجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠ وغرر الخصائص الواضحة ٧٦) .

---

(١) قتل أبو مسلم سنة ١٣٧ . وذلك أن المنصور كان قد أرسله لحرب عمه عبد الله بن على — وكان قد خرج عليه بالشأم كما سيأتى — فلما ظفر أبو مسلم ، وغنم جميع ما كان فى عسكر عبد الله ، وانهزم عبدالله إلى البصرة ، أرسل المنصور بعض خدمه للحفاظ على ما فى العسكر من الأموال ، فغضب أبو مسلم ، وقال : أمين على الدماء ، خائن فى الأموال ! وشتم المنصور ، وعزم على الخلاف ، وأن يتوجه إلى خراسان ، فجعل المنصور يتلطف به حتى استقدمه إليه وقتله .

٢٨ — خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تنفروا أطرافَ النعمة بقلة الشكر ، فتحُلَّ بكم النِّقمة ، ولا تستُروا غِشَّ الأئمة، فإن أحداً لا يستر مُنكَراً إلا ظهر فى فَلَتَات لسانه ، وصَفَحَات وجهه ، وَطَوالع نظره ، وإنا لا نجهل حقوقكم ماعرَفتم حَقَّنا ، ولا ننسى الإحسان إليكم ما ذكرتم فضلَنا ، ومن نازَعَنا هذا القميصَ أوطأنا أمَّ رأسه خَبْء[1] هذا الغِمْد . والسلام » . (مواسم الأدب ٢ : ١٢٠)

٢٩ — قوله وقد قوطع فى خطبته

وخطب يوم الجمعة . فقال :

« الحمد لله أحمَدُه . وأستعينه . وأومن به . وأتوكل عليهِ . وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له : أيها الناس . اتقوا الله . فقام إليهِ رجل . فقال : أُذكِّرك من ذَكَّرتنا به يا أمير المؤمنين . فقطع الخطبة . ثم قال : « سمعاً سَمعاً لمن فهم عن الله . وَذكَّر به . وأعوذ بالله أن أكون جبَّاراً عنيداً . وَأن تأخذنى العِزَّة بالإثم . لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَنْ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . وأنت أيها القائل . فوالله ما أردتَ بها وجهَ الله . ولكنك حاولتَ أن يقال: قام فقالَ. فعُوقب فصَبَرَ . وأهوِنْ بها! ويلَك لو هممتُ[2] ! فاهْتَبِلْها[3] إذ غفَرتُ . وإياك وإياكم معشَرَ الناس أختَها فإن الحكمة علينا نزلَت . ومن عندنا فصِّلت . فردُّوا الأمر إلى أهله . توردوه مَوارِدَه . وَتُصْدِروه مصادِرَه . ثم عاد فى خطبته . فكأنه يقرؤها من كفه . فقال : وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ..... »

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣١١ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٦ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٦٢) .

---

(١) الخبء : ما خبئ . (٢) أى لو هممت بعقابك . (٣) اغتنمها .

٣٠ — المنصور يصف خلفاء بنى أمية

واجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه . منهم عيسى بن موسى والعباس بن محمد وغيرهما . فتذاكروا خلفاء بنى أمية . والسببَ الذى به سُلِبوا عزَّهم . فقال المنصور :

« كان عبد الملك جَبَّاراً لا يُبالِى ماصنع . وكان الوليد لَحَّاناً مجنونا . وكان سليمان هِمَّتُه بَطنُه وفَرْجُه . وكان عمر أعورَ بين عُمْيان . وكان هشام رجلَ القوم . ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مُهِّد لهم من السلطان، يَحُوطونه ويصونونه ويحفظونه . ويحرُسون ما وهب الله لهم منه ، مع تسنُّمهم معالِىَ الأمور ، ورَفضِهم أدانيَها ، حتى أفضَى أمرهم إلى أحداثٍ مُتْرَفِين من أبنائِهم ، فغمِطوا[1] النعمةَ ، ولم يشكروا العافية ، وأساءوا الرعاية . فابتدأت النِّقمةُ منهم ، باستدراج اللهِ إياهم ، آمِنين مكرَه ، مُطَّرِحين صيانةَ الخلافة ، مستخفِّين بحق الرياسة ، ضعيفين عن رسوم السياسة ، فسلبهم اللهُ العِزَّة ، وألبسهم الذِّلة ، وأزال عنهم النعمة » . (شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٢١٥)

٣١ — المنصور يصف عبد الرحمن الداخل

وقال المنصور يوماً لأصحابه : أخبِرونى عن صَقْر قريش ، مَن هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين ، الذى راضَ[2] المُلْكَ ، وسَكَّن الزلازل ، وحَسَم الأدواء. وأباد الأعداء قال : ما صنعتم شيئاً . قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مَرْوان . قال : ولا هذا ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الرحمن بن معاوية[3] ، الذى عبَرَ

---

(١) غمط النعمة : بطرها وحقرها .

(٢) ذلل . (٣) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعرف بالداخل مؤسس دولة بنى أمية بالأندلس وسيأتى .

البحر ، وقطع القَفْر ، ودخل بلداً أعجميًا مُفْرَداً ، فمصَّر الأمصار ، وَجنَّد الأجناد ، ودوَّن الدواوين ، وأقام مُلْكا بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بِمَرْكَب حَمَله عليه عُمَرُ وعثمان ، وذلَّلا لهُ صَعْبه ، وعبد الملك بِبَيْعَةٍ تقدَّم لهُ عَقْدُها ، وأمير المؤمنين بطلب غيره واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مُؤَيَّد برأيه ، مستصحِب لعزمه » .

(العقد الفريد ٢ : ٣٠٢)

وصايا المنصور لابنه المهدى

٣٢ — وصية له

قال المنصور لابنه المهدى : « يا بُنَيَّ لا تُبْرِم أمراً حتى تفكِّر فيه ، فإن فِكْرَة العاقل مِرآته ، تُريه حَسَناتِهِ وسيِّئاته . واعلم أن الخليفة لا يُصْلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يُصْلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وَأَوْلَى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة ، وأنقصُ الناس عقلاً من ظَلَمَ من هو دونَه » .

(نهاية الأرب ٦ : ٤١ ، والعقد الفريد ١ : ١٤)

٣٣ — وصية أخرى له

ووصاه فقال له : « إنى لم أَدَعْ شيئاً إلا قد تقدمت إليك فيه ، وَسأوصيك بخصال والله ما أظنك تفعل واحدة منها — وكان له سَفَط فيه دَفاتر علمه ، وعليه قُفْل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحداً ، يَصُرُّ مفتاحه فى كُمِّ قميصهِ — فقال للمهدى : انظر هذا السفط فاحتفِظْ به ، فإن فيهِ علمَ آبائك ما كان وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة ، فإن أحزَنَك أمرٌ فانظر فى الدَّفتر الأكبر ، فإن أصبتَ فيه ماتريد ، وإلَّا فالثانى والثالث حتى بلغ سبعةً ، فإن ثَقُل عليك فالكُرَّاسة الصغيرة ، فإنك واجدٌ فيها ماتريد ، وما أظنّك تفعل ، وانظر هذه المدينة فإياك أن تستبدل بها ، فإنها بيتك وعِزك ، قد جمعتُ لك فيها من الأموال ، ما إن كُسِر عليك الخراج عشر سنين ، كان عندك كفايةٌ لأرزاق الجند والنفقات ، وعطاء الذُّرِّية ، وَمَصْلحة الثغور ، فاحتفِظ بها فإنك لاتزال عزيزاً مادام

بيت مالك عامِراً ، وما أظنك تفعل . وأوصيك بأهل بيتك ، أنْ تُظْهِر كرامتهم وتُقدِّمهم ، وَتُكثر الإحسان إليهم ، وتعظِّم أمرهم ، وَتُوطِئ الناسَ أعقابهم ، وتولّيهم للنابرَ ، فإن عزَّك عزهم ، وذكرهم لك ، وما أظنك تفعل، وانظر مَوَاليك فأحسِن إليهم وقرِّبهم ، واستكثر منهم ، فإنهم مادَّتك لشِدة إن نزلت بك ، وما أظنك تفعل .
وأوصيك بأهل خُراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بَذَلوا أموالهم فى دولتك ، ودِماءهم دُونك ، ومن لاتَخرج محبَّتُك من قلوبهم ، أن تُحْسِن إليهم ، وتتجاوز عن مُسيئهم ، وتكافِئهم على ما كان منهم ، وتخلُف من مات منهم فى أهله وولده ، وما أظنك تفعل ، وإياك أن تبنى مدينة الشرقية ، فإنك لاتُتِم بناءها ، وما أظنك تفعل ، وإياك أن تستعين برجل من بنى سليم ، وأظنك ستفعل ، وإياك أن تُدْخِل النساء فى مَشورتك فى أمرك ، وأظنك ستفعل » .
(تاريخ الطبرى ٩ : ٣١٩)

٣٤ — وصية أخرى له

ووصى المهدىَّ أيضاً ، فقال : « اتق الله فيما أعْهَد إليك من أمور المسلمين بعدى ، يجعل لك فيما كَرَبك وَحَزَنك مَخْرَجاً ، وَيَرزقك السلامةَ وحسن العاقبة من حيث لاتحتسب ، احفظ يا بنى محمداً صلى الله عليه وسلم فى أمته ، يحفظ الله عليك أمورَك ، وإياك والدمَ الحرام ، فإنه حُوب[1] عند الله عظيم ، وعار فى الدنيا لازم مقيم ، والزم الحلالَ ، فإن فيهِ ثوابَك فى الآجل ، وصلاحك فى العاجل ، وأقِم الحدود ، ولا تَعْتَدِ فيها فتبورَ[2] ، فإن الله لو علم أن شيئاً أصلحَ لدينه ، وأزجَرَ عَن معاصيه من الحدود ، لأمَرَ به فى كتابه ، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فساداً ، مع ما ذَخَرَ له عنده من العذاب العظيم ، فقال :

---

(١) الإثم . (٢) تهلك .

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ، فالسلطان يا بنىَّ حبلُ الله المتين ، وَعُرْوَته الوُثقى ، ودين الله القيِّم ، فاحفظه وَحُطْهُ ، وحصِّنه وَذُبَّ عنهُ ، وأوقع بالمُلْحِدين فيه ، واقمَع المارقين منهُ ، واقتل الخارجين عنهُ بالعقاب لهم ، وَالمَثُلَاتِ[1] بهم، ولا تجاوِز ما أمر الله به فى مُحْكم القرآن ، واحكمْ بالعدل ولا تُشْطِطْ ، فإن ذلك أقطع للشغَب ، وأحسَم للعدو ، وأنجع فى الدواء ، وَعِفَّ عن الفَىْء ، فليس بك إليه حاجة مع ما أخلِّفه لك ، وافتتح عملك بصلة الرَّحِم وبِرّ القرابة ، وإياكَ وَالأَثَرَة ، والتبذير لأموال الرعية ، وَاشحَن[2] الثغور ، وَاضبِط الأطراف ، وأمِّن السُّبل وخُصَّ الواسطة[3] ووسِّع المعاش ، وسكِّن العامة ، وأدخلِ المرافق عليهم ، واصرِف المَكاره عنهم ، وأعِدّ الأموال واخزُنها . وإياكَ والتبذيرَ ، فإن النوائبَ غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ، وهى من شِيَمِ الزمان ، وأعِدَّ الرجال والكُراعَ[4] والجند ما استطعت . وَإياكَ وتأخيرَ عمل اليوم إلى غد ، فتتداركَ عليك الأمورُ وَتضيع ، جُدّ فى إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أوّلا فأولا ، وَاجتهد وشمِّر فيها ، وَأعْدِدْ رجالا بالليل لمعرفة مايكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وباشر الأمور بنفسك وَلا تضجَر ، ولا تكسَل ، ولا تفشَل ، واستعمل حسن الظن بربك ، وَأسِئْ الظن بعمالك وكتّابك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من يَبيت على بابك ، وَسهِّل إذنك للناس ، وانظر فى أمر النُّزّاع إليك ، ووكِّل بهم عيناً غير نائمة ، وَنفساً غير لاهية ، ولا تَنَمْ فإن أباكَ لم يَنَمْ منذُ وَلِىَ الخلافة ، وَلا دخل عَيْنَهُ غمضٌ إلا وَقلبُهُ مُستيقظ ، هذه وَصيتى إليك ، وَالله خليفتى عليك » .   (تاريخ الطبرى ٩ : ٣٢٠)

---

(١) جمع مثلة : وهى العقوبة .　(٢) أى املأها بالمدافعة .　(٣) المتوسطة

(٤) الكراع : اسم يجمع الخيل .

٣٥ — خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور

لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية[1] على المنصور ، قام على منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي جعفر من بنائه القُبّة الخضراء ، التي بناها معانَدةً لله في مُلكه ، وتصغيرِه الكعبةَ الحرام ، وإنما أخذ الله فرعونَ حين قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . وإن أحقّ الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين ، والأنصار المُواسين ، اللهم إنهم قد أحلّوا حرامَك ، وحرّموا حلالك وَعمِلوا بغير كتابك ، وغيَّرُوا عهدَ نبيك صلى الله عليه وسلم ، وآمَنوا من أَخَفْتَ ، وأخافوا من آمَنْتَ ، فأَحْصِهم عَدداً ، وَاُقتلهم بَدَداً[2] ، ولا تُبْقِ على الأرض منهم أحداً » .

(ذيل الأمالي ص ١٢١)

---

(١) كان بنو هاشم — الطالبيون والعباسيون — قد اجتمعوا أخريات العصر الأموي ، وتذاكروا حالهم وما هم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، واتفقوا على أن يدعوا الناس إليهم سرا ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه ، فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية ، وكان من سادات بني هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما ، وشاء القدر أن يظفر العباسيون بالخلافة ، فوليها السفاح ثم المنصور ، ولم يكن للمنصور هم منذ تبوأ عرشها سوى طلب النفس الزكية ليقتله ، وأغراه بذلك أن الناس كانوا شديدي الميل إليه ، وكانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور هو وأخاه إبراهيم من أبيهما عبد الله بن الحسن ، فقال لا علم لي بهما — وكانا قد تغيبا خوفا منه — فلما أطال عليه ، قال : كم تطول ؟ والله لو كانا تحت قدمي ، لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله ! آتيك بولدي لتقتلهما ! فقبض عليه ، وعلى أهله من بني الحسن وحبسهم في سجن الكوفة حتى ماتوا فيه كما تقدم ، ولم يزل النفس الزكية متغربا منذ أفضت الدولة إلى بني العباس خوفا منه على نفسه ، فلما علم بما جرى لوالده وقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبعه أعيان المدينة ، ثم غلب عليها ، وعزل عنها أميرها ، ورتب عليها عاملا وقاضيا ، فوجه المنصور لقتاله جيشاً بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فكانت الغلبة لعسكر المنصور ، وقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ .

(٢) متبددين : متفرقين .

٣٦ - وصية عبد الله بن الحسن بن علىّ لابنه محمد (أو إبراهيم)

ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب ابنهُ محمداً النفس الزكية (أو إبراهيم)، فقال:

« أى بُنَىَّ، إنى مُؤدٍّ حقَّ الله فى تأديبك، فأدِّ إلىَّ حقَّ الله فى الاستماع منى، أى بنىَّ كُفَّ الأذى، وارفُض البَذا[1]، واستعِنْ على الكلام بطول الفِكر، فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك إلى الكلام، فإن للقول ساعاتٍ يضر فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصواب. واحذر مَشورة الجاهل وَإن كان ناصحاً، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشًّا، لأنه يُرْديك بمَشورته. واعلم يابنى أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائماً، ووجدت هواك يقظانَ، فإياك أن تستبدَّ برأيك، فإنه حينئذ هواك، ولا تفعل فِعلا إلاَّ وأنت على يقين أنَّ عاقبته لَاتُرْدِيك، وأن نتيجته لاتجنِى عليك »

(زهر الآداب ١ : ٩٢، والبيان والتبيين ١ : ١٨٠، ٢ : ٨٨)

٣٧ - قول عبد الله بن الحسن وقد قتل ابنه محمد

ولما قتل المنصور ابنهُ محمداً - وكان عبد الله فى السجن - بَعَثَ برأسه إليهِ مع الربيع حاجبه، فوضع بين يديه، فقال:

رَحِمك الله أبا القاسم، فقد كنت من « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ »، ثم تمثل:

---

(١) البذاء: السفه والإفحاش فى المنطق.

فتًى كان يَحْمِيهِ عن الذلِّ سيفهُ   ويكفيه سَوْءاتِ الأمور اجتنابُها

ثم التفتَ إلى الربيع ، فقال له : « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ، ومن نعيمك مثلُها ، والمَوْعِدُ اللهُ تعالى » قال الربيع : فما رأيتُ المنصور قطُّ أكثرَ انكساراً منهُ حين أبلغته الرسالة . (زهر الآداب ١ : ٩٥)

٣٨ — امرأة محمد بن عبد الله والمنصور

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله ، اعترضَتْه امرأة معها صَبِيَّان ، فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، أنا امرأة محمد بن عبد الله ، وهذان ابناه ، أيتَمَهُمَا سيفُك ، وأضْرَعَهُمَا[1] خوفُك ، فناشَدْتُك اللهَ يا أمير المؤمنين أن تصعِّرَ لهما خَدَّك ، فينأى عنهما رِفْدُك ، أو لِتَعْطِفَنَّك عليهما شَوَابِكُ النسب ، وأواصِرُ[2] الرَّحِم » .

فالتفتَ إلى الربيع ، فقال : أرْدُدْ عليهما ضِياع أبيهما ، ثم قال : كذا والله أحِبُّ أن تكون نساء بني هاشم . (زهر الآداب ١ : ٩٦)

٣٩ — جعفر الصادق والمنصور

وكان أهل المدينة لما ظهر محمد بن عبد الله ، أجمعوا على حرب المنصور ونصرِ محمد ، فلما ظفِر المنصور أحضر جعفراً الصادق[3] بن محمد الباقر ، فقال له : قد رأيتَ إطباق أهل المدينة على حربي ، وقد رأيتُ أن أبعثَ إليهم من يعوِّر[4] ويجمِّر[5] نخلهم ، فقال له جعفر : « يا أمير المؤمنين ، إن سليمان أُعْطِيَ فشَكَرَ ، وإن أيوب ابتُلِيَ فصَبَرَ ،

---

(١) أذلهما . (٢) أواصر جمع آصرة ، والآصرة : حبل صغير يشد به أسفل الخباء (وهي أيضاً الرحم والقرابة) . (٣) هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين عليه السلام وتوفي سنة ١٤٨ . (٤) في الأصل « يغور » وأراه محرفا ، وقد أصلحته « يعور » يقال : عور البئر أي طمها وسد عيونها التي ينبع منها الماء . (٥) جمر النخل : قطع جماره .

وإن يوسف قدَر فغفَر ، فاقتدِ بأيِّهم شئتَ ، وقد جعلك الله من نسْل الذين يعفُون ويصفحون » ، فقال أبو جعفر : إنَّ أحداً لايعلِّمنا الحلمَ ، ولا يعرِّفنا العلم ، وإنما قلتُ هَمَمْتُ ، ولم ترنى فعلتُ ، وإنك لتعلم أن قدرتى عليهم تمنعنى من الإساءة إليهم » .

(زهر الآداب ١ : ٩٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

لما حج المنصور مرَّ بالمدينة ، فقال للربيع الحاجب : علىَّ بجعفر بن محمد ، قتلَنى الله إن لم أقتُله ، فمَطَل به ، ثم ألحَّ عليهِ ، فحضر ، فلما كُشِف الستر بينه وبينهُ ، وَمَثَلَ بين يديه ، همَس جعفر بشَفَتيه ، ثم تقرب وسلَّم ، فقال : « لاسَلَّمَ الله عليك ياعدوَّ الله ، تعمل على الغوائلِ فى ملكى ؟ قتلنى الله إن لم أقتلك » . قال : « يا أمير المؤمنين ، إن سليمان صلى الله على محمد وعليه أُعطىَ فشكر ، وإن أيوبَ ابتُلِىَ فصبَر ، وإن يوسف ظُلِم فغفَرَ ، وأنت على إرْثٍ منهم ، وَأَحَقُّ مَن تأسَّى بهم » ، فنكَس أبو جعفر رأسَهُ مَلِيًّا وجعفر واقف ، ثم رفع رأسهُ ، وقال : « إلىَّ أبا عبد الله فأنت القريب القَرَابَةِ ، وذو الرحم الواشجَة[1] ، السليمُ الناحية ، القليل الغائلة » ، ثم صافحهُ بيمينه ، وعانقهُ بشِماله ، وأجلسهُ معهُ على فراشه ، وَانحرف له عن بعضِهِ ، وَأقبل عليهِ بوجهه يحادثه ويسائله ، ثم قال : ياربيع ، عجِّلْ لأبى عبد الله كُسْوته وجائزته وإذنه .

(العقد الفريد ١ : ١٤٥)

---

(١) القريبة : المشتبكة .

٤٠ — صفح المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب

ولما داهنَ سُفْيانُ بن معاوية بن يزيد بن المُهَلَّب فى شأن إبراهيم بن عبد الله[1] ، وصار إلى المنصور ، أمَرَ الربيعَ بخَلْع سَوادِه ، والوقوفِ به على رءوس اليمَانية فى المقصورة يوم الجمعة ، ثم قال : قل لهم :

« يقول لـكم أمير المؤمنين قد عرَفتم ما كان من إحسانى إليه ، وَحُسْنِ بَلائى ، وقَدِيمِ نِعمتى عليه ، والذى حاولَ من الفتنة ، ورامَ من البَغْيِ ، وأراد من شقِّ العصَا ومعاونةِ الأعداء ، وإراقةِ الدماء ، وإنه قد استحق بهذا من فعله ، أليمَ العقاب ، وعظيمَ العذاب ، وقد رأى أميرُ المؤمنين إتمامَ بَلَائِه الجميل لديه ، وَرَبَّ[2] نَعْمَائِه السابقة عنده لما يتعرفه أمير المؤمنين من حسن عائدة الله عليه ، وما يؤمِّله من الخير العاجل والآجل ، عند العفو عمَّن ظلم ، والصفح عمَّن أساء ، وقد وهب أميرُ المؤمنين مُسِيئَهم لِمُحْسِنِهِم ، وغادِرهم لوَفِيِّهم » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٨٥)

٤١ — استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور

ولما انهزم عبد الله بن على[3] من الشأم قَدِم على المنصور وَفْد منهم ، فقام عِدَّة منهم ، فتـكلموا ، ثم قام الحارث بن عبد الرحمن الغِفَارىّ ، فقال : « يا أمير المؤمنين

---

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، أخو النفس الزكية ، وقد خرج على المنصور بالبصرة ، فوجه إليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى بعد رجوعه من قتل النفس الزكية فقاتله وقتل إبراهيم فى المعركة سنة ١٤٥ هـ .

(٢) رب الشىء : جمعه وزاده ، ورب الصبى : رباه حتى أدرك .

(٣) هو عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس عم المنصور ، وكان قد خرج عليه بالشأم ، وقال : إن السفاح قال لى إن ظهرت على مروان الحمار — وكان السفاح أرسله لقتال مروان بالشام — فأنت ولى العهد بعدى ، وشهد له جماعة بذلك . فأرسل المنصور أبا مسلم الخراسانى لمحاربته فهزمه ، وهرب عبد الله إلى البصرة ، ونزل على أخيه سليمان بن على ، فشفع فيه سليمان إلى المنصور فأمنه ، فلما جاء إليه حبسه ومات فى حبسه ، وقيل إنه بنى له بيتا ، وجعل فى أساسه ملحا ، ثم أجرى الماء فيه ، فسقط البيت عليه فمات ، .

إنا لسنا وفدَ مباهاةٍ ، وإنما نحن وفدُ توْبة ، وإنا ابتُلينا بفتنةٍ استخفت كريمنا ، واستفزّت حَليمنا ، ونحن بما قدَّمنا مُعترفون ، ومما سَلَف منا مُعتذرون ، فإن تُعاقبْنا فبما أجرَمْنا . وإن تعفُ عنا فبفضلك علينا . فاصفَح عنا إذ ملكتَ . وامنُن إذ قدَرت. وَأحسِنْ إذ ظفِرْتَ ، فطالما أحسنتَ إلى من أساء مِنَّا » ، فقال المنصور : قد فعلت . ثم قال للحرَمِيّ : هذا خطيبهم ، وأمر برد ضِياعه عليهِ بالغُوطة[1] .

(العقد الفريد ١ : ١٤٤ : وتاريخ الطبرى ٩ : ٣٠٧ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٢ — استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور أيضا

وقال عثمان بن خُرَيم للمنصور ، حين عفا عن أهل الشأم فى إجلابهم[2] مع عبد الله بن علىّ عمه : « يا أمير المؤمنين ، لقد أُعطيتَ فشكرتَ وابتُليتَ فصبَرت ، وقَدِرت فعفوت » .

وقال آخر : « يا أمير المؤمنين ، الانتقامُ عَدْلٌ ، والتجاوُز فَضل ، والمتفضِّل قد جاوز حَدَّ المُنْصِف ، فنحن نُعيذ أمير المؤمنين بالله أن يَرْضَى لنفسه بأوكَسِ[3] النصيبَيْن ، دون أن يبلُغ أرفع الدَّرَجَتين » .

وقال آخر : « من انتقم فقد شفَى غيظَ نفسه ، وأخذ أقصَى حقِّه ، وإذا انتقمتَ فقد انتَقصْتَ[4] ، وإذا عفوت تطوّلت[5] . ومن أخذ حقه ، وَشَفَى غيظَه ، لم يجب شكرُه ، ولم يُذكر فى العالين فضلُه . وَكَظْم الغيظ حِلْم ، وَالحِلْم صَبْر ، والتشفِّى طرَف من العَجْزِ[6] ، ومن رَضِىَ ألَّا يكون بين حاله وبين حال الظالم إلا سِتْر رقيق ،

---

(١) كورة دمشق .

(٢) فى الأصل « إجلائهم » وهو تحريف ، والصواب « إجلابهم » أى فى فتنهم وهياجهم من الجلبة بالتحريك وهى الصياح . (٣) من الوكس كوعد : وهو النقصان .

(٤) أى انتقص حقك بخروجنا عليك ، فحق لك الانتقام منا لأخذ حقك .

(٥) تطول عليه : امتن وتفضل . (٦) وفى زهر الآداب : « من الجزع » .

وحجابٌ ضعيف ، لم يجزم فى تفضيل الحلم ، وفى الاستيثاق مِن ترك دواعى الظلم ، ولم تر أهل النُّهى. والمنسوبين إلى الحِجاَ والتُّقَى ، مَدَحوا الحـكَّام بشدة العقاب. وقد ذكروهم بحسن الصَّفْح ، وبكثرة الاغتفار ، وشدة التغافل . وبعدُ ، فالمعاقِب مستعدٌ[1] لعداوة أولياء المُذْنب ، والعافى مستدعٍ لشكرهم . آمِنٌ من مكافأتهم[2] أيام قُدْرتهم ، وَلَأَن يُثْنَى عليك باتساع الصدر ، خير من يُثْنَى عليك بضيق الصدر[3] ، على أن إقالتك عثرةَ عباد الله ، مُوجِبٌ لإقالتك عثرَتَك من رب عباد الله . وعفوَكَ عنهم موصول بعفو الله عنك ، وعقابك لهم موصولٌ بعقاب الله لك . قال الله عزَّ وجلَّ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٣ — أبو جعفر المنصور والربيع

وقال سعيد بن مُسْلم بن قُتَيْبة : دعا المنصور بالربيع[4] ، فقال : سَلْنى ما تريد ، فقد سكتَّ حتى نطقتَ ، وخففتَ حتى ثقُلتَ . وقَلَّتَ حتى أكثرتَ ، فقال : « وَاللهِ يا أمير المؤمنين ، ما أَرْهَبَ بُخْلَك ولا أَسْتَقْصِر عُمْرَك . ولا أَسْتَصْغِر فضلَكَ ، ولا أغتنم مالك ، وإن يومى بفضلك علىَّ أحسنُ من أمسى ، وغدك فى تأميلى أحسنُ من يومى . ولو جاز أن يشـكرك مثلى بغير الخِدْمة والمناصحة لَمَا سَبَقنى لذلك أحد » قال : صدقتَ ، على بهذا منك أحَلَّك هذا المحلَّ ، فَسَلْنى ماشئت ، قال : أسألك أن تقرِّب عَبْدَك « الفضل[5] » وَتؤْثِره وتحبّه ، قال : ياربيع ، إن الحبَّ ليس بمال يُوهب

---

(١) وفى زهر الآداب : « مستودع » . (٢) بجزائهم.

(٣) وفى زهر الآداب : « خير من أن توصف بضيقه » .

(٤) هو أبو الفضل الربيع بن يونس ، وزير المنصور ، وكان مهيبا فصيحا كافيا حازما فطنا ، ولم يزل وزيرا للمنصور إلى أن مات المنصور . وقام الربيع بأخذ البيعة للمهدى ، ثم سعى به أعداؤه إلى الهادى ، فقتله سنة ١٧٠ هـ . (٥) هو ابنه الفضل بن الربيع ، وقد وزر للرشيد بعد البرامكة ، وابنه الأمين كما سيأتى .

ولا رتبة تُبْذَل ، وإنما تؤكِّده الأسبابُ ، قال : فاجعل لى طريقاً إليه ، بالتفضل عليه ، قال : صدقت . وقد وَصلْتُه بألف درهم ، وَلم أصل بها أحداً غير عُمُومتى ، لِتعلم ماله عندى . فيكونَ منهُ ما يستدعى به محبتى ، قال : فكيف سألتَ له المحبةَ يا ربيع ؟ قال : لأنها مِفتاح كل خير ، ومِغْلاق كل شرّ ، تُسْتَر بها عندك عيوبه ، وتصيرُ حَسَناتٍ ذنُوبهُ . قال : صدقت . (زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

٤٤ — مقام عمرو بن عبيد بين يدى المنصور

دخل عَمرو[١] بن عُبَيد على المنصور بعد ما بايع للمهدى ، فقال له : يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وطَّدت لهُ الأمور ، وهى تصير إليه . وَأنت عنهُ مسئول، فاستعبر المنصور، وقال له : عِظنى ياعمرو ، قال : « يا أمير المؤمنين : إن الله أعطاك الدنيا بأسْرِها ، فاشترِ نفسَك منها ببعضها ، وإن هذا الذى فى يديك ، لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك . فاحذَر ليلةً تَمَخَّضُ عن يوم لا ليلةَ بعده ، فوجَم أبو جعفر من قوله ، فقال لهُ الربيع : ياعمرو غمَمت أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا صَحِبك عشرين سنةً ، لم يَرَ لك عليه أن ينْصَحَك يوماً واحداً . وما عَمِلَ وراء بابك بشىء من كتاب الله ولا سُنَّة نبيه ، قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلت لك ، خاتَمِى فى يدك ، فتعالَ وأصحابَك فاكفِنى ، قال عمرو : أُدعُنا بعَدْلك ، تَسْخُ أنفسنا بِعَوْنك ، ببابك ألفُ مَظلِمة ، أُردُد منها شيئاً نعلَمْ أنك صادق » .

(مروج الذهب ٢ : ٢٢٤ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، ووفيات الأعيان ١ : ٣٨٤ ، والعقد الفريد ١ : ٣٠٦ ، وشرح ابن أبى الحديد م١ : ص ١٤٨)

---

(١) من كبار أئمة المعتزلة ، توفى سنة ١٤٤ هـ .

٤٥ — مقام رجل من الزهاد بين يدى المنصور

بينما المنصور يطوف ليلا إذ سمع قائلا يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهورَ البغى والفساد فى الأرض ، وما يَحُول بين الحق وأهله من الطمع ، فخرج المنصور ، فجلس ناحيةً من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلَّى الرجل ركعتين ، واستلم الركن . وأقبل مع الرسول ، فسلم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الذى سمعتك تذكر من ظهور البغى والفساد فى الأرض ؟ وما الذى يَحُول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حَشَوتَ مسامعى ما أرمَضَنى[١] ، قال : ياأمير المؤمنين إن أمَّنتَنى على نفسى ، أنبأتك بالأمور من أصولها . وإلَّا احتجزتُ منك . واقتصرت على نفسى ، ففيها لى شاغِلٌ ، فقال : أنت آمِنٌ على نفسك فقل ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الذى دخله الطمع ، حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغى والفساد لَأَنت ، قال : ويحك ، وكيف يدخلنى الطمع ، والصَّفراء والبيضاء[٢] فى قَبْضَتى ، والحُلْو والحامِض عندى ؟ قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دَخَلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالَهم ، فأغفلْتَ أمورهم ، واهتَمَمْتَ بجمع أموالهم ، وجعلتَ بينك وبينهم حِجَاباً من الجِصِّ والآجُرِّ . وأبواباً من الحديد . وحَجَبَةً معهم السلاحُ ، ثم سَجَنْت نفسك فيها عنهم ، وبعثتَ عُمَّالك فى جِباية الأموال وجمعها ، وقوَّيتهم بالرجال والسلاح والكُرَاع ، وأمرت بألَّا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ، نَفَرٌ سمَّيتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ، ولا الجائع العارى ، ولا الضعيف الفقير ، ولا أحدَ إلا وله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتَهم على رعيتك ، وأمرتَ ألا يُحْجَبُوا عنك ، تَجْبى الأموال وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا

---

(١) أوجعنى وآلمنى .
(٢) الصفراء والبيضاء : الدنانير والدراهم .

قد خان الله ، فما بالُنا لا نخونه وقد سَخَّن لنا نفسه ؟ فأتمروا بألّا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا ، ولا يخرجَ لك عامل ، فيخالفَ أمرهم إلا قَصَبوه[1] عندك ونفَوه ، حتى تسقُط منزِلتُه ، ويصغُر قَدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، أعظمَهم الناس وهابوهم ، فكان أول من صانَعهم عُمّالك بالهدايا والأموال ، ليقْوَوا بها على ظُلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك ، لينالوا به ظلم من دونهم فامتلأتْ بلادُ الله بالطمع بَغْيا وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شُرَكاءك فى سلطانك ، وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حِيلَ بينه وبين دخول مدينتك ، فإن أراد رفعَ قِصَّته إليك عند ظهورك ، وَجدكَ قد نَهَيْتَ عن ذلك ، وأوقفتَ للناس رجلا ينظر فى مظالمهم ، فإن جاءك ذلك الرجل ، فبلغ بِطانَتَك خبَرُه ، سألوا صاحب المظالم ألّا يرفع مَظْلِمَته إليك، فإن المتظلِّمَ منهُ له بهم حُرْمة ، فأجابهم خوفاً منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ، ويلُوذ به، ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه ويعتلّ عليه ، فإذا أُجهد وأُحرِج وظهرْتَ، صَرَخَ بين يديك ، فضُرِب ضرباً مُبَرِّحاً ليكون نَكالا لغيره ، وأنت تنظر فلا تُنكِر ، فما بقاء الإسلام على هذا ؟ وقد كنتُ يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدِمتُها مرةً ، وقد أصيب ملكها بسَمْعه ، فبكى يوماً بكاء شديداً ، فحثّه جلساؤه على الصبر ، فقال : أمَا إنى لست أبكى للبليّة النازلة بى ، ولكنى أبكى لمظلوم بالباب يَصْرُخ ، ولا أسمع صوته ، ثم قال : أمَّا إذا ذهب سمعى ، فإن بصرى لم يذهب ، نادُوا فى الناس ألّا يلبَس ثوباً أحمرَ إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرَفَى نهاره ، وينظر هل يرى مظلوماً ؟ فهذا يا أمير المؤمنين مُشرِك بالله ، غلبَتْ رأفته بالمشركين شُحَّ نفسه ، وأنت مؤمن بالله ، ثم من أهل بيت نبيه ، لا تغلِبُ رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ؟ فإن كنت إنما تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عِبَرًا فى الطفل ، يسقط من بطن أمه ،

---

(١) عابوه وشتموه ، وفى العقد الفريد : « خونوه » .

وما له على الأرض مال ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل ، حتى تعظم رغبةُ الناس إليه ، ولستَ بالذى تعطى ، بل الله يعطى من يشاء ماشاء ، وإن قلتَ إنما أجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عِبرًا فى بنى أمية ، ما أغنَى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وأعدُّوا من الرجال والسلاح والكُراع ، حتى أراد الله بهم ما أراد، وإن قلتَ إنما أجمع لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنا فيها فوالله مافوق ما أنت فيه إلا منزلةٌ ، لاتُدْرَك إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ قال المنصور : لا ، قال : فكيف تصنع بالملِك الذى خوّلكَ مُلْكَ الدنيا ، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ؟ ولكن بالخلود فى العذاب الأليم ، قد رأى ماقد عُقِدَ عليه قلبك ، وَعَمِلَته جوارحك ، ونظر إليه بصرك ، واجترحَته[1] يداك ، ومشَت إليه رجلاك ، هل يُغنى عنك ماشحَحت عليه من مُلْك الدنيا إذا انتزعهُ من يدك ، ودعاك إلى الحساب ؟ فبكى المنصور وقال : يا ليتنى لم أُخلَق، ويحك ! فكيف أحتال لنفسى ؟ قال : يا أمير المؤمنين، إن للناس أعلاماً يَفزَعون إليهم فى دينهم ، ويرضَون بهم ، فاجْعَلهم بِطانتك يرشدوك ، وشاوِرهم فى أمرك يسدِّدوك ، قال : قد بعثت إليهم فهربوا منى ، قال : خافوا أن تحمِلَهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك ، وسهِّل حِجابَك ، وانصر المظلوم ، واقمَع الظالم ، وخذ الفَىء والصدقات مما حل وطاب ، واقسمهُ بالحق والعدل على أهله ، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويُسْعدوك على صلاح الأمة » ، وجاء المؤذنون ، فسلموا عليه ، فصلى وعاد إلى مجلسه ، وَطُلِبَ الرجل فلم يوجد .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٣ ، والعقد الفريد ١ : ٣٠٤)

---

(١) اكتسبته .

٤٦ — مقام الأوزاعى بين يدى المنصور

قال الأوزاعى[1] : دخلت على المنصور ، فقال لى : ما الذى بطّأ بك عنى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذى تريد منى ؟ فقال : الاقتباس منك ، قلت : أُنظر ماتقول ، فإنّ « مَكْحولا[2] » حدثنى عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بَلَغه عن الله نصيحة فى دينه ، فهى رحمة من الله سِيقَت إليهِ ، فإن قَبِلها من الله بشُكرٍ ، وإلّا كانت حُجَّة من الله عليه ، ليزداد إثمًا ، وليزداد عليه غَضَبًا ، وإن بلغهُ شىءٌ من الحق فرضى فله الرضا ، وإن سَخِط فله السُّخْط ، ومن كرهه فقد كَرِهَ اللهَ لأن الله هو الحقُّ المبين » فلا تجهَلَنَّ ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمَع ، قال الأوزاعى : فسلَّ علىَّ الربيع السيفَ ، وقال : تقول لأمير المؤمنين هذا ؟ فانتهره المنصور وقال : أمسِك ، ثم كلَّمه الأوزاعى ، وكان فى كلامهِ أن قال :

« إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به ، واللهُ سائِلُك عن صغيرها وكبيرها ، وفَتيلِها ونَقيرِها[3] ، ولقد حدّثنى عُرْوة بن رُوَيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما مِنْ رَاعٍ يَبِيتُ غاشًا لرعيته إلا حرَّم الله عليه رائحة الجنّة » فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرًا ، ولما استطاع من عَوْراتهم ساترًا ، وبالقِسْط

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى ، إمام أهل الشام ، ولم يكن بها أعلم منه . ولد ببعلبك سنة ٨٨ هـ ، وتوفى سنة ١٥٧ ببيروت . والأوزاعى : نسبة إلى أوزاع ، وهى بطن من ذى الكلاع من اليمن ، وقيل : بطن من همدان ، وقيل الأوزاع : قرية بدمشق ، ولم يكن عبد الرحمن منهم ، وإنما نزل فيهم : فنسب إليهم ، وهو من سبى اليمن .

(٢) هو مكحول بن عبد الله الشامى ، معلم الأوزاعى ، وكان من سبى كابل ، وقع إلى سعيد بن العاص ، فوهبه لامرأة من هذيل فأعتقته ، قال الزهرى : العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، والشعبى بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، ومكحول بالشام ، ولم يكن فى زمنه أبصر منه بالفتيا ، وسمع أنس بن مالك وغيره ، وكان مقامه بدمشق ، وتوفى سنة ١١٨ هـ .

(٣) الفتيل : السحاة التى فى شق النواة ، والنقير : النقرة التى فى ظهر النواة .

فيما بينهم قائما ، لايتخوّف مُحْسِنُهم منه رَهَقا[1] ، ولا مُسِيئُهم عُدْوانا ، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جَرِيدة يستاك بها ، ويردع عنه المنافقين ، فأتاهُ جبريل فقال : « يا محمد ، ماهذه الجريدةُ بيدك ! اقذِفْها لاتملأْ قلوبهم رُعْبا » فكيف من سفك دماءهم ، وشقّق أبشارهم ، وأنهب[2] أموالهم ؟ يا أمير المؤمنين : إن المغفور له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، دعا إلى القصاص من نفسه بخَدْش خدَشَه أعرابيا لم يتعمّده ، فهَبَط جبريل ، فقال : « يا محمد ، إن الله لم يبعثك جبَّاراً تكسِرُ قرون أمتك » واعلم أن كل مافى يدك لايَعْدِل شَرْبة من شراب الجنة ، ولا ثَمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَقابُ[3] قوسِ أحدكم من الجنة ، أو قُذَّتُه[4] خيرٌ له من الدنيا بأسْرها » إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ، ولو بقى الملك لِمَن قَبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين، ولو أنّ ثوبا من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لآذاهم ، فكيف من يتقمّصه ؟ ولو أن ذَنوبا[5] من صَدِيد أهل النار صُبّ على ماء الأرض لأجَنَه[6] ، فكيف بمن يتجرّعه ؟ ولو أن حَلْقة من سلاسل جهنم وُضِعت على جبل لذاب، فكيف من سُلِكَ[7] فيها ، ويُرَدُّ فضلُها على عاتقه ؟ وقد قال عمر بن الخطاب : « لايقوّم أمرَ الناس إلا حَصِيفُ[8] العُقدة ،بَعيد الغِرّة[9] لايطّلع الناس منه على عَورة، ولايُحْنِق فى الحق على جِرّة[10] ، ولا تأخذه فى الله لومةُ لائم » .

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يَظْلِف[11] نفسَهُ وعُمّاله ، فذلك له أجرُ المجاهد فى سبيل الله ، وصلاتُه سبعون ألف صلاة ، ويدُ الله بالرحمة على رأسه تُرَفرِف ، وأمير رتَع ورتع عُمّالُه ، فذاك يحمِل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يَظلِف نفسهُ ،

---

(١) ظلما. (٢) جعلها نهبا يغار عليه (٣) القاب : مابين المقبض والسية (وسية القوس كعدة : ماعطف من طرفيها) . (٤) ريش السهم . (٥) الذنوب : الدلو . (٦) جعله آجنا أى متغير الطعم واللون . (٧) قيد . (٨) حصف الرجل ككرم : استحكم عقله فهو حصيف ، وأحصف الحبل : أحكم فتله . (٩) الغفلة . (١٠) أحنق : حقد حقدا لا ينحل ، وأحنق الصلب : لزق بالبطن ، والجرة ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، والمراد أنه لايضمر الحقد والحنق . (١١) يكف .

ويرتع عمالُه ، فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلِف عُمَّالَه ، فذاك شر الأكياس .

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتُلِيت بأمر عظيم ، عُرِض على السموات والأرض والجبال ، فأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهُ وَأَشْفَقْنَ مِنْهُ ، وقد جاء عن جَدِّك فى تفسير قول الله عزَّ وجلَّ : « لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » أن الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، وقال : فما ظنكم بالكلام وَما عَمِلته الأيدى ؟ فأُعيذك بالله أن يُخَيَّل إليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع مع المخالفة لأمره ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياصفيةُ عَمَّةَ محمد ، ويا فاطمةُ بنتَ محمد ، استوهِبا أنفسكما من الله ، إنى لا أُغنِى عنكما من الله شيئاً ، وكان جَدُّك الأكبر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة ، فقال: « أىْ عمّ ، نفسٌ تُحْيِيها، خير لك من إمارة لاتُحصيها» نظَرًا لِعمِّه ، وَشفقةً عليه أن يَلِىَ فيجور عن سنَّته جَنَاحَ بَعوضة ، فلا يستطيع لهُ نفعاً ، ولا عنهُ دَفعا ، هذه نصيحتى إن قبلتها فلنفسك عَمِلْتَ ، وإن رَدَدْتها فنفسَك بَخَسْت ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، قال : بلى ، نقبَلها ونشكر عليها ، وبالله نستعين .

(العقد الفريد ١ : ٢٠٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٨)

٤٧ — نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة للمنصور

ودخل يَزيد بن عُمر بن هُبَيْرَة[1] على أمير المؤمنين المنصور ، فقال : ياأمير المؤمنين: توسَّع توسُّعاً قُرَشِيًّا ، ولا تَضِق ضِيقاً حِجازيًّا .

ويروى أنه دخل يوماً ، فقال له المنصور حدِّثنا ، فقال : « ياأمير المؤمنين :

---

(١) ولى قنسرين للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وجمع له مروان بن محمد ولاية البصرة والكوفة ، وكان آخر من جمع له العراقان من الولاة ، ولما استظهرت عليه جيوش خراسان ، وهزمت عسكره لحق بمدينة واسط ، فتحصن بها . ولما بويع السفاح بالخلافة وجه أخاه أبا جعفر المنصور لقتاله ، فحصره بواسط شهوراً ، ثم آمنه وافتتح البلد صلحا ، ثم قتله .

إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناسَ حلاوةَ عَدْلها ، وجنِّبوهم مرارةَ جَوْرها ، فوالله يا أمير المؤمنين ، لقد مَحَضتُ[1] لك النصيحة » ثم نهض فنهض معه سبعمائة من قيس ، فأتأره[2] المنصور بصرَه ، ثم قال : لا يَعِز مُلْكٌ يكون فيه مثلُ هذا ! . (تهذيب الكامل ١ : ٢٨)

٤٨ — معن بن زائدة والمنصور

ودخل مَعْن[3] بن زائدة الشَّيبانى على أبى جعفر المنصور وقد أسنّ ، فقارب فى خَطْوه ، فقال له المنصور : لقد كبرت سِنُّك يامعنُ ، قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لجَلْد ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنّ فيك لَبَقِيَّة ، قال : هى لك يا أمير المؤمنين ، قال : فأىّ الدولتين أحبّ إليك ، هذه أم دولة بنى أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين . إن زاد بِرك على برهم كانت دولتك أحب إلىّ .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٩ . ووفيات الأعيان ٢ : ١٠٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦١)

٤٩ — معن بن زائدة وأحد زواره

ودخل رجل على مَعْن بن زائدة ، فقال : ماهذه الغَيْبة ؟ فقال : « أيها الأمير ، ما غابَ عن العين مَنْ يذكرُه القلبُ وما زال شوقى إلى الأمير شديداً ، وهو دونَ

---

(١) أخلصت . (٢) أتأره البصر : أتبعه إياه ، وحدد إليه النظر .

(٣) كان جوادا شجاعا جزيل العطاء كثير المعروف ، وكان فى أيام بنى أمية متنقلا فى الولايات ، منقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراقين ، فلما انتقلت الدولة إلى بنى العباس ، وحاصر المنصور يزيد بمدينة واسط كما قدمنا ، أبلى يومئذ معن مع يزيد بلاء حسنا ، فلما قتل يزيد خاف معن من أبى جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة ، ولم يزل مستترا حتى كان يوم الهاشمية ، وذلك أن جماعة من أهل خراسان ثاروا على المنصور ، وجرت مقتلة عظيمة بينهم وبين أصحاب المنصور بالهاشمية — وهى مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة — وكان معن متواريا بالقرب منهم ، فخرج متنكرا معتما متلثما ، وتقدم إلى القوم ، وقاتل قدام المنصور قتالا أبان فيه عن نجدة وشهامة وفرقهم ، فلما أفرج عن المنصور . قال له : من أنت ويحك ؟ —

ما يجبُ لهُ ، وذكرى له كثيراً وهو دون قدره ، ولكن جَفْوة الحُجَّاب ، وَقِلَّة بِشْر الغِلْمان ، منعانى من الإكثار » ، فأمر بتسهيل حجابه ، وأجزل صلته .

(زهر الآداب ٣ : ١٦١)

٥٠ — المنصور وأحد الأعراب

ودخل أعرابى على المنصور فتكلم ، فأُعْجِب بكلامه ، فقال له : سل حاجتك ، فقال : يُبقيك الله ، ويَزيد فى سلطانك ، فقال : سل حاجتكِ ، فليس فى كل وقت تؤْمَر بذلك ، قال : « ولِمَ يا أمير المؤْمنين ، فوالله ما أستقصِرُ عمرك ، ولا أخاف بُخْلك ، ولا أغتنم مالك ، وإن سؤَالك لشرف ، وإن عطاءك لزَيْن ، وما بامرئٍ بَذَلَ وجهَه إليك نقصٌ ولا شَيْنٌ » . فأحسن جائزته وأكرمه .

(الصناعتين ص ١٤١ ، العقد الفريد ١ : ١٣٩)

٥١ — أعرابية تعزى المنصور وتهنئه

وروى القَلْقَشندى قال : تعرَّضت أعرابية للمنصور فى طريق مكة بعد وفاة أبى العباس السَّفاح ، فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، احْتَسِب الصبرَ ، وقَدِّم الشكرَ ، فقد أجزل الله لك الثوابَ فى الحالَيْنِ ، وأعظَم عليك المِنَّةَ فى الحادِثَيْنِ ، سَلَبَكَ خليفةَ الله ، وأفادك خِلافةَ الله ، فسلِّمْ فيما سَلَبَكَ ، واشكُرْ فيما مَنَحَكَ ، وتجاوَزَ اللهُ عن أمير المؤمنين ، وخَارَ لك فيما مَلَّككَ من أمر الدنيا والدين » .

= فقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ، فأمنه المنصور وأكرمه ، وصار من خواصه ، وولى سجستان فى أواخر أمره ، فلما كانت سنة ١٥١ اندس قوم من الخوارج بين صناع كانوا يعملون فى داره بمدينة بست ، فقتلوه وهو يحتجم ، وتبعهم ابن أخيه يزيد بن مزيد بن زائدة ، فقتلهم بأسرهم .

وروى الجاحظ قال : عَزّت امرأةٌ المنصور عن أبى العباس مَقْدمَه من مكة ، قالت: « أعظم الله أجرك ، فلا مصيبة أجلُّ من مصيبتك، وَلا عِوَض أعظم من خلافتك » .

(صبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٥)

٥٢ — خطبة محمد بن سليمان[1] يوم الجمعة
(وكان لا يغيّرها)

الحمد لله ، أحمَده وأستعينهُ وأستغفره ، وأومن به ، وأتوكّل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ لهُ ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليُظهِرَه على الدين كلِّه ولو كَرِهَ المشركون ، من يعتصم بالله ورسوله ، فقد اعتصم بالعُرْوة الْوُثْقَى ، وَسَعِد فى الأولى والآخرة ، « وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً وَخَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً » ، أسأل الله أن يجعلنا وإيا كم ممن يُطِيعهُ وَيُطِيع رسوله ، ويتّبع رضوانه ، ويتجنّب سُخْطه ، فإنما نحن لهُ وبه . أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله ، وأرضى لكم ماعند الله ، فإن تقوى الله أفضل ما تحاثَّ الناس عليه ، وتداعَوا إليهِ ، وَتواصَوا به ، فاتقوا الله ما استطعتم ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٥)

٥٣ — وصية مسلم بن قتيبة

وقال مُسْلِم بن قُتَيْبة[2] : « لاتطلبَنَّ حاجتك إلى واحد من ثلاثة : لاتَطْلُبْها إلى الكَذَّاب ، فإنه يُقرِّبها وهى بعيدة ، ويُبعِدها وهى قريبة ؛ ولا تطلبها إلى الأحمق ،

(١) هو محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان عامل البصرة فى خلافة أبى جعفر المنصور وتوفى سنة ١٧٣ فى خلافة الرشيد .

(٢) استشاره المنصور فى قتل أبى مسلم ، فقال : ماترى فى أمره ؟ قال : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » فقال : حسبك يا بن قتيبة ، لقد أودعتها أذنا واعية (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٢) .

فإنه يريد أن ينفعك وهو يَضُرك ؛ ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مَأْكَلَةٌ ، فإنه يجعل حاجتك وِقاء لحاجته » . (الأمالى ٢ : ١٩٠)

٥٤ — خطبة المهدى (توفى سنة ١٦٩ هـ)

الحمد لله الذى ارتضى الحمد لنفسه ، ورضى به مِن خَلْقه ، أحمَده على آلائه[١] ، وأمجِّده لبلائه[٢] ، وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه توكُّلَ راضٍ بقضائه ، وصابرٍ لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك لهُ ، وأن محمداً عبده المصطفى ، ونبيه المُجْتَبَى[٣] ، ورسوله إلى خلقه وأمينه على وحيه ، أرسله بعد انقطاع الرجاء ، وَطُمُوس[٤] العِلْم ، واقترابٍ من الساعة ، إلى أمة جاهلية ، مختلفةٍ أُمِّيَّة ، أهل عداوة وتضاغُن ، وفُرقة وتبايُن ، قد استهوتْهم شياطينُهم ، وغلب عليهم قُرَناؤهم[٥] ، فاستشعَروا الرَّدى ، وسلكوا العَمَى ، يبشر من أطاعهُ بالجنة وكريم ثوابها ، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها ، « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحثّكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقدرته ، والانتهاء إلى مايقرِّب من رحمته وينجِّى من سَخَطه ، ويُنَال به مالديه ، من كريم الثواب ، وجزيل المآب ، فاجتنِبوا ماخوَّفكم الله من شديد العقاب ، وأليم العذاب ، ووعيد الحساب ، يوم توقفون بين يدى الجبّار ، وتعرضون فيه على النار « يَوْمَ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » ؛ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ

(١) نعمه ، والمفرد إلى كحمل وشمس ، وألو كقفل ، وإلى كمعا وإلى كرضا .

(٢) البلاء : يكون منحة ، ويكون محنة . (٣) المختار . (٤) الدروس والامحاء .

(٥) القرين : المصاحب ، والشيطان : المقرون بالإنسان : لايفارقه .

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ؛ يَوْمَ لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ؛ يَوْمَ لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ » ، فإن الدنيا دار غرور ، وبلاء وشرور ، واضمحلال وزوال ، وتقلُّب وانتقال ، قد أفنَت مَنْ كان قبلكم ، وهي عائدة عليكم وعلى مَن بعدكم ، من رَكَنَ إليها صَرَعته ، ومن وَثِقَ بها خانته ، ومن أمَلها[1] كذبته ، وَمن رجاها خذَلته ، عِزّها ذل ، وغناها فقر ، والسعيد من تركها ، والشقى فيها من آثرها ، وَالمَغْبُون فيها من باع حظّه من دار آخرته بها ، فاللهَ اللهَ عِبادَ الله ، والتوبة مقبولة ، والرحمة مبسوطة ، وبادِروا بالأعمال الزكية[2] ، فى هذه الأيام الخالية ، قبل أن يؤخذ بالكَظَم[3] ، وتندموا فلا تنالون الندم ، فى يوم حسرة وتأسّف ، وكآبة وتلهّف ، يوم ليس كالأيام ، وموقف ضَنْك المقام . إنّ أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله تبارك وتعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم ، أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ — إلى آخر السورة — أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، وأرضى لكم طاعة الله ، وأستغفر الله لى ولكم » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

(١) أمله أملا وأمله بالتخفيف والتشديد . (٢) زكا يزكو : نما وصلح .
(٣) الكظم : الحلق أو الفم ، أو مخرج النفس ، أى قبل الموت .

مشاورة المهدى لأهل بيته

فى حرب خراسان

روى ابن عبد ربه قال :

« هذا ما تراجَعَ فيه المهدى ووزراؤه ، وما دار بينهم من تدبير الرأى فى حرب خراسان ، أيام تحامَلَت عليهم العمال وأَعْنَفَتْ ، فحملتهم الدالَّةُ وما تقدَّم لهم من المكانة، على أن نكثوا بيعتهم ، ونقَضُوا مَوْثِقَهم ، وطردوا العمال ، والتوَوا بما عليهم من الخراج ، وَحَمَل المهدىَّ مايحب من مصلحتهم ، ويكرَه من عَنَتهم ، على أن أقال عثرتهم ، واغتفر زَلَتهم ، واحتمل دالَّتهم ، تطوُّلا بالفضل ، واتساعاً بالعفو ، وأخذاً بالحجة ، ورفقاً بالسياسة ، ولذلك لم يزل مذ حمّله الله أعباء الخلافة ، وقلَّده أمور الرعية ، رفيقاً بمَدَار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطاً للمعدِلة فى رعيته ، تسكُن إلى كَنَفه ، وتأنَس بعفوه ، وتثق بحلمه . فإذا وقعت الأقْضية اللازمة ، والحقوق الواجبة . فليس عنده هوَادَة ، ولا إغضاء ، ولا مداهنة ، أثَرَةً للحق ، وقياماً بالعدل ، وأخذاً بالحزم؛ فدعا أهلَ خراسان الاغترارُ بحلمه ، والثقةُ بعفوه ، أنْ كَسَرُوا الخراج ، وطردوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خَلَطوا احتجاجاً باعتذار ، وخُصُومة بإقرار ، وتنصلاً باعتلال ؛ فلما انتهى ذلك إلى المهدى ، خرج إلى مجلسٍ خَلائه ، وبعث إلى نفر من لُحمته[1] ووزرائه ، فأعلمهم الحال ، واستنصحهم للرعية ، ثم أمر المَوالى[2] بالابتداء ، وقال للعباس[3] بن محمد : أىْ عمّ تعقَّبْ قولنا ، وكن حَكَماً بيننا ، وأرسل إلى ولديه

(١) اللحمة : القرابة . (٢) جمع مولى ، وهو هنا القريب كابن العم ونحوه .

(٣) هو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس أخو المنصور .

موسى وهرون ، فأحضرهما الأمر ، وشاركهما فى الرأى ، وأمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالتهم فى كتاب .

٥٥ ــ مقال سلام صاحب المظالم

قال سَلام صاحب المظالم :

« أيها المهدى : إن فى كل أمر غايةً ، ولكل قوم صناعةً ، استفرغَتْ رأيَهم ، واستغرَقَتْ أشغالَهم ، واستنفدَتْ أعمارَهم ، وذهبوا بها ، وذهبت بهم ، وعُرفوا بها ، وعُرِفت بهم ، ولهذه الأمور التى جعلْتَنا فيها غايةٌ ، وطلبتَ معونتنا عليها أقوام من أبناء الحرب وساَسَة الأمور ، وقادة الجنود ، وفُرْسان المزَاهز[1] ، وإخوان التجارب ، وأبطال الوقائع ، الذين رشَّحتهم سِجَالُهَا[2] ، وفيَّأتْهم ظِلالها ، وَعضَّتهم شدائِدُها ، وقَرَمَتهم نواجذُها[3] ، فلو عَجمْتَ ماقِبَلهم ، وكشفْتَ ماعندهم ، لوَجَدت نظائرَ تؤيِّد أمرك ، وَتجارِبَ توافق نظرك ، وأحاديثَ تقوِّى قلبك . فأمّا نحن معاشِرَ عمالك . وأصحابَ دواوينك . فحَسَنٌ بنا ، وكثير منا أن نقوم بثِقْل ما حَمَّلتنَا من عملك ، وَاستودَعْتَنا من أمانتك ، وشغلتنا به من إمضاء عدلك ، وإنفاذ حُكْمك ، وإظهار حقك » .

فأجابه المهدى : « إن فى كل قوم حكمةً . ولكل زمان سياسة . وفى كل حال تدبير . يُبطل الآخِرُ الأولَ . ونحن أعلم بزماننا ، وتدبير سلطاننا » .

قال نعم : أيها المهدى : أنت متسع الرأى ، وَثيق العُقدة ، قوىُّ المُنَّة[4] ، بليغ الفِطنة ، معصوم النية ، محضور الرويَّة ، مؤيَّد البديهة ، موفَّق العزيمة ، مُعَان بالظفَر ، مَهْدِىّ إلى الخير . إن هَمَمْتَ ففى عزمك مواقعُ الظن ، وإن اجتمعتَ صَدَع فعلُك

(١) المزهزة والمزاهز : تحريك البلايا والحروب الناس . (٢) جمع سجل كشمس : وهو الدلو العظيمة مملوءة . (٣) قرم الطعام : أكله ، والنواجذ : أقصى الأضراس . (٤) المنة : القوة .

ملتبس الشك . فاعزم يَهْدِ الله إلى الصواب قلبك . وقل يُنطق الله بالحق لسانك . فإن جنودك جَمّة . وخزائنك عامرة . ونفسك سخيّة . وأمرك نافذ » .

فأجابه المهدى : « المشاورة والمناظرة بابا رحمةٍ ومفتاحا بَرَكة . لايَهْلِك عليهما رأى ، ولا يتفيَّل[1] معهما حَزْم ، فأشيروا برأيكم ، وقولوا بما يَحْضُركم ، فإنى من ورائكم ، وتوفيقُ الله من وراء ذلك » .

٥٦ — مقال الربيع بن يونس[2]

وقال الربيع :

أيها المهدى : إن تصاريفَ وجوه الرأى كثيرة . وإن الإشارة ببعض مَعاريض القول يسيرة . ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة . مُتراخية الشُّقّة[3] . متفارقة السُّبل فإذا ارتأيت من مُحْكَمَ التدبير . ومُبْرَم التقدير . ولُباب الصواب ، رأيا قد أحكمَهُ نظرُك ، وَقلَّبهُ تدبيرك . فليس وراءه مذهب طاعن . ولا دونه مَغْلَق لخصُومة عائب . ثم خبَّت البُرُد[4] به ، وانطوت الرُّسُل عليه ، كان ماالحرَى أن لايصل إليهم مُحكمُه . إلا وقد حدث منهم ما يَنْقُضه . فما أيسَر أن ترجع إليك الرسل . وتَرِد عليك الكتب بحقائق أخبارهم ، وشوارد آثارهم ، ومَصادر أمورهم ، فتُحْدِث رأياً غيرَه ، وتبتدع تدبيراً سواه ، وقد انفرجت الحلَق ، وتحلَّت العُقَد ، واسترخى الحِقاب[5] ، وامتد الزمان . ثم لَعَلّ موقع الآخِرة كمصدر الأولى . ولكن الرأى أيها المهدى وفقك الله . أن تصرف إجالة النظر ، وتقليبَ الفِكَر فيما جمعتنا له ، واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم ، والحِيل فى أمرهم ، إلى الطلب لرجل ذى دين فاضل ، وعقل كامل ، ووَرَع

---

(١) فال رأيه وتفيل : أخطأ وضعف . (٢) وزر لأبى جعفر المنصور وقتله الهادى سنة ١٧٠ ﻫ
(٣) البعد والسفر البعيد . (٤) جمع بريد : وهو الرسول ، وخبت : أسرعت .
(٥) الحقاب : ما تشده المرأة فى وسطها .

واسع . ليس موصوفاً بهوًى فى سواك ، ولا متَّهَما فى أثَرَة عليك ، ولا ظَنيناً[1] على دُخْلة[2] مكروهة . ولا منسوباً إلى بدعة محذورة . فيَقْدَح فى ملكك، ويُرِيض[3] الأمور لغيرك ، ثم تُستند إليهِ أمورهم . وتفوِّض إليهِ حربَهم ، وتأمره فى عهدك ووصيتك إياه . بلزوم أمرك ما لَزِمَهُ الحزم . وخلافِ نهيك إذا خالفهُ الرأى ، عند استحالة الأمور ، واشتداد الأحوال التى يُنْقَض أمرُ الغائب عنها ، ويَثْبُت رأىُ الشاهدِ لها ، فإنه إذا فعل ذلك ، فواثَبَ أمرَهم من قريب ، وسقَط عنهُ ما يأتى من بعيد ، تمَّت الحيلةُ ، وَقَوِيت المَكيدة . ونفَذ العمل . وَأُحِدَّ النظر إن شاء الله » .

٥٧ — مقال الفضل بن العباس

قال الفضل بن العباس :

« أيها المهدى : إنَّ ولىَّ الأمور ، وسائسَ الحروب ، ربما نحَّى جنودَه ، وفرّق أمواله فى غير ماضيقِ أمرٍ حزَبه[4] ، ولا ضَغْطة حال اضطرَّته ، فيقعد عند الحاجة إليها ، وبعد التفرقة لها ، عَدِيماً منها . فاقِدًا لها . لايثق بقُوَّة ، ولا يصول بعُدّة ، ولا يَفزَعُ إلى ثقة . فالرأى لك أيها المهدى وفقك الله ، أن تُعفِى خزائنَك من الإنفاق للأموال ، وجنودَك من مكابدة الأسفار ، ومقارَعة الأخطار ، وتغرير القتال ، ولا تُسْرِعْ للقوم فى الإجابة إلى ما يطلبون ، والعطاءِ لما يسألون ، فيَفْسُد عليك أدبُهم ، وتجرُّئْ من رعيتك غيرَهم ، ولكن اغزُهم بالحيلة ، وقاتِلْهم بالمكيدة ، وصارعهم باللين ، وخاتِلْهم[5] بالرفق ، وأبْرِقْ[6] لهم بالقول ، وأرعِد نحوهم بالفعل ، وابعَث البعوث ،

(١) متهما .   (٢) دخلة الرجل مثلثة ، ودخيلته : نيته ومذهبه .

(٣) فى كتب اللغة : راضه وروضه : ذلله ، وأراض الأرض جعلها رياضا .   (٤) اشتد عليه .

(٥) خادعهم .   (٦) رعد وبرق ، وأرعد وأبرق : تهدد وتوعد .

وجنِّد الجنود ، وكتِّب الكتائب . واعقد الألويةَ ، وانصب الرايات . وأظهر أنك مُوَجِّهٌ إليهم الجيوشَ مع أحْنَق قُوّادك عليهم ، وأسْوَئِهم أثراً فيهم ، ثم ادسس الرسل ، وابْثُث الكتب ، وضع بعضهم على طمعٍ مِن وعدك ، وبعضا على خوفٍ من وعيدك ، وأوقِد بذلك وأشباهه نيرَانَ التحاسد فيهم ، واغرِس أشجار التنافس بينهم ، حتى تَملأ القلوبُ من الوَحْشة ، وتنطوى الصدورُ عَلَى البِغْضة ، ويدخل كلا من كلٍّ الحذرُ والهيبة ، فإن مَرَامَ الظفَر بالغِيلة ، والقتالَ بالحيلة ، والمناصبة[1] بالكتب ، والمكايَدة بالرسل ، والمقارَعَة بالكلام اللطيف المَدْخَل فى القلوب ، القوىِّ المَوْقِع من النفوس ، المعقود بالحجج ، الموصول باِلحَيَل ، المبنى على اللين الذى يستميل القلوب ، ويسترقُّ العقول والآراء ، ويستميلُ الأهواء ، ويستدعى المُواتاة[2] ، أنفذُ من القتال بظُبات السيوف، وأسنَّة الرماح، كما أن الوالى الذى يستنزل طاعة رعيته بالحيل. ويفرِّق كلمةَ عدوِّه بالمكايَدة ، أحكَمُ عملا . وألطَف منظراً ، وأحسَن سياسة من الذى لاينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال . والتغرير والِخطار[3] . وليَعْلم المهدى أنه إن وَجَّه لقتالهم رجلا لم يَسِر لقتالهم إلا بجنود كثيفة ، تخرج عن حال شديدة ، وتُقْدِم على أسفارٍ ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقود غَشَشَة ، إن ائتمنهم استنفدوا ماله ، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له » .

قال المهدى : « هذا رأى قد أسفر نُوره ، وأبرق ضوءه ، وتمثَّل صوابُه للعيون ، وتجسد حقه فى القلوب ، ولكن فوق كلِّ ذى علم عليم » ، ثم نظر إلى ابنه علىّ ، فقال : ما تقول ؟

(١) ناصبه الحرب والعداوة : أقامها . (٢) الموافقة . (٣) المخاطرة .

٥٨ — مقال على بن المهدى

قال علىّ بن المهدى :

« أيها المهدى : إن أهل خراسان لم يَخْلَعُوا عن طاعتك ، ولم يَنصِبوا من دونك أحداً ، يَقْدَح فى تغيير ملكك ، وَيُرِيض الأمور لفساد دولتك ، ولو فعلوا لكان الخطْبُ أيسَرَ ، والشأن أصغر ، والحال أذلّ ، لأن الله مع حقه الذى لايخذُله ، وعند مَوْعده الذى لايُخْلِفه ، ولكنهم قوم من رعيتك ، وطائفة من شِيعتك ، الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حا كا ، طَلَبوا حقًّا ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبتَ إلى دعوتهم ، ونفَّست عنهم قبل أن يتلاحَم منهم حال ، ويحدُث من عندهم فَتق ، أطعتَ أمر الرب ، وأطفأتَ نائِرة الحرب ، ووفَّرت خزائن المال ، وطرحْتَ تغريرَ القتال ، وحَمَل الناسُ مَحْمَل ذلك على طبيعة جُودك ، وسجيَّة حلمك ، وإسجاح[1] خليقتك ، ومَعْدِلة نظرك ، فأمِنت أن تُنْسَب إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقى دُرْبة ، وإن منعتهم ماطَلَبوا ، ولم تجِبهم إلى ماسألوا ، اعتدلَت بك وبهم الحالُ ، وساويتهم فى مَيْدان الخِطَاب ، فما أَرَبُ المهدى أن يعمِد إلى طائفة من رعيته ، مقرِّين بمملكته ، مُذعِنين بطاعته ، لايُخْرِجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يبرئونها من عبُوديته ، فيملِّكهم أنفسهم ، ويخلع نفسه عنهم ، ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء فى حَدّ القارعة ومِضمار المخاطرة . أيريد المهدى — وفقه الله — الأموالَ ؟ فلعمرى لاينالها ولا يظفَر بها إلا بإنفاق أكثر منها مما يطلب منهم ، وأضعافِ مايدَّعى قِبَلهم ، ولو نالها فَحُمِلت إليه ، وَوُضِعت بخرائطها[2] بين يديه

(١) الإسجاح : حسن العفو .

(٢) جمع خريطة : وهى وعاء من أدم وغيره يشرج على ما فيه .

ثم تجافى لهم عنها ، وطال عليهم بها ، لـكان إليه مما يُنسَب ، وبه يُعرَف ، من الجود الذى طبَعَه الله عليه ، وجعل قُرَّة عينه ، ونَهْمَة[1] نفسه فيه ، فإن قال المهدى : هذا رأىٌ مستقيم سديد ، فى أهل الخراج الذين شَـكَوا ظلم عمالنا ، وتحامُل وُلاتنا ؛ فأما الجنود الذين نَقَضوا مواثيق العهود ، وأنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا باب المعصية ، وكسروا قَيْد الفتنة ، فقد ينبغى لهم أن أجعلهم نَـكالا لغيرهم ، عِظة لسواهم ، فيعلم المهدى أنه لو أُتِىَ بهم مغلولين فى الحديد ، مُقرَّنين[2] فى الأصفاد[3] ، ثم اتسع لِحَقْنِ دمائهم عفوُه ، ولإقالة عثرتهم صَفْحُه ، واستبقاهم لما هم فيه من حربه ، أو لمن بإزائهم من عدوه ، لَمَا كان بِدْعاً من رأيه ، ولا مستنكَرًا من نظره ، لقد علمت العربُ أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً ، وأشدها وَقعاً ، وأصدقها صولة ، وأنه لا يتعاظمه[4] عفوٌ ، ولا يتـكاءدُه[5] صفحٌ ، وإن عظُم الذنبُ ، وجَل الخطبُ ، فالرأى للمهدى وفقه الله تعالى أن يَحُل عُقدة الغيظ ، بالرجاء لحسن ثواب الله فى العفو عنهم ، وأن يذكر أولَى حالاتهم ، وَضَيْعَة عِيالاتهم ، بِرًّا بهم ، وتوسُّعاً لهم ، فإنهم إخوان دولته ، وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول ، وبحُجَّتهم يقول ، وإنما مَثَلهم فيما دخلوا فيه من مَسَاخِطه ، وتعرَّضوا له من معاصيه ، وانطَوَوا فيه عن إجابته ، وَمَثَله فى قلة ما غيَّر ذلك من رأيه فيهم ، أو نَقَل من حاله لهم ، أو تغيَّر من نعمته بهم ، كمثل رجلين أخَوين متناصِرَين متوازِرَين ، أصاب أحدَهما خبَلٌ عارض ، وَلَمَمٌ حادث. فنهض إلى أخيه بالأذى ، وتحامل عليه بالمكروه ، فلم يزدد أخوه إلا رقَّةً له ، ولطفاً به ، واحتيالًا لمداواة مرضه ، ومراجعةِ حاله ، عطفا عليه ، وبرًّا به ، ومرْحَمَةً له » .

---

(١) النهمة : الحاجة وبلوغ الشهوة فى الشىء .

(٢) مقيدين . (٣) الأصفاد : القيود ؛ جمع صفد كسبب .

(٤) تعاظمه الأمر : عظم عليه . (٥) تكاءده الأمر : شق عليه .

فقال المهدى : أما علىّ فقد نوى سَمْتَ اللِّيان[1] ، وَفَضَّ القلوبِ فى أهل خراسان ، ولِكلٍّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ، فقال : ما ترى يا أبا محمد يعنى موسى ابنهُ (الهادى) .

٥٩ — مقال موسى بن المهدى

فقال موسى :

« أيها المهدى : لَاتَسْكُنْ إلى حلاوة مايجرى من القول على ألسنتهم ، وأنت ترى الدماء تسيل من خَلَل فعلهم ، الحالُ من القوم ينادى بمَضْمَرَة شر ، وخَفِيَّة حِقْد ، قد جعلوا المعاذِرَ عليها سِتراً ، واتخذوا العِلَلَ من دونها حجاباً ، رجاء أن يدافعوا الأيامَ بالتأخير ، والأمورَ بالتطويل ، فيكْسِرُوا حِيَل المهدى فيهم ، ويُفنوا جنودَه عنهم ، حتى يتلاحم أمرهم ، وتتلاحق مادَّتهم ، وتستفحل حربهم ، وتستمر الأُمور بهم والمهدى من قولهم فى حالِ غِرَّة ، ولِباسِ أَمَنَة ، قد فَتَرَ لها ، وأَنِس بها ، وسكن إليها . ولولا ما اجتمعت به قلوبُهم ، وَبَرَدت عليه جلودُهم من المناصبَة بالقتال ، والإضمار للقِراع ، عن داعية ضلال ، أو شيطان فساد ، لرَهِبُوا عواقب أخبار الوُلاة ، وغِبَّ بسكون الأُمور ، فليَشْدُد المهدى وفَّقه الله أزرَه[2] لهم ، ويكتِّب كتائبه نحوهم ، وليَضع الأَمر على أشد مايَحْضُره فيهم ، وليوقِن أنه لايعطيهم خُطَّة يريد بها صلاحهم ، إلا كانت دُرْبة إلى فسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم ، وسبباً لفساد مَنْ بِحَضرتِه من الجنود ، ومن ببابه من الوفود الذين إنْ أَقرَّهم وتلك العادةَ ، وأجراهم على ذلك الأَرَب ، لم يبرح فى فَتْقٍ حادث ، وخلافٍ حاضر ، لايصلُح عليهِ دين ، ولا تستقيم به دنيا ، وإن طلب تغييرَه بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُّرْبة ، لم يصل

---

(١) اللِّيان : الملاينة . مصدر لاين . والسمت : الطريق .

(٢) القوة والظهر .

إلى ذلك إلا بالعقوبة المُفْرِطة . والمئُونة الشديدة . والرأىُ للمهدى وفقه الله أن لا يُقيل عثرتهم . ولا يقبل مَعْذِرتهم . حتى تطأهم الجيوشُ . وتأخذهم السيوفُ . ويستحِرَّ[1] بهم القتلُ . ويُحْدِق بهم الموت . ويحيط بهم البلاء . وَيُطْبِق عليهم الذّل . فإن فعل المهدى بهم ذلك . كان مَقْطَعة لكل عادة سوء فيهم . وهزيمة لكل بادرة شرٍّ منهم . واحتمالُ المهدىّ فى مَئُونة غزوتهم هذه . تضع عنهُ غزواتٍ كثيرة . ونفقاتٍ عظيمة » .

فقال المهدى : « قد قال القوم . فاحكم يا أبا الفضل » .

٦٠ — مقال العباس بن محمد

فقال العباس بن محمد :

« أيها المهدى : أما المَوَالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلكوا جَنَبات الصواب ، وتعدَّوا أموراً قَصَّر بنظرهم عنها ، أنه لم تأت تجارِبُهم عليها . وأما الفضلُ فأشار بالأموال ألا تُنفَق ، والجنودِ ألّا تفرَّق ، وبأن لا يُعْطَى القومُ ماطلبوا ، ولا يُبذَل لهم ما سألوا . وجاء بأمر بَيْنَ ذلك استصغاراً لأمرهم ، واستهانةً بحربهم . وإنما يَهيجُ جَسِيماتِ الأمورِ صغارُها .

وأما علىٌ فأشار باللين وإفراط الرِّفْق . وإذا جَرَّد الوالى لمن غَمَط أمرَه وسَفِه حقَّه ، اللين بَحْتاً ، والخيرَ مَحْضاً . لم يَخلِطهما بشدةٍ تعطِف القلوب عن لينه . ولا بشرٍّ يَحْبِسهم إلى خيره . فقد ملَّكهم الخلعَ لعذرهم . ووسَّع لهم الفُرْجَةَ لِثَنْي أعناقهم . فإن أجابوا دعوته . وقبِلوا لِينه من غير خوف اضطرهم ولا شدة . فَنَزْوَة[2] فى رءوسهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم . ويستصرخون بها رأى المهدى فيهم . وإن لم يقبلوا دعْوته . ويسرعوا لإجابته باللين المَحْض ، والخير الصُّراح . فذلك ما عليه الظن بهم ، والرأىُ فيهم ، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم . لأن الله تعالى خلق الجنة . وجعل فيها

---

(١) يشتد .   (٢) وثبة إلى الشر .

من النعيم المقيم . والملك الكبير . مالا يخطُر على قلب بشر . ولا تُدْرِكه الفِكَر . ولا تعلمه نفسٌ ، ثم دعا الناس إليها ، ورغّبهم فيها . فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمةً يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا بشدة لا لينَ فيها . وأن يُرْمَوْا بشرٌ لا خيرَ معه وإذا أضمر الوالى لمَن فارق طاعتَه . وخالَف جماعتَه . الخوفَ مُفْرَدا . والشر مجرّدا . وليس معهما طمع . ولا لينٌ يَثْنيهم . اشتدت الأمور بهم . وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين . إما أن تدخلهم الحمِيَّةُ من الشدة . والأنفةُ من الذلة . والامتعاض من القهر . فيدعوهم ذلك إلى التّمادى فى الخلاف . والاستبسال فى القتال . والاستسلام للموت . وإما أن ينقادوا بالكُرْه . ويُذْعنوا بالقَهر على بِغْضة لازمة . وعداوة باقية . تُورث النفاق . وتُعقِب الشقاق . فإذا أمكنتهم فرصةٌ أو ثابَت[1] لهم قدرة . أو قوِيت لهم حال . عاد أمرهم إلى أصعبَ وأغلَظ وأشدَّ مما كان .

وقال فى قول أبى الفضل : أيها المهدى أ كفى دليل . وأوضح برهان . وأبين خبر بأن قد أجمع رأيه . وحَزَم نظره علَى الإرشاد ببِعثة الجيوش إليهم . وتوجيه البعوث نحوهم . مع إعطائهم ما سألوا من الحق . وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل » .

قال المهدى : ذلك رأى .

٦١ — مقال هرون بن المهدى

قال هرون :

« خلطْتَ الشدةَ أيها المهدى باللين . فصارت الشدة أمرٌ فِطامٍ لَما تَكْره . وعاد اللين أهْدَى قائِد إلى ماتحِبّ . ولكن أري غير ذلك » .

قال المهدى : « لقد قلت قولا بديعا . وخالفتَ فيه أهل بيتك جميعا . والمرء

---

(١) رجعت .

مُؤْتمَن بما قال . وظَنِين بما ادَّعى . حتى يأتى ببيِّنة عادلة . وحُجَّة ظاهرة . فاخرج عما قلت » قال هرون : « أيها المهدى . إن الحرب خدعة[1] . والأعاجم قوم مَكَرة . وربما اعتدلت الحال بهم . واتفقت الأهواء منهم . فكان باطن مايُسرون على ظاهر مايُعْلِنون . وربما افترقت الحالان . وخالف القلبَ اللسان . فانطوى القلب على محجوبةٍ تُبْطَن . واستسرَّ بمدخولة لاتعلَن . والطبيب الرفيق بطبّه . البصير بأمره . العالم بمَقْدَم يده . وموضع مِيسمه[2] لايتعجل بالدواء . حتى يقع على معرفة الداء . فالرأى للمهدى — وفقه الله — أن يَفِرّ[3] باطن أمرهم فرَّ المُسِنَّة . ويمخَض ظاهر حالهم مَخْض السِّقاء . بمتابعة الكتب . ومظاهرة الرسُل . وموالاة العيون . حتى تُهْتَك حُجُب عيونهم . وتكشَف أغطية أمورهم . فإن انفرجت الحال وأفضت الأمور به إلى تغيير حال . أو داعية ضلال اشتملت الأهواء عليه . وانقاد الرجال إليه . وامتدت الأعناق نحوه بدين يعتقدونه . وإثم يستحلونه . عصَبهم بشدة لا لين فيها . ورماهم بعقوبة لاعَفْو معها . وإن انفرجت العيون . واهتُصرت الستور . ورُفعت الحُجُب . والحال فيهم مَرِيعة[4] . والأمور بهم معتدلة . فى أرزاق يطلبونها . وأعمال يُنكرونها . وظُلامات يدّعونها . وحقوقٍ يسألونها . بماتَّةٍ سابقتهم . ودالَّة مناصحتهم . فالرأى للمهدى — وفقه الله — أن يتسع لهم بما طلبوا . ويتجافى لهم عما كرِهوا . ويَشْعَب[5] من أمرهم ماصدَعوا . ويَرْتُق من فَتْقِهِمْ ماقطعوا . ويولِّى عليهم من أحبوا . ويداوى بذلك مرضَ قلوبهم وفساد أمورهم . فإنما المهدى وأمته . وسواد أهل مملكته . بمنزلة الطبيب الرفيق . والوالد الشفيق . والراعى المجرِّب الذى يحتال لمَرَابِض غنمه . وضَوَالّ رعيته . حتى يُبْرِئ المريضة من داء علتها . ويردّ الصحيحة إلى أُنْس جماعتها . ثم إن خراسان بخاصّة

---

(١) خدعة بسكون الدال وتثليث الخاء، وبضم الخاء وفتح الدال، أى تنقضى بخدعة .

(٢) الميسم : المكواة .   (٣) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف سنها .

(٤) مرع الوادى ككرم مراعة : أخصب بكثرة الكلأ فهو مريع .   (٥) تصلح .

الذين لهم دالَّة محمولة . ومآتَّة مقبولة . ووسيلة معروفة . وحقوق واجبة . لأنهم أيْدِى دولتِه . وسيوف دعوته . وأنصارُ حقه . وأعوان عدله . فليس من شأن المهدى الاضطغان عليهم . ولا المؤاخذة لهم . ولا التوعُّر[1] بهم . ولا المكافأة بإساءتهم . لأن مبادرة حَسْمِ الأمور ضَعيفةً قبل أن تقوى ، ومحاولةَ قطعِ الأصولِ ضئيلةً قبل أن تغلُظ ، أحزمُ فى الرأى وأصح فى التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلُها بكثيرها ، وتجتمع أطرافها إلى جُمهورها » .

قال المهدى : « ما زال هرون يقع وَقْع الحيا[2] حتى خرج خروج القَدَح من الماء وانسَلّ انسلال السيف فيما ادعى فدعوا ما سبق موسى فيه أنه هو الرأى ، وثنَّى بعده هرون ، ولـكن مَنْ لأعنة الخيل وسياسة الحرب وقيادة الناس إن أمعن بهم اللَّجاج وأفْرَطَتْ بهم الدَّالَّةُ ؟ » .

٦٣ — مقال صالح بن على[3]

قال صالح :

« لسنا نبلغ أيها المهدى بدوام البحث وطول الفِكْر أدنى فِراسةِ رأيك وبعضَ لَحَظَاتِ نظرك، وليس ينفضّ عنك من بيوتات العرب ورجالاتِ العجم، ذو دِين فاضل ورأى كامل، وتدبيرٍ قوى ، تقلِّده حربَك، وتستودِعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويَضْطَلِع بالأعباء الثقيلة وأنت بحمد الله ميمون النَّقيبة[4]، مبارَك العزيمة ، مَخْبور التجارب ، محمود العواقب معصوم العَزْم ، فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد تُوليه أمرك ، وتُسْند إليه ثَغْرك ، إلا أراك الله ما تحب ، وجمع لك منهُ ما تريد » .

---

(١) توعر الرجل : تشدد .   (٢) المطر .

(٣) هو صالح بن على بن عبد الله بن عباس .   (٤) النفس والطبيعة .

قال المهدى : « إنى لأرجو ذلك لقديم عادةِ الله فيه وحسن معونته عليه ولكن أحب الموافقةَ على الرأى ، والاعتبار للمشاورة فى الأمر المُهِمّ » .

٦٣ — مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أهل خراسان أيها المهدى قومٌ ذوو عِزَّة ومَنَعة ، وشياطينُ خَدَعة ، زُروعِ الحميَّة فيهم نابتة ، وملابس الأَنَفة عليهم ظاهرة ، فالرويَّة عنهم عازِبَة والعَجَلة فيهم حاضرة، تسبِق سيولُهم مَطرَهم، وسيوفهم عذْلَهُم، لأنهم بين سِفْلة لايعدو مبلغُ عقولهم منظرَ عيونهم ، وبين رؤساء لايُلْجَمُون إلا بشدة ولا يُفطَمون إلا بالمُرِّ ، وإن ولَّى المهدى عليهم وضيعاً لم تنقَدْ له العظماء ، وإن ولَّى أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء وإن أخر المهدى أمرَهم ، ودافع حربَهم ، حتى يُصِيب لنفسه من حَشَمه ومواليه أو بنى عمه أو بنى أبيه ناصحاً ، يتَّفق عليه أمرهم ، وثِقةً تجتمع له أَمْلاؤهم[1] بلا أَنَفة تَلْزَمهم . ولا حَمِية تَدْخُلهم ، ولا مصيبة تنفِّرهم ، تنفَّست الأيام بهم ، وتراخت الحال بأمرهم . فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم ، مالا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جَدّ ، ولا يستصلحه وإن جَهَد ، إلا بعد دهر طويل ، وشرّ كبير ، وليس المهدى — وفقه الله — فاطِماً عاداتِهم ، ولا قارِعًا صَفَاتَهم[2] ، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ، ولا عِدْل[3] فى ذلك بهما ، أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ، ويدٌ ممثَّلة لعينك ، وصخرةٌ لاتُزَعْزَعُ ، وبُهْمَة[4] لا تُثْنَى ، وبازِلٌ[5] لا يُفزعه صوتُ الجلْجُل ، نقىّ العِرْض ، نَزِيه النفس ، جليل الخطر[6] اتَّضعت الدنيا عن قَدْره ، وسما نحو الآخرة

---

(١) جمع ملأ كسبب : وهو الجماعة . (٢) الصفاة : الحجر الصلد الضخم . (٣) العدل : النظير .

(٤) البهمة : الصخرة ، والشجاع الذى لايهتدى من أين يؤتى . (٥) البازل : الجمل فى السنة التاسعة ، والرجل الكامل فى تجربته . (٦) القدر .

بهمّته ، وجعل الغَرَض الأقصى لعينه نُصْباً ، والغَرض الأدنى لِقَدَمِه مَوْطِئاً ، فليس يقبل علا ، ولا يتعدى أملا ، وهو رأس مَوَالِيك ، وأنصح بنى أبيك ، رجل قد غُذِّى بلطيف كرامتك ، وَنَبَت فى ظل دولتك ، ونشأ على قوائم أدبك ، فإن قلَّدته أمْرَهم وَحَمَّلته ثِقْلَهم ، وأسندتَ إليه ثغرَهم ، كان قُفْلا فتحه أمرُك ، وبابا أغلقه نهيُك . فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصاف بينه وبينهم حاكما ، وإذا أحكم المَنْصَفة . وملك المَعْدَلة ، فأعطاهم مالهم ، وأخذ منهم ما عليهم ، غرس لك فى الذى بين صدورهم وأسكن لك فى السُّوَيْدَاء ، داخلَ قلوبهم ، طاعةً راسخةَ العروق ، باسقةَ الفروع ، متمائلةً فى حواشى عوامِّهم ، متمكنةً من قلوب خواصِّهم ، فلا يبقى فيهم ريبٌ إلا نفوه ولا يلزمهم حقٌّ إلَّا أدَّوه ، وهذا أحدها ، والآخر عُودٌ من غَيْضَتك[1] ، وَنَبْعَة من أرومتك ، فَتِيّ السن ، كَهْل الحِلم ، راجح العَقل ، محمود الصَّرامة ، مأمون الخلاف . يجرِّد فيهم سيفه ، ويبسُط عليهم خيره ، بقدر ما يستحقون ، وعلى حسب مايستوجبون وهو فلان أيها المهدى ، فسلِّطه ــ أعزك الله ــ عليهم ، ووجِّهه بالجيوش إليهم ، ولا تمنعْك ضَراعة[2] سِنّه ، وحداثة مَوْلِده ، فإن الحِلْم والثقة مع الحداثة ، خير من الشك والجهل مع الـكهولة ، وإنما أحداثـكم أهلَ البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصكم به من مكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصَرامة الأنفس ، كفِراخ عِتاق الطير ، المُحْـكِمة لأخذ الصيد بلا تَدْريب ، والعارفة لوجوه النَّفْع بلا تأديب . فالحلم والعلم ، والعزم والحزم ، والجود والتُّؤَدة ، والرفق ، ثابت فى صدوركم ، مزروع فى قلوبكم ، مُسْتحكِم لـكم ، متـكامِلٌ عندكم بطبائعَ لازمة ، وغرائزَ ثابتة » .

---

(١) الغيضة : الأجمة ومجمع الشجر فى مغيض ماء . (٢) المراد حداثة

٦٤ — مقال معاوية بن عبد الله

قال معاوية بن عبد الله :

« أفتاء[1] أهلِ بيتك أيها المهدى فى الحِلْم على ماذُكِر ، وأهل خراسان فى حال عزٍّ على ماوُصِف ، ولكن إن ولَّى المهدى عليهم رجلا ليس بقديم الذكر فى الجنود . ولا بنبيه الصوت فى الحروب ، ولا بطويل التجربة للأمور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش ، والهَيْبة فى الأعداء دخل ذلك أمران عظيمان ، وَخَطَران مَهُولان ، أحدهما أن الأعداء يغتمزونها منهُ ، وَيحتقرونها فيه ، وَيجترئون بها عليه ، فى النهوض به . وَالمقارَعة له ، وَالخلاف عليه ، قبل ماحين الاختبار لأمره ، وَالتكشف لحاله ، وَالعلم بطباعه ؛ وَالأمر الآخر أن الجنود التى يقود، وَالجيوش التى يَسُوس ، إذا لم يختبروا منهُ البأسَ وَالنَّجْدة ، وَلم يعرفوه بالصوت[2] وَالهَيبة، انكسرت شجاعتهم، وَماتت نجدتهم وَاستأخرت طاعتهم ، إلى حين اختبارهم ،ووقوع معرفتهم، وَربماوقع البَوَارُ قبل الاختبار وَ بباب المهدى — وَفَّقه اللهُ — رجل مَهِيب نبيه حَنِيك[3] صيِّت ، له نسبٌ زاكٍ . وَصوتٌ عال ، قد قاد الجيوشَ وَساس الحروبَ ، وَتألَّف أهلَ خراسان ، وَاجتمعوا عليه بالمِقَة ، وَوَثِقوا به كل الثِّقة ، فلو ولَّاه المهدى أمرهم ، لكفاه الله شرهم » .

قال المهدى : « جانبتَ قَصْد الرَّمِيَّة ، وَأبَيْت إلا عَصَبِيَّة إذ رأْيُ الحدَث من أهل بيتنا ، كرأى عشرة حُلَماء من غيرنا . وَلكن أين تركتم وَلى العهد ؟ » .

قالوا : « لم يمنعنا من ذكره إلا كونُه شبيه جَده ، وَنسيجَ وَحدِه[4] . ومن الدين وَأهله . بحيث يقْصُر القول عن أدنى فضلِه ، وَلكن وَجدنا الله عز وَجل حَجَب عن

---

(١) جمع فتى كيتيم وأيتام . (٢) الصوت والصات والصيت : الذكر الحسن . (٣) محنك .

(٤) هو نسيج وحده : لا نظير له متفرد بخصال محمودة لايشركه فيها غيره ، كما أن الثوب النفيس لا ينسج على منواله غيره ، أى لا يشرك بينه وبين غيره فى السدى .

خلقه ، وستَر دون عباده ، عِلْمَ ماتختلف به الأيام ، ومعرفةَ ماتجرى عليه المقاديرُ من حوادث الأُمور ، وريْب المنون[1] المُخْتَرِمة لِخَوالِى القرون ، وَمواضى الملوك فـكرِهنا شُسُوعَه[2] عن مَحِلّة الملك ، وَدار السلطان ، وَمقرّ الإمامة وَالولاية ، وموضع المدائن والخزائن ، وَمستقرّ الجنود ، وَمَعْدِن الجود ، وَمَجْمَع الأموال التى جعلها الله قُطْباً لِمَدار الملك ، ومِصْيدة لقلوب الناس ، وَمَثابةً لإخوان الطمع ، وَثُوّار الفتن ، وَدوَاعى البِدَع . وفُرسان الضلال ، وأبناء الموت ، وقلنا إن وَجَّه المهدى ولىَّ عَهده ، لحدث فى جيوشه وَجنوده ، ماقد حدث بجنود الرسل من قبله ، لم يستطع المهدى أن يُعَقِّبَهم بغيره ، إلا أن ينهض إليهم بنفسه ، وهذا خَطَر عظيم ، وهول شديد ، إن تنفَّست الأيام بتقامه . وَاستدارت الحال بإمامِه ، حتى يقع عِوَض لايُسْتَغْنَى عنه ، أو يَحْدُث أمر لابُدَّ منهُ . صار ما بعده ممـا هو أعظم هَوْلًا وَأجل خَطَرًا ، له تَبعاً ، وبه متصلا » .

٦٥ — مقال المهدى

قال المهدى :

« الخطْبُ أيسرُ مما تذهبون إليه ، وعلى غير ماتصفون الأمرَ عليه ، نحن أهلَ البيت نجرى من أسباب القضايا ، ومَواقع الأُمور ، على سابِقٍ من العلم ، ومحتومٍ من الأَمر ، قد أنبأت به الـكتبُ ، وَتنبَّأت عليه الرسلُ ، وَقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا . وَتـكامل بحذَافيره[3] عندنا ، فبهِ ندبِّرُ ، وعلى الله نتوكل ، إنه لابُدَّ لولىٍّ عهدى . وَوَلىٍّ عَهْدِ عقبى بعدى أنْ يقود إلى خراسان البعوثَ ، ويتوجه نحوها بالجنود ؛ أما الأول فإنه يُقدم إليهم رسله ، ويُعمل فيهم حِيَلَه . ثم يخرج نَشِيطاً إليهم حَنِقاً

(١) المنون المنية (مؤنث) والمخترمة : المهلكة ، والخوالى جمع خالية : وهى الماضية .

(٢) شسع كمنع شسعا وشسوعا : بعد فهو شاسع وشسوع .

(٣) جمع حذفور كعصفور أو حذفار كقرطاس : وهو الجانب .

عليهم . يريد أن لايدعَ أحداً من إخوان الفتن ، وَدوَاعى البدع ، وَفُرْسان الضلال . إلا توطَّأه بجرّ القتال ، وألبسه قِناع القَهْر . وقلّده طوق الذل ، ولا أحداً من الذين عملوا فى قص جَناح الفتنة ، و إخماد نار البدعة ، ونُصرة وُلاة الحق ، إلا أجرى عليهم دِيَم فضله ، وَجداولَ نَهْلِه ، فإذا خرج مُزْمِعاً به ، مُجْمِعاً عليه ، لم يَسِر إلا قليلا حتى يأتيه أن قد عملت حيله ، وَكَدَحت كتبه ، ونَفَذت مكايده ، فهَدَأت نافرةُ القلوب . ووقعت طائرة الأهواء ، واجتمع عليه المختلفون بالرضا ، فيميل نظراً لهم ، وبرًّا بهم . وتعطفاً عليهم ، إلى عدو قد أخاف سبيلَهم وقطع طريقهم ، وَمنع حجاجهم بيتَ الله الحرام ، وَسلب تجارَهم رزقَ الله الحلال ؛ وَأما الآخر فإنه يوجّه إليهم ، ثم تعتقد له الحجَّة عليهم بإعطاء مايطلبون ، وَبذْلِ مايسألون ، فإذا سَمَحت الفِرَق بقراباتها له . وَجَنَحَ أهل النواحى بأعناقهم نحوه ، فأصْغَت إليه الأفئدة ، وَاجتمعت له الكلمة . وقدِمت عليه الوفود ، قَصَد لأول ناحية بخَعَت[1] بطاعتها ، وَألْقَتْ بأزِمَّتها ، فألبَسها جَناح نعمته ، وَأنزلها ظِلّ كَرامته وَخصّها بعظيم حِبائه[2] ، ثم عمّ الجماعة بالمَعْدِلة . وتعطَّف عليهم بالرحمة ، فلا تبقى فيهم ناحية دانية ، ولا فِرْقة قاصِية ، إلا دخلت عليها بركتُه ، ووصلت إليها منفعتُه ، فأغنى فقيرها ، وَجبَر كَسِيرها ، ورَفع وضيعَها . وزاد رفيعَها ، ماخلا ناحيتين ، ناحيةً يغلب عليها الشقاء ، وَتستميلهم الأهواء ، فتستخف بدعوته ، وَتُبْطئ عن إجابته ، وَتتثاقل عن حقه ، فتكون آخر مَنْ يَبْعَث ، وَأبطأ مَنْ يوجّه ، فيصطَلى عليها مَوْجِدة ، ويبتغى لها عِلّة ، لايلبث يجُد[3] بحقٍّ يلزمهم ، وَأمر يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحرّ بهم القتلُ ، وَيُحيط بهم الأسْر ، وَيُفنيهم التتبُّع ، حتى يُخرَّب البلاد وَيُوتِمَ الأولاد ، وناحيةً لايبسُط لهم أماناً ، ولا يقبل لهم عَهْدًا ، ولا يجعل لهم ذمَّة ، لأنهم أول من فتح باب الفُرقة .

---

(١) بخع بالحق بخوعا : أقر به وخضع له . (٢) عطائه . (٣) يغضب .

وتدرّع جلبابَ الفتنة ، وربَضَ فى شَقّ العَصاَ ، ولكنهُ يقتل أعلامَهم ، ويأسر قوادهم ويطلب هُرّابهم ، فى لُجَج البحار ، وَقُلَل الجبال، وَخَمِيل[1] الأودية، وبطون الأرض . تقتيلا وتغليلا وتنكيلا ، حتى يدعَ الدنيا خرابا ، والنساء أيَامَى ، وهذا أمر لانعرف له فى كتبنا وقتاً ، ولا نصحِّح منه غيرَ ما قلنا تفسيراً ؛ وأما موسى ولى عهدى ، فهذا أوَانُ تَوَجُّهه إلى خراسان ، وحلوله بجُرْجان ، وما قضى الله له من الشخوص إليها . وَالْمقام فيها ، خير للمسلمين مَغَبَّةً ، وَله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يُغمَر فى لُجَج بحورنا ، ومَدَافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغر عظيم فضله ، ويتذاءب[2] مَشْرِق نُوره ، ويتقلَّل كثير ما هو كائن منهُ ، فمن يصحبه من الوزراء ، ويختار له من الناس ؟ » .

٦٦ — مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أيها المهدى : إن وَلىَّ عهدك أصبحَ لأمَّتك ، وأهل ملتك ، عَلَماً قد تثنَّت نحوَه أعناقُها ، وَمدَّت سَمْتَه أبصارُها . وقد كان لقُرْب داره منك ، ومحلِّ جِواره لك ، عُطْلَ[3] الحال ، غُفْل الأمر ، واسعَ العذر . فأما إذا انفرد بنفسه . وخلا بنظره . وصار إلى تدبيره . فإن من شأن العامة أن تتفقَّد مخارجَ رأيه . وتستنصِت لمواقع آثاره وتسأل عن حوادثْ أحواله ، فى بِرِّه وَمَرْحمته . وإقساطه[4] وَمَعْدَلته ، وتدبيره وسياسته ، ووزرائه وأصحابه . ثم يكون ماسبق إليهم أغابَ الأشياء عليهم ، وأملكَ الأمور بهم ، وألزمها لقلوبهم ، وأشدها استمالةً لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهم . فلا يفتأ المهدى — وفقهُ الله — ناظراً له فيما يقوِّى عَمَدَ مملكته ، ويسدِّد أركان ولايته ،

(١) الخميل : بطن المسيل . (٢) يضطرب .

(٣) عطل (كفرح) من المال والأدب : خلا فهو عطل كقفل وعنق . (٤) عدله .

ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزينُ لحاله . وأظهرُ لجماله ، وأفضل مَغَبّةً لأمره ، وأجل مَوْقِعاً فى قلوب رعيته ، وأحمد حالا فى نفوس أهل مِلّته . ولا أدفعَ مع ذلك باستجماع الأهواء له . وأبلغَ فى استعطاف القلوب عليه ، من مَرْحمةٍ تظهر من فعله . ومعدلة تنتشر عن أثره . ومحبة الخير وأهله ، وأن يختار المهدىُّ ـ وفقهُ الله ـ من خِيار أهل كل بلدة . وفقهاء أهلِ كلّ مصر ، أقواماً تسكُن العامّةُ إليهم إذا ذُكِرُوا ، وتأنَس الرعية بهم إذا وُصِفوا . ثم تسهِّل لهم عِمَارة سُبُل الإحسان ، وَفتح باب المعروف . كما قد كان فُتح له ، وسُهِّل عليه » .

قال المهدى : صدقتَ ونصحتَ . ثم بعث فى ابنه موسى ، فقال :

٦٧ ـ مقال المهدى

« أى بُنَىّ . إنك قد أصبحتَ لسَمْت وجوه العامة نُصْباً ، ولَمثْنى أعطافِ الرعية غايةً ، فحسَنَتُك شاملةَ . وَإساءتك نائية ، وأمرك ظاهر ، فعليك بتقوى الله وطاعته . فاحتمِلْ سُخْط الناس فيهما ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ، فإن الله عز وجلّ كافيك مَن أسخطه عليك إيثارُكَ رِضاه . وليس بكافيك مَن يُسْخطه عليك إيثارُكَ رضا مَن سواه . ثم اعلم أن لله تعالى فى كلّ زمان فَترةً من رسله . وبقايا من صَفوة خلقه ، وَخَبايا لنُصرة حقه ، يجدِّد حَبْلَ الإسلام بدعواهم ، وَيشيِّد أركان الدين بنُصرتهم ، ويتخذ لأولياء دينه أنصاراً ، وعلى إقامة عدله أعواناً . يَسُدُّون الخلَل ، وَيُقيمون المَيَل ، ويدفعون عن الأرض الفساد ، وإن أهل خراسان أصبحوا أيدىَ دولتنا ، وسيوفَ دعوتنا ، الذين نستدفِعُ المَكارِه بطاعتهم ، ونستصرِف نزول العظائم بمُناصحتهم . وَنُدَافِع رَيْبَ الزمان بعزائمهم ، وَنُزَاحم ركن الدهر ببصائرهم ، وهم عِمَاد الأرض إذا أرجفَ كَنَفُها ، وخوفُ الأعداء إذا بَرَزت صَفْحَتُها ، وَحُصُون الرعية إذا تضايقت الحال بها ، قد مضت لهم وقائعُ صادقات ، ومواطِنُ صالحات ، أخمدَت نيرانَ

الفتن ، وَقسمت دوَاعِيَ البدع . وَأذلّت رقاب الجبّارين ، وَلم ينفكّوا كذلك ماجرَوا مع ريح دولتنا ، وَأقاموا فى ظِلٍّ دعوتنا ، وَاعتصموا بحبل طاعتنا ، التى أعزَّ الله بها ذِلّتهم ، ورفع بها ضَعَتهم ، وَجعلهم بها أرباباً فى أقطار الأرض، وَملوكا على رقاب العالمين بعد لباس الذل ، وَقِناع الخوف ، وَإطباقِ البَلاء ، وَمُحالفة الأسى ، وَجهْدَ البأس وَالضرّ . فظاهِرْ عليهم لباسَ كرامتك ، وأنزلهم فى حدائق نعمتك ، ثم اعرف لهم حق طاعتهم ، وَوَسيلة دالّتهم ، وماتّة سابقتهم ، وَحرُمَة مناصحتهم ، بالإحسان إليهم ، وَالتوسِعة عليهم ، وَالإثابة لمحسنهم ، وَالإقالة لمسيئهم .

أىْ بنى ، ثم عليك العامةَ . فاستدْعِ رضاها بالعدل عليها ، وَاستجلب مودتها بالإنصاف لها ، وَتحسَّنْ بذلك لربك ، وَتوثّقْ به فى عين رعيتك ، وَاجعل عُمّال العُذْر وَوُلاةَ الحجج مُقَدَّمةً بين يدى عملك ، وَنَصَفَة منك لرعيتك ، وَذلك أن تأمر قاضى كل بلد ، وَخِيارَ أهل كل مصر ، أن يختاروا لأنفسهم رجلا توليه أمرهم ، وَتجعل العدل حاكما بينه وَبينهم ، فإن أحسَنَ حمِدتَ ، وَإن أساء عُذِرتَ . هؤلاء عمّال العُذر ، وَوُلاة الحجج ، فلا يسقطنَّ عليك مافى ذلك إذا انتشر فى الآفاق ، وسبق إلى الأسماع من انعقاد ألسنة المرْجِفين ، وَكَبْتِ قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ، ولا ينفكّنَّ فى ظل كرامتك نازلا ، وَبِعُرَا حَبْلك متعلقا ، رجلان : أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب ، وَأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل ، وَحِلْم راجح ، ودين صحيح ، والآخر له دين غير مغموز ، وَموضع غير مَدْخول ، بصير بتقليب الكلام ، وتصريف الرأى ، وَأنحاء العَرب ، ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب ، وتصاريف الخطوب ، يضع آداباً نافعة ، وآثاراً باقية ، من محاسنك وتحسين أمرك ، وتحلية ذكرك ، فتستشيره فى حربك ، وتدخله فى أمرك ، فرجل أصَبْتَه كذلك ، فهو يأوى إلى محَلّتى ، ويرعى فى خُضرة جنانى ، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البُلدان ، وخيار الأمصار ، أقواماً يكونون جيرانك وَسُمّارك ، وأهل

مشاورتك فيما تُورِد ، وأصحاب مناظرتك فيما تُصْدِر ، فَسِرْ على بركة الله ، أصحبك الله مِن عَوْنه وتوفيقه دليلا يَهْدِى إلى الصواب قلبك ، وهادياً يَنطق بالخير لسانك » .

وكُتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد[1] .

(العقد الفريد ١ : ٥٧)

٦٨ — ابن عتبة يعزى المهدى ويهنئه

لما تُوُفِّى المنصور دخل ابن عُتْبة[2] مع الخطباء على المهدىّ ، فسلَّم فقال :

« آجَرَ اللهُ أميرَ المؤمنين على أمير المؤمنين قَبْلَه ، وبارك الله لأمير المؤمنين فيما خلَّفه له أمير المؤمنين بعده ، فما مصيبةٌ أعظم من فَقْد أمير المؤمنين ، ولا عُقْبَى أفضلُ من وِراثة مقامِ أمير المؤمنين ، فاقْبَلْ يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، وَاحتسِب عند الله أفضلَ الرَّزِية » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٠٣ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٥)

٦٩ — يعقوب بن داود يستعطف المهدى

لما سَخِط المهدى على وزيره يعقوب بن داود[3] أحضره ، فقال : يا يعقوب ، قال : لَبَّيك يا أمير المؤمنين ، تَلْبِيةَ مكروبٍ لِمَوْجِدتك ، شَرِق بغُصَّتك ، قال :

---

(١) ملاحظة : أقول : وهذا ينافى ما ورد فى التاريخ : إذ المعروف أن المهدى توفى فى المحرم سنة ١٦٩ وأعقبه الهادى ، الذى توفى فى ربيع الأول سنة ١٧٠ ، فكيف يكون تاريخ كتابة هذه المشاورة هو ربيع الآخر سنة ١٧٠ أى بعد وفاة المهدى والهادى ؛ مع أنه ذكر فى سياق خبرها أن المهدى أمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالتهم فى كتاب ، أى أنها كتبت فى المجلس الذى حدثت فيه المشاورة . والوارد فى التاريخ أيضا أن الهادى خرج إلى جرجان سنة ١٦٦ و ١٦٧ (راجع تاريخ الطبرى ج ١٠ ص ٧ — ٨) اللهم إلا أن يقال إنها كتبت فى مجلس المشاورة ، وبقيت محفوظة لدى كاتبها ، حتى نشرت للناس فى ربيع الآخر سنة ١٧٠ أى أن ذلك التاريخ هو تاريخ كتابتها لإعلانها للجمهور ، على أننا نتشكك فيها من وجهة أخرى ، وذلك لما نراه عليها من مسحة الكتابة الفنية المنسقة .

(٢) وفى العقد الفريد « أبو العيناء المحدث » .

(٣) وكان المهدى قد فوض إليه الأمور كلها ، وسلم إليه الدواوين ، وقدمه على جميع الناس ، ثم سخط عليه . وسبب ذلك أنه دفع إليه رجلا من العلويين ، وقال له : أحب أن تكفينى أمره ، فلما صار العلوى —

« ألم أرفع قدرك وأنت خامل ، وَأُسيِّر ذكرك وأنت هامل ، وَأُلبِسك من نعم الله تعالى وَنِعمى مالم أجِدْ عندك طاقةً لِحَمْله ، ولا قياماً بشكره ؟ فكيف رأيت الله تعالى أظهرَ[1] عليك ، وردَّ كيدك إليك ! » .

قال : « يا أمير المؤمنين ، إن كنتَ قلت هذا بتيقن وعلم فإنى معترف ، وإن كان بسعاية الباغين ، وَنمائم المعاندين ، فأنت أعلَمُ بأكثرها ، وأنا عائذٌ بكرمك ، وعميم شرفك » .

فقال : لولا الحِنْثُ[2] فى دمك لألبستك قيصاً لاتشد عليه أزراراً ، ثم أمر به إلى السجن ، فتولى وهو يقول : « الوفاء يا أمير المؤمنين كَرَم ، والمودة رَحِم ، وما على العفو ندَم ، وَأنت بالعفو جدير ، وبالمحاسن خَلِيق » ، فأقام فى السجن إلى أن أخرجه الرشيد . (زهر الآدب ٣ : ٢٠٧)

٧٠ — رجل من أهل خراسان يخطب بحضرة المهدى

وَقَدِم على المهدى رجل من أهل خراسان ، فقال : « أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، إنا قوم نَأَيْنَا عن العرب ، وَشغلتنا الحروبُ عن الخُطَب ، وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا ، وما فيه مصلحتُنا ، فيكتفِى منا باليسير عن الكثير ، ويقتصر على مافى الضمير ، دون التفسير » ، فقال المهدى : أنت أخطب من سمعته . (الصناعتين ص ٤٠)

— فريده ، قال له : يا يعقوب تلقى الله بدمى ، وأنا ابن على بن أبى طالب ، وابن فاطمة رضى الله عنها ، وليس لى إليك ذنب ؟ فرق له ، وحل سبيله ، ونمى الخبر إلى المهدى ، فأرسل فى طلب العلوى حتى ظفر به ، واستدعى يعقوب ، فقال : ما فعلت بالعلوى ؟ قال : قد أراح الله منه أمير المؤمنين ، قال : مات ؟ قال : نعم ، فاستحلفه ، فحلف له ، فأخرج إليه العلوى ، فلم يحر جوابا ، فأمر بحبسه فى بئر مظلمة ، ومازال محبوسا حتى عفا عنه الرشيد وتوفى سنة ١٨٦ هـ .

(١) أى أعان عليك .

(٢) فى الأصل « الحسب » وأرى أنها محرفة عن « الحنث » وهو الذنب العظيم والإثم .

٧١ — مقام صالح بن عبد الجليل بين يدى المهدى

دخل صالح بن عبد الجليل على المهدى ، فسأله أن يأذن له فى الكلام ، فقال : تكلم فقال :

« إنه لما سَهُل علينا ما توعَّر على غيرنا من الوصول إليك ، قُمْنا مَقامَ الأداءِ عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإظهار ما فى أعناقنا من فريضة الأمر والنهى ، عند انقطاع عُذْر الكِتْمان ، ولا سيَّما حين اتَّسَمْتَ بِمِيسَم التواضع ، ووعدتَ الله وَحَمَلَةَ كتابه إيثارَ الحق على ما سواه ، فجمَعَنا وَإياكَ مشهدٌ من مشاهد التمحيص ، لِيَتِمَّ مؤدِّينا على موعود الأداء عنهم ، وقابِلُنا على موعود القَبُول ، أو يزيدنا تمحيصُ الله إيانا فى اختلاف السر والعلانية ، وَيُحَلِّينا حِلْيَة الكذابين ، فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : « من حَجَبَ الله عنهُ العِلمَ ، عذّبه على الجهل ، وَأشد منهُ عذاباً مَنْ أقبل إليه العلم وأدْبَر عنه ، ومن أهدى اللهُ إليه علماً فلم يعمَلْ به ، فقد رَغِب عن هديةِ الله وقصَّر بها » ، فاقْبَلْ ما أهْدَى اللهُ إليك من ألسنتنا ، قبولَ تحقيق وعمل لا قبولَ سُمْعةٍ ورياء ، فإنه لا يَعْدَمك منا إعلامٌ لِمَا تجْهل ، أو مُواطأة على ما تعلَم ، أو تذكير لك من غفلةٍ ، فقد وَطَّن الله عزَّ وجلَّ نبيه عليه الصلاة والسلام على نزولها ، تعزيةً عما فات ، وَتحصيناً من التمادى ، وَدلالة على المخرج ، فقال : « وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » فَأَطْلِعِ الله على قلبك ، بما ينوِّر اللهُ به القلوبَ ، من إيثار الحق ، ومنابذة الأهواء فإنك إن لم تفعل ذلك يُرَ أثرُكَ وَأثرُ الله عليك فيه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

(العقد الفريد ١ : ٣٠٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٨١)

٧٢ — عظة شبيب بن شيبة للمهدى

وقال شَبيب بن شَيْبَة[1] للمهدى : « يا أمير المؤمنين ، إن الله إذ قَسم الأقسام فى الدنيا ، جعل لك أسْناها وَأعلاها ، فلا ترض لنفسك من الآخرة ، إلا مِثْل مارضى لك به من الدنيا، فأُوصيك بتقوى الله، فعليكم نَزَلَتْ ، ومنكم أُخِذت،وإليكم تُرَدّ » .

(العقد الفريد ١ : ٣٠٧)

٧٣ — خطبته فى تعزية المهدى بابنته

لما ماتت البانُوقَة بنت المهدىّ ، جَزِع عليها جزعاً لم يُسْمع بِمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألَّا يُحْجَب عنهُ أحد ، فأكثر الناس فى التعازى ، واجتهدوا فى البلاغة ، وفى الناس من ينتقد هذا عليهم من أهل العلم وَالأدب ، فأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ، وَلا أبلغ ، من تعزية شبيب بن شيبة ، فإنه قال :

« أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رُزِئْت أجراً ، وَأعقَبَك صبراً ، ولا أجهدَ الله بَلاءك بِنِقْمة ، وَلا نزع منك نعمةً ، ثَوَابُ الله خيرٌ لك منها ، ورحمة الله خير لها منك وأحقُّ ماصُبِرَ عليه مالا سبيل إلى رَدّه[1] » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢١)

٧٤ — خطبة أخرى له فى مدح الخليفة

قيل لبعض الخلفاء إن شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ويستعدّه، فلو أمرته أن يصعَد المنبر فجأة لرجوتَ أن يفتضح ، فأمر رسولا فأخذ بيده إلى المسجد فلم يفارقه حتى صعِد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم حق الصلاة عليه ، ثم قال :

---

(١) هو شبيب بن شيبة بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم المنقرى التميمى وهو ابن عم خالد بن صفوان . توفى فى حدود سنة ١٧٠ هـ .

(٢) روى صاحب العقد أن شبيبا عزى بهذا المقال المنصور على أخيه أبى العباس (العقد الفريد ٢ : ٣٥).

« ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة : الأسَد الخادِر[1] ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر ؛ فأما الأسد الخادر : فأشبهَ منهُ صولتهُ وَمَضَاءه ؛ وأما البحر الزاخر : فأشبه منهُ جوده وعطاءه ؛ وأما القمر الباهر : فأشبه منهُ نوره وَضِياءه ؛ وأما الربيع الناضر : فأشبه منهُ حسنه وبهاءه ، ثم نزل وأنشأ يقول :

وموقفٍ مثل حَدِّ السيف قمتُ به ... أَحمِى الذِّمار وترميني به الحدَق[2]

فما زَلِقَت ، وما ألقيت كاذبةً ... إذا الرجال على أمثالهِ زَلِقُوا

(العقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، ١ : ١٣٨ ، زهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

٧٥ — كلمات لشبيب بن شيبة

وقال شبيب : « اطاب الأدبَ ، فإنه دليل على المُرُوءة ، وزيادة فى العقل ، وصاحب فى الغُرْبة ، وَصِلَةَ فى المجاس » .

وقال للمهدى يوماً : « أراك الله فى بنيك ، ما أرى أباك فيك ، وأرى اللهُ بنيك فيك ، ما أراك فى أبيك » . (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وخرج من دار الخلافة يوماً ، فقال له قائل : كيف رأيتَ الناس ؟ قال : « رأيت الداخل راجياً ، والخارجَ راضياً » .

(البيان والتبيين ١ : ١٩٠ ، وزهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٧٦ — خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب
يوم ولى الرشيد الخلافة

روى الطبرى قال : لما كانت الليلة التى توفى فيها موسى الهادى ، أخرج هَرْثمة ابن أعْيَن هرون الرشيد ليلا ، فأقعده للخلافة ، فدعا هرون يحيى بن خالد بن بَرْمَك

(١) الخدر : أجمة الأسد ومنه يقال أسد خادر ، وأخدر الأسد: لزم الأجمة . وأخدر العرين الأسد : ستره فهو مخدر بكسر الدال وفتحها .
(٢) الذمار : ما تجب حمايته .

ـ وكان محبوساً ـ وقد كان عزم موسى على قتله ، وقتل هرون الرشيد فى تلك الليلة[1] فحضر يحيى ، وتقلَّد الوزارة ، ووجه إلى يوسف بن القاسم بن صُبَيح الكاتب ، فأحضره وأمره بإنشاء الكتب ، فلما كان غَداة تلك الليلة وحضر القوّاد ، قام يوسف ابن القاسم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله بمَنِّهِ وَلُطْفِهِ ، مَنَّ عليكم معاشرَ أهلِ بيت نبيه ، بيتِ الخلافة ، وَمَعْدِن الرسالة ، وإياكم أهلَ الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة ، من نعمِهِ التى لاتحصى بالعدد ، ولا تنقضى مدى الأبَد ، وأياديه التامة ، أنْ جَمَع أُلفتكم ، وأعْلَى أمركم ، وشد عَضُدكم ، وأوهن عدوكم ، وأظهر كلمة الحق ، وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزَّكم الله وكان الله قويًّا عزيزاً ، فكنتم أنصار دين الله المرتضَى ، والذَّابِّين بسيفه المنتضَى ، عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من أيدى الظَّلَمَة أئمة الجور ، والناقضين عهدَ الله ، والسافكين الدمَ الحرام ، والآكلين الفئ والمستأثرين به ، فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة ، واحذَروا أن تغيِّروا فيغيِّر بكم ، وإن الله جلَّ وعزَّ استأثر بخليفته موسى الهادى الإمام ، فقبضهُ إليه ، وولى بعده رشيداً مَرضيًّا أمير المؤمنين بكم رَءوفاً رحيما ، من محسنكم قَبولا ، وعلى مسيئكم بالعفو عَطوفاً ، وهو ـ أمتعهُ الله بالنعمة ، وَحفِظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة ، وتولَّاه بما تولَّى به أولياءه وأهلَ طاعته ـ يَعِدكم من نفسه الرأفةَ بكم ، والرحمة لكم ، وَقَسْم أعْطياتِكم فيكم عند استحقاقكم ، وَيَبْذُل لكم من الجائزة ، مما أفاء الله على الخلفاء ، مما فى بيوت المال ماينوب عن رزق كذا وكذا شهراً ، غير مُقَاصٍ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم وحاملا باقِيَ ذلك للدَّفع عن حريمكم ، وما لعلَّه أن يَحْدُث فى النواحى والأقطار من

(١) وكان الهادى يريد أن يجعل الخلافة فى ابنه جعفر ، ويخلع أخاه هارون . وسعى إلى الهادى بيحيى ابن خالد ، وقيل له إنه ليس عليك من هرون خلاف ، وإنما يفسده يحيى بن خالد ، فأغضب ذلك موسى الهادى على يحيى وأمر بحبسه .

العُصاة المارقين ، إلى بيوت الأموال ، حتى تعود الأموال إلى جِمامها[1] وكثرتها ، والحال التى كانت عليها ، فاحمَدوا الله وجدِّدوا شكراً يُوجِبُ لكم المزيدَ من إحسانه إليكم ، بما جدَّد لكم من رأى أمير المؤمنين ، وتفضل به عليكم ، أيَّده الله بطاعته ، وارغبوا إلى الله له فى البقاء ، ولكم به فى إدامة النَّعماء ، لعلكم ترحمون ، وأعطوا صَفْقة أيمانكم ، وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولا كم وِلايةَ عِبادِه الصالحين » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٤٨)

٧٧ — خطبة هرون الرشيد (توفى سنة ١٩٣ هـ)

« الحمد لله نحمَده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصِرُهُ على أعدائه ، ونؤمن به حقا ، ونتوكل عليه ، مفوِّضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وَحْدَه لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على فَتْرَة من الرسل، وَدُرُوسٍ[2] من العلم ، وإدبارٍ من الدنيا ، وإقبالٍ من الآخرة ، بشيراً بالنعيم المقيم ، ونذيراً بين يدى عذاب أليم ، فبلَّغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهَدَ فى الله ، فأدَّى عن الله وعده ووعيده ، حتى أتاه اليقين ، فعلى النبى من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن فى التقوى تكفيرَ السيئات ، وتضعيفَ الحسنات ، وفوزاً بالجنة ، ونجاةً من النار ، وَأُحذِّركم يوماً تَشْخَص[3] فيه الأبصار ، وَتُعْلَن فيه الأسرار ، يوم البعث ، ويوم التغابن[4] ، ويوم التَّلَاق ، ويوم التَّنادِ ، يوم لا يُسْتَعْتَب من سيئة ، ولا يُزْداد من حسنة ، يوم الآزِفَةِ[5] ، إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ، يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ[6]

(١) كثرتها . (٢) دروس : امحاء . (٣) شخص بصره كمنع : فتح عينيه ، وجعل لا يطرف .
(٤) يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن أهل الجنة تغبن فيه أهل النار بأخذ منازلهم فى الجنة لو آمنوا .
(٥) القيامة ، من أزف كفرح : دنا وقرب . (٦) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

عباد الله : إنكم لم تُخلَقُوا عبثاً ، ولن تُتْرَكوا سُدًى ، حصِّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالوَرَع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له ، ولا دينَ لمن لا عهد له ، ولا صلاةَ لمن لا زكاة له » . إنكم سَفْر[1] مجتازون ، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسَارِعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ، فإن الله تعالى ذِكره أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمُنيبين . قال الله عز وجل وقوله الحق : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » ، وقال : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » وإياكم والأمانيَّ ، فقد غرَّت وأرْدَت[2] ، وأوبقَت كثيراً ، حتى أكذبتهم مناياهم ، فتناوشوا[3] التوبة من مكان بعيد ، وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَايَشْتَهُونَ ، فأخبركم ربكم عن المَثُلَات فيهم وصرَّف الآيات ، وضربَ الأمثال ، فرغَّب بالوعد ، وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالى جيلًا فجيلا ، وعَهِدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر ، باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ، ومن بين أظهُرِكم ، لاتدفعون عنهم ، ولا تحولون دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ، وَانقطعت بهم الأسباب ، فأسْلَمَتْهُم إلى أعمالهم عند المواقف وَالحساب والعقاب ، « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . إن أحسن الحديث وَأبلغ الموعظة كتاب الله ؛ يقول الله عز وجل « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم : قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ .

---

(١) جماعة المسافرين . (٢) أهلكت وكذا أوبقت . (٣) تناولوا .

اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ . وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . آمُرُكم بما أمركم الله به ، وَأنهاكم عما نهاكم عنهُ ، وَأستغفر الله لى وَلكم . (العقد الفريد ٢ : ١٤٧)

٧٨ — وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين

وَوَصى الرشيد مؤدب وَلده الأمين ، فقال :

« يا أحمر[1] ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهْجَة نفسه ، وَثَمَرَة قلبه ، فصيَّر يدك عليه مبسوطةً ، وَطاعتَهُ لك وَاجبة ، فكن له بحيث وَضَعك أمير المؤمنين ، أقرِئه القرآن ، وَعَرِّفْه الأخبار ، وَرَوِّه الأشعار ، وَعلِّمه السنن ، وَبَصِّره بمواقع الكلام وَبَدْئِه ، وامنعه من الضَّحِك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، وَرَفْع مجالِسِ القوَّاد إذا حَضَرُوا مجلسه ، ولا تمرَّنَّ بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنم فائدةً تُفيده إياها ، من غير أن تُحْزِنه ، فتُميتَ ذِهنَه ، وَلا تُمْعِنْ فى مسامحته ، فيستحلِيَ الفراغَ وَيألفَه ، وَقوِّمْهُ ما استطعتَ بالقرب وَالملاينة ، فَإنْ أباهما فعليك بالشدة وَالغِلْظَة » .

(مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٢)

٧٩ — خطبة لجعفر بن يحيى البرمكى (قتل سنة ١٨٧ هـ)

وَهاجت العصبية بالشأم بين أهلها فى عهد الرشيد (سنة ١٨٠ هـ) وَتفاقم أمرها ، فاغتمَّ لذلك الرشيد ، وَعقد لجعفر بن يحيى على الشأم ، وَقال له : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : بل أقيك بنفسى ، فشخص فى جِلَّةِ القواد وَالكُرَاع وَالسلاح ، فأتاهم فأصلح بينهم ، وَقتل زَوَاقيلهم[2] وَالمتلصِّصة منهم ، وَلم يدَعْ بها رمحاً وَلا فرساً ، فعادوا إلى الأمن وَالطُّمأنينة ، وَأطفأ تلك النائرة .

---

(١) هو على بن المبارك الأحمر صاحب الكسائى ، وكان يؤدب الأمين ، وكان مشهوراً بالنحو والنساع الحفظ ، ومات سنة ٢٠٦ ، أو سنة ٢٠٧ . انظر ترجمته فى « نزهة الألبا فى طبقات الأدبا » ص ١٢٥ .

(٢) الزواقيل : اللصوص .

فلما قَدِم على الرشيد دخل عليه ، فقبّل يديه وَرجليه ، ثم مَثَل بين يديه ، فقال :

« الحمد لله يا أميرَ المؤمنين الذى آنَسَ وَحشتى ، وَأجاب دعوتى ، وَرحِم تضرُّعِى ، وَأنسأ(١) فى أجلى ، حتى أرانى وَجه سيدى ، وَأكرمنى بقُرْبه ، وَامتَنَّ علىَّ بتقبيل يده ، وَردَّنى إلى خدمته ، فوالله إنْ كنتُ لأذْكر غَيبتى عنهُ ، وَمخرَجى وَالمقادير التى أزعجتنى ، فأعلَمُ أنها كانت بمعاصٍ لحِقتنى ، وَخطايا أحاطت بى ، وَلو طال مُقامى عنك يا أمير المؤمنين ـ جعلنى الله فداكَ ـ لخِفتُ أن يذهب عقلى ، إشفاقاً على قُربك ، وَأَسَفاً على فراقك ، وَأن يعجَل بى عن إذنك الاشتياقُ إلى رؤيتك ، وَالحمد لله الذى عصمنى فى حال الغَيبة ، وَأمتعنى بالعافية ، وَعرّفنى الإجابة ، وَمسَّكنى بالطاعة ، وَحال بينى وَبين استعمال المعصية ، فلم أشخَص إلا عن رأيك ، وَلم أقْدَم إلا عن إذنك وَأمرك وَلم يخترِ منى أجلٌ دونك ، وَالله يا أمير المؤمنين ـ فلا أعظم من اليمين بالله ـ لقد عاينتُ مالو تُعرَض لى الدنيا كلُّها ، لاخترتُ عليها قربَك ، وَلَما رأيتها عِوَضاً من المُقام معك » .

ثم قال له بعَقِب هذا الكلام فى هذا المقام :

« إن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يُبْليك(٢) فى خلافتك ، بقدر ما يعلم من نيَّتك ، وَيُريك فى رعيتك غايةَ أُمنيتك ، فيُصلِح لك جماعتهم ، وَيجمع أُلفتهم، وَيلُمّ شعَثَهم ، حِفظا لك فيهم ، وَرحمة لهم ، وَإنما هذا للتمسك بطاعتك ، وَالاعتصام بحبل مرْضاتك ، وَالله المحمودُ على ذلك وَهو مُستَحِقُّه . وَفارقْتُ يا أمير المؤمنين أهْلَ كُوَرِ الشأم وَهم منقادون لأمرك ، نادمون على مافرَط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلك ، نازلون على حُكْمِك ، طالبون لعفوك ، وَاثقون بحلْمِك ، مؤمِّلون فضلَك ، آمِنون بادرتك ، حالهم فى ائتلافهم كحالِهم كانت فى اختلافهم ، وَحالهم فى أُلفتهم كحالهم

(١) أخر .   (٢) ينعم عليك .

كانت فى امتناعهم ، وَعفو أمير المؤمنين عنهم ، وَتغمُّده[1] لهم ، سابقٌ لمعذرتهم ، وَصلةُ أمير المؤمنين لهم ، وَعطفهُ عليهم ، متقدمٌ عنده لمسألتهم ، وَايم الله يا أمير المؤمنين لئن كُنتُ قد شَخَصْتُ عنهم ، وَقد أخمد الله شِرارهم ، وَأطفأ نارهم ، وَنفى مُرّاقهم[2] ، وَأصْلَحَ دَهْماءَهم[3] ، وَأولانى الجميلَ فيهم ، وَرزقنى الانتصار منهم ، فما ذلك كله : إلَّا ببركتك وَيُمْنك وَريحك[4] ، وَدوَام دَوْلتك السعيدة الميمونة الدائمة ، وَتخوفهم منك ، وَرجائهم لك . وَالله يا أمير المؤمنين ماتقدمْتُ إليهم إلَّا بوصيتك ، وَما عاملتهم إلا بأمرك ، وَلا سِرْتُ فيهم إلا على حَدٍّ ما مثَّلته لى وَرَسَمْتَه ، وَوَقَّفتنى عليه ، وَوَالله ما انقادوا إلا لِدَعْوتك ، وَتوَحُّدِ[5] الله بالصُّنع لك ، وَتخوّفهم من سَطْوتك . وَما كان الذى كان منى ، وَإن كُنتُ قد بذلتُ جهدى ، وَبلغتُ مجهودى ، قاضيا بعضَ حقِّك عَلَىَّ ، بل ما ازدادت نعمتك عَلَىَّ عِظَما ، إلَّا ازددتُ عن شكرك عَجْزًا وَضعفا ، وَما خَلَق اللهُ أحداً من رعيتك ، أبْعَدَ من أن يُطْمِعَ نفسه فى قضاء حقِّك منى ، وَما ذاك إلَّا أن أكون باذلًا مُهْجَتى فى طاعتك ، وَكلٌّ مايقرب إلىَّ موافَقَتَك ، وَلكنى أعرف من أياديك عندى مَا لا أعرِف مثلها عند غيرى ، فكيف بشكرى ! وَقد أصبحتُ وَاحِدَ أهل دهرى ، فيما صنعته فِىَّ ؟ وَبى ؟ أم كيف بشكرى ! وَإنما أقوَى على شكرك بإكرامك إياى ؟ ، وَكيف بشكرى ! وَلو جعل الله شكرى فى إحصاء ما أوليتَنى ، لم يأتِ على ذلك عَدِّى ؟ وَكيف بشكرى ! وَأنت كَهفى دون كلٌّ كهف لى ؟ وَكيف بشكرى ! وَأنت لاترضَى لى ما أرضاه لى ؟ وَكيف بشكرى ! وَأنت تجَدِّد من نعمتك عندى مايستغرق كلَّ ما سَلَف عندك لى ؟ أم كيف بشكرى ! وَأنت تُنْسِينى ما تقدم من إحسانك إلىَّ ، بما تُجَدِّده لى ؟ أم كيف بشكرى ؟ وَأنت

---

(١) تغمده الله برحمته : غمره بها .
(٢) جمع مارق : وهو الخارج الحائد .
(٣) الدهماء : جماعة الناس .
(٤) قوتك .
(٥) توحده الله تعالى بعصمته : عصمه ولم يكله إلى غيره .

تَقَدَّمنى بِطَوْلك على جميع أكفائى ؟ أم كيف بشكرى ! وَأنت وَلِيِّى ؟ أم كيف بشكرى ! وَأنت المكرم لى ؟ وَأنا أسأل الله الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاقٍ له إذ كان الشكر مقصِّراً عن بلوغ تأدية بعضه ، بل دون شِقْصٍ[١] من عُشْر عَشِيره ـ أن يتولَّى مكافأتك عنى ، بما هو أوسع له وَأقدر عليه ، وَأن يَقْضِى عَنِّى حَقَّك ، وَجليلَ مِنَّتك ، فإن ذلك بيده ، وَهو القادر عليه » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٦٦)

٨٠ ـ استعطاف أم جعفر بن يحي للرشيد

روى صاحب العقد قال :

« كانت أم جعفر بن يحي[٢] ـ وَهى فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قَحْطبة ـ أرضعت الرشيد مع جعفر ، لأنه كان رُبِّىَ فى حِجْرها ، وَغُذِّىَ بِرِسْلها[٣] ، لأن أمه ماتت عن مَهْده ، فكان الرشيد يشاورها مُظهِرًا لإكرامها ، وَالتبرك برأيها ، وَكان آلى وَهو فى كَفالتها أن لايَحْجُبها ، وَلا استشفعَتْه لأحد إلا شفَّعها ، وَآلَت عليه أمُّ جعفر أن لادخلَتْ عليه إلا مأذونًا لها ، وَلا شفعت لأحدٍ مقترف ذنبًا ، فكم أسيرٍ فكَّتْ وَمُبْهَمٍ عنده فتحَت ، وَمستغلِق منهْ فرَّجت ، وَاحتجب الرشيد بعد قدومه[٤] ، فطالبت الإذن عليه من دار الباقونة ، وَمَتَّتْ[٥] بوسائلها إليه ، فلم يأذن لها ، وَلا أمر بشىء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجت كاشفةً وَجهها ، وَاضعةً لِثامها ، محتفِيَة[٦] فى مشيها ، حتى صارتْ بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب ،

---

(١) الشقص : السهم والنصيب ، والعشير : جزء من عشرة كالمعشار والعشر .

(٢) كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى ملكه ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها — وحديثهم فى ذلك طويل ، ليس هاهنا موضعه — فعزم على نكبتهم ، حتى انتهز فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ : فقتل جعفرا ليلا فى طريقه ، وقبض على يحيى وابنه الفضل وبقية البرامكة ، وحبسهم فى سجن الزنادقة إلى أن ماتوا فيه ، واستصفى أموالهم وضياعهم . (٣) الرسل : اللبن .

(٤) أى من الحج . (٥) توسلت . (٦) احتفى : مشى حافيا .

فقال : ظِئْرُ[1] أمير المؤمنين بالباب ، فى حالة تَقْلِب شماتة الحاسد، إلى شفقةِ أم الواحد؟ فقال الرشيد : وَيْحك يا عبد الملك ! أَوَ ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية . قال : أَدْخِلْها يا عبد الملك ، فرُبَّ كبد غذّتها ، وَكُرْبَة فرَّجتها ، وَعَوْرَةٍ سَتَرَتها ، فدخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخلةً محتفيةً ، قام محتفياً حتى تلقَّاها بين عَمَد المجلس وأَكَبَّ على تقبيل رأسها ، وَمواضع ثَدْييها ، ثم أجلسها معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين أَيَعْدُو علينا الزمان، وَيجفونا خوفاً لك الأعوانُ ، وَيَحْرِدُك[2] بنا البُهْتان، وقد ربَّيتك فى حِجْرى ، وأخذت برَضاعك الأمان من عدوّى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلكِ يا أم الرشيد ، قالت : ظِئْرك يحيى ، وأبوك بعد أبيك ، ولا أصِفه بأكثرَ مما عرَفه به أمير المؤمنين ، من نصيحته ، وإشفاقه عليه ، وتعرُّضه لِلْحَتْف فى شأن موسى أخيه[3] ، قال لها : يا أم الرشيد ، أمرٌ سَبَق ، وقضاء حُمَّ[4] ، وغضبٌ من الله نَفَذ ، قالت : يا أمير المؤمنين « يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ[5] » قال : صدقتِ فهذا مما لم يَمْحُهُ الله ، فقالت: الغيب محجوب عن النبيين، فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ فأطرق الرشيد مَلِيًا ، ثم قال :

---

(١) الظئر : العاطفة على ولد غيرها ، المرضعة له ، فى الناس وغيرهم ، للذكر والأنثى .

(٢) يغضبك . (٣) قدمنا أن الهادى كان اعتزم خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد ، واستخلاف ابنه جعفر ، وقد سعى إلى الهادى بيحيى بن خالد ، وأنه يفسد عليه أخاه الرشيد ، فحبسه وهم بقتله . ويروى أنه قال للهادى فى خلع الرشيد لما كلمه فيه : « يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أيمانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته » فقال : صدقت ونصحت ، ولى فى هذا تدبير ، ولما أمر بحبسه رفع إليه يحيى رقعة : إن عندى نصيحة ، فدعا به ، فقال: يا أمير المؤمنين ، أخلنى : فأخلاه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان الأمر — أسأل الله ألا تبلغه ، وأن يقدمنا قبله — أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر ، وهو لم يبلغ الحلم ، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ قال : والله ما أظن ذلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو إليها أهلك ، وجلتهم مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيك ؟ فقال له : نبهتنى يا يحيى » وقال له : لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ؟ أما كان ينبغى أن تعقده له؟ فكيف بأن تحله عنه ، وقد عقده المهدى له ؟ ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به ، أتيته بالرشيد فخلع نفسه ، وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده ، قيل فقبل الهادى قوله ورأيه وأمر بإطلاقه . (٤) حم : قدر . (٥) أم الكتاب : أصله ، أو اللوح المحفوظ .

وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارها   ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لاتنفع[١]

فقالت بغير روية : ما أنا لِيحيي بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قال الأول[٢] :

وإذا افتقرتَ إلى الذخائرِ لم تجد   ذُخراً يكون كصالحِ الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل « وَالْـكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . فأطرق هرون ملِيًّا ، ثم قال: يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفَتْ نفسِى عن الشيء لم تَـكَدْ   إليه بوَجْهٍ آخِرَ الدهر تُقْبِلُ

فقالت: يا أمير المؤمنين وأقول:

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتَنى   يمينَك فانظُرْ أىَّ كفٍّ تبدَّلُ[٣]

قال هرون : رضيت ، قالت : فهَبْهُ لى يا أمير المؤمنين ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تَركَ شيئاً لله ، لم يُوجِدْهُ[٤] اللهُ لِفَقْدِهِ » فأكبَّ هرون ملِيًّا، ثم رفع رأسه يقول : « لِلهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » قالَتْ : يا أمير المؤمنين « وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » . واذكر يا أمير المؤمنين ألِيَّتك[٥] ما استشفعتُ إلا شفَّعتنى . قال : واذكرى يا أم الرشيد ألِيَّتك أنْ لاشفعتِ لمقترفٍ ذنباً ، فلما رأته صرَّح بمنعها ، ولاذ[٦] عن مطلبها ، أخرجت حُقًّا من زُمُرُّدة[٧] خضراء ، فوضعته بين يديه ، فقال الرشيد: ما هذا ؟ ففتحت عنه قُفلا من ذهب ؛ فأخرجت منه خَفْضَته[٨] وذوائبه وثناياه ، قد غمست جميع ذلك فى المسك ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ،

---

(١) التمائم جمع تميمة : وهى العوذة التى تعلق على الصبى دفعاً للعين ، أو المرض والبيت لأبى ذؤيب الهذلى .

(٢) هو الأخطل . (٣) هذا البيت والذى قبله من قصيدة لمعن بن أوس المزنى مطلعها :

لعمرك ما أدرى ، وإنى لأوجل   على أينا تعدو المنية أول ؟

(٤) أى يحزنه . (٥) الألية : القسم . (٦) أى لم يجبه . (٧) الزمرد والزمرذ بالدال والذال . (٨) خفض الجارية كضرب خفضا ، وهو كالختان للغلام ، وقيل : خفض الصبى ختنه ، فاستعمل فى الرجل ، والأعرف أن الخفض للمرأة والختان للصبى ، يقال للجارية خفضت ، وللغلام ختن .

وبما صار معى من كريم جسدك، وطيِّب جوارحك، ليحيى عبدِك، فأخذ هرون ذلك فلثمه، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً، وبكى أهل المجلس، ومرَّ البشير إلى يحيى، وهو لايظن إلا أن البكاء رحمة له، ورجوع عنهُ، فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحق، وقال لها: لَحَسَنٌ ما حفظْتِ الوديعة، قالت: وأهلٌ للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين، فسكت وأقفل الحق، ودفعه إليها، وقال: « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » قالت: واللهُ يقول: « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » ويقول: « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ »، ثم قال: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت: أو ما أقسمتَ لى به ألا تحجُبنى ولا تمتَهننى[1]؟ قال: أحب يا أم الرشيد أن نشتريه محكَّمَةً فيه. قالت: أنصفت يا أمير المؤمنين، وقد فعلتُ غيرَ مُستقيلةٍ لك، ولا راجعةٍ عنك. قال: بكم؟ قالت: برضاك عمن لم يُسْخِطك، قال: يا أم الرشيد أمَا لى عليك من الحق مثل الذى لهم؟ قالت: بلى يا أمير المؤمنين، أنت أعزُّ علىَّ، وهم أحبُّ إلىَّ. قال: فتحكَّمى فى ثمنيَةٍ بغيرهم، قالت: بلى قد وهبتُكَه، وجعلتك فى حلٍّ منه، وقامت عنه، وبقى مَبْهُوتاً مايُحِير[2] لفظةً ». (العقد الفريد ٣ : ٢٣)

٨١ — خطبة يزيد بن مزيد الشيبانى

لما رضى الرشيد عن يزيد بن مَزْيد[3] أذِن له بالدخول عليه، فلما مَثَل بين يديه قال: « يا أمير المؤمنين، الحمد لله الذى سَهَّل لى سبيلَ الكرامة بلقائك، وردَّ علىَّ

---

(١) امتهنه : ابتذله.

(٢) يحير : يرد. (٣) وذلك أن الوليد بن طريف الشارى خرج فى عهد الرشيد بالجزيرة، واشتدت شوكته وكثر تبعه سنة ١٧٩، فوجه إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيبانى، فجعل يخاتله ويماكره، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد، فأغروا به الرشيد، وقالوا: إنما يتجافى عنه للرحم (لأنه شيبانى مثله) وإلا فشوكة الوليد يسيرة وهو يواعده، وينتظر ما يكون من أمره، فوجه إليه الرشيد كتاب مغضب، يقول فيه: « لو وجهت بأحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة

النعمةَ بوجه الرضا منك ، وكشف عنى ضَبابة الكرب بإفضالك ، وجزاك الله يا أمير المؤمنين فى حال سُخْطك جزاء المحسنين المراقبين، وفى حال رضاك جزَاء المنعمين المتنِّين المتطوِّلين ، فقد جعلك الله — وله الحمد — تَثَبَّتُ(١) تحرُّجاً عند الغضب ، وتمتَنُّ تَطوُّلا بالنِّعم ، وتستبقى المعروف عند الصنائع(٢) تفضلا بالعفو » .

(العقد الفريد ١ : ١٤١ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ١١٧ وزهر الآداب ٢ : ٢٨٧)

٨٢ — خطبة عبد الملك بن صالح(٣) (توفى سنة ١٩٦ هـ)

أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » ؟ يأهل الشأم، إن الله وصف إخوانكم فى الدين،وأشباهكم فى الأجسام فحذَّرهم نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » ؟ فقاتلكم الله أنّى تُصْرَفُونَ ؟ جُثثٌ ماثلة ، وقلوبٌ طائرة ، تشُبُّون(٤) الفتن ، وتولُّون الدُّبُرَ ، إلّا عن حرَم الله فإنه دَرِيئتكم(٥) ، وحرَم رسوله ، فإنه مَغزاكم، أمَا وحُرْمَة النبوَّة والخلافةِ لتنفِرُنَّ خِفافاً وثِقالا ، أو لأوسِعنكم إرغاماً ونَكالا » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

الوليد ، ليوجهن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين » ثم حمل يزيد على الوليد فقتله وبعث برأسه إلى الرشيد ، فلما انصرف يزيد بالظفر ، حجب برأى البرامكة ، وأظهر الرشيد السخط عليه ، فقال : وحق أمير المؤمنين لأصيفن وأشتون على فرسى أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك فأذن له فدخل ، فلما رآه الرشيد ضحك وسر ، وأقبل يصيح مرحبا بالأعرابى ، حتى دخل وأجلس وأكرم وعرف بلاؤه ونقاء صدره (راجع أخباره فى الأغانى ١١ : ٨ ، وابن خلكان ٢ : ٢٨٣ ، والطبرى ١٠ : ٦٥) .

(١) وفى رواية الطبرى « تنهب » . (٢) وفى الطبرى: « والعفو عن المسىء » .

(٣) هو عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، ولى الرشيد بلاد الجزيرة والشام وغيرها .

(٤) توقدون . (٥) الدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمى عليها .

٨٣ – عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ويهنئه

ودخل عبد الملك بن صالح دار الرشيد، فقال له الحاجب: إن أمير المؤمنين قد أُصيب الليلة بابن له، ووُلد له آخر، فلما دخل عليه قال: «سرَّكَ اللهُ يا أمير المؤمنين فيما ساءكَ، ولا ساءكَ فيما سرَّكَ، وجعل هذه بهذه، مَثُوبة على الصبر، وجزاء على الشكر». (العقد الفريد ٢ : ٣٥)

٨٤ – غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح

وَنصَبَ[1] له ابنُه «عبدُ الرحمن» وكاتبُه «قُمامَة» فسعيا به إلى الرشيد، وقالا له: إنه يطلب الخلافة، ويطمع فيها، فأخذه وحَبَسه عند الفضل بن الربيع، وذكروا أنه أدخل على الرشيد حين سَخِطَ عليه، فقال له الرشيد: أكُفراً بالنعمة، وَجُحوداً لِجَليلِ المِنَّة والتكرمة؟ فقال: «يا أمير المؤمنين، لقد بُؤْتُ[2] إذن بالندم، وتعرَّضتُ لاستحلال النِّقَم، وما ذاك إلا بغيُ حاسدٍ، نافَسَنى فيك مودةَ القرابة، وتقديمَ الولاية، إنك يا أمير المؤمنين خليفةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمّته، وأمِينه على عِتْرَته، لك عليها فرضُ الطاعة وأداء النصيحة، ولها عليك العدلُ فى حُكمِها، والتثبُّتُ فى حادثِها، والغُفْران لذنوبها»، فقال له الرشيد: «أتضَعُ لى من لسانك، وترفَع لى من جَنانك؟ هذا كاتبُك قُمامة، يُخْبِر بغِلِّك وفساد نيتك، فاسْمَعْ كلامه»، فقال عبد الملك: «أعطاك ما ليس فى عَقْده[3]، ولعله لايقدر أن يَعْضَهنى[4] ولا يَبْهَتَنى بما لم يَعْرِفه منى»، وَأُحْضِر قمامةُ، فقال له الرشيد: تكلم غيرَ هائبٍ ولا خائف، قال: «أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك»،

---

(١) عاداه. (٢) رجعت. (٣) أى ما يعتقده.

(٤) عضه كمنع: كذب ونم، وعضه فلانًا: بهته وقال فيه ما لم يكن.

فقال عبد الملك: أهو كذلك يا قمامة ؟ قال قمامة : نعم، لقد أردتَ خَتْل[1] أمير المؤمنين، فقال عبد الملك : وكيف لا يكذِب عليّ مِن خلفى ، وهو يَبهتنى فى وجهى » ؟ فقال له الرشيد : « وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرنى بِعتُوِّك ، وفساد نيتك ، ولو أردتُ أن أحتجّ عليكَ بحُجّة لم أجد أعدلَ من هذين لك، فَبِمَ تدفعهما عنك ؟ »، فقال عبد الملك: « هو مأمور ، أو عاقّ مجبور ، فإن كان مأموراً : فمعذور ، وإن كان عاقًّا : ففاجر كفور ، أخبر الله عزّ وجلّ بعداوته ، وحذَّر منهُ بقوله : « إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » ، فنهض الرشيد وهو يقول : « أمَّا أَمْرُكَ فقد وَضَحَ ، ولكنى لا أعجَل حتى أعلم الذى يُرْضِى الله فيك ، فإنه الحكَمَ بينى وبينك » ، فقال عبد الملك: « رضيت بالله حَكَماً ، وبأمير المؤمنين حاكماً ، فإنى أعلم أنه يُؤثِرُ كتاب الله على هواه وأمرَ الله على رضاه » .

* * *

فلما كان بعد ذلك جلس مجلِسًا آخر ، فسلَّم لما دخل ، فلم يردَّ عليه ، فقال عبد الملك : ليس هذا يوماً أحتجُّ فيه ، ولا أجاذب منازعاً وَخَصْما . قال : ولم ؟ قال : لأن أوَّله جرَى على غير السُّنَّة ، فأنا أخاف آخرَه ، قال : وما ذاك ؟ قال : لم تَرُدَّ عَلَيَّ السلامَ ، أنصِف نَصَفة العوامّ ، قال : السلام عليكم اقتداء بالسنة ، وإيثاراً للعدل ، واستعمالا للتحيَّة ، ثم التفت نحو سليمان بن أبى جعفر فقال : وهو يخاطب بكلامه عبد الملك :

أريد حياتَه ويريد قتلى عذيرك مِنْ خليلك من مُراد

ثم قال : « أما والله لكأنى أنظرُ إلى شُؤْبوبها قد هَمَع[2] ، وعارضِها[3] قد لَمَع ،

---

(١) ختله : خدعه . (٢) الشؤبوب : الدفعة من المطر ، وهمع : سال وانصب .

(٣) العارض : السحاب المعترض فى الأفق ، والتفسير للفتنة المفهومة من سياق الحديث .

وكأنى بالوعيد قد أَوْرَى ناراً تَسْطَع ، فأقلع عن بَرَاجِمَ[١] بِلاَ مَعَاصِمِ ، ورءوسٍ بِلا غَلاَصِمِ[٢] فَمَهْلاً مَهْلا ، فَبِي والله سَهُل لـكم الوَعْرُ ، وصَفَا لـكم الـكَدِر ، وألقت إليكم الأمورُ أثناءَ[٣] أَزِمَّتِها ، فنَذارِ لـكم نذارِ قبل حلول داهيةٍ خَبوطٍ باليد ، لَبُوطٍ[٤] بالرجل » . فقال عبد الملك : « اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاَّك ، وفى رعيته التى استرعاك ، ولا تجعل الـكفرَ مكان الشـكر ، ولا العقابَ موضع الثواب ، فقد نخلْتُ النصيحةَ ، وَمَحضت[٥] لك الطاعة ، وَشَدَدْتُ أَوَاخِيَ[٦] ملـكك بأثقلَ من رُكْنَى يَلَمْلَمَ[٧] ، وتركت عدوَّك مشتغلا[٨] ، فاللهَ اللهَ فى ذى رَحِمك أن تقطعه — بعد أن بَلِلْتَه[٩] — بظَنٍّ أفْصَحَ الـكتابُ لى بِعَضْبِه[١٠] ، أو بِبَغْيِ باغٍ يَنْهَس[١١] اللحم ، وَيَالَغُ[١٢] الدَّمَ ، فقد والله سهَّلت لك الوعورَ ، وذلَّلت لك الأمورَ ، وجَمَعْت على طاعتك القلوب فى الصدور ، فـكم من ليلٍ تِمَامٍ[١٣] فيك كابدتهُ ، ومقامٍ ضيِّق لك قُمْتُه ، كنت فيه كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب :

ومقامٍ ضَيِّق فَرَّجْتُه   بِبَنَانى وَلِسَانى وَجَدَلْ
لو يقومِ الفِيلُ أو فيَّاله   زَلَّ عن مثل مقامى وزَحَلْ[١٤]

فقال له الرشيد : « أما والله لولا الإبقاء على بنى هاشم لضربت عنقك » .

---

(١) جمع برجمة كقنفذة : وهى مفاصل الأصابع ، أو ظهر القصب من الأصابع ، والمعاصم جمع معصم كنبر : وهو موضع السوار أو اليد . (٢) جمع غلصمة بالفتح وهى رأس الحلقوم وهو الموضع الناتىء فى الحلق . (٣) أثناء الشىء ومثانيه طاقاته ، واحدها ثنى كمحل ومثناة بفتح الميم وكسرها.

(٤) لبط به الأرض ضرب ، ولبط البعير كضرب : خبط بيده وهو يعدو .

(٥) أخلصت . (٦) جمع آخية وتشدد : عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة ، وأخيت الدابة تأخية : صنعت لها آخية وربطتها بها . (٧) يلملم أو ألملم أو يرمرم : ميقات اليمن : جبل على مرحلتين من مكة . (٨) وفى رواية العقد : « وتركت عدوك سبيلا تتعاوره الأقدام » .

(٩) بلت فلانا : لزمته . (١٠) العضب بسكون الضاد وفتحها : الـكلب والخيمة . (١١) نهس اللحم كمنع وسمع : أخذه بمقدم أسنانه ونتفه . (١٢) ولغ الـكلب فى الإناء ومنه وبه يلغ كيهب ويالغ : شرب ما فيه بأطراف لسانه ، أو أدخل لسانه فيه فحركه . (١٣) ليل التمام : أطول ليالى الشتاء.

(١٤) زحل عن مقامه : زال كتزحول .

ولم يزل عبد الملك محبوساً حتى تُوُفى الرشيد ، فأطلقه محمد الأمين وعقد له على الشام[1] .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٨٩ ، والعقد الفريد ١ : ١٤٣ ،
والكامل لابن الأثير ٦ : ٧٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٣)

٨٥ — قوله بعد خروجه من السجن

ولما خرج من السجن وذكَرَ الرشيد وفعلَه به قال :

« واللهِ إن المُلْك لشىء ما نوَيْتُه ، ولا تمنَّيتُه ، وَلا نَصَبْتُ له ولا أرَدْتُه ، ولو أردتُه لكانَ إلَىَّ أسرعَ من الماء إلى الحدور[2] ، ومن النار إلى يَبَس العَرْفَج[3] ، وإنى لمأخوذ بما لم أجْنِ ، ومسئول عما لا أعرف ، ولكنه حين رآنى للملك قَمِينا[4] ، وللخلافة خَطِيرا[5] ، ورأى لى يداً تنالها إذا مُدَّت ، وتبلغها إذا بُسِطَت ، ونفساً تكمُل لخِصالها ، وتستحقها بِفعالها ، وإن كنتُ لم أختَر تلك الخصال ، ولم أصْطَنِعْ تلك الفِعال ، ولم أترشَّح لها فى السِّر ، ولا أشرتُ إليها فى الجهر ، ورآها تحِنُّ إلَىَّ حنين الوالدة الوالِهَة ، وتميلُ إلَىَّ مَيْلَ الهَلُوك[6] ، وخاف أن ترغَب إلى خَيْرِ مَرْغَب ، وتنزِع إلى أخْصَب مَنْزِع ، عاقَبَنِى عقابَ من سَهِر فى طلبها ، وجَهَد فى التماسها ، فإن كان إنما حبسنى على أنى أصلُح لها وتصلُح لى ، وأَلِيقُ بها وَتَلِيق بى ، فليس ذلك بذنْبٍ جنيته فأتوبَ منه ، ولا تطاولْتُ له فأحُطَّ نفسى عنه ، وإن زعم أنه لاصَرْف لعقابه ، ولا نجاةَ من عذابه ، إلا بأن أخرج له من حِدّ العلم والحلم والحزْم ، فكما لا يستطيع المُضَياعُ أن يكون مصلحا ، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلا ،

---

(١) وقد جعل للأمين عهد الله وميثاقه : لئن قتل وهو حى لا يعطى المأمون طاعة أبدا ، فمات قبل قتل الأمين ، فدفن فى دار من دور الإمارة ، فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل إلى ابن له حول أباك من دارى ، فنبشت عظامه وحولت . (٢) المكان المنحدر . (٣) شجر . (٤) جديرا .

(٥) عظيم القدر . (٦) الفاجرة المتساقطة على الرجال .

وسواء عليه أعاقبنى على علمى وحلمى، أم عاقبنى على نسبى وسِنى، وسواء عليه عاقبنى على جمالى ، أم عاقبنى على محبة الناس لى ، ولو أردتها لأعجَلْته عن التفكير ، وشَغَلْته عن التدبير ، وَلَمَا كان فيها من الخطْب إلا اليسير » . (العقد الفريد ١ : ١٤٣)

٨٦ — وصية عبد الملك بن صالح لابنه

أوصى عبد الملك بن صالح ابنًا له فقال :

« أىْ بنىَّ احْلُمْ ، فإن من حَلُم ساد ، ومن تفهَّمَ ازداد . والْقَ أهل الخير فإن لقاءهم عِمَارَةٌ للقلوب ، ولا تَجْمَح بك مَطِيَّة اللَّجاج ، وَفِيُّكَ مَن أعتبك[1] ، والصاحِبُ المُناسِب لك ، والصبر على المكروه يعصِم القلب ، المُزاح يورث الضغائن ، وحسن التدبير مع الكَفَاف خيرٌ من الكثير مع الإسراف ، والاقتصاد يُثَمِّرُ[2] القليل ، والإسراف يُبِير[3] الكثير ، ونِعْمَ الحظُّ القناعة ، وشر ما صحب المرء الحسدُ ، وما كل عَوْرَةٍ تُصاب ، وربما أبصر الْعَمِيُّ رُشْدَه ، وَأَخْطَأَ البصير قَصْدَه ، واليأس خير من الطلب إلى الناس ، وَالْعِفَّةُ مع الْحِرْفَة[4] خير من الغنى مع الفجور ، ارفُق فى الطلب وَأَجْمِل فى المكسَب ، فإنه رب طَلَب ، قد جرَّ إلى حَرَب[5] ، ليس كل طالب بِمُنْجِح[6] ، ولا كل مُلِحّ بمحتاج ، والمغبون من غُبِن نصيبَه من الله ، عاتِبْ من رجوتَ عُتباه ، وفاكِهْ من أمِنْتَ بلواه ، لا تكن مِضْحاكًا من غير عَجَب ، ولا مَشَّاء إلى غير أرَب ، ومن نأى عن الحق أضاق مذهبَه ، ومن اقتصر على حاله كان أنعمَ لباله ، لا يكبُرَن عليك ظُلْمُ من ظلمَك ، فإنه إنما سعى فى مضرته ونفعك ، وَعَوِّد نفسك السَّماح ، وَتَخَيَّر لها من كل خُلُق أحْسَنَه ، فإن الخير عادة ، والشر لَجَاجة ، والصُّدود آية المَقْت ، والتعلُّل آية البخل ، ومن الفِقْه كِتمان السِّر ، وَلِقَاح المعرفة

(١) أعتبه : أعطاه العتبى أى الرضا . (٢) ينمى ويكثر . (٣) يهلك .

(٤) الحرمان . (٥) حربه حربا كطلبه : سلب ماله . (٦) أنجح : صار ذا نجح .

دراسةُ العلم ، وطولُ التجارب زيادة فى العقل ، والقناعة راحة الأبدان ، والشرف التقوى ، والبلاغة معرفة رَتْق الكلام وفَتْقِه ، بالعقل تُسْتَخرَج الحِكمة ، وَبالحِلم يستخرج غَوْر العقل ، ومن شمَّرَ فى الأمور ، ركبَ البحور ، شر القول ما نقَضَ بعضُه بعضا ، وَمَنْ سَعَى بالنميمة حَذِره البعيد ، وَمَقَتَه القريب . من أطال النظر بإرادةٍ تامةٍ أدرك الغاية ، ومن توانى فى نفسه ضاع . من أسرَف فى الأمور انتشرت عليه ، ومن اقتصد اجتمعت له ، واللجاجة تورث الضَّياع للأمور ، غِبُّ الأدب أحمد من ابتدائه ، مُبادرة الفهم تورث النسيان ، سوء الاستماع يُعقِبُ العِيّ ، لَا تُحدِّث من لا يُقْبِل بوجهه عليك ، ولا تُنْصِت لمن لايَنْمِي[1] بحديثه إليك . البلادة للرجل هُجْنَة ، قَلَّ مَالِكٌ إلا استأثَر ، وقَلَّ عاجز إلا تأخر ، الإحجام عن الأمور يُورث العجْزَ ، والإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ ، سوء الطُّعمة[2] يُفسِدُ العِرْضَ ، وَيُخلِق الوجه ، وَيَمْحَق الدين ، الهَيبة قرين الحرمان ، والجسَارة قرين الظَّفَر ، وَفِيُّك من أنصفك ، وأخوك مَن عاتَبَك ، وشريكُك مَنْ وَفَى لك ، وَصَفِيُّكَ من آثرَك ، أعْدَى الأعْداءِ العقوقُ ، اتباعُ الشهوة يُورث النَّدامَة ، وَفَوْتُ الفُرْصَة يورث الحسْرَة ، جميع أركان الأدب التأنِّى للرِّفق ، أَكْرِم نفسك عن كل دنيَّة ، وإن ساقتك إلى الرغائب ، فإنك لاتجد بمـا تبذُل من دِينك ونفسك عِوَضا ، لاتساعد[3] النساء فَيَمْلَلْنك ، واستبْقِ من نفسك بقيَّة ، فإنهن أن يرين أنك ذو اقتدار ، خيرٌ من أن يطَّلِعن منك على انـكسار ، لاتملِّك امرأة الشفاعةَ لغيرها ، فتميلَ من شفعتْ لها عليك معها ، أىْ بنى ، إنى قد تخيرت لك الوصية ، ومحَضتك النصيحة ، وأدّيت الحق إلى الله فى تأديبك ، فلا تغفلَنَّ الأخْذَ بأحسنها ، والعملَ بها ، والله موفقك » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٢)

---

(١) نمى الحديث ونماه بالتشديد: رفعه . (٢) الطعمة: وجه المكسب. (٣) لعلها « لا تقاعد ».

٨٧ — وصية أخرى له

عن يزيد بن عِقَال قال :

وَصَّى عبد الملك بن صالح ابنه وهو أمير سَرِيَّة ، ونحن ببلاد الروم فقال له :

« أنت تاجرُ الله لعباده ، فكن كالمضارِب الكيِّس ، الذى إن وجد ربحا تَجَر ، وإلَّا احتفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوزَ السلامة ، وكن من احتيالك على عدوِّك ، أشَدَّ خوفاً من احتيال عدوك عليك[1] » . (البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

٨٨ — كلمات حكيمة لابن السماك

وقال محمد بن صبيح — المعروف بابن السَّمَّاك[2] — :

« خيرُ الإخوان أقلُّهم مصانعةً فى النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبةً ، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرفُ السلطان مالم يخالطْه البَطَر ، وأغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير الإخوان من لم يخاصِم ، وخير الأخلاق أعونها على الوَرَع ، وإنما يُخْتَبَرُ ذلّ الرجال عند الفاقة والحاجة » .

(زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

٨٩ — ابن السماك والرشيد

وذكر محمد بن هرون عن أبيه قال : حضرت الرشيد ، وقال له الفضل بن الربيع : يا أمير المؤمنين قد أحضرتُ ابن السَّماك كما أمرتنى ، قال : أدْخِلْه ، فدخل ، فقال له :

---

(١) أوردت هذه الوصية فى الجزء الثانى ص ١٨٥ معزوة إلى عبد الملك بن مروان كما أوردها صاحب العقد ، ويؤيد ذلك ما رواه الطبرى — ج ٨ : ٣٧ — إذ يقول : « وفى سنة ٨٤ كانت غزوة عبد الله بن عبد الملك بن مروان الروم ، ففتح فيها المصيصة — كسفينة — » وعزاها الجاحظ إلى عبد الملك بن صالح كما ترى فى هذه الرواية . (٢) كان زاهدا عابدا حسن الكلام صاحب مواعظ ، وهو كوفى ، قدم بغداد زمن الرشيد فمكث بها مدة ، ثم رجع إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ هـ .

عِظْنى ، قال : يا أمير المؤمنين : اتَّقِ الله وحْدَه لاشريك لهُ ، واعلم أنك واقِفٌ غداً بين يدى الله رَبِّك ، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين ، لا ثالثةَ لهما : جنة أو نار ، فبكى هرون حتى اخْضَلَّت(١) لحيته ، فأقبل الفضل على ابن السماك ، فقال : سبحان الله ! وهل يتخالجُ أحداً شكٌّ فى أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ؟ لقيامه بحق الله ، وعَدْله فى عباده ، وفضلِه ، فلم يَحْفِل بذلك ابن السماك من قوله، ولم يلتفت إليه وأقبل على أمير المؤمنين ، فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا ـ يعنى الفضل بن الربيع ـ ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى هرون حتى أشفقنا عليه ، وأُفحم الفضل بن الربيع ، فلم ينطق بحرف حتى خرجنا .

قال : ودخل ابن السماك على الرشيد يوماً ، فبينا هو عنده إذ استسقى ماء ، فأُتِىَ بِقُلَّةٍ من ماء ، فلما أهوَى بها إلى فيه ليشربها ، قال لهُ ابن السماك : على رِسْلك(٢) يا أمير المؤمنين : بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو مُنِعتَ هذه الشَّرْبة ، بكم كنت تشتريها ؟ قال: بنصف ملكى ، قال : اشرب هنَّأك الله ، فلما شربها ، قال له: أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو مُنِعْتَ خروجَها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ، قال : بجميع ملكى ، قال ابن السماك : إن مُلكا قيمتُه شربةُ ماء لَجديرٌ ألّا يُنافَس فيه ، فبكى هرون ، فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف فانصرف . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١١٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٤٩)

---

(١) ابتلت . (٢) الرسل : التؤدة .

الفتنة بين الأمين والمأمون

وفد الأمين إلى المأمون

لما عزم محمد الأمين على خلع أخيه عبد الله المأمون من ولاية العهد[1]، كتب إليه كتاباً يستقدمه، ويحبّب أن يكون بِقُرْبه -وكان المأمون على خراسان- ودفع الكتاب إلى العباس بن موسى، وإلى عيسى بن جعفر، وإلى محمد بن عيسى بن نَهِيك، وإلى صالح صاحب المُصلَّى، وأمرهم أن يتوجهوا به إلى المأمون، وألّا يَدَعوا وجهاً من اللين والرِّفق إلا بلغوه، وسهّلوا الأمر عليه، (وذلك سنة ١٩٤ هـ) فتوجهوا بكتابه، فلما وصلوا إلى المأمون أذِن لهم، فدفعوا إليه الكتاب، ثم تكلم العباس بن موسى:

٩٠ — خطبة العباس بن موسى

حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الأمير: إن أخاك قد تحمَّل من الخلافة ثِقْلا عظيماً، ومن النظر فى أمور الناس عِبْئاً جليلا، وقد صَدَقَت نيتُه فى الخير، فأعوزَه الوزراء والأعوانُ وَالكُفاة على العَدْل، وقليلٌ ما يأنَسُ بأهلِ بيته، وأنت أخوه

(١) ذكروا أن الفضل بن الربيع وزير الأمين، كان قد خاف المأمون، لما فعله عند موت الرشيد بطوس من إحضار جميع ما كان فى عسكره إلى الأمين، بعد أن كان الرشيد قد أشهد به للمأمون، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوما وهو حى لم يبق عليه، فحسن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى — ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه — واتفق مع الفضل جماعة على ذلك، فمال الأمين إلى أقوالهم، ثم إنه استشار عقلاء أصحابه، فنهوه عن ذلك وحذروه عاقبة البغى ونكث العهود، وقالوا له: لا تجرئ القواد على النكث للأيمان وعلى الخلع فيخلعوك، فلم يلتفت إليهم، ومال إلى رأى الفضل بن الربيع، وشرع فى خدع المأمون باستدعائه إلى بغداد، فلم ينخدع وكتب يعتذر.

وشقيقه[1] وقد فزِعَ إليك فى أموره ، وأمّلك للمُوازرة والمكانَفة[2] ، ولسنا نستبطئك فى برِّه ، اتهاماً لنصْرك لهُ ، ولا نحضّك على طاعة ، تخوّفاً لخلافك عليه ، وفى قدومك عليه أنس عظيم ، وَصلاح لدولته وسُلطانه ، فأَجِبْ أيها الأمير دعوةَ أخيك ، وآثِرْ طاعته ، وَأعِنْه على ما استعانك عليه فى أمره ، فإن فى ذلك قضاء الحق ، وَصِلَةَ الرحم ، وصلاح الدولة ، وَعِزّ الخلافة ، عزم الله للأمير على الرشد فى أموره ، وجعل له الخِيَرة والصَّلاح فى عواقب رأيه » .

٩١ — خطبة عيسى بن جعفر

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبى جعفر ، فقال :

« إن الإكثار على الأمير — اللهَ ، اللهَ — فى القول خُرْقٌ ، والاقتصار فى تعريفه مايجب من حق أمير المؤمنين تقصير ، وقد غاب الأمير — أكرمه الله — عن أمير المؤمنين ، ولم يستغنِ عن قربه من شَهِدَ غيره من أهل بيته ، ولا يجد عنده غنى ، ولا يجد منه خَلَفا ، ولا عِوَضا ، والأمير أولى مَنْ بَرَّ أخاه ، وأطاع إمامه ، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أرضى وأقربُ من موافقة أمير المؤمنين ومحبته ، فإن القدوم عليه فضلٌ وحظ عظيم ، والإبطاء عنهُ وَكَفٌ[3] فى الدين ، وضرر ومكروه على المسلمين » .

٩٢ — خطبة محمد بن عيسى بن نهيك

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك ، فقال :

« أيها الأمير إنا لانَزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا نشحَذ نيتك بالأساطير والخُطَب فيما يلزمك من النظر والعناية

---

(١) أمه أم ولد يقال لها مراجل .

(٢) المعاونة .

(٣) الوكف الميل والجور والعيب ، الإثم .

بأمور المسلمين ، وقد أعوز أميرَ المؤمنين الكُفاةُ والنصحاء بحضرته ، وتناولك فزعاً إليك فى المعونة والتقوية له على أمره ، فإن تُجب أمير المؤمنين فما دعاك إليه ، فنعمة عظيمة يتلافى بها رعيتك وأهل بيتك ، وإن تقعُد يُغن اللهُ أمير المؤمنين عنك ، ولن يضعه ذلك مما هو عليه من البرّ بك ، والاعتماد على طاعتك ونصيحتك » .

٩٣ — خطبة صالح صاحب المصلى

وتكلم صالح صاحب المصلى ، فقال :

« أيها الأمير : إن الخلافة ثقيلة ، والأعوان قليل ، ومن يَكِيد هذه الدولة ، وينطوى على غشّها ، والمعاندة لأوليائها ، من أهل الخلاف والمعصية كثير ، وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه ؟ وصلاحُ الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليه ، إذ أنت ولىُّ عهده ، والشاركُ فى سلطانه وولايته ، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابه ، ووثِق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره ، وفى إجابتك إياه إلى القدوم عليه صلاح عظيم فى الخلافة ، وأنسٌ وسكونٌ لأهل المِلّةِ والذّمة ، وفّق الله الأمير فى أموره ، وقضى له بالذى هو أحب إليه وأنفع لهُ » .

٩٤ — خطبة المأمون

فحمد الله المأمونُ ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« قد عرّفتمونى من حق أميرِ المؤمنين — أكرمه الله — مالا أنكِره ، ودعوتمونى من الموازرة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدفعه ، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدّم ، والمسارعةِ إلى ما سرّه ووافقَه حريصٌ ، وفى الرّوية تِبيانُ الرأى ، وفى إعمال الرأى نُصحُ الاعتزام والأمر الذى دعانى إليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبطاً ومدافعةً ، ولا أتقدّم عليه

اعتسافاً وَعَجَلَةً ، وأنا فى ثَغْرٍ[٢] من ثغور المسلمين ، كَلِب عدوُّه ، شديد شوكتُه ، وإن أهملتُ أمره لم آمَنْ دخول الضرر والمكروهِ على الجنود والرعية ، وإن أقمت عليه لم آمن فَوْتَ ما أحِبّ من معونة أمير المؤمنين وموازرته وإيثار طاعته ، فانصرِفوا حتى أنظرَ فى أمرى ، ويصحّ الرأى فيما أعتزِمُ عليه من مَسِيرى إن شاء الله » .

ثم بعث معهم بكتاب إلى الأمين ، يسألهُ أن يُعفِيَه من الشخوص إليه ، وأن يُقِرَّه على عمله ، إذ يرى أن ذلك أعظم غَنَاء على المسلمين . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٦)

٩٥ — وصية السيدة زبيدة لعلى بن عيسى بن ماهان

وَنَمَى الشرّ بين الأخوين ، واستطار شرره ، وبعث الأمين جيشاً كثيفاً بقيادة علىّ بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون ، وأعد المأمون للقائه جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين فلما أراد علىّ الشخوص إلى خراسان ، ركب إلى باب السيدة زُبَيدة[٢] والدة الأمين فودَّعها ، فقالت له :

« يا علىُّ ، إن أمير المؤمنين ، وإن كان ولدى ، إليه تناهت شفقتى ، وعليه تكامَل حِذْرى ، فإنى على عبد الله مُنعطفة مُشْفِقة لما يَحْدُث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابنى مَلِكٌ نافس أخاه فى سلطانه ، وَغَارَاه[٣] على ما فى يده ، والكريم يؤكل لحمه ، وَيُميته غيره ، فاعرِفْ لعبد الله حقّ والده وأخوّته ، ولا تجبَهْه[٤] بالكلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تقتسِرْه[٥] اقتسارَ العبيد ، ولا تُرْهِقه بقيد ولا غُلّ[٦] ، ولا تمنعْ منهُ جاريةً ولا خادماً ، ولا تعنِّف عليه فى السير ، ولا تساوِره فى المسير ، ولا تركَب قبله ،

---

(١) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان. (٢) هى السيدة زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور. وليس فى خلفاء بنى العباس من أمه وأبوه هاشميان سواه .

(٣) فى الأصل : « غاره » وأراه محرفا عن « غاراه » ، غاريته مغاراة وغراء : لاججته .

(٤) جبهه كنعه : لقيه بما يكره . (٥) قسره واقتسره : قهره .

(٦) أرهقه : أضعفه ، وفى المخترى : « ولا ترهقه » وأرهقه : أضعفه أيضا ، والغل : القيد .

ولا تستقِلَّ على دابتك حتى تأخذ بِرِكَابه ، وإن شتمك فاحتمل منهُ ، وإن سَفِه عليك فلا تراده » .

ثم دفعت إليه قيداً من فِضَّة ، وقالت : إن صار فى يدك فقيِّده بهذا القيد ، فقال لها : سأقبل أمرك ، وأعمل فى ذلك بطاعتك .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٩ ، والفخرى ص ١٩٥)

٩٦ — وصية الأمين لابن ماهان

وخرج على بن عيسى بن ماهان من بغداد (فى ٧ من شعبان سنة ١٩٥ هـ) وخرج معهُ الأمين يشيعه ، وأقبل يوصيه ، فقال :

« أمْنَعْ جُندك من العَبَث بالرعية ، والغارة على أهل القُرَى ، وَقَطْعِ الشجر ، وانتهاك النساء ، وولِّ الرىَّ يحيى بن على[1] ، واضمم إليه جنداً كثيفاً ، وَمُرْه ليدفعْ إلى جنده أرزاقَهم مما يجىء من خرَاجها ، وولِّ كل كُورة ترحَل عنها رجلا من أصحابك ، ومن خرج إليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهرْ إكرامَه ، وأحسِنْ جائزته ، ولا تعاقِبْ أخاً بأخيه ، وضع عن أهل خُراسان ربع الخراج ، ولا تأمن أحداً رماك بسهم ، أو طعن فى أصحابك برمح ، ولا تأذَنْ لعبد الله فى المُقَام أكثر من ثلاثة أيام ، من اليوم الذى تظهَر فيه عليه ، فإذا أشخصتَه ، فليكن مع أوثق أصحابك عندك ، فإن غرَّه الشيطان فناصبَك ، فاحرص على أن تأسِره أسْرًا ، وإن هرب منك إلى بعض كُوَر خراسان ، فتَوَلَّ إليه المسير بنفسك ، أفَهِمْتَ كل ما أوصيك به ؟ » .

قال : نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ، قال : سر على بركة الله وعونه .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٠)

---

(١) هو يحيى بن على بن عيسى بن ماهان .

٩٧ — استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين

وخرج ابن ماهان ، فلما جاز حُلْوَان ، لَقِيَتْه القوافل من خُراسان ، فكان يسألها عن الأخبار ، فيقال له : إن طاهراً مقيم بالرَّىّ ، يَعْرِض أصحابه ، وَيَرُمُّ[1] آلته ، فيضحك ثم يقول :

« وما طاهر ؟ فو الله ما هو إلا شوكةٌ من أغصانى ، أو شرارة من نارى ، وما مثلُ طاهر يتولَّى على الجيوش ، ويلقَى الحروب » ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : « والله ما بينكم وبين أن ينقصف انقصافَ الشجر من الريح العاصف ، إلا أن يبلغهُ عُبورُنا عَقَبة[2] هَمَذَان ، فإن السِّخال[3] لا تقوى على نِطاح الكِباش ، والثعالب لا صبرَ لها على لقاء الأسد ، فإن يُقِم طاهر بموضعه يكن أول معرَّض لِظُبَاتِ[4] السيوف وأسنَّة الرماح » .

وسار حتى صار فى أول بلاد الرىّ ، وأتاه صاحب مقدِّمته وقال : « لو كنتَ — أبقى الله الأمير — أذكَيْتَ العيون ، وبعثت الطلائع ، وارتَدْت موضعاً تُعَسْكِر فيه ، وتتخذ خَندقاً لأصحابك يأمنون به ، كان ذلك أبلغَ فى الرأى ، وآنسَ للجند » .

قال : « لا ، ليس مِثْلُ طاهر يُسْتَعَدّ لهُ بالمكايد والتحفّظ ، إن حال طاهر تئُول إلى أحد أمرين ، إما أن يتحصَّن بالرىّ ، فَيَبْهتَه[5] أهلها ، فيكفونا مَئُونته ، أو يُخَلِّيها وَيُدْبِر راجعاً لو قَرُبَت خيولنا وعَساكرنا منه » .

وأتاه يحيى بن علىّ ، فقال : « اجمَعْ متفرِّق العسكر ، واحذر على جندك البياتَ ، ولا تسرِّح الخيل إلا ومعها كُنْفٌ[6] من القوم ، فإن العساكر لا تُسَاسُ بالتوانى ،

---

(١) يصلح . (٢) العقبة : مرق صعب من الجبال . (٣) السخال جمع سخلة بالفتح : وهو ولد الغنم ذكراً أو أنثى . (٤) الظبات جمع ظبة : وهى حد السيف . (٥) بهته كنعه : أخذه بغتة ، قال تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » ، وفى مروج الذهب : « ويثب به » .

(٦) الكنف : الجماعة .

والحروب لا تدبَّر بالاغترار ، والثقةُ أن تحترز ، ولا تقل : المحاربُ لى طاهر ، فالشرارة الخفيَّة ربما صارت ضِرَاماً[١] ، والثُّلْمة من السيل ربما اغترَّ بها وَتُهُوِّن ، فصارت بحراً عظيما ، وقد قَرُبَتْ عساكرنا من طاهر ، فلو كان رأيه الحربَ لم يتأخر إلى يومه هذا » .

قال : اسكت ، فإن طاهراً ليس فى هذا الموضع الذى ترى ، وإنما يتحفظ الرجال إذا لَقِيَت أقرانَها ، وتستعدّ إذا كان المُنَاوِى[٢] لها أكفاءها ونظراءها » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٩٩)

٩٨ — حزم طاهر وقوة عزمه

وعسكَرَ طاهر على خمسة فراسخ من الرَّىّ ، وأتاه محمد بن العلاء ، فقال : « أيها الأمير ، إنَّ جندك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً منه[٣] ، فلو أقَمْتَ بمكانك ، ودافعت القتال إلى أن يشامَّهم[٤] أصحابُك ، ويأنَسُوا بهم ، ويعرفوا وجهَ المأخذ فى قتالهم » ، فقال :

« لا ، إنى لا أُوتَى من قلَّة تجربة وحزم ، إن أصحابى قليل ، والقومُ عظيمٌ سَوادُهم ، كثيرٌ عددُهم ، فإن دافعتُ القتال ، وأخَّرت المناجزة ، لم آمَنْ أن يطَّلِعوا على قلّتنا وعورتنا ، وأن يستميلوا مَن معى برغبة أو رهبة ، فينفر عنى أكثر أصحابى ، ويخذلنى أهل الحفاظ والصبر ، ولكن ألُفّ الرجال بالرجال ، وأُلْحِم[٥] الخيل بالخيل ، وأعتمد على الطاعة والوفاء ، وأصبِر صَبْرَ محتَسِب للخير ، حريصٍ على الفوز بفضل الشهادة ، فإن

---

(١) الضرام : اشتعال النار فى الحلفاء وغيرها ، ودقاق الحطب الذى يسرع اشتعال النار فيه .

(٢) المعادى .

(٣) وكانت عدة عسكر ابن ماهان خمسين ألفا ، وذكر بعض أهل بغداد أنهم لم يروا عسكرا كان أكثر رجالا وأفره كراعا ، وأظهر سلاحا ، وأتم عدة ، وأكمل هيئة من عسكره ، وروى أن طاهرا كان فى أقل من أربعة آلاف .

(٤) شامَّا وتشامَّا : شم أحدهما الآخر ، والمعنى اقترابا .

(٥) أى أقرن الخيل بالخيل ، من قولهم : ألحمت الحرب فالتحمت ، والملحم بضم الميم وبفتح الحاء : الملصق بالقوم ، ولاحم الشىء بالشىء : ألصقه به .

يَرزق الله الظفر وَالْفَلَج[١] ، فَذلك الذى نريد ونرجو ، وإن تكن الأخرى فلست أول من قاتل فقُتل ، وَما عند الله أجزل وَأفضل » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥١)

٩٩ — طاهر يشد عزيمة جنده

وَكتَّب طاهر بن الحسين كتائبَه ، وَكَرْدَسَ كَرَادِيسه[٢] ، وسوَّى صفوفه ، وجعل يمرّ بقائد قائد ، وَجماعة جماعة ، فيقول :

« يا أولياء الله ، وأهل الوفاء والشكر ، إنكم لستم كهؤلاء الذين ترَوْن من أهل النَّكث والغدر ، إن هؤلاء ضيَّعوا ما حفِظتم ، وصغَّروا ما عظَّمتم ، وَنكثوا الأيمان التى رَعَيتم ، وإنما يطلبون الباطل ، وَيقاتلون على الغدر والجهل ، أصحاب سَلْبٍ وَنَهْب ، فلو قد غَضَضتم الأبصار ، وَأثبتُّم الأقدام ، قد أنجز الله وَعده ، وفتح عليكم أبواب عزّه وَنصره ، فجالِدُوا طواغيت الفتنة ، وَيعَاسيب النار[٣] عن دينكم ، وَدافعوا بحقكم باطِلَهم ، فإنما هى ساعة واحدة ، حتى يحكم الله بينكم وَهو خير الحاكمين » .

وَنشِب القتال بين الفريقين ، وَدارت الدائرة على جيش ابن ماهان وَقُتِل[٤] .

ووجَّه الأمين بعد ذلك لحرب طاهر جيشاً بقيادة عبد الرحمن بن جَبَلة ، فهزم وقتل أيضاً . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٢)

---

(١) الفوز الظفر .

(٢) الكراديس جمع كردوسة بالضم : وهى القطعة العظيمة من الخيل وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة.

(٣) الطواغيت جمع طاغوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال ، واليعاسيب جمع يعسوب : وهو الرئيس الكبير .

(٤) روى أن نعى على بن عيسى ورد إلى الأمين وهو على الشط يصيد السمك ، فقال للذى أخبره : ويلك دعنى ، فإن كوثرا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئا بعد — وكان كوثر خادما خصيا له وكان يحبه — .

١٠٠ — وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين
وندب أسد بن يزيد بن مزيد لقتال طاهر

وبعث الفضل بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن بن جَبَلة إلى أسد بن يَزيد بن مَزْيد ، قال : فأتيته ، فلما دخلت عليه وجدته قاعداً فى صَحْن داره ، وفى يده رُقعة قد قرأها ، واحمرَّت عيناه ، وَاشتد غضبه ، وهو يقول :

« ينام نومَ الظَّرِبان[1] ، وينتبه انتباه الذئب ، همَّتُه بطنُه ، وَلذَّته فَرْجُه ، لايفكِّر فى زوَال نعمته ، ولا يُرَوِّى فى إمضاء رأى وَلامَكيدة ، قد ألهاه كأسُه ، وَشَغَلَه قَدَحُه ، فهو يجرى فى لهوه ، وَالأيام تُسْرِع[2] فى هلاكه ، قد شمَّر عبدُ الله له عن ساقه ، وَفوَّق له أصْيَبَ[3] أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ ، وَالموت القاصد[4] ، قد عبَّى له المنايا على مُتون الخيل ، وناط[5] له البلاء فى أسِنَّة الرماح ، وشِفار السيوف » .

ثم استرجع وَتمثل بأبيات للبَعيث[6] ، ثم التفت إلىَّ فقال :

« يا أبا الحارث ، إنا وإياك لنجرى إلى غاية ، إن قَصَّرنا عنها ذُمِمْنا ، وإن اجتهدنا فى بلوغها انقطَعْنا ، وإنما نحن شُعَب من أصْل ، إن قَوِىَ قَوينا ، وإن ضَعُف ضَعُفْنا ، إن هذا قد ألقى بيده إلقاء الأمَةِ الوَكْعاء[7] ، يشاور النساء ، ويعتمد على الرؤيا . وقد أمكن أهلَ اللَّهو والخسارة مِن سمعه ، فهم يَعِدُونه الظفرَ ، ويمنُّونه عَقْب[8] الأيام ،

---

(١) الظربان : دويبة فوق جرو الكلب منتنة الريح كثيرة الفسو ، يضرب بها المثل فيقال : « أفسى من ظربان » . (٢) فى الأصل « تفرح » وأراه محرفا . (٣) أصيب : أفعل من صاب السهم يصيب صيبا : أى أصاب ، وسهم صيوب كصبور . (٤) القاصد أى الكاسر ، من القصد بالفتح : هو الكسر بأى وجه كان ، أو بالنصف : كالتقصيد ، يقال قصد المخة وقصدها : كسرها وفصلها فتقصدت .

(٥) علق . (٦) هو خداش بن بشر المجاشعى ، أحد شعراء الدولة الأموية ، وكان يهاجى جريرا .

(٧) وصف من الوكف بالتحريك : وهو الإثم والعيب والنقص ، وكف كفرح إذا أثم ، وفى رواية الطبرى « الوكعاء » بالعين ؛ وهى الحمقاء . (٨) العقب كقفل وعنق : العاقبة .

والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قِيعان[1] الرمل ، وقد خَشِيتُ واللهِ أن تَهلِكَ بهلاكه ، ونعطَبَ بعطَبه .

وأنت فارس العرب وابن فارسها ، وقد فَزِع إليك فى لقاء هذا الرجل (طاهر) ، وأطمَعه فيما قِبَلك أمران : أمّا أحدهما فَصِدْقُ طاعتك ، وفضلُ نصيحتك ؛ والثانى يُمْن نَقيبتك[2] ، وشدة بأسك ، وقد أمرنى بإزاحة عِلَّتك ، وبسْطِ يدك فيما أحببت ، غير أن الاقتصاد رأس النصيحة ، ومفتاح اليُمْن وَالبَرَكة ، فأَنجِز حوائجك ، وَعجِّل المبادرة إلى عدوك ، فإنى أرجو أن يُوليك الله شرف الفتح ، ويَلُمّ بك شعَث هذه الخلافة والدولة » .

فأجاب بالسمع والطاعة ، غير أنه طلب مطالب لم تَرُقْ فى عين الأمين فغضِب عليه : وأمر بِسَجْنه . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٨ وزهر الآداب ٢ : ١٥٨)

١٠١ — وصية الأمين لأحمد بن مزيد

ثم ندب عمَّه أحمد بن مَزْيد ، فلما أراد الشخوص دخل على الأمين ، فقال : أوصِنى أكرم الله أمير المؤمنين ، فقال :

« أُوصيك بخِصَالٍ عِدَّة : إياك والبغىَ فإنه عِقَالُ[3] النصر ، ولا تقدِّم رِجلا إلا باستخارة ، ولا تشهَرْ سيفاً إلا بعد إعذار ، ومهما قدَرت عليه باللين ، فلا تتعدَّه إلى إلى الخَرَق وَالشَّرَه ، وأحسِن صَحابةَ من معك من الجنـد ، وطالِعْني بأخبارك فى كل يوم ، ولاتخاطِر بنفسك فى طلبَ الزُّلْفة[4] عندى ، ولا تستَقْها فيما تَخَوَّفْ رجوعَهُ علىّ ، وكن لعبد الله أخاً مصافياً ، وقريناً بَرًّا ، وأحسِنْ مجامعتَه ، وصحبته ومعاشرته ، ولاتخذُله إن استنصرك ، ولا تبطئْ عنه إذا استصرخك ، ولتكن أيديكما[5] واحدة ، وكلمتكما متفقةً » .

---

(١) القيعان جمع قاع : وهو أرض مطمئنة سهلة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .

(٢) النقيبة : النفس والطبيعة . (٣) العقال فى الأصل : الحبل الذى تقيد به الدابة .

(٤) الزلفة والزلفى : القربة . (٥) أى أنت وعبد الله بن حميد بن قحطبة .

وتوجه أحمد بن مَزْيد فى عشرين ألفاً من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة فى عشرين ألفاً من الأبناء ، حتى نزلا خانقين — قريباً من حُلوان — ولم يزل طاهر يحتال فى وقوع الاختلاف والشَّغَب بينهم ، حتى اختلفوا ، وانتقض أمرهم ، وقاتل بعضهم بعضاً ، فأخلَوْا خانقين ورجعوا عنها ، دون أن يلقَوا طاهراً .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٩)

١٠٢ — مقال عبد الملك بن صالح للأمين

وكان عبد الملك بن صالح يشكر للأمين تخلية سبيله ، ويُوجب بذلك على نفسه طاعته ونصيحته ، فلما قَوِى طاهر ، واستعلى أمرُه ، وهزم مَن هزَم من قواد الأمين وجيوشه ، دخل عبد الملك على الأمين ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إنى أرى الناس قد طَمِعُوا فيك ، وأهل العسكرَين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلتَ سماحتَك ، فإن تَمَمْتَ على أمرك أفسدتَهم وأبطرتهم ، وإن كففتَ أمرك عن العطاء والبذل أسخطتَهم وأغضبتَهم ، وليس تَملُّك الجنود بالإمساك ، ولا يبقى ثبوتُ الأموال على الإنفاق والسَّرَف ، ومع هذا فإن جندك قد رَعَبتْهم الهزائم ونَهِكَتْهم ، وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلأت قلوبهم هيبةً لعدوهم ، ونَكَلوا[1] عن لقائهم ومناهضتهم ، فإن سيرتَهم إلى طاهر ، غَلَبَ بقليل مَنْ معه كثيرَهم ، وهزم بقوة نيته ضعفَ نصائحهم ونياتهم ، وأهل الشأم قوم قد ضَرَّستْهم[2] الحروب ، وأدّبتهم الشدائد ، وجُلّهم منقادٌ إلىّ ، مسارعٌ إلى طاعتى ، فإن وَجَّهنى أميرُ المؤمنين اتخذتُ له منهم جنداً يعظم نِكايتُهم فى عدوه ، ويؤيِّد الله بهم أولياءه وأهل طاعته » .

فقال الأمين : « فإنى مُوليك أمرهم ، ومقويك بما سألت من مال وعُدَّة ، فعجِّلْ

---

(١) جبنا وخوفا . (٢) جربتهم وأحكمتهم .

الشخوصَ إلى ما هنالك ، فاعمل عملا يظهر أثرُه ، وَيُحْمَدَ بركته ، برأيك ونظرك فيه إن شاء الله ، فولاه الشام والجزيرة .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٦١ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٠٣)

١٠٣ — الشغب فى جيش عبد الملك بن صالح

وسار عبد الملك بن صالح ، فلما قَدِم الرَّقَّة[١] ، كتب إلى رؤساء أجناد الشأم ووجوه الجزيرة ، فلم يبق أحد ممن يُرْجَى ، ويذكَر بأسه وَغَناؤه إلا وَعده ، وبسط لهُ فى أمله وأمنيته ، فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة ، فكان لا يدخل عليه أحد إلا أجازه ، وخلع عليه وحمله ، فأتاه أهل الشأم ، الزَّوَاقيل والأعراب من كل فج ، وَاجتمعوا عنده حتى كثُروا ، بَيْدَ أنه شبت نار الفتنة بين جند أهل خراسان وبين الزواقيل[٢] ، وَأفضى الأمر إلى تلاحمهم وَاقتتالهم ، ثم قام رجل من أهل حِمْص ، فقال :

« يأهل حمص ، الهَرَب أهونُ من العطَب ، والموت أهون من الذل ، إنكم بَعُدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلّة ، والعزة بعد الذِّلة ؛ ألا وفى الشر وقعتم ، وإلى حَوْمة الموت أُنِخْتم ، إن المنايا فى شوارب المسوِّدَة[٣] وقلانِسِهم ، النفيرَ النفيرَ[٤] قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمرُ الجليل ، ويفوت المطلَب ، ويعسُر المَذْهَب ، ويبعد العمل ، ويقترب الأجل » .

وقام رجل من كلب ، فقال :

« يا معشر كلب ، إنها الراية السَّوْداء ، والله ما وَلت ولا عدَلت ، ولا ذلّ

---

(١) بلد على الفرات . (٢) وسببها أن بعض جند أهل خراسان نظر إلى دابة كانت قد أخذت منه فى إحدى الوقعات تحت بعض الزواقيل ، فتعلق بها ، فجرى الأمر بينهما إلى أن اختلفا ، واجتمعت جماعة من الزواقيل والجند فتلاحوا ، وأعان كل فريق منهم صاحبهم ، ثم اتسع نطاق الفتنة فانشقت وحدة الجيش .

(٣) كانت الجنود الخراسانية التى تقاتل الامويين فى سبيل نشر الدعوة العباسية يحملون الرايات السود فسموا من أجل ذلك المسودة . (٤) نفر إلى الأمر كضرب نفيرا : أسرع إليه .

نصرها ، ولا ضعُف وليُّها ، وإنكم لتعرِفون مواقعَ سيوف أهل خراسان فى رقابكم ، وَآثار أسنَّتهم فى صدوركم ، اعتزِلوا الشر قبل أن يعظم ، وَتخطَّوه قبل أن يضطرم ، شأمَكم ، دارَكم دارَكم ، الموت الفِلَسْطِينى خير من العيش الجَزَرىّ ، ألا وَإنى راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معى » .

ثم سار وَسار معه عامة أهل الشأم ، وَأقبلت الزواقيل حتى أضرموا ما كان جُمِع من الأعلاف بالنار ، (وكان ذلك فى سنة ١٩٦ هـ) . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٦٢)

١٠٤ — خطبة الحسين بن على بن عيسى بن ماهان

يدعو إلى خلع الأمين

ومات عبد الملك بن صالح بالرَّقة ، وَكان معه الحسين بن على بن عيسى بن ماهان ، فأقفل الجندَ من الجزيرة إلى بغداد ، فتلقاه أهلها بالتكرمة والتعظيم ، وضربوا له القِبابَ ، واستقبله القواد والرؤساء والأشراف ، ثم اجتمع إليه الناس فقام فيهم فقال :

« يا معشر الأبناء ، إن خلافة الله لا تُجاوَز بالبطر ، ونعمهَ لا تستصحَب بالتجبُّر والتكبُّر ، وإن محمداً يريد أن يُوتِغ[1] أديانكم ، وينكُث بَيْعتكم ، ويفرِّق جمعكم ، وينقل عِزَّكم إلى غيركم ، وهو صاحب الزَّواقيل بالأمس ، وبالله إن طالت به مدة وراجَعه من أمره قوَّة ، ليرجِعَنَّ وبالُ ذلك عليكم ، وليُعْرَفن ضررُه ومكروهُه فى دولتكم وَدَعْوتكم ، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم ، وضَعوا عِزَّه قبل أن يضع عزَّكم ، فوالله لا ينصُره منكم ناصِرٌ إلا خُذِل ، ولا يمنعه مانع إلا قُتِل ، وما عند الله لأحد هَوادَةٌ ، ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده ، وَالْحِنْث بأيمانه » .

وخلع الحسين بن على محمداً الأمين وحبسه[2] ، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٦٣)

---

(١) أوتغ دينه بالإثم : أفسده ، وأوتغه الله : أهلكه .

(٢) وكان حبس الحسين محمد الأمين فى قصر أبى جعفر يومين .

١٠٥ — خطبة محمد بن أبى خالد

فى فض الناس عن اتباع الحسين بن على بن عيسى

فلما أصبح الناس من الغد ، طلبوا من الحسين بن على الأرزاق ، وماج الناس بعضهم فى بعض ، وقام محمد بن أبى خالد ، فقال :

« أيها الناس ، والله ما أدرى ، بأى سبب يتأمر الحسين بن على علينا ، ويتولَّى هذا الأمر دوننا ؟ ماهو بأكبرنا سِنًا ، ولا أكرمنا حَسَباً ، ولا أعظمِنا منزلةً ، وإن فينا من لا يَرْضَى بالدنيَّة ، ولا يُقاد بالمخادعة ، وإنى أوَّلُكم ، نقض عهدَه ، وأظهرَ التغييرَ عليه ، والإنكار لفعله ، فمن كان رأيُه رأيى ، فليعتزل معى » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٦٤)

١٠٦ — إطلاق الأمين من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة

وقام أسد الحَرْبِىّ ، فقال: «يا معشر الحربية ، هذا يومٌ له ما بَعْدَه، إنكم قد نِمْتُم وَطال نومكم ، وتأخَّرتم فَقَدُّم عليكم غيرُكم ، وقد ذهب أقوامٌ بِذِكر خلعِ محمد وأسْره فاذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه » .

فأقبل شيخ كبير من أبناء الكِفاية على فرس ، فصاح بالناس : اسكتوا ، فسكتوا ، فقال :

« أيها الناس ، هل تعتدُّون على محمد بقطعِ منه لأرزاقكم ؟ قالوا : لا ، قال : فهل قَصَّر بأحد منكم ، أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علِمنا ، قال : فهل عَزَل أحداً من قوّادكم ؟ قالوا : معاذَ الله أن يكون فعل ذلك ، قال: فما بالكم خذلتموه ، وَأعنتم عدوّه على اضطهاده وأسره ؟ أمَا والله ما قتَل قومٌ خليفتَهم قطُّ ، إلا سلَط الله عليهم السيفَ القاتل ، وَالحْتف الجارِف ، انهضوا إلى خليفتكم وادفعوا عنه ، وقاتِلوا من أراد خلعه والفتك به » .

فنهضوا معه وقاتلوا الحسين بن عليّ وأصحابه قتالا شديداً، وأكثروا فى أصحابه الجراح، وأسروا الحسين، ودخل أسد الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعده فى مجلس الخلافة.

وأُتى الأمين بالحسين بن عليّ، فلامه على خِلَافه وقال له: ألم أُقَدِّم أباك على الناس، وأولِّهِ أعِنَّة الخيل، وَأَمْلأْ يده من الأموال، وأشرِّف أقداركم فى أهل خراسان، وأرفع منازلكم على غيركم من القواد؟ قال: بلى، قال: فما الذى استحققتُ به منك أن تخلع طاعتى، وتُؤَلِّب الناس علىّ، وَتَنْدُبهم إلى قتالى؟ قال: الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله، قال: فإن أمير المؤمنين، قد فعل ذلك بك، وولَّاك الطلب بثأرك، ومن قُتِل من أهل بيتك، ثم دعا له بخلعة، فخلعها عليه، وحمله على مرا كبَ، وأمره بالمسير إلى حُلْوان، وخرج الحسين، فهرب فى نَفَر من خدمه وَمَوَاليه، فنادى محمد فى الناس، فركبوا فى طلبه فأدركوه وقتلوه. (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٦٤)

١٠٧ — خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين

وقام داود بن عيسى[1] والى مكة والمدينة — وكان خطيباً فصيحاً جَهِير الصوت — يدعو إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون، فقال:

---

(١) هو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وكان الأمين حين أفضت الخلافة إليه بعث به والياً على مكة والمدينة، فأقام والياً عليهما حتى دخلت سنة ١٩٦، فكتب الأمين إلى داود بن عيسى يأمره بخلع عبد الله المأمون، والبيعة لابنه موسى، وبعث إلى الكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما وعلقهما فى الكعبة، فأخذهما، فلما فعل ذلك جمع داود حجبة الكعبة والقرشيين والفقهاء، ومن كان شهد على ما فى الكتابين من الشهود — وكان داود أحدهم — فقال داود: قد علمتم ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق، عند بيت الله الحرام، حين بايعنا لابنيه لنكونن مع المظلوم منهما على الظالم، ومع المبغى عليه على الباغى، ومع المغدور به على الغادر، فقد رأينا ورأيتم أن محمداً (الأمين) قد بدأ بالظلم والبغى والغدر على أخويه عبد الله المأمون، والقاسم المؤتمن، وخلعهما، وبايع لابنه الطفل رضيع صغير لم يفطم، واستخرج الشرطين من الكعبة عاصياً، فحرقهما بالنار، وقد رأيت خلعه، وأن أبايع لعبد الله المأمون بالخلافة، إذ كان مظلوما مبغيا عليه، فقال له أهل مكة: رأينا تبع لرأيك، ونحن خالعوه معك، فجمع الناس، وخطبهم هذه الخطبة.

« الحمد لله مالكِ المُلك ، يُؤتى المُلكَ من يشاء ، وَيَنزِع المُلكَ ممن يشاء ، وَيُعِزُّ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء ، بيده الخيرُ ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لاشريك له ، قائمًا بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالدين ، وختَم به النبيين ، وجعله رحمةً للعالمين ، صلى الله عليه فى الأوَّلين والآخرين .

أما بعد ، يأهل مكة ، فأنتم الأصلُ والفرع ، والعشيرة والأُسْرة ، والشركاء فى النِّعمة ، إلى بلدكم يَفِدُ وَفْد الله[1] ، وإلى قِبلتكم يأتمُّ المسلمون ، وقد عَلِمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون ، رحمة الله عليه وصلاته ، حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهُرِكم من العهد والميثاق ، لتَنْصُرُنّ المظلوم منهما على الظالم ، والمبغى عليه على الباغى ، والمغدورَ به على الغادر ، ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والبغى ، والغدر ، وخالف الشروط التى أعطاها من نفسه فى بطن البيت الحرام ، وقد حَلّ لنا ولكم خلْعُه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغىّ عليه ، المغدور به ، ألا وإنى أُشهدكم أنى قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة ، كما خلعت قَلَنْسُوتى هذه من رأسى وخلع قلنسوته عن رأسه ، فرمى بها إلى بعض الخدم تحته ، وكانت من بُرُودِ حِبَرَة[2] مسلسلة حمراء ، وأتى بقلنسوة سوداء هاشميَّة فلَبِسها — ثم قال: قد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفتكم » ، فصعِد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر رجل فرجل ، فبايعه لعبد الله المأمون بالخلافة وخلع محمداً .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٧٠)

---

(١) أى لتأدية فريضة الحج .   (٢) برود حبرة : ضرب من البرود اليمانية ، يقال : برد حبرة مثل عنبة على الوصف والإضافة ، وبرود حبرة ، وليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوما ، إنما هو وشى كقولك : ثوب قرمز ، والقرمز : صبغة .

١٠٨ — خطبة الأمين وقد تولى الأمر عنه

ولما رأى الأمين الأمر قد تولَّى عنه ، وأنصاره يتسلَّلون فيخرجون إلى طاهر ، أمر بإحضار كلّ من كان معه فى المدينة من القواد والجند ، فأشرف عليهم وقال :

« الحمد لله الذى يرفع ويضَع ، ويُعْطِى ويَمْنَع ، وَيَقْبِض وَيَبْسُط ، وإليه المصير ، أحمَده على نوائب الزمان ، وَخِذْلان الأعوان ، وتشتّت الرجال ، وذهاب الأموال ، وَحُلول النوائب ، وتوقّد المصائب ، حمداً يَدَّخر لى به أجزل الجزاء ، وَيَرْفِدنى[1] أحسن العَزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لاشريك له ، كما شَهِد لنفسه ، وشهدت له ملائكتُه ، وأن محمداً عبده الأمين ، ورسوله إلى المسلمين صلى الله عليه وسلم ، آمين ربَّ العالمين .

أما بعد : يامعشر الأبناء ، وأهل السَّبْق إلى الهدى ، فقد علِمتم غَفْلتى كانت أيام الفضلُ بن الربيع وزيرٌ علىَّ ومشير ، فمادَّت[2] به الأيامُ بما لَزِمنى به من الندامة فى الخاصَّة والعامَّة ، إلى أن نبّهتمونى فانتبهتُ ، واستعنتمونى فى جميع ما كرِهتم من نفسى وفيكم ، فبذلتُ لكم ما حواه مُلْكى، ونالته مقدرتى مما جَمَعْتُهُ وَوَرِثْتُهُ عن آبائى فقوَّدت[3] من لم يجُز ، واستكفيتُ من لم يَكْفِ ، واجتهدت — عَلِمَ اللهُ — فى طلب رضاكم بكلّ ما قَدَرت عليه ، واجتهدتم — عَلِمَ اللهُ — فى مَسَاءتى فى كل يوم ماقَدَرتم عليه ، من ذلك توجيهى إليكم علىّ بن عيسى شيخكم وكبيركم ، وأهل الرأفة بكم ، والتحنّن عليكم ، فكان منكم ما يطول ذِكْرُه ، فغفرتُ الذنبَ ، وأحسنت واحتملت وعزَّيتُ نفسى عند معرفتى بشذوذ الظفرَ ، وحرصى على مُقامكم مَسْلحةً[4] بحُلوان مع ابن كبير صاحب دعوتكم ، وَمَن عَلَى يدىْ أبيه[5] كان فخركم ، وبه تمّت طاعتكم

---

(١) رفده وأرفده : أعطاه . (٢) طاولت وأمهلت . (٣) أى أعطاه قائداً .

(٤) المسلحة : القوم ذوو سلاح .

(٥) يعنى به عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وهو قحطبة بن شبيب الطائى ، أحد الدعاة العباسية والقواد الذين قاتلوا الجيوش الأموية — انظر الجزء الثانى ص ٥١٣

عبد الله بن حميد بن قحطبة ، فصرتم من التألب عليه إلى مالا طاقة له به ، ولا صبر عليه ، يقودكم رجل منكم وأنتم عشرون ألفاً إلى عامين ، وعلى سيدكم متوثبين ، مع سعيد الفرد ، سامعين له مطيعين ، ثم وثبتم مع الحسين علىَّ ، فخلعتمونى وشتمتمونى ، وانتهبتمونى وحبستمونى وقيدتمونى ، وأشياء منعتمونى من ذكرها ، حقد قلوبكم ، وتلكى[1] طاعتكم أكبر وأكثر ، فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ، ورضى بقدره ، والسلام » .

وكانت عاقبة أمره أن قتل سنة ١٩٨ هـ وحمل رأسه إلى المأمون بخراسان .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٠٥ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٠٥)

١٠٩ — استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون

وقال المأمون للفضل بن الربيع[2] لمّا ظفر به : « يافضلُ ، أكان من حقِّى عليك وحقِّ آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلبنى[3] وتسبَّنى وتحرِّض على دمى ؟ أتحبّ أن أفعل بك مافعلته بى ؟ » .

فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن عذرى يحقدك إذا كان واضحاً جميلا ، فكيف إذا حفّته[4] العيوبُ ، وقبَّحته الذنوبُ ، فلا يضيقُ عنى مِنْ عفوك ما وسع غيرى منك فأنت كما قال الشاعر[5] فيك :

صَفُوحٌ عن الأجرامِ حتى كأنه ... من العفو لم يَعْرِف من الناس مُجْرِما
وليس يُبالِى أن يكون به الأذى ... إذا ما الأذى لم يَغْشَ بالكُرْه مُسْلِما

(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

---

(١) محول عن تلكؤ .   (٢) توفى سنة ٢٠٨ .   (٣) ثلبه كضربه : لامه وعابه .

(٤) هكذا فى الأصل ، وربما كان « أحفته » لقوله قبل : « إذا كان واضحاً » .

(٥) هو الحسن بن رجاء بن أبى الضحاك .

١١٠ — خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين

ودخل طاهر بن الحسين بغداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين ، فصلى بالناس وَخطبهم خطبة بليغة ، وقد حضره من بنى هاشم والقواد وغيرهم جماعةٌ كثيرة قال :

« الحمد لله مَالِكِ الملك ، يُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ يَشَاء وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاء ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاء ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاء ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، لايُصْلِح عمل المفسدين ، وَلَا يَهْدِى كيد الخائنين ، إن ظهور غَلَبَتنا لم يكن من أيدينا ولا كَيْدِنا ، بل اختار الله للخلافة ، إذ جعلها عِمَاداً لدينه ، وَقِوَاماً لعباده ، وضَبْطِ الأطراف ، وَسَدِّ الثغور ، وإعدادِ العُدَّة ، وَجَمْعِ الْفَىْءِ ، وإنفاذِ الحكمِ ، وَنَشْرِ الْعَدْل ، وإحياء السُّنَّة بعد إذْبال الْبَطَالات ، والتلذذ بمُوبِق الشهوات ، وَالْمُخْلِدُ إلى الدنيا مستحسنٌ لداعى غُرُورِها ، مُحْتَلِبٌ دِرَّةَ[1] نعمِها ، أَلِفٌ لزهرة رَوْضتها ، كَلِفٌ برونق بهجتها ، وقد رأيتم من وفاء موعود الله عزَّ وجلَّ لمن بغَى عليه ، وما أحل به من بأسه ونقمته ، لمَّا نكَب[2] عن عهده ، وارتكب معصيتَه ، وخالف أمرَه ، وَغيّره ناهية ، وعظته مؤدِّبة ، فتمسكوا بدقائقِ عُصَمِ[3] الطاعة ، وَاسْلُكوا مَنَاحِى سَبيلِ الجماعة ، واحذَرُوا مصارعَ أهل الخلاف والمعصية ، الذين قَدَحُوا زِناد الفِتنة ، وصَدَعوا شَعْبَ الأُلْفَة ، فأعْقَبَهُم الله خَسَارَ الدنيا والآخرة » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٠٦ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٥)

---

(١) الدرة : اللبن . (٢) عدل .

(٣) جمع عصام ككتاب ، وعصام القربة : رباطها وسيرها الذى تحمل به .

خطب المأمون (توفي سنة ٢١٨هـ)

١١١ — خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد

خطب الناس بمَرْو حين ورد عليه نَعْي الرشيد، فقال:

« إن ثَمرة الصّبر الأجر، وثمرة الجزَع الوِزْر، والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ، فائدةٌ جليلة، وتجارة مُرْبِحة، فالموت حَوْضٌ مورود، وكأس مشروب، وقد أتى على خليفتكم ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، فما كان إلا عبداً دعِيَ فأجاب، وأُمِر فأطاع، وقد سَدَّ أمير المؤمنين ثَلْمه، وقام مَقَامَه، وفى أعناقكم من العهد ماقد عرفتم، فأحسِنُوا العَزَاء على إمامكم الماضى، واغتبِطُوا بالنَّعماء والوفاء فى خليفتكم الباقى، يأهلَ الدنيا: الموتُ نازل، وَالأجَلُ طالِبٌ، وأمس واعِظٌ، واليوم مغتنَم، وَغَدٌ منتظرٌ ».

١١٢ — خطبته وقد سلم الناس عليه بالخلافة

ولما بلغه بخُراسان قتلُ أخيه، وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة، صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيه، ثم قال:

« أيها الناس: إنى جَعَلْتُ لله على نفسِى، إن اُسترعانى أمورَكم أن أطيعَه فيكم، ولا أسفِك دما عَمْداً لا تُحِلُّه حُدودُه، وتسفِكه فرائضُه، ولا آخذ لأحد مالاً، ولا أثاثاً، ولا نِحْلَة[1] تَحْرُم علىّ، ولا أحكمُ بهَوَاى، فى غضَبى ولا رضاى، إلا ما كان

(١) نحلة: أعطاه والاسم النحلة.

فى الله وله ، جعلتُ كلَّه لله عهداً مؤكَّداً ، وميثاقاً مُشَدَّداً ، إنى أفى رغبةً فى زيادته إياىَ فى نعمتى ، ورهبةً من مسألَتِهِ إياى عن حَقّه وخَلْقه ، فإن غيَّرتُ أو بدلتُ كنتُ للغِيَرِ مستأهِلاً ، وللنَّكال مُعَرَّضا ، وأعوذ بالله من سَخَطِهِ ، وأرغب إليه فى المَعُونة على طاعته ، وأن يحُول بينى وبين معصيته » .

١١٣ — خطبته يوم الجمعة

الحمد لله مستخلِص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خَلْقه ، أحمده وأستعينه ، وأُومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وَحْدَه ، والعملِ لما عنده ، والتنجُّز لوعده ، والخوفِ لوعيده ، فإنه لا يَسْلَمُ إلا من اتقاه ورَجاه ، وعمِل له وأرضاه ، فاتقوا الله عبادَ الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقَى بما يزول عنكم ، وترحَّلوا فقد جُدَّ بكم ، واستعِدُّوا للموت فقد أظلَّكم ، وَكونوا قوماً صِيح بهم فانتبهوا ، وعلِموا أن الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا ، فإن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سُدًى ، وَما بين أحدِكم وَبين الجنة وَالنار إلا الموتُ أن ينزل به ، وَإن غايةً تَنْقُصها اللحظةُ ، وَتَهْدِمها الساعةُ الواحدة ، لجديرة بقِصَر المدة ، وَإن غائباً يَحْدُوه[1] الجَديدان : الليل والنهار لَحرِىّ بسرعة الأَوْبة ، وَإن قادماً يحُلّ بالفوز أو بالشِّقوة لمستحِقٌّ لأفضل العُدَّة ، فاتَّقى عبدٌ ربَّه ، وَنصح نفسه ، وَقدَّم توبتَه ، وغلب شهوتَه ، فإن أجله مستورٌ عنه ، وَأمله خادع له ، وَالشيطان موكَّل به ، يزيِّن له المعصية ليركبها ، ويمنِّيه التوبة ليسوِّفها ، حتى تهجُم عليه منيتُه ، أغفلَ ما يكونُ عنها ، فيالها حسرةً على ذى غَفلة ، أن يكون عمرُه عليه حجةً ، أو تؤدِّيَه أيامُه إلى شِقوة ، نسأل الله أن يجعلنا وَإياكم ممن لا تُبطِرُه نعمة ،

(١) يسوقه .

وَلا تقصِّر به عن طاعته غَفلة ، وَلا تحلّ به بعد الموت فزْعة . إنه سميع الدعاء ، وَبيده الخير ، وإنه فعّال لما يُريد » . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٤ – خطبته يوم الأضحى

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وَأوجب تشريفه ، وَعظّم حرْمَتَه ، ووفّق له من خَلقه صفوتَه ، وَابتلى فيه خليلَه ، وَفدَى فيه من الذّبح نبيه ، وجعله خاتَم الأيام المعلومات من العَشْر ، وَمتقدّم الأيام المعدودات من النَّفر[١] ، يومٌ حَرام ، من أيام عظام ، فى شهر حرام ، يومُ الحج الأكبر ، يومٌ دعا الله إلى مَشْهَده ، وَنزل القرآن بتعظيمه ، قال الله جل وَعز : « وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا ، وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ، وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ[٢] » . فتقرّبوا إلى الله فى هذا اليوم بذبائحكم ، وَعظّموا شعائرَ اللهِ ، وَاجعلوها من طيّب أموالكم ، وبصحّة التقوى من قلوبكم ، فإنه يقول : « لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ[٣] » ، ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبى والوصية

---

(١) يوم النفر : اليوم الذى ينفرفيه الناس من منى ، وهو بعد يوم القر (يوم القر بالفتح : اليوم الذى بعد يوم النحر ، لأن الناس يقرون فى منازلهم) .

(٢) رجالا : أى مشاة، جمع راجل كقائم وقيام ، وعلى كل ضامر : أى وركبانا على كل ضامر ، أى بعير مهزول، يأتين : أى الضوامر، صفة لضامر حملا على المعنى ، من كل فج عميق : أى طريق بعيد ، ليشهدوا منافع لهم : دينية ودنيوية ، فى أيام معلومات : هى عشر ذى الحجة ، وقيل : أيام النحر ، من بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم التى تنحر للضحايا ، ثم ليقضوا تفثهم : أى يزيلوا أوساخهم وشعثهم من نحو قص الأظفار ، وحلق العانة ، و غير ذلك . (٣) أى يرفع إليه منكم العمل الصالح .

بالتقوى ، ثم قال بعد ذكر الجنة والنار ، عَظُم قدرُ الدارين ، وارتفع جزاءُ العملين[١] ، وطالت مدة الفريقين ، أللهَ أللهَ ، فوأللهِ إنه الجِدُّ لا اللَّعِب ، وإنه الحقُّ لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث ، والميزان والحساب والقِصاص والصراط ، ثم العقاب والثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هَوَى يومئذ فقد خاب ، الخير كلُّه فى الجنة ، والشر كله فى النار » . (عيون الأخبار م ٢ : ص٢٥٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٥ — خطبته يوم الفطر

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم عيد وسُنَّة ، وابتهال ورغبة ، يومٌ خَتَمَ الله به صيامَ شهر رمضان ، وافتتح به حَجَّ بيتِهِ الحَرَام ، فجعله خاتمة الشهر ، وأوّل أيام شهور الحج ، وجعله مُعَقِّباً لمفروض صومكم ، ومُتَنَفَّل قيامكم ، أحَلَّ فيه الطعامَ لكم ، وحرَّم فيه الصيامَ عليكم ، فاطلبوا إلى الله حوائجكم ، وَاستغفروه لتفريطكم ، فإنه يقال : « لا كبيرَ مع استغفار ، ولا صغيرَ مع إصرار » ثم التكبير والتحميد ، وذكر النبي عليه الصلاة والسلام ، والوصية بالتقوى ، ثم قال : فاتقوا الله عبادَ الله ، وبادِروا الأمرَ الذى اعتدَلَ فيه يقينكم ، ولم يَحتضِر[٢] الشكُّ فيه أحداً منكم ، وهو الموتَ المكتوبُ عليكم ، فإنه لا تُستَقَالُ بعده عَثْرَة ، ولا تُحْظَر قبله تَوبة ، واعلموا أنه لا شىء قبله إلا دونَه ، ولا شىء بعده إلا فوقَه ، ولا يُعين على جزَعه وَعَلَزِهِ[٣] وَكُرَبِهِ . ولا يعين على القبر وظُلْمته ، وَضيقِهِ وَوَحْشَتِه ، وَهَوْلِ مَطْلَعه وَمَسْأَلةِ ملائكته ، إلا العملُ الصالحُ الذى أمرَ الله به ، فمن زلَّت عند الموت قدمُه ، فقد ظهرت ندامتُه ، وفاتته استقالتُه ، ودعا من الرَّجْعة إلى مالا يُجَابُ إليه ، وَبذل من الفِدْية مالا يُقبَل منه ، فاللهَ أللهَ عبادَ الله ، وكونوا قوماً سألوا الرَّجْعَة فأُعْطُوها ، إذ مُنِعَها الذين طَلَبوها ،

---

(١) أى عمل الخير وعمل الشر . (٢) يحضر .

(٣) العلز : مايصيب المريض عند حشرجة الموت من رعدة واضطراب .

فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المَهَلَ المبسوطَ لكم ، واحذروا ما حذَّركم الله ، واتقوا اليوم الذى يَجْمَعَكم الله فيه لوضع مَوازينكم ، ونَشْرِ صُحُفِكم الحافظة لأعمالكم ، فلينظر عبدٌ ما يَضَع فى ميزانه مما يثقُل به ، وما يُمِلّ[1] فى صحيفته الحافظة لما عليه وله ، فقد حكى الله لكم ما قال المفرِّطون عندها ، إذ طال إعراضهم عنها ، قال : « وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ، مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً » ، وقال : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ[2] لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » ، ولست أنهاكم عن الدنيا بأعظمَ مما نهتكم الدنيا عن نفسها ، فإنَّ كل ما بها ينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها ، وأعظم مما رأته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله لها ، ونهى الله عنها ، فإنه يقول : « فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ » ، وقال : « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . . الآية » ، فانتفِعُوا بمعرفتكم بها ، وبإخبار الله عنها ، واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذِروا مَصارِعها ، وجانَبُوا خدائِعها ، وآثَروا طاعة الله فيها ، فأدركوا الجنة بما تركوا منها » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٥ ؛ والعقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٦ — خطبة ابن طباطبا العلوى

وخطب محمد[3] بن إبراهيم بن إسمعيل بن إبراهيم طَبَاطَبَا بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب ، حين انتهب قائدُ جيوشه أبو السرايا السَّرِىُّ ابن منصور قصرَ العباس بن موسى بن عيسى ، فقال :

---

(١) يملى . (٢) القسط : العدل : مصدر وصف به للمبالغة أو ذوات القسط .

(٣) خرج بالكوفة لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٩ هـ يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وكان القيم بأمره فى تدبير الحرب ، وقيادة جيوشه أبا السرايا السرى بن منصور وكان سبب خروجه صرف المأمون طاهر بن الحسين عما كان إليه من أعمال البلدان التى افتتحها ، وتوجيهه إلى ذلك الحسن —

« أما بعدُ : فإنه لا يزال يَبْلغنى أن القائل منكم يقول : إن بنى العباس فَيْءٌ لنا ، ونخوضُ فى دمائهم ، وَنَرْتَع فى أموالهم ، وَيُقْبَلُ قولنا فيهم ، وَتُصَدَّق دعوانا عليهم ، حُكْمٌ بلا عِلم ، وَعَزْم بلا رَوِيَّة ! عَجَبًا لمن يُطْلِق بذلك لسانه ، ويحدِّث به نفسه ! أبكتاب الله تعالى حَكَمَ ، أم لِسُنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم اتَّبع ؟ أَفِى مَثِلِى[1] معه طَمِعَ ، أم بَسْطَ يدى له بالجود أَمَّلَ ؟ هيهات ! فازذو الحق بما نَوَى ، وأخطأ ذو الباطل بما تمنّي ، حَقٌّ كل ذى حقٍّ فى يده ، وكل مُدَّعٍ على حجته ، وَيلٌ لمن اغتصب حقًّا ، وادعى باطلا ، أفلح مَنْ رَضِيَ بحكم الله ، وخاف من أرغم الحقُّ أنفَه ، الْعَدْلُ أَوْلَى بالأَثَرة وإن رَغِم الجاهلون ، حُقَّ لمن أمر بالمعروف أن يجتنب المنكر ، ومن سلك سبيل العدل أن يصبِر على مرارة الحق ، كل نفس تسمو إلى هِمَّتها ، وَنِعْمَ الصاحبُ القناعة .

أيها الناس ، إن أكرم العبادة الوَرَع ، وأفضل الزاد التقوى ، واعملوا فى دنيا كم ، وتزوَّدوا لآخرتكم ، اتَّقُوا ٱللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وإيا كم وَالعصبيةَ وَحَمِيَّةَ الجاهلية ، فإنهما يَمْحَقَان الدين ، ويُورِثان النفاق ، ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، يَصْلُحْ لكم دينكم ، وتحسُن المقالة فيكم . الحق أبلجُ ، والسبيل منهج ، وَالباطل لَجْلَج[2] ، وَالناس مختلفون ، وَلكلٍّ فى الحق سَعة ، من حَارَبَنَا حاربناه ،

— ابن سهل ، فلما فعل ذلك تحدث الناس بالعراق أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون ، وأنه قد أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ، ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يبرم الأمور على هواه ، ويستبد بالرأى دونه ، فغضب لذلك بالعراق من كان بها من بنى هاشم ، ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون ، واجترءوا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتن فى الأمصار ، فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا المذكور ، فوجه إليه الحسن بن سهل زهير بن المسيب فى عشرة آلاف فواقعهم فهزموه واستباحوا عسكره ، فلما كان من غد اليوم الذى كانت فيه الوقعة (وذلك يوم الخميس لليلة خلت من رجب سنة ١٩٩) مات ابن طباطبا فجأة ، ذكر أن أبا السرايا سمه ، وذلك أن ابن طباطبا لما أحرز ما فى عسكر زهير منعه أبا السرايا ، وحظره عليه ، وكان الناس له مطيعين ، فعلم أبو السرايا أنه لا أمر له معه فسمه » .

(١) فى الأصل : « أفى مثل » وهو تحريف ، والصواب ما ذكرته .

(٢) أبلج : أى واضح بين . والمنهج الطريق الواضح ، والباطل لجلج : أى يتردد فيه صاحبه فلا يصيب مخرجا .

وَمن سالَمَنا سالمناه ، وَالناس جميعاً آمِنُون إلا رجلا نَصَب لنا نفسه ، وَأعان علينا بماله . وَلو شئت أن أقول : ورجل قال فينا يتناول من أعراضنا : لقلت ، وكفى ، حَسْبُ كل امرئ ما يصْنَعه ، وَسيُكفَى الظالمون » . (مواسم الأدب ٢ : ١١٣)

١١٧ — استعطاف إبراهيم بن المهدى المأمون

لما ظفر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدى[١] أمر بإدخاله عليه ، فجىء بإبراهيم يَحجُل[٢] فى قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له المأمون : لا سلّم الله عليك ، ولا حَفِظك ، ولا رعاك ، ولا كَلأك[٣] يا إبراهيم ، فقال له إبراهيم : على رِسْلك[٤] يا أمير المؤمنين ، ولىُّ[٥] الثأرِ مُحكَّمٌ فى القصاص ، والعَفْوُ أقربُ لِلتَّقْوَى ، ومن مُدَّ له الاغترار فى الأمل ، هَجَمَتْ به الأناةُ على التَّلف[٦] وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل[٧] عفو ، فإن تعاقِبْ فَبحقِّك ، وَإن تَعْفُ فبفضلك » ، ثم قال :

ذَنبى إليك عظيمٌ وأنت أعْظَمُ منه
فخذ بحقك أوْ لا فاصفح بفضلك عنهُ
إن لم أكن فى فعالى من الكرام فَكُنْهُ

فأطرق المأمون مليًّا ، ثم رفع رأسهُ فقال : إنى شاوَرت أبا إسحق[٨] والعبَّاس

---

(١) كان المأمون قد عهد بالخلافة لعلى الرضا بن موسى الكاظم ، فلما سمع العباسيون ببغداد (وكان المأمون بمرو حاضرة خراسان) ماقطه المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوى ، أنكروا منه ذلك ، وخلعوه من الخلافة ، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى سنة ٢٠١ هـ ، ولما علم المأمون بذلك جد فى المسير إلى بغداد ، وهرب عمه إبراهيم وتوارى .

(٢) حجل المقيد كضرب ونصر : رفع رجلا ، وتريث فى مشيه على رجله .

(٣) كلأه : حرسه . (٤) المهل والتؤدة . (٥) صاحبه .

(٦) وفى رواية : « ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرخاء ، أمن عادية الدهر » .

(٧) وفى رواية : « وقد أصبحت فوق كل ذى ذنب ، كما أصبح كل ذى عفو دونك » وفى أخرى « وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك » .

(٨) أبو إسحق هو المعتصم أخو المأمون ، والعباس هو ابن المأمون .

فى قتلك فأشارا علىَّ به ، قال : فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلتُ لهما : بدأنا له بإحسان ، وَنحن نستأمره فيه ، فإن غيَّر فالله يغير ما به ، قال : أمَّا أن يكونا قد نصحاك فى عِظَم قدر الملك ، وما جرَت عليهِ عادةُ السياسة فقد فعلا ، ولـكن أبيتَ أن تستجلب النصر إلا من حيثُ عوَّدك الله ، ثم استعبر باكيًا ، فقال له المأمون : ما يُبكيك ؟ قال : جَذَلًا ، إذ كان ذنبى إلى من هذه صِفتهُ فى الإنعام ، ثم قال : يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جُرْمِى يبلغ سَفْكَ دمى ، فحلم أمير المؤمنين وتفضله يُبلغانى عفوَه ، ولى بعدهما شفاعةُ الإقرار بالذنب ، وَحُرْمَةُ الأبِ بعد الأب ، قال المأمون : « القدرةُ تذهب الحفيظة[1] ، والندم تَوْبةٌ ، وعفوُ الله بينهما ، وهو أكبر مايحاوَل ، يا إبراهيم : لقد حَبَّبْت إلى العفو ، حتى خِفْتُ أن لا أوجَرَ عليه ، أما لو عَلِم الناس ما لنا فى العفو من اللَّذَّة ، لتقربوا إلينا بالجنايات ، لاتثريب[2] عليك ، يغفر الله لك ، ولو لم يكن فى حق نسبك ما يبلِّغ الصفح عن زَلَّتك ، لبلَّغك ما أمَّلْتَ حسنُ توصُّلك ، ولطيف تنصُّلك » ، ثم أمر بردِّ ماله وضياعهِ ، فقال :

رَدَدْتَ مالى ، ولم تَبْخَلْ عَلَىَّ به وَقَبْلَ رَدِّك مالى قد حَقَنْتَ دمى
فأُبْتُ منك ـ وما كافَأْتُها ـ بيدٍ هما الحياتان من وَفْرٍ ومن عَدَمِ[3]
وقام علمُك بى فاحتجَّ عندك لى مَقَامَ شاهدٍ عَدْلٍ غيرِ مُتَّهَم
فلو بَذَلْتُ دمى أبْغِى رضاك به والمالَ، حتى أسُلَّ النعلَ من قَدَمى
ما كان ذاك سِوَى عاريةٍ رَجَعَتْ إليك، لو لم تَهَبْها كنتَ لم تُلَمِ

(الأغانى ٩ : ٥٧ ، والعقد الفريد ١ : ١٤٢ ، الأمالى ١ : ٢٠٢ ، وزهر الآداب ٣ : ١٩١)

---

(١) الحفيظة : الغضب ، وفى رواية الأغانى أن هذه الجملة من قول إبراهيم بن المهدى .

(٢) لا لوم . (٣) اليد : النعمة .

١١٨ – إبراهيم بن المهدى وبختيشوع الطبيب

تنازع إبراهيم بن المهدى هو وبَخْتَيْشوع الطبيب بين يدى أحمد بن دُوَاد القاضى، فى مجلس الحكم، فى عَقَارٍ بناحية السَّواد[1]، فزَرَى عليه[2] ابن المهدى، وأغلظ له بين يدى أحمد بن دُوَاد، فأحفَظه[3] ذلك، فقال: يا إبراهيم إذا نازعتَ أحداً فى مجلس الحكم، فلا أعلمَنَّ أنك رفعتَ عليه صوتاً، ولا أشَرْتَ بيد، وليكُن قَصْدُك أَمَماً[4]، وطريقك نَهْجاً[5]، وريحك ساكنة، وكلامُك مُعْتَدِلا، ووفِّ مجالس الحكومة حقوقها، من التوقير والتعظيم والاستكانة والتوجُّهِ إلى الواجب، فإن ذلك أشبَهُ بك وأشكَلُ لمذهبك فى مَحْتِدِك[6]، وعَظِيم خَطَرِك[7]، ولا تعجَلْ، فرُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً[8]، والله يَعْصِمُك من الزلل، وخَطَل القول والعمل، ويتم نعمته عليك كما أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبلُ، إنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

قال إبراهيم: «أصلحك الله أمرتَ بسَدَاد، وحضَضْتَ على رَشاد، ولستُ بعائدٍ إلى ما يَثْلِم[9] مُرُوءتى عندك، ويُسْقِطنى من عينك، ويُخْرِجنى من مقدار الواجب إلى الاعتذار، فهأنا معتذرٌ إليك من هذه البادرة، اعتذارَ مُقِرٍّ بذنبه، باخِعٍ بجُرمه[10]، فإن الغضب لا يزال يستفزُّنى بمواده، فيردّنى مِثْلك بحلمه، وتلك عادة الله عندنا منك، وحَسْبُنا الله ونعم الوكيل، وقد وهبت حقى من هذا العقار لبختيشوع، فليت ذلك اليوم يَعُول[11] بأَرْشِ[12] الجناية، ولم يتلَفْ مالٌ أفاد موعظة، وبالله التوفيق».

(العقد الفريد ١ : ٢٧، وزهر الآداب ١ : ٣٣٢)

---

(١) سواد العراق، والعقار: كل ملك ثابت له أصل كالدار والنخل، والجمع عقارات.
(٢) عابه. (٣) أغضبه. (٤) الأمم: القصد الوسط. (٥) واضحاً.
(٦) أصلك. (٧) قدرك. (٨) إبطاء. (٩) يعيب وينقص. (١٠) مقر.
(١١) يزيد ويرجح. (١٢) الأرش: الدية.

١١٩ — استعطاف إسحاق بن العباس المأمون

وقال المأمون لإسحاق بن العباس : « لاتحسبَنّى أغفلت إجلابك مع ابن المهدى ، وتأييدك لرأيه ، وإيقادك لناره، قال : « يا أمير المؤمنين ، ولَرَحِمى أمسُّ من أرحامهم وقد قال لهم كما قال يوسف لإخوته : « لَاتَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»،وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارثٍ لهذه المِنة، ومُمْتثل[2] خِلال العفو والفضل » .

قال : هيهات ! تلك أجرام جاهليةٍ عفا عنها الإسلام ، وجُرْمك جرم فى إسلامك، وفى دار خلافتك . قال : « يا أمير المؤمنين فوالله لَلْمُسْلِمُ أحقُّ بإقالة العثرة، وغُفرانِ الزّلة من الكافر ، هذا كتاب الله بينى وبينك ، يقول الله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » فهى للناس يا أمير المؤمنين سُنّة دخل فيها المسلم والكافر ، والشريف والمشروف » قال : صدقت ، اجلس ، وَرِيَتْ بك زِنادى ، ولا بَرِحْتُ أَرَى من أهلك أمثالك .

(العقد الفريد ١ : ١٤٢ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٣)

١٢٠ — أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخلها

لما دخل المأمون بغداد ، تلقاه وجُوهُ أهلها ، فقال له رجل منهم : « ياأمير المؤمنين ، بارك الله لك فى مَقْدَمك ، وزاد فى نعمتك ، وشكرك عن رعيتك ؛ تقدمتَ مَنْ قَبْلَك ، وأتعبتَ مَن بعدك[3] ، وآيستَ أن يُعايَن مِثْلُكَ ، أمّا فيما مضى فلا نعرفه ،

---

(١) لا لوم . (٢) امتثل طريقته : تبعها فلم يعدها .

(٣) إذ أنه يجهد أن يلحق بك فلا يستطيع .

وأما فيما بقى فلا نَرْجوه ، فنحن جميعاً ندعو لك ، ونُثنى عليك ، خَصِب لنا جَنابُك ، وعذُب ثوابك ، وحسُنت نَظْرتك ، وكَرُمت مَقدرتك ، جبَرت الفقير ، وفككت الأسير ، فإنك يا أمير المؤمنين كما قال الأول :

ما زلتَ فى البَذْل والنَّوال وإطـــلاقِ لِعَانٍ بجُرمه غَلِقِ[١]

حتى تمـــنَّى البِرَاء أنهــمُ عندك أسرى فى القَيْدِ وَالحَلَقِ[٢]

(العقد الفريد ١ : ١٣٧)

١٢١ — أحد أهل الكوفة يمدح المأمون

وقدم وفد من الكوفة إلى بغداد ، فوقفوا للمأمون فأعرض عنهم ، فقال شيخ منهم : « يا أمير المؤمنين : يَدُك أحقُّ يدٍ بتقبيل ، لعُلُوِّها فى المكارم ، وَبُعْدها من المآثم ، وأنت يوسفيّ العفو فى قلة التثريب ، مَنْ أرادك بسوء جعله الله حَصِيدَ سيفك ، وَطَرِيدَ خوفك ، وذليلَ دولتك » ، فقال ياعمرو : نعم الخطيب خطيبُهم، اقض حوائجهم.

(مروج الذهب ٢ : ٣١٩)

١٢٢ — محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدى المأمون

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضِياعَهم، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك بين يديك ، رَبِيب دولتك ، وَسَليل نعمتك، وَغُصْن من أغصان دَوْحتك[٣] ، أتأذن فى الكلام ؟ قال نعم ، قال : « أَسْتَمْنِح اللهَ حِياطةَ ديننا ودنيانا ، ورِعايةَ أدنانا وأقصانا ببقائك ، ونسأله أن يَزِيد فى عمرك من أعمارنا ، وفى أثَرِك من آثارنا ، وَيَقِيكَ الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، هذا مَقَام العائذ بفضلك ، الهارب إلى كَنَفِك وَظِلك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك » ، ثم تكلم فى حاجته، فقضاها .

(العقد الفريد ١ : ١٤٦)

---

(١) العانى : الأسير ، والغلق : أصله من غلق الرهن إذا استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتكك فى الوقت المشروط . (٢) البراء كـكرام جمع برىء .

(٣) الدوحة : الشجرة العظيمة .

١٢٣ — الحسن بن سهل يمدح المأمون

وقال الحسن بن سَهل[1] يوماً للمأمون :

« الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك ، وَسَنِيِّ ما أعطاك ، إذ قَسَم لك الخلافة ، ووهب لك معها الحجَّة ، وَمَكَّنك بالسلطان ، وَحلاَّه لك بالعدل ، وأيَّدك بالظفَر ، وَشفَعه لك بالعفو ، وأوجب لك السعادة ، وَقَرنها بالسيادة ، فمن فُسِح[2] له في مثل عطية الله لك ؟ أم مَنْ ألبسه الله تعالى مِنْ زينة المواهب ما ألبَسَك ؟ أم من ترادفَتْ نعمةُ الله تعالى عليه ترادُفَها عليك ؟ أم هل حاولها أحدٌ وارتبَطها بمثل محاولتك ؟ أم أى حاجة بَقِيَت لرعيتك لم يجدوها عندك ؟ أم أى قيِّم للإسلام انتهى إلى عنايتك وَدرَجتك؟ تعالى الله تعالى ، ما أعظم ما خصَّ القَرْنَ الذى أنت ناصِرُه ، وسبحان الله ! أىُّ نعمة طبَّقت[3] الأرض بك إن أُدِّى شكرها إلى بارئها والمنعِم على العباد بها ؟ إن الله تعالى خلق السماء فى فَلَكها ضياء يستنير بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنُه ونوره ، فهل لَبِسَتْه زينتَه إلا بما اتصلَ به من نورك ؟ وكذلك كل وَلِيٍّ من أوليائك ، سَعِد بأفعاله فى دولتك ، وَحَسُنَتْ صنائعه عند رعيتك ، فإنما نالها بما أيَّدتَه من رأيك وتدبيرك ، وأسعدتَه من حسنك وتقويمك » . (زهر الآداب ٣ : ٢٠٠)

١٢٤ — يحيى بن أكثم يمدح المأمون

وقال المأمون ليحيى بن أكْثَم[4] : صف لى حالى عند الناس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، قد انقادت لك الأمورُ بأزِمَّتها ، وملَّكتك الأمة فُضولَ

---

(١) وزر للمأمون بعد أخيه الفضل بن سهل ، وتزوج المأمون ابنته بوران ؛ وتوفى سنة ٢٣٦ هـ .

(٢) أى وسع . (٣) ملأت وعمت ، والاستفهام للتعظيم .

(٤) من ولد أكثم بن صيفى التميمى ، وكان فقيها عالما بالفقه بصيراً بالأحكام ؛ وقد غلب على المأمون؛ حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعاً ؛ وقلده قضاء القضاة ، وتدبير أهل مملكته ؛ فكانت الوزراء لاتعمل فى تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم ؛ وتوفى سنة ٢٤٦ هـ ؛ وعمره ٨٣ سنة .

أعِنَّتها ، بالرغبة إليك ، والمحبة لك ، والرِّفق منك ، والعِياذ بك ، بِمَدِّك فيهم ، ومَنِّك عليهم ، حتى لقد أنْسَيْتَهم سَلَفَكَ ، وآيستَهم من خَلَفِك ، فالحمد لله الذى جمعنا بك بعد التقاطع ، ورفعنا فى دولتك بعد التواضع » .

فقال : يا يحيى ، أتحبيراً أم ارتجالاً ؟ قال : قلت : وهل يمتنع فيك وصف ، أو يتعذر على مادحك قول ، أو يُفْحَم فيك شاعر ، أو يتلجلج فيك خطيب ؟

(الصناعتين ص ٤٠)

١٢٥ — أحد بنى هاشم والمأمون

أذنب رجل من بنى هاشم ذنباً ، فعَنَّفه المأمون ، فقال :

« يا أمير المؤمنين من كانت له مثلُ دالَّتى ، ولَبِسَ ثوب حُرْمتى ، ومَتَّ بمثل قرابتى ، غُفِرَ له فوق زَلَّتى » فأعجبَ المأمونَ كلامُه وصفح عنه .

(الأمالى ٢ : ١٣٦ ؛ وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٢٦ — رجل يتظلم إلى المأمون

وتظلَّم رجل إلى المأمون من عامل له فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما ترَك لى فِضَّةً إلاَّ فَضَّها ، ولاَ ذَهَباً إلاَّ ذَهَبَ به ، ولا غلَّة إلا غلَّها[1] ، ولا ضَيْعة إلا أضاعها ، ولا عِلْقاً[2] إلا عَلِقه ، ولا عَرَضاً إلا عرَض له ، ولا ماشيةً إلاَّ امتشَّها[3] ، ولا جليلا إلا أجلاه ، ولا دقيقاً إلا دقَّه » ، فعجب من فصاحته وقضى حاجته .

(زهر الآداب ٢ : ١٢٧)

---

(١) المراد احتازها ؛ والأصل فيه غله : أى وضع فى عنقه أو يده الغل (بالضم) وهو القيد .

(٢) العلق : النفيس من كل شىء ؛ وعلق به كفرح أحبه أو هو وعلقه مشدداً مبنياً للمجهول : علق امرأة : أى أحبها . (٣) امتش ما فى الضرع : أخذ جميعه .

١٢٧ — عمرو بن سعيد والمأمون

وقال عمرو بن سعيد بن سَلْم : كانت علىَّ نوبةٌ أَنُوبها في حَرَسِ المأمون ، فكنت في نوبتي ليلةً ، فخرج متفقِّداً مَنْ حضر ، فعرفته ولم يعرفني ، فقال : من أنت ؟ قلت : عمرو ، عمَّرك الله ، ابن سعيد ، أسعدك الله ، ابن سَلْم ، سلَّمك الله ، فقال : أنت تَكْلَؤُنا منذ الليلة ؟ قلت : الله يكلؤك قبلي ، وَهُوَ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فقال المأمون :

إن أخاك الصِّدْقَ مَن يسعى معكْ ... ومن يضرُّ نفسَه لينفعَكْ

وَمَن إذا صَرْفُ الزمان صَدَعَكْ ... بدَّد شَمْلَ نفْسِه ليَجْمَعَكْ

(زهر الآداب ٢ : ١٢٧)

١٢٨ — الحسن بن رجاء والمأمون

دخل المأمون بعض الدواوين ، فرأى غلاماً جميلا على أذنه قلم ، فقال : مَنْ أنت يا غلام ؟ فقال :

« أنا يا أمير المؤمنين ، الناشئُ في دولتك ، المتقلِّبُ في نعمتك ، المؤمِّل لخدمتك ، خادِمُك وابن خادمك : الحسنُ بن رجاء » ، فقال : أحسنتَ يا غلام ، وبالإحسان في البديهة تفاضلت العقولُ ، وأمر برفع مرتبته . (زهر الآداب ٢ : ١٧٣)

١٢٩ — سعيد بن مسلم والمأمون

وقال سعيد بن مُسْلِم بن قُتَيْبَة للمأمون :

« لو لم أشكُرِ اللهَ تعالى إلاَّ على حُسْن ما أبلاني من أمير المؤمنين ، مِنْ قَصْده إليَّ بحديثه ، وإشارَته إليَّ بطَرْفه ، لقد كان في ذلك أعظمُ الرِّفعة ، وأرفعُ ما توجِبه الحُرْمة » .

فقال : « يفعل أمير المؤمنين ذلك ، لأن أمير المؤمنين يجد عندك من حُسْن الإفهام إذا حدَّثتَ ، وَحُسْنِ الفهم إذا حُدِّثتَ ، مالم يجده عند أحد ممن مضى ، ولا يظنُّ أنه يجدُ عند أحدٍ ممّن بَقِي ، فإنك لَتَسْتَقْصِى حديثى ، وتَقِف عند مَقاطع كلامى ، وتُخْبِر عما كنتُ أغفلتُهُ منه » . (زهر الآداب ١ : ١٧٢)

١٣٠ — أبو زهمان يعظ سعيد بن مسلم

وقال سعيد بن مسلم : كنت والياً بأرْمِينِيَّة ، فَغَبَرَ[1] أبو زَهْمَان العَلَانىّ على بابى أياماً ، فلما وصل إلىّ مَثَل بين يدىّ قائماً بين السِّماطَيْن[2] وقال :

« والله إنى لأعرف أقواماً لو علموا أن سَفّ التراب يُقيم من أَوَد[3] أصلابهم ، لجعلوه مُسْكَة[4] لازماً فيهم ، إيثاراً للتنزه عن عيشٍ رقيقِ الحواشى ، أَمَا وَاللهِ إنى لبعيد الوَثْبة ، بطىء العَطْفة ، إنه والله ما يَثْنِينى عليك إلا مثلُ ما يَصْرِفنى عنك وَلَأَن أكون مُقِلاً مقرَّباً ، أحبُّ إلىَّ من أن أكون مُكْثِرًا مُبْعَدًا ، والله ما نسأل عملا لانضبطه ، ولا مالًا إلا نحن أكثر منه ، وهذا الأمر الذى صار إليك فى يديك ، كان فى يد غيرك ، فأمسَوْا والله حديثاً ، إنْ خيراً فخيرٌ ، وإن شراً فشرٌ ، فتحبَّبْ إلى عباد الله بحسن البِشْر ، ولين الجانب ، فإن حُبَّ عباد الله موصول بحُبّ الله ، وبغضهم موصول ببغض الله ، لأنهم شُهَدَاءُ الله على خلقه ، ورُقباؤه على من اعوجّ عن سبيله » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٥)

١٣١ — وصية طاهر بن الحسين

لابنه عبد الله لما ولَّاه المأمون الرَّقّة ومصر وما بينهما[5] سنة ٢٠٦ هـ .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فعليك بتقوى الله وحده لاشريك له ،

---

(١) مكث . (٢) السماطان من الناس : الجانبان ؛ يقال : مشى بين السماطين .

(٣) اعوجاج . (٤) المسكة : مايمسك الأبدان من الغذاء والشراب أو مايتبلغ به منهما .

(٥) أثبتنا هذا الكتاب هنا لأنه فى عداد الوصايا .

وخشيته ومراقبته ومزايلة سُخطه وحفظ رعيتك ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر إليه ، وموقوف عليه ، ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله ، وينجيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدلَ عليهم ، والقيامَ بحقه وحدوده فيهم ، والذب[1] عنهم ، والدفعَ عن حريمهم وَبَيْضَتهم[2] ، والحقنَ لدمائهم ، والأمن لسبيلهم[3] ، وإدخال الراحة عليهم فى معايشهم ، ومؤاخذك بما فَرض عليك من ذلك ، وموقِّفك عليه ، ومسائلك عنه ، ومُثيبك عليه بما قدمت وأخرت ، ففرِّغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك ، ولا يَذْهَلك[4] عنه ذاهل ، ولا يَشْغلك[5] عنه شاغل ، فإنه رأس أمرك ، وَمِلاك شأنك ، وأول مايوفقك الله به لرشدك ، وليكن أول ما تُلزِم به نفسك ، وتنسب إليه فعالك ، المواظبةُ على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قِبَلك فى مواقيتها على سُنَنها ، فى إسباغ[6] الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ، وترَتَّلْ[7] فى قراءتك ، وتمكن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولْتصدق فيها لربك نيتُك ، واحضُض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وادأبْ عليها فإنها كما قال الله : تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذَ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرةَ على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة[8] الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله فى كتابه من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه وائتمام ما جاءت به الآثارُ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يحق لله عليك ،

---

(١) الدفع . (٢) البيضة : حوزة كل شئ .

(٣) وفى مقدمة ابن خلدون : لسربهم ؛ والسرب : النفس

(٤) ذهلت عن الشئ (كفتح) غفلت وقد يتعدى بنفسه . فيقال ذهله ؛ والأكثر أن يتعدى بالهمزة ؛ فيقال : أذهلنى فلان عن الشئ . (٥) شغله من باب فتح وأشغله لغة جيدة أوقليلة أو رديئة .

(٦) أسبغ الوضوء : وفى كل عضو حقه . (٧) تمهل ولا تعجل .

(٨) استخار الله : طلب منه الخيرة .

ولا تَمِل عن العدل فيما أحببت أو كَرِهت ، لِقَريب من الناس أو بعيد ، وآثِرِ الفقهَ وأهلَه ، والدينَ وَحَمَلته ، وكتاب الله والعاملين به ، فإن أفضل ما تزيَّن به المرء الفقه فى دين الله ، والطلب له ، والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرَّب به إلى الله ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والآمر به ، والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله عزَّ وجلَّ ، وإجلالا له ، وَدَرْكاً للدرجات العُلَا فى المَعَاد ، مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبة لسلطانك ، والأَنَسَة بك ، والثقة بعدلك ، وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها ، فليس شىء أبيَن نفعاً ، ولا أحضَر أمناً ، ولا أَجْمَعَ فضلا من القصد ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة ، وَقِوام الدين والسننِ الهادية بالاقتصاد ، فآثِره فى دنياك كلها ، ولا تقصِّر فى طلب الآخرة والأجرِ والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ، ومعالِم الرشد ، فلا غايةَ للاستكثار من البرِّ والسعى له ، إذا كان يُطْلَب به وجه الله ومَرْضَاتُه ومرافقة أوليائه فى دار كرامته ، واعلم أنَّ القَصْد فى شأن الدنيا يُورث العِزَّ ويُحصِّن من الذنوب ، وإنك لن تَحُوط[1] نفسك وَمن يَليك ، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه ، فأْتِه واهتدِ به تتمّ أمورك ، وتزدْ مقدرتك ، وتصلح خاصتك وعامتك ، وأحسن الظن بالله عزَّ وجلَّ تستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليهِ فى الأمور كلها ، تَسْتَدِمْ به النعمةَ عليك ، ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشِفَ أمره ، فإن إيقاعَ التهم بالبُرَآء ، والظنونَ السيئةَ بهم مَأْثم ، واجعل من شأنك حُسْنَ الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم ، وارفضه فيهم ، يُعينك ذلك على اصطناعهم[2] ورياضتهم ، ولا يجدنَّ عدو الله الشيطانُ فى أمرك مَغْمَزا ، فإنه إنما يكتفى بالقليل من وَهَنك[3] ، فيُدخل عليك من الغم فى سوء الظن ما ينغصك لَذَاذَةَ عيشك ، واعلم أنك

---

(١) تصون . (٢) اصطنعتك لنفسى : اخترتك لخاصة أمر أستكفيك إياه .
(٣) الوهن بسكون الهاء وفتحها : الضعف .

تجد بحُسْنِ الظن قوّةً وراحة ، وَتَكْتَفِى به ما أحببتَ كفايتَه من أمورك ، وتدعو به الناس إلى محبتك ، والاستقامةِ فى الأمور كلها لك ، ولا يمنعك حُسْن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك ، أن تستعمل المسألةَ والبحث عن أمورك ، والمباشرة لأمور الأولياء ، والحياطةَ للرعية ، والنظرَ فيما يُقيمها وَيُصْلِحها ، بل لتكن المباشرةُ لأمور الأولياء ، والحياطةُ للرعية ، والنظر فى حوائجهم وَحَمْلُ مَئوناتهم ، آثَرَ عندك مما سوى ذلك ، فإنه أقومُ للدين ، وأحيا للسنة ، وأَخْلِصْ نيتك فى جميع هذا ، وتفرَّد بتقويم نفسك تفرُّدَ من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزِىٌّ بما أحسن ، ومأخوذ بما أساء ، فإن الله جعل الدين حِرْزاً وعِزا ، ورفع من اتبعه وعزَّزه ، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نَهْجَ الدين وطريقة الهدى ، وأقِمْ حدود الله فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطِّل ذلك ولا تَهَاوَنْ به ، ولا تؤخِّر عقوبة أهل العقوبة ، فإن فى تفريطك فى ذلك لَمَا يُفسِد عليك حسنَ ظنك ، واعزِم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشُّبَهَ والبِدعات ، يَسْلَم لك دينك ، وتتم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهداً فَفِ به ، وإذا وعدت الخير فَأَنْجِزْه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وأَغمِض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأَبْغِضْ أهله ، وَأَقْصِ أهلَ النميمة ، فإن أول فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتها ، لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لمطيعها أمر ، وأَحِبَّ أهل الصدق والصَّلاح وأَعِزَّ الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعزةَ أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء وَالجور ، واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل فى سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى ، واملك نفسك عند الغضب ، وآثِر

الوقار والحلم ، وإياك والحدةَ والطيشَ والغرورَ فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول : إنى مُسَلَّط أفعل ما أشاء ، فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأى، وقلة اليقين بالله وحده لاشريك له ، وأخلِص لله النية فيهِ واليقين به ، واعلم أن المُلك لله ، يُعْطِيه من يشاء ، وينزِعهُ ممن يشاء ، ولن تجد تغيُّر النعمة وحلولَ النقمة إلى أحد ، أسرع منهُ إلى حَمَلَة النعمة من أصحاب السلطان ، والمبسوطِ لهم فى الدولة ، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شَرَه نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تَدَّخر وتكنِز البرّ والتقوى والمعدِلة ، واستصلاح الرعية وَعِمارة بلادهم ، والتفقُّد لأمورهم والحفظ لِدَهْمائهم[1] وَالإغاثة لملهوفهم ، واعلم أن الأموال إذا كثرت وذُخرت فى الخزائن لاتثْمِر ، وإذا كانت فى إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم ، وكف المئونة عنهم ، نَمَت وَرَبَت وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وَطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمَنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ، ووفِّر منهُ على أولياء أمير المؤمنين قِبلَك حقوقهم ، وأوف رعيتك من ذلك حِصَصهم ، وتعهَّد مايُصْلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرَّت النعمة عليك ، واستوجبتَ المزيدَ من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر ، وكان الجمع لما شَمِلهم من عدلك وإحسانك أسلسَ لطاعتهم ، وأطيب نفساً لكل ما أردت ، فاجهَد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب، ولتعظُم حِسْبتك فيه فإنما يبقى من المال ما أنفق فى سبيل حقه ، واعرف للشاكرين شكرهم وأثِبْهم عليه ، وإياك أن تُنْسِيك الدنيا وغرورها هولَ الآخرة ، فتتهاوَن بما يحُق عليك ، فإن التهاون يوجب التفريط ، والتفريط يورث البَوار ، وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى وارجُ الثواب ، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته فى الدنيا ، وأظهَر لديك فضلَه ، فاعتصم بالشكر وعليه فاعتمد ، يَزِدْك الله خيراً وإحساناً ، فإن الله يُثيب بقدر شكر الشاكرين ،

(١) الدهماء : جماعة الناس «وفى المقدمة : والحفظ لدهمائهم» .

وسيرة المحسنين ، وَقَضَى الحقَّ فيما حَمَّل من النعم ، وألبس من العافية والكرامة ، ولا تحقِرنَّ ذنباً ، ولا تمالئن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصِلن كفوراً ، ولا تداهِنَن عدوًّا ، ولا تصدقَنَّ نمّامًا ، ولا تأمنن غداراً ، ولا توالين فاسقًا ، ولا تتبعن غاوياً ، ولا تحمَدن مُرائياً ، ولا تحقرن إنساناً ، ولا تردَّن سائلا فقيراً ، ولا تجيبن[1] باطلا ، ولا تلاحظن مضحكا ، ولا تُخلفن وعداً ، ولا تزهُوَنَّ فخراً ، ولا تُظْهِرَن غضباً ، ولا تأتين بَذَخاً[2] ، ولا تمشين مَرَحاً ، ولا تركبن سَفَهاً[3] ، ولا تفرِّطن فى طلب الآخرة ، ولا ترفع للنمام عيناً ، ولا تُغْمِضن عن الظالم رهبة منهُ أو مخافة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة بالدنيا ، وأكثِرْ مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وَخذ عن أهل التجارِب ، وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تُدْخِلَن فى مشورتك أهل الدقة[4] ، والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شىء أسرع فساداً لما استقبلت فى أمر رعيتك من الشُّح ، واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلا ، فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك ، بالكفِّ عن أموالهم وترك الجور عنهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك ، بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم ، فاجتنب الشح . واعلم أنه أول ماعصى به الإنسان ربه ، وأن العاصى بمنزلةِ خزىٍ ، وهو قول الله عزَّ وجلَّ : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، فسَهِّل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظا ونصيباً ، وَأيقِنْ أن الجود من أفضلْ أعمال العباد ، فأعْدِدْه لنفسك خُلُقاً ، وارضَ به عملا ومذهباً ، وتفقد أمور الجند فى دواوينهم ومكاتبهم ، وَأدْرِر عليهم أرزاقهم ، ووسِّع عليهم فى معايشهم ، ليُذْهِب بذلك الله فاقتهم ، ويقوِّم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً ، وحَسْبُ ذى سلطان

---

(١) وفى المقدمة : « ولا تحسنن باطلا » .

(٢) البذخ : الكبر . (٣) وفى المقدمة : «ولا تركبن سفهاً »

(٤) وفى المقدمة : « أهل الرقة » .

من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً فى عدله ، وحَيطته[١] وإنصافه ، وعنايته وشفقته ، وبره وتوسعته ، فزايل مكروهَ أحد البابين باستشعار تكملة الباب الآخر ، ولزوم العمل به ، تلقَ إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً ، واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذى ليس به شىء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى يعتدل عليه الأحوال فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح الرعية ، وَتأمن السبل ، وَينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسُن المعيشة ، ويؤدَّى حق الطاعة ، وَيرزق الله العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتجرى السنن والشرائع ، وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل فى القضاء ، واشتد فى أمر الله ، وتورع عن النَّطَف[٢] ، وامض لإقامة الحدود وأَقلِل العجلة ، وابعد من الضجر والقلق ، واقنع بالْقَسْم ، ولتسكُن ريحُك ، ويقر جدك وانتفع بتجربتك ، وانتبه فى صمتك ، وَاسْدِدْ[٣] فى منطقك ، وَأَنْصِف الخَصْم ، وقف عند الشُّبهة ، وأبلغ فى الحجة ، ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباةٌ ولا محاماة[٤] ولا لوم لائم ، وتثبت وتأنَّ وَرَاقِبْ ، وانظر وتدبر ، وتفكر واعتبر ، وتواضع لربك وارأف[٥] بجميع الرعية، وَسلِّط الحق على نفسك،ولا تُسرعن إلى سفك دم (فإن الدماء من الله بمكان عظيم) انتهاكاً لها بغير حقها ، وانظر هذا الخراج الذى قد استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سَعة وَمَنَعة ، ولعدوه وعدوهم كَبْتاً[٦] وغيظا ، ولأهل الكفر من مُعاديهم ذلا وَصَغارا ، فوزِّعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعَن منه شيئاً عن شريف لشرفه ، ولا عن غَنِيٍّ لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا أحد من خاصتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تَكَلَّفَن أمراً فيه شَطَط ، واحمل الناس كلهم عَلَى مُرِّ الحق ، فإن ذلك أجمع لألفتهم ،

---

(١) فى المقدمة : « وحطيته » .

(٢) النطف : العيب والشر والفساد . (٣) سد يسد كضرب : صار سديداً .

(٤) فى المقدمة : « ولا محاملة » . (٥) من باب كرم وقطع وطرب .

(٦) كبته : صرعه وأخزاه ؛ ورد العدو بغيظه وأذاه .

وألزم لرضا العامة ، واعلم أنك جُعلتَ بولايتك خازنا وحافظا وراعيا ، وإنما سُمّى أهل عملك رعيتك ، لأنك راعيهم وقيّمهم ، تأخذ منها ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه فى قِوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أَوَدهم ، فاستعمل عليهم فى كُوَر عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخِبْرة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسّع عليهم فى الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسنِدَ إليك ، ولا يَشْغَلَنَّك عنه شاغل ، ولا يَصرفنك عنه صارف ، فإنك متى آثرته وَقمت فيه بالواجب ، استدعيتَ به زيادةَ النعمة من ربك وحسن الأحدوثة فى عملك ، واحترزت النَّصَحة من رعيتك ، وَأُعْنِت على الصلاح ، فدَرَّت الخيرات ببلدك ، وَفشت العمارة بناحيتك ، وَظهر الخِصب فى كُوَرك ، فكثُر خَراجك ، وَتوفرت أموالك ، وَقويتَ بذلك على ارتباط جندك ، وَإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مَرْضِىّ العدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وَقوة وَآلة وَعُدَّة ، فنافِس فى هذا ولا تقدم عليه شيئاً ، تحمدْ مَغَبّة أمرك إن شاء الله ، واجعل فى كل كُورَة من عملك أميناً يُخبرك أخبار عمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل فى عمله ، مُعايِن لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوتَ فيه حسن الدفاع والنصح والصُّنع فأَمْضِه ، وإلّا فتوقَّفْ عنه ، وراجع أهل البَصَر والعلم ، ثم خذ فيه عُدته ، فإنه ربما نظر الرجل فى أمر من أمره قد واتاه على مايهوى فقَوّاه[1] ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم فى كل ما أردت ، وباشِره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارةَ ربك فى جميع أمورك ، وافرُغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرتَ عمله

(١) فى المقدمة : « وقد أتاه على مايهوى فأغواه ذلك » .

اجتمع عليك أمر يومين ، فَشَغَلَكَ ذلك حتى تُعْرِض عنه ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحْتَ نفسك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طَوِيتهم ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهَدْ أَهْلَ البيوتات ممن دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمِل مئونتهم ، وأصلح حالهم ، حتى لايجدوا لخَلَّتهم[1] مَسًّا ، وأفرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ، ومن لايقدر على رفع مَظْلِمَته إليك ، والمحتقَر الذى لاعلم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أحْفَى مسألة ، ووكِّل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، وَمُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يُصْلح الله به أمرَهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال ، اقتداء بأمير المؤمنين — أعزه الله — فى العطف عليهم والصلة لهم ، لِيُصْلِح الله بذلك عيشَهم ، ويرزقك به بركةً وزيادة ، وَأَجْرِ للأضِرَّاء من بيت المال ، وَقَدِّم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية[2] على غيرهم ، وانصِب لِمَرْضى المسلمين دُوراً تُؤْويهم ، وَقُوَّاماً يرفُقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وَأَسْعِفْهم بشهواتهم ، مالم يؤدِّ ذلك إلى سَرف فى بيت المال ، واعلم أن الناس إذا أُعطُوا حقوقهم وأفضلَ أمانيّهم ، لم يُرْضِهم ذلك ، ولم تَطِب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلاتهم ، طمعاً فى نيل الزيادة وفضلِ الرفق منهم ، وربما بَرِم[3] المتصفح لأمور الناس ، لكثرة ما يَرِد عليه ، وَيَشْغَل فكره وذهنه منها ما يناله به مُؤْنة ومشقة ، وليس من يرغب فى العدل ، وَيَعرف محاسن أموره فى العاجل ، وفضلَ ثواب الآجل ، كالذى يستقبل ما يقرِّبه إلى الله ، ويلتمس رحمته به وأكثر الإذن للناس عليك ، وَأبرز لهم وجهك ، وسكن لهم أحراسك ، واخْفِض لهم جَناحك ، وأظهر لهم بِشْرك ، وَلِنْ لهم فى المسألة والمنطق ، واعْطِف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحَةٍ وطيب نفس ، والتمس الصنيعة والأجر غيرَ مكدِّر ولا منَّان

(١) الخلة : الحاجة .   (٢) فى المقدمة : « فى الجرائد » .   (٣) ضجر ومل .

فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله ، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومَن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم فى أحوالك كلها بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله ، واعرف ما تجمع عُمَّالك من الأموال ، وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراما ، ولا تُنفِق إسرافًا ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها ، وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك عليك ، مَن إذا رأى عيباً فيك لم يمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى سر ، وإعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ، ومَظاهريك لك ، وانظر عمَّالك الذين بحضرتك وكُتَّابك ، فوقِّت لكل رَجل منهم فى كل يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمَّالك ، وأمر كُوَرك ورعيتك ، ثم فرِّغ لما يورده عليك من ذلك سمعَك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرِّر النظر إليه والتدبير له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فَأَمْضِه ، واستخِر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه ، ولا تمنُن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، وَلا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعَن المعروف إلا على ذلك وتفهَّم كتابى إليك ، وأكثِر النظر فيه والعمل به ، وَاستعن بالله على جميع أمورك واستخِرْه فإن الله مع الصلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك وَأفضل رعيتك ، ما كان لله رضاً ، وَلدينه نِظَاماً ، ولأهله عزّاً وَتمكيناً ، وللذمة والملة عدلًا وصلاحاً ، وَأنا أسأل الله أن يُصلح عونك وتوفيقك ورُشدك وَكَلاءتك ، وأن يُنزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وَأوفرهم حظاً ، وأسناهم ذكراً وأمراً ، وأن يُهلك عدوك وَمن ناوأك وبَغَى عليك ، ويرزقك من

رعيتك العافية ، ويحجُز الشيطان عنك وَوَساوِسَه ، حتى يستعلى أمرُكَ بالعزّ والقوّة والتوفيق ، إنه قريب مجيب » .

وذكروا أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد ، تنازعهُ الناس وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، فقال : ما بَقّى أبو الطيب (يعنى طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة ، وإصلاح الملك والرعية ، وَحفظ البَيْضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم . وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٥٨ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٣٢٩)

١٣٢ — خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر الناس ، وقد تيسر لقتال الخوارج[١] فقال :

« إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذابُّون عن دينه ، الذائِدون عن محارمه ، الداعُون إلى ما أمر به ، من الاعتصام بحبله ، والطاعة لوُلاة أمره ، الذين جعلهم رُعاة الدين ، ونظام[٢] المسلمين ، فاستنجِزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه ، وأهلِ معصيته ، الذين أشِرُوا[٣] وتمردوا ، وشقُّوا العصا ، وفارقوا الجماعة ، وَمَرَقوا من الدين ، وَسَعَوْا فى الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ

---

(١) الوارد فى كتاب « الفرق بين الفرق » أن المأمون بعث طاهر بن الحسين لقتال حمزة بن أكرك — هكذا فيه ، وفى الملل والنحل حمزة بن أدرك بالدال — وهو زعيم فرقة الحمزية إحدى فرق الخوارج العجاردة ، وقد عاث فى سجستان وخراسان ومكران وقوهستان وكرمان ، وهزم الجيوش الكثيرة ، وكان ظهوره فى أيام هرون الرشيد سنة ١٧٩ ، وبقى الناس فى فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، فلما تمكن المأمون من الخلافة كتب إليه كتابا استدعاه فيه إلى طاعته ، فما ازداد إلا عتواً ، فبعث لقتاله طاهر بن الحسين ، فدارت بينه وبين حمزة حروب قتل فيها من الفريقين مقدار ثلاثين ألفاً ، أكثرهم من أتباع حمزة ، وانهزم حمزة إلى كرمان ، ثم استدعى المأمون طاهراً من خراسان ، فطمع فيها حمزة ، وأقبل بجيشه من كرمان ، فخرج إليه عبد الرحمن النيسابورى فى عشرين ألفاً فهزموه ، وقتلوا الألوف من أصحابه ، وانفلت منهم حمزة جريحاً ، ومات فى هزيمته — انظر ص ٧٩ — .

(٢) النظام : السلك ينظم فيه ، وملاك الأمر . (٣) بطروا .

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » ، فليكن الصبر مَعْقِلَكم الذى إليهِ تَلْجَئُون[1] ، وَعُدَّتَكم التى بها تستظهرون ، فإنه الوَزَر المنيع ، الذى دلكم الله عليه ، وَالجُنَّة[2] الحصينة التى أمركم الله بلباسها . غُضُّوا أبصاركم ، وَاخْفِتُوا أصواتكم فى مصافِّكم ، وَامضوا قُدُماً عَلَى بصائِرِكم ، فارغين إلى ذكر الله ، والاستعانة به كما أمركم الله ، فإنه يقول: « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أيدكم الله بعز الصبر ، وَوَلِيكُمْ بالحِياطة والنصر » . (العقد الفريد ٢ : ١٠٠)

١٣٣ — العباس بن المأمون والمعتصم (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ)

قال العباس بن المأمون: لما أُفْضَت الخلافة إلى المعتصم دخلت ، فقال : هذا مجلس كنت أَكْرَهَ الناس لجلوسى فيه ، فقلت : « يا أمير المؤمنين ، أنت تعفو عما تيقنتَه ، فكيف تعاقِبُ على ما توهمتَه ؟ » ، فقال : « لو أردت عقابك ، لتركت عتابك » .

(زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٣٤ — استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كان تَميم بن جَميل السَّدُوسى قد خرج بشاطئ الفُرات ، واجتمع إليه كثير من الأعراب ، فعظُم أمره ، وبعُد ذكره ، فكتب المعتصم إلى مالك بن طَوْق فى النهوض إليه ، فبَدَّد جمعه ، فَظَفِر به ، فحمله مُوثقاً إلى المعتصم ، قال أحمد بن أبى دُواد : ما رأينا رجلاً عاين الموت ، فما هاله ، ولا أذهله عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميمَ بن جميل ، فإنه أوفى به الرسولُ باب أمير المؤمنين المعتصم ، فى يوم الموكب ، حين يجلس للعامة ، ودخل عليه ، فلما مَثَل بين يديه ، دعا بالنطع[3] والسيف فأُحْضِرا ، فجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئاً . وجعل المعتصم يصعِّد النظر فيه ويصوِّبه ، وكان جسيما

---

(١) الملجأ والمعتصم ، وكذا الوزر . (٢) كل ما وقى .
(٣) النطع كعنب وضلع وسبب وعنب : بساط من الأدم .

وسيما[١] ، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جَنانُه ولسانُه من منظره ، فقال : يا تميم إن كان لك عذرٌ فَأْتِ به ، أو حجـــة فأْدلِ بها ، فقال : أمَّا إذ قد أذن لى أمير المؤمنين فإنى أقول :

« الحمْدُ لِلهِ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » جَبَر بك صَدْع الدين ، وَلَمَّ بك شَعَثَ المسلمين ، وأوضح بك سُبُل الحق ، وَأَخْمَدَ بك شِهَابَ الباطل ، يا أمير المؤمنين إن الذنوب تُخْرِس الألسنة الفصيحة ، وَتُعْيِى الأفئدة الصحيحة ، ولقد عَظُمَت الجَرِيرة ، وانقطعت الحجَّة ، وَكَبُر الذنبُ ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوُك أو انتقامُك ، وأرجو أن يكون أقربهما منى ، وأسرعهما إلىّ ، أَوْلاهما بامتنانك ، وأشبههما بخلافتك ، ثم أنشأ يقول :

أَرَى الموتَ بين السيف والنِّطع كامناً ... يلاحظنى من حيثما أتلفَّتُ

وَأَكْبَرُ ظنى أنك اليـومَ قاتِلِى ... وأىُّ امرئٍ مما قضى اللهُ يُفلِتُ ؟

وَمن ذا الذى يُدْلِى بِعُذر وَحُجَّةٍ ... وسيفُ المنايا بين عَيْنَيْهِ مُصْلَتُ ؟[٢]

يَعِزُّ على الأوْسِ بن تَغلِبَ مَوْقِفٌ ... يُسَلّ علىَّ السيفُ فيـهِ وَأسكُتُ

وما جزَعى من أن أموت وإننى ... لأعلمُ أن الموت شىءٌ مُوَقَّت

ولـكنَّ خلفى صِبْيَةً قد تركتهم ... وأكبادُهم من حسْرة تتفتَّت

كأنى أراهم حين أُنْعَى إليهـمْ ... وَقد خَمَشُوا تلك الوجوهَ وَصوَّتوا[٣]

فإن عشتُ عاشوا خافضين بِغِبْطَةٍ ... أَذُودُ الرَّدَى عنهم وإن مِتّ مَوَّتوا[٤]

فـكم قائلٍ لاَ يُبْعِدِ اللهُ رُوحَه ... وآخَرَ جَذلانٍ يُسَرُّ وَيَشْمَتُ

---

(١) جميلا . (٢) مسلول . (٣) خمش وجهه كنصر وضرب : خدشه ولطمه وضربه .
(٤) كثر فيهم الموت .

فتبسم المعتصم وقال : « كاد والله يا تميم أن يسبق السيفُ العَذَلَ[1] ، اذهب فقد غفرت لك الصَّبْوة[2] ، وَوَهبتك للصِّبية » ، ثم أمر بفك قيوده وخلع عليه ، وعقد له بشاطئ الفرات .

(العقد الفريد ١ : ١٤٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٣٥ — بين يدى سليمان بن وهب وزير المهتدى بالله

ولما وَلَّى المهتدى بالله[3] بن الواثق بن المعتصم سليمانَ بنوهب وزارته،قام إليه رجل من ذوى حُرْمته ، فقال : « أعزَّ الله الوزير ، أنا خادمك ، المؤمِّل لدولتك ، السعيد بأيامك ، المنطوِى القلب على ودِّك ، المنشور اللسان بمدحك ، المُرْتَهَن بشكر نعمتك » .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

١٣٦ — أحمد بن أبى دواد والواثق (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ)

دخل أحمد بن أبى دواد[4] على الواثق فقال : ما زال اليوم قومٌ فى ثَلْبك ونقصك، فقال : يا أمير المؤمنين ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ[5] مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، واللهُ ولىُّ جزائه ، وعقابُ أمير المؤمنين من ورائه،

---

(١) العذل كشمس وسبب : اللوم ؛ وهو مثل ؛ وأول من قاله ضبة بن أد بن طابخة ؛ وكان له ابنان يقال لأحدهما سعد ؛ وللآخر سعيد ؛ فنفرت إبل لضبة تحت الليل ؛ فوجه ابنيه فى طلبها فتفرقا ؛ فوجدها سعد فردها ؛ ومضى سعيد فى طلبها ؛ فلقيه الحرث بن كعب ؛ وكان على الغلام بردان ؛ فسأله الحرث إياهما فأبى عليه فقتله وأخذ برديه ؛ فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادا . قال : أسعد أم سعيد ؟ فمكث ضبة بذلك ما شاء الله أن يمكث ؛ ثم إنه حج فوافى عكاظ ؛ فلقى بها الحرث بن كعب ؛ ورأى عليه بردى ابنه سعيد فعرفهما ، فقال له : هل أنت مخبرى ما هذان البردان اللذان عليك ؟ قال بلى : لقيت غلاما ؛ وهما عليه فسألته إياهما ؛ فأبى على فقتلته ؛ وأخذت برديه هذين ؛ فقال ضبة : بسيفك هذا ؟ قال نعم ؛ فقال : فأعطنيه أنظر إليه فإنى أظنه صارما ؛ فأعطاه الحرث سيفه ؛ فلما أخذه من يده هزه وقال : الحديث ذو شجون ؛ ثم ضربه به حتى قتله ؛ فقيل له يا ضبة : أفى الشهر الحرام ؟ فقال : سبق السيف العذل . (٢) جهلة الفتوة . (٣) تولى الخلافة سنة ٢٥٥ إلى سنة ٢٥٦ هـ

(٤) هو القاضى أبو عبد الله أحمد بن أبى دواد من كبار أئمة المعتزلة ، ونصراء الاعتزال ، كان مقربا من المأمون أثيرا عنده ، ولما ولى المعتصم الخلافة جعله قاضى القضاة : وعزل يحيى بن أكثم ، وخص به أحمد ، حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهراً إلا برأيه ، ولما مات المعتصم ، وتولى بعده ابنه الواثق بالله حسنت حال ابن أبى دواد عنده ، ثم فلج فى أول خلافة المتوكل ، فقلد ولده محمداً القضاء مكانه ، وتوفى سنة ٢٤٠ هـ . (٥) أى معظمه ، وفى قراءة « كبره » بضم الكاف .

وما ذَلَّ يا أمير المؤمنين مَن أنت ناصِرُه ، وما ضاق من كنت جاراً له ، فما قلتَ لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبد الله :

وَسَعَى إلىَّ بِعيْبِ عَزَّةَ مَعْشَرٌ   جعل الإلهُ حدودهن نِعاَلَها

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٨ ، والعقد الفريد ١ : ١٤١)

١٣٧ — ابن أبي دواد والواثق أيضاً

وقال الواثق يوماً لابن أبي دُواد تضجُّراً بكثرة حوائجه : قد أخليتَ بيوتَ الأموال بِطَلِبَاتك لِلاَّئذين لك ، والمتوسلين إليك ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، نتائجُ شكرها متصلةٌ بك ، وذخائرها موصولة لك ، ومالى من ذلك إلا عِشْقُ اتصال الألسن بخلود المدح » ، فقال : « والله لا منعناك ما يزيد فى عشقك ، ويقوِّى فى هِمَّتك فينا ولنا » ، وأمر فأخرجَ له خمسةَ وثلاثين ألف درهم .

(زهر الآداب ٢ : ٢١٠)

١٣٨ — ابن أبي دواد وابن الزيات

وكان بين القاضى أحمد بن أبى دُواد وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات[1] منافسة وشحناء ، حتى منع الوزير شخصاً كان يصحب القاضى ، ويختص بقضاء حوائجه ، من التَّرداد إليه ، فبلغ ذلك القاضى ، فجاء إلى الوزير فقال له :

« والله ما أجيئك متكثِّراً بك من قِلَّة ، ولا متعزِّزاً بك من ذِلة ، ولكن أمير المؤمنين رتَّبك مرتبة أوْجَبَتْ لقاءك ، فإن لَقيناك فله ، وإن تأخَّرْنا عنك فلك[2] » .

(وفيات الأعيان ١ : ٢٥)

---

(١) وزر للمعتصم ، والواثق من بعده ، ثم نكبه المتوكل كما سيأتى .

(٢) وكان الواثق قد أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات ، إلا قام له ، فكان ابن أبى دواد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلى .

١٣٩ — الجاحظ وابن أبى دواد

وكان الجاحظ مختصًّا بمحمد بن عبد الملك الزيات ، منحرفا عن أحمد بن أبى دُوَاد ، فلما نُكب ابن الزيات[1] ، حُمِل الجاحظ مقيَّداً من البصرة ، وفى عنقه سلسلة ، وعليه قميص سَمَل[2] ، فلما دخل على القاضى أحمد قال له : « والله ما أعلمك إلا متناسياً للنّعمة ، كفوراً للصنيعة ، مَعْدِنًا للمساوئ ، وما فتنتنى باستصلاحى لك ، وَلكن الأيام لا تُصلِح منك ، لفساد طَوِيَّتك ، ورداءة دَخِيلتك ، وسوء اختيارك ، وغالب طباعك » .

فقال الجاحظ : « خفِّضْ عليك ـ أيَّدك الله ـ فوالله لَأَن يكون لك الأمر علىَّ ، خيرٌ من أن يكون لى عليك ، ولَأن أُسِىء وَتحْسِن ، أحسنُ فى الأُحْدوثة عليك ، من أن أحسن وتسىء ، وَلَأَن تعفُوَ عنى فى حال قدرتك ، أجمل بك من الانتقام منى » .

فقال أحمد : والله ما علمتُك إلا كثير تزويق الكلام ، فحلَّ عنهُ الغُلَّ والقيد ، وأحسن إليه ، وصَدَّره فى المجلس . (زهر الآداب ٢ : ١٠٦ ، والمنية والأمل ص ٣٩)

---

(١) كان فى نفس المتوكل من ابن الزيات شىء كثير ، وذلك أنه لما مات الواثق (وهو أخو المتوكل) . أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق ، وأشار ابن أبى دواد بتولية المتوكل ، وقام فى ذلك وقعد حتى عممه بيده وألبسه البردة ، وقبله بين عينيه ، وكان المتوكل فى أيام الواثق يدخل على ابن الزيات فيتجهمه ويغلظ له فى الكلام — يتقرب بذلك إلى الواثق — فحقد المتوكل ذلك عليه ، فلما ولى الخلافة ، أمهله أربعين يوما حتى يطمئن إليه ، ثم قبض عليه وسجنه ، واستصفى أمواله ، وكان ابن الزيات إبان وزارته قد اتخذ تنوراً من حديد ، وأطراف مساميره إلى داخل ، وهى قائمة مثل رءوس المسال ، يعذب فيه من يستحقون العقوبة وكان إذا قال أحدهم ارحمنى أيها الوزير . قال له : الرحمة خور فى الطبيعة ، فلما اعتقله المتوكل أمر بإدخاله فى التنور : وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمنى ، فقال له : الرحمة خور فى الطبيعة ، وبقى فى العذاب أربعين يوما حتى مات سنة ٢٣٣ هـ .

(٢) السمل : الخلق من الثياب .

١٤٠ — أبو العيناء وابن أبي دواد

وقال أبو العَيْنَاء لابن أبي دُوَاد : إن قوماً من أهل البصرة قَدِموا إلى « سُرَّ مَنَ رأى » يدًا عَلَيَّ ، فقال : « يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ، فقلت : إن لهم مكراً ، فقال : « وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلاَّ بِأَهْلِهِ » ، فقلت : إنهم كثير ، قال : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

(زهر الآداب ٢ : ٢١٠ ، والعقد الفريد ١ : ١٤١)

تم الجزء الثالث

ويليـــه

ذيل الجمهـــرة

فهرس

الجزء الثالث

من جمهرة خطب العرب

الباب الرابع

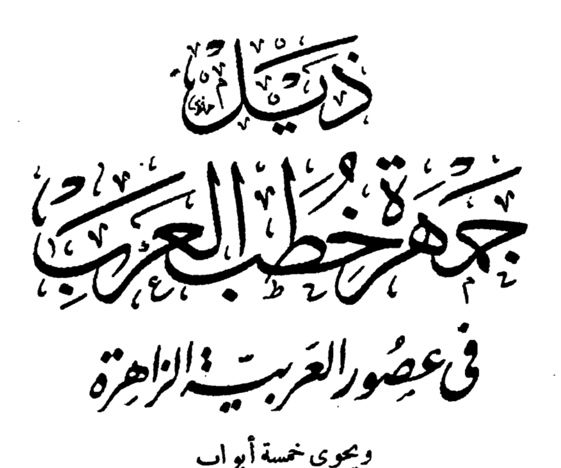
الخطب والوصايا فى العصر العباسى الأول

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

— تم فهرس أعلام خطب العرب —



ويحوى خمسة أبواب

الباب الأول : فى خطب الأندلسيين والمغاربة .

« الثانى : فى خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

« الثالث : فى نثر الأعراب .

« الرابع : فى خطب النكاح .

« الخامس : فى خطب من أرتج عليهم ونوادر طريفة لبعض الخطبا

فهـــرس المـآخـــذ

نفح الطيب ، للمقّرى	: الجزء الأول ـ الثانى ـ الرابع
مطمح الأنفس ، للفتح بن خاقان	:
المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب	:
لمحيى الدين بن علىّ المراكشى	
الإحاطة : فى أخبار غرناطة ،	:
للسان الدين بن الخطيب	:
الأمالى : لأبى علىّ القالى	: الجزء الأول ـ الثانى ـ ذيل الأمالى
الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى	: « الثالث عشر ـ السابع عشر
صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى	: « الأول
نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى	: « السابع
عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى	: المجلد الثانى
الكامل : لأبى العباس المبرد	: الجزء الأول
العقد الفريد : لابن عبد ربه	: « الأول ـ الثانى ـ الثالث
زهر الآداب : لأبى إسحق الحصْرى	: « الأول ـ الثانى ـ الثالث
البيان والتبيين : للجاحظ	: « الأول ـ الثانى ـ الثالث
أمالى السيد المرتضى	: « الرابع
مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى	: « الأول ـ الثانى
تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى	: « السابع ـ الثامن
مروج الذهب : للمسعودى	: الجزء الثانى

الصناعتين : لأبى هلال العسكرى :
بلاغات النساء : لابن أبى طاهر طيفور :
سرح العيون : لابن نباتة المصرى :
سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزى :
مواسم الأدب للسيد جعفر البيتى العلوى : الجزء الثانى
بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الألوسى : « الثالث
مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح

البابُ الأول

فى

خطب الأندلسيين والمغاربة

١ – خطبة عبد الرحمن الداخل (المتوفى سنة ١٧١ هـ)

يوم حربه مع يوسف الفِهْرى صاحب الأندلس

لما اشتد الكرب بين يدى عبد الرحمن الداخل [١] ، يوم حربه مع يوسف الفِهْرى [٢] صاحب الأندلس ، ورأى شدةَ مُقَاساة أصحابه قال :

« هذا اليوم هو أسُّ ما يُبْنَى عليه ، إمَّا ذلّ الدهر ، وإمّا عزّ الدهر ، فاصبِرُوا ساعةً فيما لا تشتهون ، تَرْبَحُوا بها بقيةَ أعماركم فيما تشتهون » .

ولما أنحَى أصحابه على أصحاب الفهرى بالقتل يوم هزيمتهم على قُرْطبـــة قال :

---

(١) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، وذلك أنه لما أصاب دولتهم بالمشرق ما أصابها ، وتتبع السفاح من بقى من بنى أمية بالقتل والإهلاك ، فر عبد الرحمن إلى الأندلس ، واستطاع بهمته أن يؤسس هنالك دولة أورثها عقبه حقبة من الدهر ، وهى دولة بنى أمية فى المغرب من سنة ١٣٨ إلى سنة ٤٢٢ هـ ، وكانت عاصمة ملكها قرطبة ، وهى مدينة على نهر الوادى الكبير .

(٢) يوسف الفهرى هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع بانى القيروان ، وأمير معاوية على أفريقية والمغرب ، وكانت ولاية يوسف الفهرى الأندلس سنة ١٢٩ فدامت له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعنه انتقل سلطانها إلى بنى أمية .

« لاتستأصلوا شأفة(١) أعداء ترجون صدقتهم ، واستبقوهم لأشدّ عداوةً منهم » — يشير إلى استبقائهم ، ليُستعان بهم على أعداء الدين — . (نفح الطيب ٢ : ٧٠)

٢ — عبد الرحمن الداخل ورجل من جند قنسرين

ولما أذعن يوسف صاحب الأندلس لعبد الرحمن ، واستقر ملكه ، استحضر الوفود إلى قُرْطبة ، فانثالوا(٢) عليه ، ووالى القعود لهم فى قصره عدة أيام ، فى مجالسَ يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم ، بكلامٍ سَرّهم ، وطيّب نفوسهم .

وفى بعض مجالسهم هذه مَثَل بين يديه رجل من جند قِنِّسْرين(٣) يستجديه ، فقال له :

« يابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فَرَرْتُ ، وبك عُذْتُ ، من زمن ظَلُوم ، ودهرٍ غَشُوم ، قَلَّل المال ، وكثَّر العيال ، وشَعَّثَ(٤) الحال ، فصيَّر إلى نَداك المآلَ ، وأنت ولىُّ الحمد والمجد ، والمرجوّ للرِّفْد(٥) » .

فقال له عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقالتك ، وقَضَينا حاجتك ، وأمرنا بِعَوْنك على دهرك ، على كُرْهنا لسوء مَقامك ، فلا تعودَنّ ولا سواك لمثله ، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة ، والإلحاف فى الطِّلْبة(٦) ، وإذا ألمّ بك خَطْبٌ ، أو حَزَبَك(٧) أمرٌ ، فارفعه إلينا فى رُقعة لا تعدُوك ، كيما نستر عليك خَلّتك ، ونكُفّ شماتَ العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالِكِك ومالِكنا — عزّ وجهُه — بإخلاص الدعاء ، وصدق النية » .

---

(١) الشأفة : قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب ، أو إذا قطعت مات صاحبها . والأصل : واستأصل الله شأفته : أذهبه كما تذهب تلك القرحة ، أو معناه أزاله من أصله .

(٢) انثال : انصب ، أى تتابعوا وتوافدوا عليه . (٣) بالشام .

(٤) شعث الأمر : نشره وفرقه . (٥) الرفد : العطاء والصلة .

(٦) الطلبة : الطلب . (٧) أى اشتد عليك . والخلة الحاجة .

وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون من حسن منطقه ، وبراعة أدبه ، وكفّ فيما بعدُ ذوو الحاجات عن مقابلته بها شِفاهاً فى مجلسه . (نفح الطيب ٢ : ٦٨)

٣ — عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنئه بفتح سرقسطة

ولما فتح عبد الرحمن الداخل سَرَقُسْطَةَ[١] ، وَحَصَــــل فى يده ثائرُها الحسين الأنصارى ، وانتهى نصرُه فيها إلى غايةِ أمَلِه ، أقبل خواصُّهُ يهنئونه ، فجرى بينهم أحدُ من لا يُؤْبَهُ به من الجند ، فهنَّأه بصوت عال ، فقال له عبد الرحمن :

« وَاللهِ لولا أن هذا اليوم يومٌ أسْبَغَ عَلَيَّ فيه النعمةَ مَنْ هو فوق ، فأوجَبَ عَلَيَّ ذلك أن أُنْعِم فيه على مَنْ هو دونى ، لأُصْلِيَنَّك ما تعرَّضتَ له من سوء النَّــكال ، مَنْ تـكون ؟ حتى تُقْبِلَ مُهنئاً رافعاً صوتك ، غيرَ متلجلج ولا متهيِّب لمـكان الإمارة ، ولا عارف بقيمتها ، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ! وإنَّ جهلك ليحمِلك على العَوْد لمثلها ، فلا تجدُ مثل هذا الشافع فى مثلها من عقوبة » .

فقال : « ولعل فتوحاتِ الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلى وذنوبى ، فتشفعَ لى متى أتيت بمثل هذه الزَّلة ، لا أعدمنيه الله تعالى » .

فتهلل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نَبِّهونا على أنفسكم إذا لم تَجِدُوا من ينبهنا عليها ، ورفَع مرتبته وزاد فى عطائه . (نفح الطيب ٢ : ٧٠)

٤ — تأديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر

كان المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط[٢] سيِّء الخُلُق فى أول أمره ، كثير الإصغاء إلى أقوال الوُشاة ، مُفْرِط القَلَق مما يقال فى جانبه ، معاقباً على ذلك من يقدر على معاقبته ،

(١) مدينة على نهر إبره . (٢) هو عبد الرحمن الأوسط (الثانى) ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨ ﻫ .

مكثر التشكي ممن لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن ، فطال ذلك على الأمير ، فأمر ثِقَةً من ثقاته أن يبنى بجبل منقطع عن العمران بناء يُسْكِن فيه ابنه ، وألاَّ يدع أحداً من أصحابه يزوره ، فلما استقر المنذر فى ذلك المكان ، وبقى وحده ، ونظر إلى ما سُلِبه من الملك ، ضَجِر وقال للثقة : عسى أن يصلنى غِلمانى وأصحابى آنَسُ بهم ! فقال له : إن الأمير أمر ألاَّ يصلك أحد ، وأن تبقى وحدك ، لتستريح مما يرفع لك أصحابك من الوشاية ، فعلم أن الأمير قصد بذلك مِحْنته وتأديبه ، فكتب إليه يشكو استيحاشَه[1] بمكانه ، فلما وقف الأمير على رقعته ، وعلم أن الأدب بلغ به حَقَّه استدعاه ، فقال له :

« وصلت رقعتك ، تشكو ما أصابك من توحُّش الانفراد ، فى ذلك الموضع ، وَتَرْغَب أن تأنس بِخَوَلك[2] وعبيدك وأصحابك ، وإن كان لك ذنب يترتب عليه أن تطول سُكناك فى ذلك المكان ، وما فعلتُ ذلك عقاباً لك ، وإنما رأيناك تُكثر الضَّجَر والتشكِّيَ من القال وَالْقِيل ، فأردنا راحتك بأن نَحْجُب عنك سماعَ كلامِ من يَرفَع لك وَيَنِمّ ، حتى تستريح منهم » .

فقال له : « سماعُ ما كنت أضجرُ منه ، أخفُّ علىَّ من التوحد والتوحش ، والتخلّي مما أنا فيه من الرفاهية والأمر والنهى » .

فقال له : « فَإذْ قد عرَفت وتأدَّبْتَ ، فارجع إلى ما اعتدته ، وَعَوِّلْ على أن تسمع كأنك لم تسمع ، وترى كأنك لم ترَ ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » ، واعلم أنك أقربُ الناس إلىَّ ، وأحَبُّهم فىَّ ، وبعد هذا فما يخلو صدرك فى وقت من الأوقات عن إنكارٍ علىَّ ، وَسُخْط لما أفعله فى جانبك ، أو جانب غيرك ،

---

(١) ونص الكتاب : « إنى قد توحشت فى هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد ، وعدمت فيه من كنت آنس إليه . وأصبحت مسلوب العز ، فقيد الأمر والنهى ، فإن كان ذلك عقابا لذنب كبير ارتكبته ، وعلمه مولاى ولم أعلمه ، فإنى صابر على تأديبه ، ضارع إليه فى عفوه وصفحه .

وإن أمير المؤمنين وفعله لكالدهر ، لا عار بما فعل الدهر »

(٢) الخول : مثال الخدم والحشم وزنا ومعنى .

مما لو أطلعنى الله تعالى عليه لساءنى ، لـكن الحمد لله الذى حَفِظَ مابين القلوب بِسَتْرِ بعضها عن بعض ، فيما يجول فيها ، وإنك لذو هِمَّة وَمطمَح ، ومن يكن هكذا يَصْبِر وَيُغْضِ وَيَحْمِل ، وَيَبْذِل بالعقاب الثوابَ ، ويصيِّر الأعداء من قبيل الأصحاب ، ويصبِر من الشخص على مايسوء ، فقد يَرَى منه بعد ذلك مايَسُرّ ، ولقد يَخِفُّ عليَّ اليومَ مَنْ قاسيتُ من فعله وقوله مالو قطَّعتهم عضواً عضواً لِمَا ارتكبوه منى ، ماشفيتُ منهم غيظى ، ولـكن رأيت الإغضاء والاحتمال ، لاسيما عند الاقتدار أولى ، ونظرت إلى جميع مَنْ حولى ممَّن يُحْسِن وَيُسِيء ، فوجدت القلوب متقاربةً بعضُها من بعض ، ونظرت إلى المسىء يعود محسناً ، والمحسن يعود مسيئاً ، وصرتُ أندَم على من سَبَق له منى عقاب ، ولا أندم على من سبق له مني ثواب ؛ فالزَمْ يا بنى مَعالِيَ الأمور ، وإنَّ جِمَاعها فى التغاضى ، ومن لايتغاض لايسلم له صاحب ، ولا يُقرِّب منهُ جانِبٌ ، ولا يَنال ما تترقَّى إليهِ همتُه ، ولا يظفَر بأمَله ، ولا يجد مُعيناً حين يَحْتاج إليه » .

فقبَّل المنذر يده وانصرف ، ولم يزل يأخذ نفسهُ بما أوصاه والده ، حتى تخلَّق بالخلق الجميل ، وبلغ ما أوصاه به أبوه ورُفع قدره . (نفح الطيب ٢ : ٣٢٧)

٥ — عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضا

وقال له أبوه يوماً : إن فيك لَتيهاً مُفرِطاً ، فقال له : حُقَّ لفرع أنت أصله أن يعلو ، فقال له : يا بنىَّ ، إن العيون تَمُجُّ التَّيَّاهَ ، والقلوب تَنْفِرُ عنه ، فقال : يا أبى ، لى من العزّ والنسب وعلوِّ المكان وَالسلطان ما يَجِلّ[1] عن ذلك ، وإنى لم أر العيونَ إلا مُقبلةً عليَّ ، ولا الأسماعَ إلا مُصْغِية إلىّ ، وإن لهذا السلطان رَوْنقاً يُريقه التبذّل ، وَعُلُوًّا يَخفِضهُ الانبساط ، ولا يصونه ويشرِّفه إلا التِّيه والانقباض[2] ، وإن هؤلاء الأنذال ،

---

(١) فى الأصل : « يحمل » ، وأرى صوابه : « يجل »

(٢) جرى و ذلك على سنن أبى مسلم الخراسانى ، وكان يقول لقواده إذا أخرجهم : « لا تكلموا الناس الا رمزاً ، ولا تلحظوهم إلاشزرا ، لتمتلىء صدورهم من هيبتكم » — انظر العقد الفريد ٢ : ٢٩٩ —

لهم ميزان يَسْبُرُون[1] به الرجلَ منا ، فإن رأوْهَ راجحاً ، عرَفوا له قدر رَجاحته ، وإن رأوه ناقصاً عاملوه بنقصه، وصيّروا تواضعه صِغَراً ، وتخفّضه خِسّة » ، فقال له أبوه : لله أنت ! فابْقَ وما رأيتَ . (نفح الطيب ٢ : ٣٢٩)

٦ — يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه

ومدح بعض الشعراء يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط ، فأمر له بمال جزيل ، فلما كان مثل ذلك الوقت ، جاءه بمدح آخَر ، فقال أحد خُدّام يعقوب : هذا اللئيم له دَيْنٌ عندنا يقتضيه ! فقال الأمير :

« ياهذا ، إن كان الله تعالى خلقك مجبولًا على كُرْه رَبِّ الصنائع ، فاجرِ على ما جُبِلْتَ عليه فى نفسك ، ولا تكن كالأجرب يُعْدِى غيرَه ، وإن هذا رجل قصَدنا قبلُ ، فكان منا ما أشِرَ[2] به ، وحمله على العودة ، وقد ظن فينا خيراً ، فلا نخيّب ظنّه ، والحديث أبداً يحفظ القديم ، وقد جاءنا على جهة التهنئة بالعمر ، ونحن نسأل الله تعالى أن يُطيل عمرنا ، حتى يَكثر تَرْداده ، ويُديم نعمَنا حتى نجد ما نُنْعِم به عليه ، ويحفظ علينا مُرُوءتنا ، حتى يعيننا على التجمّل معه ، ولا يُبْلينا بجليس مثلك ، يَقْبِض أيدينا عن إسداء الأيادى » .

وأمر للشاعر بما كان أمرَ له به قبلُ ، وأوصاه بالعود عند حلول ذلك الأوان ما دام العمر . (نفح الطيب ٢ : ٣٣٠)

(١) السبر : استخبار غور الجرح . (٢) أشر : مرح .

٧ — وفاء الوزير ابن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز

واعتذاره عنه لدى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط

كان الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم صديقاً للوزير هاشم بن عبد العزيز ، ثابتاً على مودته ، فلما قَضَى الله على هاشم بالأسر ، أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمن الأمويّ[1] ذِكْرَه فى جماعة من خُدَّامه ، والوليدُ حاضِرٌ ، فنسبه إلى الطيش والعَجَلة والاستبداد برأيه ، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير الوليد ، فقال :

« أصلح الله تعالى الأمير ، إنه لم يكن على هاشم التخيُّر فى الأمور ، ولا الخروج عن المقدور ، بل قد استعمل جهدَه ، واستفرَغ نصحَه ، وقضى حقَّ الإقدام ، ولم يكن مِلَاكُ النصر بيده ، فخذلَه من وَثِق به ، ونَكَل عنهُ من كان معه ، فلم يُزحزح قدَمَه عن موطن حِفاظه ، حتى مُلِك مُقبلا غيرَ مُدْبِر ، مُبلياً غير فَشِلٍ ، فجُوزِى خيراً عن نفسه وسلطانه ، فإنه لاطريقَ للملَام عليه ، وليس عليه ما جَنَته الحرب الغَشُوم . وأيضاً فإنه ماقصد أن يجود بنفسه إلا رِضاً للأمير ، واجتناباً لِسُخْطِه ، فإذا كان ما اعْتَمَد فيه الرضا جالِبَ التقصير ، فذلك معدودٌ فى سوء الحظ » .

فأعجب الأميرَ كلامُه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر عن تفنيد هاشم ، وسعى فى تخليصه . (نفح الطيب ٢ : ٢٣٠)

---

(١) هو الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط . حكم الأندلس من سنة ٢٣٨ إلى سنة ٢٧٣ هـ ، وكان غزاء لأهل الشرك والخلاف . وربما أوغل فى بلاد العدو ستة أشهر أو أكثر يحرق وينسف ، وله فى العدو وقعة وادى سليط ، وهى من أمهات الوقائع لم يعرف مثلها فى الأندلس قبلها .

٨ — خطبة منذر بن سعيد البلوطى[1] المتوفى سنة ٣٥٥ هـ
فى الاحتفال بقدوم رسل ملك الروم

روى المؤرخون أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله[2] ، بلغ من عِزَّة الملك ، ورفعة السلطان بالأندلس ، أن كانت ملوك الروم والإفرنجة تَزْدَلِف إليه ، تطلب مُهَادَنَتَه ، وَتُهْدِى إليهِ أنفس الذخائر ، ومن جملتهم قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية ، فقد رَغِبَ فى موادعته ، وبعث إليه سنة ٣٣٨ هـ وفداً من قِبله بهدية له ، فتأهَّب الناصر لورودهم ، واحتفل بقدومهم احتفالا رائعاً ، أَحَبَّ أن يقوم فيه الخطباء والشعراء بين يديه ، لتَذْكر جلالة ملكه ، وعظيم سلطانه ، ونصف ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته ، وتقدم إلى الأمير الحكَم ابنه وولىّ عهده ، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، فأمر الحكم صنيعَهُ الفقيه محمد بن عبد البرّ بالتأهب لذلك ، وكان يدَّعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس فى وسع غيره ، وحضر المجلس السلطانى ، فلما قام يحاول التكلم ، بَهَره هولُ المقام ، وأُبَّهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لفظة ، بل غُشِى عليه وسقط إلى الأرض ، فقيل لأبى علىّ القالى — صاحب الأمالى ، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليهِ من العراق — : قم فارقع هذا الوَهْىَ[3] ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع به القول ، فوقف ساكتاً متفكراً

---

(١) ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وتوفى سنة ٣٥٥ هـ ، وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه ، شديد المعارضة حاضر الجواب عتيده ، ثابت الحجة ، ولى بقرطبة قضاء الجماعة — المعبر عنه فى المشرق بقضاء القضاة — لعبد الرحمن الناصر ، ثم لابنه الحكم المستنصر ، ستة عشر عاما من سنة ٣٣٩ إلى سنة ٣٥٥ ، لم يحفظ عليه فيها جور فى قضية ، ولا قسم بغير سوية ، ولا ميل لهوى .

(٢) هو عبد الرحمن الثالث ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثانى ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٣٠٠ هـ إلى سنة ٣٥٠ هـ ، وهو أول من تسمى من أمراء بنى أمية بالأندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق ، وغلب موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مولاه مؤنس المظفر سنة ٣١٧ هـ . (٣) الوهى : الشق فى الشىء .

فى كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد البَلُّوطِى — وكان ممن حضر فى زُمْرة الفقهاء — قام من ذاته بدرجة من مِرْقاته ، فوصل افتتاح أبى علىّ لأول خطبته بكلام كان يَسُحه سَحًّا ، كأنما كان يحفظهُ قبل ذلك بمدة : فقـال :

« أما بعد حمد الله ، والثناء عليه ، وَالتَّعْدَاد لآلائه ، والشـكر لِنَعْمائِه ، والصلاة والسلام على محمد صَفِيِّه وخاتَم أنبيائِه ، فإن لـكل حادِثَةٍ مَقاماً ، ولـكل مقام مقالٌ ، وليس بعد الحقِّ إلا الضلال ، وإنى قد قمتُ فى مَقام كريم ، بين يَدَىْ ملِك عظيم ، فأَصْغُوا[1] إلىَّ معشَرَ المَلأَ بأسماعكم ، وَأتْقِنوا عنى[2] بأفئدتـكم ، إن من الحق أن يقال لِلْمُحِقّ صدقتَ ، ولِلمُبْطِل كَذَبْتَ ، وإن الجليل تعالى فى سمائِه ، وَتقدَّس فى صفاته وأسمائِه ، أمر كَلِيمَهَ موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكِّر قومهُ بأيام الله جل وعز عندهم ، وفيه وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسْوَةٌ حَسَنَة ، وَإنى أذكِّركم بأيام الله عندكم ، وَتَلافِيهَ لـكم بخلافة أمير المؤمنين ، التى لَمَّتْ شَعَثَـكم ، وأمنت سِرْبكم[3] ، ورفعت قوتـكم ، بعد أن كنتم قليلا فـكثَّركم ومستضعَفين فقوَّاكم ، وَمُسْتَذَلِّين فنصركم ، وَلَّاه الله رِعايتـكم ، وأسند إليه إمامتـكم ، أيام ضَرَبت الفتنةُ سُرَادِقَها على الآفاق ، وأحاطت بكم شُعَل النفاق ، حتى صرتم فى مِثل حَدَقة البعير ، من ضِيق الحال ، ونـكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة الرخاء[4] ، وانتقلتم بيُمْن سياسته إلى تمهيد كَنَف العافية بعد استيطان البلاء .

أنْشُدُكم بالله معاشِر المَلأ ، ألم تـكن الدماء مسفوكة فحقَنها ، والسُّبُل مَخُوفة فأمَّنها

(١) الذى فى كتب اللغة : « أصغى إليه سمعه : أماله ، وأصغى إليه : مال بسمعه نحوه » ولعل زيادة الياء فى « بأسماعكم » من النساخ لامن الخطيب .

(٢) هكذا فى نفح الطيب ، وفى مطمح الأنفس : « وعوا عنى بأفئدتكم » .

(٣) السرب : النفس .

(٤) فى الأصل « فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء » والصواب ما ذكرنا .

والأموال منتهبَة فأحرزها وحصَّنها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمّرها، وثغور المسلمين مُهتَضَمة فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وَشَفَى صدوركم، وَصِرْتم يداً على عدوكم، بعد أن كان بأسُكم بينَكم.

فأنشُدُكم الله، ألم تكن خلافته قُفْل الفتنة بعد انطلاقها من عِقالها؟ ألم يَتَلَافَ صَلَاحَ الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟ ولم يَكِلْ ذلك إلى القُوَّاد والأجناد، حتى باشره بالقوَّة وَالْمُهْجَة والأولاد، واعتزل النِّسْوان، وهجر الأوطان، ورَفَض الدَّعة، وهى محبوبة، وترك الرُّكون إلى الراحة، وهى مطلوبة بِطَوِيَّة صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة، نافذة ثاقبة، وريح هابَّة غالبة، وَنُصرة من الله واقعة واجبة، وَسلطان قاهر، وَجدّ ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحمِّلا للنَّصَب، مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدّتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حِدَّتها، ولم يبق لها غارِبٌ إلا جَبَّه[1]، ولا نَجَم[2] لأهلها قَرْنٌ إلا جَدَّه، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبِلَمِّ أمير المؤمنين لشَعَثكم على أعدائه أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقْصَيْن والأدْنَيْن مستخدمةً إليه وإليكم، يأتون من كل فجٍّ عميق، وبلد سَحِيق[3]، لأخذ حَبْل[4] بينه وبينكم جُمْلَةً وتفصيلا، لِيَقْضِيَ اللهُ أمْرًا كانَ مَفْعُولًا، ولن يُخلف الله وعده، ولهذا الأمر مابعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أحوال باطنة خافية، دليلها قائم، وَجَفْنها غير نائم «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

(١) الغارب: الكاهل، أو ما بين السنام والعنق، وجبه: قطعه.

(٢) فى الأصل: «نجح» وهو تحريف، والصواب «نجم» أى ظهر وطلع، وجده: قطعه.

(٣) سحيق: بعيد. (٤) أى معاهدة بينه وبينكم.

فى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » ، وليس فى تصديق ما وَعَدَ اللهُ ارتياب ، ولكل نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ، ولكل أجلٍ كتابٌ . فاحمَدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم بين[1] خِلافة أمير المؤمنين ـ أيده الله بالعِصْمة والسداد ، وألهمهُ خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد ـ أحسنَ الناس حالًا ، وأنعمهم بالًا ، وأعزَّهم قَراراً ، وأمنعهم داراً ، وأكثفهم جَمْعاً ، وأجملهم صُنْعاً ، لاتُهاجون ولا تُذادون ، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عمّ نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يده من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، وَمَرَق من الدين ، فقد خَسِر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

وقد علمتم أن فى التعلق بِعِصْمَتها ، والتمسك بعُرْوَتها ، حفظَ الأموال ، وَحَقْن الدماء ، وصلاحَ الخاصة والدَّهْماء[2] ، وأن بدوام[3] الطاعة تُقام الحدود ، وتوفَّى العهود ، وبها وُصِلت الأرحام ، وَوَضَحَت الأحكام ، وبها سَدَّ الله الخَلَل ، وأَمَّن السبل ، وَوَطَّأ الأكناف ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصِمُوا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول : « وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » ، وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف المُلْحِدِين الساعين فى شقّ عصاكم ، وتفريق مَلَئكم ، الآخذين فى مخاذلة دينكم ، وَهتْكِ حَرِيمكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى جميع النبيين والمرسلين ، أقول قولى هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور الرحيم ، فهو خير الغافرين » .

---

(١) هكذا فى نفح الطيب ، ومطمح الأنفس ، ولعل صوابه : « أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين » .

(٢) الدهماء : جماعة الناس .

(٣) فى الأصل : « بقوام » ، وأظنه : « بدوام » .

وخرج الناس يتحدثون عن حسن مَقامه، وثبات جَنانه، وبلاغة لسانه، وكان الناصر أشدهم تعجّباً منه، فولّاه الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع بالزهراء، ثم تُوُفى محمد بن عيسى القاضى، فولّاه قضاء الجماعة بقرطبة، وأقرّه على الصلاة بالزهراء.

(نفح الطيب ١ : ١٧٢ ، ومطمح الأنفس ص ٤٢)

٩ — خطبة أخرى له

وخطب منذر بن سعيد يوماً — وأراد التواضع — فكان من فصول خطبته، أن قال:

«حتى متى، وإلى متى، أعِظ ولا أتَّعِظ، وأزجُر ولا أنزجر، أدلّ الطريق إلى المستدلّين، وَأبْقَى مقيماً مع الحائرين! كلا، إن هذا لهو البلاء المبين! إنْ هِيَ إلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ. اللهم فرّغنى لما خلقتنى له، ولا تشغلنى بما تَكَفَّلْتَ لى به، ولا تحرِمنى وأنا أسألك، ولا تعذّبنى وأنا أستغفرك، يا أرحم الراحمين».

(نفح الطيب ١ : ٢٢٢)

١٠ — أحد حساد الرمادى الشاعر والمنصور بن أبى عامر

(المتوفى سنة ٣٩٤ هـ)

وقال المنصور بن أبى عامر المُعافِرِىّ[1] يوماً لأبى عمر يوسف الرَّمادىّ الشاعر:

---

(١) هو المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى. دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق، وكان عظيما فى قومه، وله فى الفتح أثر، وكان الحكم بن الناصر قد استوزر ابن أبى عامر، وفوض إليه أموره، وترقت حاله عنده؛ ثم توفى الحكم سنة ٣٦٦ هـ، وولى بعده ابنه هشام، وكانت سنه تسع سنين، فحدثت ابن أبى عامر نفسه بالتغلب عليه لصغر سنه وتم له ما أمل، فتغلب عليه، وتربع على سرير الملك، وأمر أن يحيا بتحية الملوك، وتسمى

كيف ترى حالك معى ؟ فقال : « فوق قدرى ، ودونَ قدرك[1] » ، فأطرقَ المنصور كالمغضبان ، فانْسَلَّ الرمادىّ وخرج وقد نَدِم على ما بَدَر منه ، وجعل يقول : أخطأتُ ! لا والله ، ما يُفلِح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضَرَّنى لو قلت له : إنى بلغتُ السماء ، وتمنطقتُ بالجوزاء ! وأنشد :

متى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةً ... لِنَفْسِىَ إلا قد قَضَيْتُ قضاءها

وكان فى المجلس من يحسُده على مكانه من المنصور ، فوجد فُرصة فقال :

« وَصَلَ اللهُ لمولانا الظفرَ والسعدَ ، إنَّ هذا الصِّنف صنف زُور وهَذَيان ؛ لا يشكرون نعمة ، ولا يرعَون إلاًّ[2] ولا ذِمَّةً ، كلابُ مَنْ غَلَبَ ، وأصحابُ مَنْ أخْصَبَ ، وأعداءُ من أجْدَبَ ، وَحَسْبُكَ منهم أن الله جل جلاله يقول فيهم : «وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » والابتعاد منهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنُّك بقومٍ الصدقُ يستحسن إلا منهم ؟ » .

* * *

فرفع المنصور رأسه ـ وكان مُحَامِيَ أهل الأدب والشعر ـ وقد اسودَّ وجهه ، وظهر فيه الغضب المُفْرِط ، ثم قال :

« ما بالُ أقوام يُشِيرُون فى شىء لم يُستشارُوا فيــه ، ويسيئون الأدبَ بالحكم فيما لا يَدْرُون ، أيُرْضِى أم يُسْخِط ؟ وأنت أيها المبتعِث للشرّ دون أن يُبْعَث ، قد عَلِمْنا غرضَك ، فى أهل الأدب والشعر عامَّةً ، وَحَسَدَك لهم ، لأن الناس كما قال القائل :

بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ولم يبق لهشام من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء له على المنابر ، وكتابة اسمه فى السكة والطرر . وهلك المنصور أعظم ما كان ملكا سنة ٣٩٤ هـ لسبع وعشرين سنة من ملكه .

(١) يريد « ودون ما ينبغى أن يعطيه مثلك لمثلى » .

(٢) الإل : العهد .

من رأى الناسُ له فضـــلاً عليهمْ حَسَدُوهْ

وَعَرَفنا غرضَكَ فى هذا الرجل خاصّةً ، ولسنا إن شاء الله نبلّغ أحداً غرضَه فى أحد ، ولو بلغنا كمْ بَلَغْنا فى جانبكم ، وإنك ضربتَ فى حديد بارد[١] ، وأخطأتَ وجهَ الصواب ، فزدتَ بذلك احتقاراً وَصَغاراً ، وإنّى ما أطرقتُ من كلام الرمادى إنكاراً عليه ، بل رأيت كلاماً يجلّ عن الأقدار الجليلة ، وتَعَجَّبْتُ من تهدِّيه له بسرعة ، واستنباطه له على قلة من الإحسان الغامر ، مالا يستنبطه غيره بالكثير ، والله لو حكّمتهُ فى بيوت الأموال ، لرأيتُ أنها لا تَرْجَح ما تكلَّم به قائلُه ، ذَرَّةً . وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام فى شخص ، قبل أن يؤخذ معهُ فيه ، ولا تحكّموا علينا فى أوليائنا ، ولو أبصرتم منا التغير عليهم ، فإننا لا نتغيَّر عليهم بُغْضاً لهم ، وانحرافاً عنهم ، بل تأديباً وإنكاراً ، فإنا من نريد إبعادَه لم نُظْهِر له التغيُّر ، بل ننْبُذه مرة واحدة ، فإن التغيُّر إنما يكون لمن يُرَادُ استبقاؤه ، ولو كنتُ مائلَ السمع لكل أحد منكم فى صاحبه : لتفرقتم فى أيدِى سَبَا[٢] ، وَجُونِبْتُ أنا مجانبَةَ الأجْرب ، وإنى قد أطْلَعتكم على مافى ضميرى ، فلا تَعْدِلوا عن مَرْضاتى ، فتجتنبوا سُخْطِى بمـا جنيتموه على أنفسكم » .

* * *

ثم أمر أن يُرَدَّ الرمادى ، وقال له : أعِدْ علىَّ كلامك ، فارتاع ، فقال : الأمرُ على خلاف ما قدَّرتَ ، الثوابُ أولى بكلامك من العقاب . فسكن لتأنيسه ، وأعاد ما تكلم به .

فقال المنصور : « بلغنا أن النعمان بن المُنْذِر حشَا فَمَ النابغة بالدُّر ، لكلامٍ

---

(١) من أمثال العرب : « تضرب : فى حديد بارد » وهو مثل يضرب لمن طمع فى غير مطمع .

(٢) من أمثالهم أيضاً : « ذهبوا أيدى سبا ، وتفرقوا أيدى سبا ، وأيادى سبا » ، واليد : الطريق أى فرقتهم طرقهم التى سلكوها كما تفرق أهل سبأ فى مذاهب مختلفة . ضرب المثل بهم ، لأنه لما غرق مكانهم ، وذهبت جناتهم ، تبددوا فى البلاد — انظر القصة فى الجزء الأول صفحة ١٠٨ — وقد بنوا أيدى سبا ، وأيادى سبا على السكون لكونه مركبا تركيب خمسة عشر .

استملحهُ منه ، وقد أمرنا لك بمـا لا يَقْصُر عن ذلك ، ماهو أنوَهُ وأحسن عائِدةً ، وكتب له بمال وَخِلَع وموضع يعيش منه ، ثم رد رأســه إلى المتكلم فى شأن الرمادى — وقد كان يغوص فى الأرض لو وجد ، لشدة ما حلّ به مما رأى وسمع — وقال : « وَالْعَجَبُ من قوم يقولون : الابتعاد من الشعراء أولى من الاقتراب ، نَعَم ، ذلك لمن ليس له مفاخرُ ، يريد تخليدَها ، ولا أيادٍ يرغب فى نشرها ، فأين الذين قيل فيهم :

على مُكْثِرِيهم رِزْقُ مَنْ يعتريهمْ ... وعند المُقِلِّينَ السَّماحةُ وَالبَذْلُ[1]

وأين الذى قيل فيه :

إنمـا الدنيا أبو دُلَفٍ ... بين مَبْدَاه وَمُحْتَضَرِهْ

فإذا وَلَّى أبو دُلَف ... وَلَّتْ الدنياَ على أثَرِهْ[2]

أمَا كان فى الجاهلية والإسلام أكرمُ ممن قيل فيه هذا القول ؟ بلى ، ولـكن صُحْبَة الشعراء والإحسان إليهم ، أحْيَتْ غابِرَ ذكراهم ، وَخَصَّتهم بمفاخِرِ عصرهم ، وغيرهم لم تخلِّد الأمداحُ[3] مآثِرَهم ، فَدَثَرَ ذِكرهم ، وَدَرَسَ فخرُهم » .

(نفح الطيب ٢ : ٢٢٦)

---

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى من قصيدة فى مدح آل هرم بن سنان .

(٢) البيتان لعلى بن جبلة الأنبارى الملقب بالعكوك من قصيدة قالها فى مدح أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى — وكان جواداً ممدحا وفيها يقول :

كل من فى الأرض من عرب ... بين باديه إلى حضره

مستعير منه مكرمة ... يكتسيها يوم مفتخره

وهذا البيتان الأخيران أحفظا عليه المأمون ، فطلبه حتى ظفر به ، فسل لسانه من قفاه ، ويقال : بل هرب ولم يزل متواريا منه حتى مات . قال صاحب الأغانى : « وهذا هو الصحيح من القولين ، والآخر شاذ »

(٣) لم أجد هذا الجمع فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها : « المدحة بالكسر والمديح والأمدوحة بالضم : ما يمدح به ، والجمع مدح كعنب ومدائح وأماديح » .

١١ — ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح

لما مات المعتصم بن صُمادِح[1] ملك المَرِيَّة ركب البحرَ ابنُه ووليّ عهده الواثق عِزُّ الدولة ، وفارق المُلْكَ كما أوصاه والده المعتصم .

قال أبو بكر بن اللبّانة الشاعر : ماعلمتُ حقيقةَ جَوْرِ الدهر ، حتى اجتمعت بِبِجَايَة[2] مع عزّ الدولة بن المعتصم ، فإنى رأيت منهُ خيرَ من يُجْتَمع به ، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا لِلمُلْكِ والرياسة ، وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تَنِمّ من تحت خُمُوله ، كما يَنِمّ فِرِنْدُ[3] السيف وَكَرَمُه من تحت الصَّدَأ ، مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ ، وحسن استماعه وإسماعه ورقّة طباعه ، ولطافة ذهنه ، ولقد ذَكَرته لأحد من صحِبْته من الأدباء فى ذلك المكان ، ووصفته بهذه الصفات ، فتشوّق إلى الاجتماع به ، وَرَغِب إلىّ فى أن أستأذِنَه فى ذلك ، فلما أعلمت عزّ الدولة قال :

« يا أبا بكر ، إنك لتعلم أنَّا اليومَ فى خُمُول وَضِيق ، لا يتَّسع لنا معهما ، ولا يجمُل بنا الاجتماعُ مع أحد ، لا سيَّما مع ذى أدب ونباهة ، يلقانا بعين الرحمة ، ويزورنا بمِنَّة التفضل فى زيارتنا ، ونكابِد من ألفاظ توجُّعِه ، وألحاظ تفجُّعِه ، ما يجدِّد لنا همًّا قد بَلِى ، وَيُحْيِى كمداً قد فنِى ، وما لنا قدرة على أن نجود عليه بما يَرْضَى عن همَّنا ، فدَعْنا كأننا فى قبر ، نتدرّع لسهام الدهر ، بِدِرْع الصبر ، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم ، وامتزجت امتزاج الماء بالخمر ، فكأنا لم نكشِف حالنا لسِوانا ، ولا أظْهَرْنا مابنا لغيرنا ، فلا تحمِل غيرَكَ بحملك » .

---

(١) هو أحد ملوك الطوائف بالأندلس ، وكان صاحب المرية « بلد بالأندلس على الساحل الجنوبى » ، وكان منافساً المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية مناوئا له ، وقد سعى به لدى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وأفسد ما بينهما ، وكان ابن عباد قد استنصر بابن تاشفين لصد غارة الإسبان ، فعبر بجيشه من مراكش إلى الأندلس ، وأبلى بلاء حسناً فى قتالهم حتى دارت عليهم الدائرة فى وقعة الزلاقة ، ثم مال على ملوك الطوائف ، فاكتسح دولهم ، ودانت له الأندلس .

(٢) بجاية : بلد بالمغرب على ساحل بلاد الجزائر.

(٣) جوهرة .

قال ابن اللبانة : فلاً والله سمى بلاغةٌ لاتصدُر إلا عن سَداد ، ونفسٍ أبية متمكنة من أعِنَّة البيان ، وانصرفت متمثلاً :

لسانُ الفتى نصفٌ ، وَنِصْفٌ فؤادُه   فلم يبقَ إلا صُورةُ اللحم والدمِ
وكائنْ ترى من صامتٍ لك مُعْجِبٍ   زيادتُه أو نقصُــــه فى التكلم[1]

(نفح الطيب ٢ : ٢٢٨)

١٢ — دفاع ابن الفخار عن القاضى الوحيدى بحضرة ابن تاشفين

لما تألَّب بنو حَسُّون على القاضى أبى محمد عبد الله الوحيدى قاضى مَالَقة[2] ، انبرى للدفاع عنه العالم الأصولى أبوعبدالله بن الفَخَّار ، فقصد إلى حضرة الإمامة «مَرَّا كُش» ، وقام فى مجلس أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، وقد غَصَّ بأربابه ، فقال :

« إنه لَمَقام كريم ، نبدأ فيه بحمد الله على الدنوِّ منه ، ونصلِّى على خِيرة أنبيائه ، محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابته نجوم الليل البَهيم[3] ، أما بعد ، فإنا نحمَد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الحنيفِىّ نَصِيراً وظهيراً ، وَنفْزَع إليك مما دَهِمنَا[4] فى حِمَاك ، وَنَبُثُّ إليك ما لحِقنا من الضيم ، ونحن تحت ظلِّ عُلاك ، ويأبى اللهُ أن يُذَمّ من احتمى بأمير المسلمين ، وَيُصَابُ بِضَيمٍ مَن أدَّرع بحِصنه الحصين ، شكوى قمت بها بين يديك ، فى حق أمرك الذى عَضَده[5] مؤيِّده ، لتسمع منها ماتختبره برأيك وَتَنقُده ، وإن قاضيَك ابن الوحيدى الذى قدَّمته فى مالَقَة للأحكام ، ورضِيت

---

(١) البيتان لزهير بن أبى سلمى من معلقته .   (٢) بلد بالأندلس على الساحل الجنوبى .
(٣) الأسود .   (٤) دهمه كسمع ومنع : غشيه .
(٥) عضده كنصره : أصاب عضده ، والمراد بمؤيده بنو حسون ، والمعنى : إن بنى حسون — وكانوا أحق بتأييد أمرك وتوطيده — قد أوهنوه وأوهوه بتعرضهم لأحكام القاضى ، والطعن فيها ، أو معنى عضده : نصره ، فالمراد بمؤيده القاضى الوحيدى ، والمعنى على ذلك ، إن القاضى القائم بأمرك يدأب على نصره ، وتثبيت دعائمه ، بانتهاجه طريق الحق فى حكمه ، ولو غضب من جراء ذلك فريق من الرعية .

بعدله فيمن بها من الخاصّة والعوام ، لم يزل يَدُلّ على حسن اختيارك بحُسن سيرته ، وَيُرْضِي اللهَ تعالى وَيُرْضِي الناسَ بظاهره وسريرته ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوء ، ولا دَرَيْنا له موقِفَ خِزى ، ولم يزل جاريًا على ما يُرْضى الله تعالى ويرضيك ويرضينا ، إلى أن تعرضت بنو حسُّون للطعن فى أحكامه ، والمَدّ من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدَّم راجع على المقدِّم ، بل جَمَحوا فى لَجَاجهم ، فعَموا وَصَمُّوا ، وفعلوا وأمْضَوا مابه همُّوا ، وإلى السُّحُب يَرْفَع الكفَّ من قد جَفّ عنهُ مَسِيلُ عينٍ ونهر » .

فلا سمعه بلاغة أعقبَتْ نصرَه ونصرَ صاحبه . (نفح الطيب ٢ : ٢٤٠)

١٣ — موعظة ابن أبي رَندقة الطرطوشي المتوفى سنه ٥٢٠ هـ للأفضـــل بن أمير الجيوش

دخل ابن أبي رَندقة الطُّرْطوشي[1] مرة على الأفضـــل[2] بن أمير الجيوش فوعظه ، وقال له :

« إن الأمر الذى أصبحتَ فيه مِن المُلك ، إنما صار إليك بموت من كان قَبلك ، وهو خارجٌ عن يدك ، بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة ، فإن الله عزّ وجلّ سائِلُكَ عن النَّقِير والقطمير والفَتِيل[3] ، واعلم أن الله عزّ وجلّ آتَى سليمانَ بن داود

(١) هو الفقيه العالم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشى (بضم الطاءين ، وقد تفتح الطاء الأولى ، نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس) ويعرف بابن أبى رندقة وكان زاهداً عابداً متورعا متقللا من الدنيا قوالا للحق ، رحل إلى المشرق ، ودخل بغداد والبصرة ، وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان الأفضل بن أمير الجيوش يكرمه ، فلما ولى بعده المأمون بن البطائحى أكرم الطرطوشى إكراما كثيراً ، وله ألف الشيخ « سراج الملوك » وتوفى بالاسكندرية سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) هو الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش المشهور ، وكان أبوه بدر الجمالى حاكم عكا ، فأرسل إليه الخليفة الفاطمى المستنصر يسأله القدوم إلى مصر لإصلاح أحوالها المضطربة إذ ذاك ، فقدم إليها ، وتولى شئونها ، وأقام معوجها ، وصارت له فيها الكلمة النافذة ، ثم لابنه الأفضل .

(٣) النقير : النقرة التى فى ظهر النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة التى بين النواة والتمرة ، والفتيل : ما يكون فى شق النواة .

مُلْك الدنيا بحَذَافيرها ، فسخَّر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحوش والبهائم ، وسخَّر له الريح تجرى بأمره رُخاء[1] حيثُ أصاب ، ورفع عنـه حساب ذلك أجمع ، فقال عزَّ من قائل : « هٰذَا عطَاؤُنَا فَامْنُنْ[2] أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، فما عدَّ ذلك نعمة كما عَدَدْتموها ، ولا حَسِبها كرامةً كما حَسِبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله عزَّ وجلَّ فقال : « هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى ، لِيَبْلُوَنِى[3] أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » ، فافتَح الباب ، وسهِّل الحجاب ، وانصر المظلوم . (نفح الطيب ١ : ٣٦٣)

١٤ — خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين

(المتوفى سنة ٥٣٤ هـ)

استدعى محمد بن عبد الله بن تُومَرْت[4] مؤسس دولة الموحدين أصحابَه ، قبل موته بأيام يسيرة ، وقد أراد أن يستخلف عليهم عبد المؤمن بن علىّ ، فلما حضروا بين يديه قام :

---

(١) الرخاء : الريح اللينة . (٢) أى فأعط منه من شئت . (٣) بلاه : اختبره .

(٤) هو محمد بن عبد الله بن تومرت من جبل السوس فى أقصى بلاد المغرب ، ولد سنة ٤٨٥ هـ ، ورحل إلى المشرق سنة ٥٠١ هـ فى طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ، وقيل إنه لقى أبا حامد الغزالى ، ثم رجع إلى المغرب ، وقامت دعوته فى أول الأمر فى صورة آمر بالمعروف ، ناه عن المنكر ، فاتبعه بعض القوم ، وخرج هو وأصحابه إلى السوس ، وشرع فى التدريس والدعاء إلى الخير : وما زال يستميل القلوب حتى كثرت شيعته ، ثم جعل يذكر المهدى ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التى جاءت فيه ، فلما قرر فى نفوسهم فضيلة المهدى ، ادعى ذلك لنفسه ، وتسمى بالمهدى ، ورفع نسبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم وادعى أنه من نسل الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدى المعصوم ، وروى فى ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم أنه المهدى ، فبايعوه على ذلك ، ولما كانت سنة ٥١٧ هـ جهز جيشا عظيما — وكانت مراكش تحت إمرة المرابطين — فقال : اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدى المعصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم ، وأمر على الجيش عبد المؤمن بن على ، فخرجوا إلى مراكش فلقيهم المرابطون قريباً منها بجيش ضخم أميرهم الزبير بن على بن يوسف بن تاشفين ، فدعوهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت فردوا عليهم أسوأ رد ، ثم التقت الفئتان ، فانهزم أصحاب ابن تومرت وقتل منهم خلق كثير ، فلما رجع القوم إلى ابن تومرت جعل يهون عليهم أمر الهزيمة ، ويقرر فى نفوسهم أن قتلاهم شهداء ، لأنهم ذابون —

فحمِد الله وأثنى عليه بمـا هو أهله ، وصلّى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يترضّى عن الخلفاء الراشدين ، رضوانُ الله عليهم ، ويذكر ما كانوا عليهِ من الثّبات فى دينهم ، والعزيمةِ فى أمرهم ، وأنّ أحدهم كان لا تأخذُه فى الله لومةُ لائم ، وذكر من حدّ عمرَ رضى الله عنه ابنَهُ فى الخمر ، وتصميمِه على الحق ، فى أشباهٍ لهذه الفصول ، ثم قال :

فانقرضَتْ هذه العِصابة ، نضّر الله وجوهَها ، وشكر لها سعيَها ، وجزاها خيراً عن أمّةِ نبيِّها ، وخبَطَتِ الناسَ فتنةٌ تركت الحليمَ حيْرانَ ، والعالِمَ متجاهلا مُداهِناً ، فلم ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قَصَدوا به الملوكَ ، واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوهَ الناس إليهم ، فى أشباهٍ لهذا القول ، إلى هلمّ جراً .

ثم إن الله سبحانه ـ وله الحمدُ ـ مَنَّ عليكم ـ أيتُها الطائفةُ ـ بتأييده ، وخصّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقيّض[1] لكم مَنْ[2] ألفاكم ضُلّالاً لا تهتدون ، وعُمْياً لا تُبْصِرُون ، لا تعرفون معروفاً ، ولا تُنْكِرُون منكراً ، قد فَشَتْ فيكم البِدَعُ ، واستهوتْكم الأباطيلُ ، وزيّن لكم الشيطان أضاليلَ وتُرّهاتٍ[3] ، أنزّه لسانى عن النطق بها ، وأَرْبَأُ[4] بلفظى عن ذكرها ، فهداكم الله به بعد الضلالة ، وبصّركم بعد العَمَى ، وجمعكم بعد الفُرقة ، وأعزّكم بعد الذّلة ، ورفع عنكم سلطانَ هؤلاء المارقين[5] ، وسيُورثكم أرضَهم وديارهم ، ذلك بما كَسَبَته أيديهم ، وأضمرتْه قلوبُهم ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

ـ من دين الله ، فزادهم ذلك بصيرة فى أمرهم ، وحرصاً على لقاء عدوهم ، وجعلوا يشنون الغارات على نواحى مراكش ويقتلون ويسبون ولا يبقون على أحد من قدروا عليه ، وكثر الداخلون فى طاعتهم ، ولم يزل أصحابه ظاهرين ، وأحوال المرابطين تختل ، وانتقاض دولتهم يتزايد ، إلى أن توفى ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ بعد أن أسس الأمور ، وأحكم التدبير ، وقام بأمر الموحدين من بعده عبد المؤمن بن على . وقد استوثق له الأمر بموت على بن يوسف بن تاشفين ملك المرابطين سنة ٥٣٧ هـ .

(١) أتاح لكم ووهب وهيأ . (٢) يعنى نفسه . (٣) جمع ترهة : وهى الباطل .

(٤) أرتفع . (٥) يريد المرابطين .

فجدّدوا لله سبحانه خالصَ نيّاتكم ، وأروه من الشكر قولاً وفعلا ما يُزَكِّي به سعيكم ، ويتقبّل أعمالكم ، وينشر أمركم ، واحذروا الفُرْقةَ واختلاف الكلمة ، وشتات الآراء ، وكونوا يداً واحدةً على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، هابكم الناس ، وأسرَعوا إلى طاعتكم ، وكثُر أتباعكم ، وأظهر الله الحقَّ على أيديكم ، وإلاَّ تفعلوا تَمِلكم الذلّ ، وَتَحقِركم الصَّغار[1] واحتقرتكم العامّة ، فتخطفكم الخاصّةُ ، وعليكم فى جميع أموركم بِمَزْج الرأفة بالغِلْظة ، واللين بالعُنف ، واعلموا مع هذا أنه لا يصلُح أمرُ آخر هذه الأمة ، إلا على الذى صَلُح عليه أمر أولها » .

وقد اخترنا لكم رجلا منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلَوْناه[2] فى جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرتَه وعلانيتَه ، فرأيناه فى ذلك كله ثَبَتاً[3] فى دينه ، متبصِّراً فى أمره ، وإنى لأرجو أن لاَ يُخْلِف الظن فيه ، وهذا المشار إليه هو : « عبد المؤمن » ، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربّه ، فإن بدَّل أو نكَص عَلَى عَقِبه ، أو ارتاب فى أمره ، ففى الموحِّدين ـ أعزّهم الله ـ بركةٌ وخير كثير ، والأمر أمر الله يقلِّده من شاء من عباده » .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت .

(المعجب ، فى تاريخ أخبار المغرب ص ١٠٨)

---

(١) الذل .　　(٢) اختبرناه .　　(٣) أى ثابتاً .

١٥ — مقال لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ)
فى الحضّ على الجهاد

وقال لسان الدين بن الخطيب[(١)] فى الحضّ عَلَى الجهاد[(٢)] :

« أيها الناس — رَحِمَكم الله تعالى — :

إخوانكمُ المسلمون بالأندلس قد دَهِمَ العدوُّ — قَصَمَهُ اللهُ تعالى — ساحَتَهم ، ورام الكفرُ — خَذَلَه الله تعالى — استباحَتَهم ، وَزَحَفَت أحزاب الطَّواغيت إليهم ، وَمَدَّ الصَّليبُ ذِرَاعَيْهِ عليهم ، وأيديكم — بعِزَّةِ الله تعالى — أقوى ، وأنتم المؤمنون أهلُ البِرِّ والتقوى ، وهو دينكم فانصُرُوه ، وَجِوَارُكم القريب فلا تُخْفِرُوه[(٣)] ، وسبيل الرشد قد وَضَحَ فلتَبْصِروه ، الجهادَ الجهادَ فقد تعيَّن ، الجارَ الجارَ فقد قرَّر الشَّرعُ حَقَّهُ وَبَيَّن ، اللهَ اللهَ فى الإسلام ، اللهَ اللهَ فى أمّة محمد عليه الصلاة والسلام ، اللهَ اللهَ فى المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فأغيثُوه ، قد تأكَّد عهد الله وحاشاكم أن تَنْكُثُوه ، أعِينُوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة ، أعانكم الله تعالى عند الشدائد ، جَدِّدوا عوائِدَ الخير ، يَصِلِ الله تعالى

---

(١) هو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المشهور بابن الخطيب خاتمة أدباء الأندلس ، ولد بغرناطة سنة ٧١٣ ، وكان أول أمره فى عداد كتاب السلطان أبى الحجاج يوسف أحد ملوك بنى الأحمر ، ثم اصطفاه وجعله وزيره ، وفوض إليه شئون مملكته ، ولما مات أبو الحجاج ، وخلفه ابنه محمد أقره على الوزارة ، ثم وثب إسمعيل أخو السلطان على ملكه ، فاضطر أن يغادره إلى المغرب مع وزيره لسان الدين ، فلما تحسنت الأحوال عاد محمد إلى ملكه ، وبقى مدة كتب له فيها ابن زمرك أحد تلامذة لسان الدين ثم عاد لسان الدين إلى غرناطة ، وحل مكانه من سلطانه ، فألهب ذلك نار الحسد فى ابن زمرك وأنصاره ، فسعوا به إليه حتى أحفظوه عليه ، فهرب إلى المغرب — وكان فى حوزة بنى مرين ، وهم من البربر . حكموا المغرب بعد الموحدين من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٨٩٠ هـ — فأكرمه سلطان المغرب عبد العزيز ، وخاطب ابن الأحمر فى أهله وولده ، فبعثهم إليه إلى أن مات (عبد العزيز) ، وثار أحد أمراء بنى مرين على ابن عبد العزيز ، وساعده ملك بنى الأحمر بشرط تسليمه ابن الخطيب ، وتم له أمره ، وقبض عليه ، وسجن بفاس ، ونوظر فى كلمات له فى كتابه « المحبة » وأفتى الفقهاء بقتله ، فدس عليه من خنقه فى سجنه سنة ٧٧٦ .

(٢) وكان سلطانه محمد بن أبى الحجاج أسفره إلى ملوك بنى مرين يستنجدهم على الإسبان .

(٣) أخفره : غدر به ونقض عهده .

لكم جميلَ العوائد ، صِلوا رَحِم الكَلِمة[1] وَاسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائفَ المُسْلِمَة ، كتابُ الله بين أيديكم ، والسنةُ الآيات تُناديكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمةٌ فيكم ، والله سبحانه يقول فيه : « يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ » ، ومما صحَّ عنهُ قولهُ : « من اغبَرَّتْ قدماهُ في سَبيلِ اللهِ حرَّمهما الله عَلَى النار » « لايجتمع غُبار في سبيل اللهِ وَدُخان جهنم » ، « من جهَّز غازياً في سبيل الله فقد غزا » أدرِكوا رَمَق الدين قبل أن يفوت ، بادِروا عليلَ الإسلام قبل أن يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده ، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حَقَّ جِهَاده :

ماذا يكون جوابُكمْ لِنَبِيِّكمْ وطريقُ هذا العُذْرِ غيرُ مُمَهَّدِ
إن قالَ : لِمْ فَرَّطتُمُو في أُمَّتِي وتركتموهُمْ للعدوِّ المعتدى ؟
تالله لو أن العقوبة لم تُخَفْ لكفى الحيا من وجه ذاك السيِّدِ

اللهم اعطِف علينا قلوبَ العباد ، اللهم بُثَّ لنا الحَيَّة في البلاد ، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبابك وأوليائك ، ياخير الناصرين ، اللهم أفْرِغ علينا صبراً ، وثبِّت أقدامنا وانصُرنا على القوم الكافرين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

(نفح الطيب ٤ : ٣)

١٦ — ما خاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني

وخاطب لسان الدين بن الخطيب تُرْبة السلطان الكبير أبي الحسن المَرِيني لما قصدها عَقِبَ ما شرع في جِواره ، فقال :

« السلام عليك ثم السلام ، أيها المَوْلَى الهُمَام ، الذى عرف فضلَه الإسلامُ ، وأوجبَتْ حقَّه العلماء الأعلامُ ، وَخَفَقَتْ بِعِزِّ نصره الأعلامُ ، وتنافست في إنفاذ أمره

---

(١) أى كلمة التوحيد .

وبهيه السيوفُ والأقلامُ ، السلام عليك أيها المَوْلَى الذى قَسَم زمانَه بين حُكمٍ فَصْلٍ وإمضاءِ نَصْلٍ ، وإحراز خَصْل[١] ، وعبادةٍ قامت من اليقين على أصْل ، السلام عليك يامقرِّر الصدقاتِ الجارية ، وَمُشْبِع البطون الجائعة ، وكاسِي الظهور العارية ، وقادِحَ زِناد العزائم الوارية ، ومكتِّب الكتائب الغازية ، فى سبيل الله تعالى والسَّرَايا[٢] السارية ، السلام عليك يا حُجَّة الصبر والتسليم ، ومتلقِّى أمر الله تعالى بالُخلق المرضِيّ والقلب السليم ، ومفوض الأمر فى الشدائد إلى السميع العليم ، وَمُعْمِل البَنان الطاهر فى اكتتاب الذكر الحكيم ، كَرَّم الله تعالى تُرْبَتَكَ وَقَدَّسَها ، وطيَّبَ رُوحَك الزكيَّة وآنسها ، فلقد كنت للدهر جَمالا ، وللإسلام ثِمَالا[٣] ، وللمستجير مُجِيراً ، وللمظلوم وليًّا ونصيراً ، لقد كنت المحارب صدْراً ، وفى المواكب بَدْراً ، وللمواهب بحراً ، وعلى العباد والبلاد ظِلاًّ ظليلا وَسِتْراً ، لقد فَرَعتَ[٤] أعلامَ عِزِك الثنايا ، وأجزلَتْ همتك لملوك الأرض الهدايا ، كأنك لم تَعرِض الجنود ، ولم تنشُر البُنود[٥] ، ولم تبسُط العدل الممدود ، ولم تُوجِد الجود ، ولم تَزِنِ الركَّعَ السُّجود ، فتوسَّدْتَ الثرى ، وأطلْتَ الكَرَى ، وشربت الكأس التى يشربها الوَرَى ، وأصبحت ضارِعَ[٦] الخدِّ ، كليل الحدِّ ، سالكاً سَنَن الأب والجدِّ ، لم تَجِدْ بعد انصرام أجلك ، إلا صالحَ عملك ، ولا صَحِبْتَ لقبرك ، إلا رابِحَ تَجْرِك[٧] ، وما أسلفتَ من رضاك وَصَبْرِك ، فنسأل الله تعالى أن يؤنس اغترابَك ، ويجود بسحاب الرحمة تُرابَك ، وينفعك بصدق اليقين ، ويجعلك من الأئمة المتقين ، وَيُعلِي درجتَك فى عِلِّيِّين[٨] ، ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين .

---

(١) الخصل : الغلبة فى النضال . (٢) السرايا : جمع سرية وهى من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة .

(٣) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه .

(٤) فرعت : علت ، والثنايا : جمع ثنية كهدية ، وهى العقبة ، أو الجبل ، أو الطريقة فيه .

(٥) البنود جمع بند كشمس : وهو العلم الكبير .

(٦) ذليل . (٧) تجر تجراً وتجارة .

(٨) اسم لأعلى الجنة ، أو هو كتاب جامع لأعمال الخير .

وَلْيَهْنِكَ أن صَيَّر الله تعالى ملكَكَ من بعدك ، إلى نيِّر سَعْدك ، وبارق رَعْدك ، وَمُنجز وعدك ، أرضَى ولدِك ، وَرَيْحَانَةِ خَلَدِك[1] ، وَشِقَّةِ[2] نفسك ، والسَّرحة المباركة من غَرْسك ، ونور شمسك ، وموصِّل عملك البَرّ إلى رَمْسِك ، فقد ظهر عليه أثر دعواتك فى خَلَوَاتك ، وأعقاب صلواتك ، فـكَلِمَتُكَ — ولِلَّهِ المِنَّة تعالى — باقية ، وَحَسَنتك إلى محل القبول راقية ، يَرْعَى بك الوسيلة ، ويتمِّم مقاصِدَك الجليلة ، أعانه الله تعالى ببركة رضاك على ما قَلَّده ، وَعَمَرَ بتقواه يومَهُ وغدَه ، وأبعد فى السعد أمَدَه ، وأطلَقَ بالخير يده ، وَجعل الملائكة أنصاره والأقدار عُدَدَه .

وإنى أيها المولى الكريم ، البَرُّ الرحيم ، لما اشترانى ، وَرَاشَنِى[3] وَبَرَانى ، وتعبَّدنى بإحسانه ، واستعمل فى استخلاصى خَطّ بَنَانه ، وَوَصِيَّةَ لسانه ، لم أجد مكافأةً إلا التقرُّبَ إليك وإليه برِثائك ، وإغراء لسانى بتخليد عَليائك ، وتعفير الوَجْنة فى حرَمك ، والإشادة بعد الممات بمجدك وكرمك ، ففتحت البابَ فى هذا الغرض ، إلى القيام بحقك المفترَض ، الذى لولاه لاتصلت الغفلة عن أدائه وتمادَت ، فما يَبِسَت الألسُن ولا كادت ، متحيِّزاً بالسبق ، إلى أداء هذا الحق ، بادئاً بزيارة قبرك الذى هو رِحْلة الغرب ، ما نويته من رحلة الشرق ، وما أعرضت عنه فأقطعه أثر مواقع الاستحسان وقد جمع بين الشكر والتنويه والإحسان ، والله سبحانه يجعله عملا مقبولا ، ويبلِّغ فيه من القبول مأمولا ، ويتغمَّد من ضاجَعْتَه من سَلَفك الكرام بالمغفرة الصيِّبة ، والتحيات الطيِّبة ، فنِعْمَ الملوكُ الكبار ، والخلفاء الأبرار ، والأئمة الأخيار ، الذين كَرُمَت منهم السِّيَر وحسنت الأخبار ، وَسَعِدَ بعزَماتهم الجِهادية المؤمنون وشقِى الكفار ، وصلوات الله تعالى عَوْدًا وَبَدْءا على الرسول الذى اصطفاه واختاره فهو المصطفى المختار ، وعلى آله وأصحابه الذين هم السادة الأبرار ، وسلم تسليماً » . (نفح الطيب ٤ : ١٢٥)

---

(١) الخلد : النفس والقلب . (٢) الشقة : نصف الشىء إذا شق ، والسرحة : الشجرة العظيمة .
(٣) راش السهم : ألزق عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله .

١٧ — وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده

« الحمد لله الذى لايُرَوِّعُهُ الحِمَامُ للرَّقُوب ، إذا شِيمَ[1] نَجْمُهُ المثقوب ، ولا يَبْغَتُه الأجلُ المكتوب ، ولا يَفْجَؤه الفِراق للعتوب ، مُلْهِم الهدى الذى تطمئنُّ به القلوب ، ومُوَضِّح السبيل المطلوب ، وجاعل النصيحة الصريحة من قِسم الوجوب ، لاسيَّما لِلْوَلِىِّ المحبوب ، والولد المنسوب ، القائل فى الكتاب المُعجِز الأسْلُوب : « أمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ[2] » ، « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ[3] » ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ، أكرم من زُرَّتْ على نوره جُيُوب الغيوب ، وأشْرَف مَنْ خُلِعَتْ عليه حُلَلُ المَهَابة والعِصْمَة ، فلا تقتحِمُه العيونُ ، ولا تَصِمُه العيوبُ[4] ، والرضا عن آله وأصحابه المثابرين على لسان[5] الاستقامة بالهوَى المغلوب ، والأملِ المسلوب ، والاقتداء الموصِّلِ إلى المرغوب ، والعزّ والأمن من اللُّغوب[6] ، وبعد : فإنى لمّا علانى الشَّيب بِقِمَّته[7] ، وقادنى الكِبَر بِرُمَّته[8] ، وَادَّكَرْتُ الشباب

(١) من شام البرق : نظر إليه أين يقصد ، وأين يمطر .

(٢) وتمام الآية الكريمة :

« إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَاتَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

(٣) وتمام الآية الكريمة: « إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(٤) تزدريه وتحقره ، ووصمه : عابه . (٥) اللسان : الرسالة .

(٦) اللغوب : أشد الإعياء . (٧) القمة : أعلى كل شىء .

(٨) الرمة بالضم ويكسر : قطعة من حبل .

بعد أُمَّة[١] ، أسِفْتُ لَمَا أضعتُ ، وَندِمْتُ بعد الفِطام على ما رَضَعْتُ ، وتأكدَ وجوبُ نصحى لمن لزِمنى رَعْيُه ، وتعلَّق بعينى سَعْيُه ، وأمَّلْتُ أن تتعدَّى إلىَّ ثمرةُ استقامته ، وأنا رهين فَوات ، وفى بَرْزَخ أموات ، ويأمنَ العثور فى الطريق التى اقتضَت عِثارى ، إن سلك — وعسى ألَّا يكون ذلك — عَلَى آثارى ، فقلت أخاطب الثلاثةَ الوَلَد ، وثمراتِ الخَلَد[٢] بعد الضَّراعة إلى الله تعالى فى توفيقهم ، وإيضاح طريقهم ، وجَمْع تفريقهم ، وأن يَمُنَّ عَلَىَّ منهم بحسن الخَلَف ، والتلافِى من قَبلِ التَّلَف ، وأن يرزُق خَلَفَهم التمسك بهدى السَّلَف ، فهو وَلِىُّ ذلك ، والهادى إلى خير المسالك :

اعلموا هداكم الله تعالى الذى بأنواره تهتدى الضُّلَّال ، وَبِرِضاه تُرْفَعُ الأغلال ، وبالتماس قُرْبه يحصل الكمال ، إذا ذهب المال ، وأخلفَتِ الآمال ، وتبرَّأتْ من يمينها الشِّمال ، أنى مُوَدِّعكم وإن سالَمنِى الرَّدَى ، وَمُفارِقُكم وإن طال المَدَى ، وما عَدَا مِمَّا بدا ، فكيف وأدواتُ السَّفَر تُجْمَع ، ومنادى الرحيل يُسْمَع ، ولاأقلَّ للحبيب المودِّع ، من وصيةٍ مُختَصَرٍ ، وَعُجالةِ مقتصِر ، وَرَتِيمةٍ[٣] تُعقَد فى خِنْصر ، ونصيحةٍ تكون نَشِيدَةَ وَاعٍ مُبْصِر ، تتكفَّل لكم بحسن العواقب من بعدى ، وتوضِّح لكم من الشفقة والحنوّ قَصْدِى ، حسبَما تضمَّن وَعْدُ الله من قبل وَعْدِى ، فهى أرَبُكم الذى لايتغيَّر وَقْفُه ، ولا ينالكم المكروهُ ما رَفَّ عليكم سَقْفُه ، وكأنِّى بشبابكم قد شاخ ، وَبِرَاحِلِكم قد أناخ ، وبناشِطِكم قد كَسِل ، واستبدل الصَّابَ[٤] من العَسَل ، وَنُصُول[٥] الشيب تروِّع بِأَسَل ، لا بل السَّامُ[٦] من كل حَدَبٍ قد نَسَل ، وَالمَعَادُ

---

(١) الأمة هنا : الحين ، اقتبسه من قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » .

(٢) الخلد : القلب والنفس .

(٣) الرتيمة : خيط يعقد فى الأصبع لتذكير .

(٤) الصاب : عصارة شجر مر . (٥) النصول جمع نصل : وهو حديدة الرمح والسيف . والأسل : الرماح . (٦) السام : الموت : والحدب : ما ارتفع من الأرض ، ونسل كضرب : أسرع والمعاد : المرجع .

الحدْ ولا تَسَلْ ، فبالأمس كنتم فِراخ حِجْر[١] ، واليوم أبناء عسكرٍ مَجْر ، وغداً شيوخ مَضْيَعَةٍ وَهَجْر ، والقبورُ فاغرة[٢] ، والنفوس عن المألوفات صاغرة ، والدنيا بأهلها ساخرة ، والأُولَى تَعْقُبُهَا الآخرة ، والحازم من لم يُتَّعظ به فى أمر ، وقال : « بيدى لا بِيَدِ عَمْرٍو[٣] » ، فاقتنوها من وَصِيَّة ، وَمَرَامٍ[٤] فى النصح قَصِيَّة ، خُصُّوا بها أولادَكم إذا عَقَلوا ، ليجدوا زادها إذا انتقلوا ، وحَسْبِي وحسبكم اللهُ الذى لم يخلق الخلقَ هَمَلا ، ولكن لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، ولا رَضِيَ الدنيا منزلا ، ولا لَطَفَ بمن أصبح عن فئة الخير مُنْعَزِلا ، ولتُلَقَّنُوا تلقيناً وتعلَموا علماً يقيناً ، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفردَ بذنبي ، وَيَفترشَ الترابَ جنبي ، ويَسُحَّ انسكابى ، وتهرول عن المصلَّى ركابى ، أحْرَصَ منى عَلَى سعادةٍ إليكم تُجْلَب ، أو غاية كمال بسببكم تُرتاد وتُطْلَب ، حتى لا يكون فى الدين والدنيا أَوْرَف[٥] منكم ظِلاً ، ولا أشرف مَحَلاً ، ولا أغبط نَهَلاً وَعَلاً[٦] ، وأقل مايوجب ذلك عليكم أن تُصِيخوا[٧] إلى قولى الآذان ، وتستلحُوا

---

(١) أى كالفراخ فى حجر أمها وحضنها ، والمجر : الكثير من كل شيء ، وجيش مجر : كثير جدا .

(٢) أى فاتحة أفواهها للموتى .

(٣) هو مثل قالته الزباء ملكة الجزيرة ، وذلك أنها كانت دعت جذيمة الأبرش ملك ماعلى شاطىء الفرات إلى زواجها . فلما استقر عندها قتلته ثأراً بأبيها — وكان جذيمة قد قتله — فاحتال مولاه قصير الثأر منها ، فجدع أنفه وأثر آثاراً بظهره ، ثم خرج إلى الزباء ، وأظهر أن عمرو بن عدى — ابن أخت جذيمة — فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جذيمة وغره من الزباء ، فلما استرسلت إليه ووثقت به ، زين لها أن تبعثه إلى العراق ليحمل إليها من طرائفها وثيابها وطيبها ، وأنها ستصيب فى ذلك أرباحا عظاما ، فأذنت له وقدم العراق ، وأتى الحيرة متنكراً ، وزوده عمرو بصنوف البز والأمتعة ، ورجع إلى الزباء ، فأعجبها ما رأت وسرها ، وازدادت به ثقة ، وجهزته ثانية ، فسار حتى قدم على عمرو فجهزه وعاد إليها ، ثم عاد الثالثة وجمع ثقات رجال عمرو ، وحملهم فى الغرائر على الجمال ، وسار إلى الزباء ، ودخلت الإبل المدينة وكانت الزباء قد حذرت عمراً ، واتخذت نفقاً إلى حصن لها فى داخل مدينتها ، وقالت : إن فجئنى أمر دخلت النفق إلى حصنى — ودل قصير عمراً على باب النفق ، فلما خرجت الرجال من الغرائر صاحوا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق ، وأقبلت الزباء تريد النفق ، فأبصرت عمراً فعرفته بالصورة التى صورت لها — فمصت خاتمها وكان فيه السم ، وقالت : « بيدى لا بيد عمرو » فذهبت مثلا ، وتلقاها عمرو فجللها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها ، وانكفأ راجعاً إلى العراق .

(٤) مرام جمع مرمى ، وقصية بعيدة .

(٥) ورف الظل : اتسع وطال وامتد .

(٦) النهل : الشرب الأول ، والعل والعلل : الشرب الثانى أو الشرب بعد الشرب تباعا .

(٧) أصاخ له استمع .

صُبْحَ نُصْحى فقد بَان ، وسأعيد عليكم وصيَّة لُقمان ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ - يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ[1] خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » وأعيد وصيةَ خليل الله وَإسرائيله حُكْمَ[2] ماتَضَمَّنهُ حُكْم تنزيله « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » والدين الذى ارتضاه واصطفاه ، وأكمله ووفَّاه ، وقرَّره مُصْطَفاه ، من قبل أن يتوفَّاه ، إذا أُعمِل فيه انتقاد ، فهو عمل واعتقاد ، وكلاهما مُقرَّر ، ومستمدّ من عقل أو نَقل محرر ، والعقل متقدِّم ، وبناؤه مع رَفْضِ أخيه متهدِّم ، فالله واحد أحد ، فَرْد صَمَد[3] ، ليس له والد ولا ولد ، تنزَّه عن الزمان والمكان ، وَسَبَق وجودُه وجودَ الأكوان ، خالِقُ الخلق وما يعملون ، الذى لا يُسْأل عن شىء وهم يُسْألون ، الحىّ العليم المدبِّر القدير ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، أرسل الرسل رحمةً لتلحق الناس إلى النجاة من الشقاء ، وتوجِّه الحجَّة فى مصيرهم إلى دار البقاء ، مؤيَّدةً بالمعجزات التى لا تتَّصِف أنوارُها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواتُرِها دعوى الانتفاء ، ثم ختم دِيوانهم بنبىّ مِلّتنا المرعية المَمَل ، الشاهدة عَلَى المِلَل ، فتلخَّصت الطاعة ، وَتعيَّنَت الإمْرَةُ المُطاعة ، ولم يَبْقَ بعده إلا ارتقابُ الساعة ، ثم إن الله تعالى قَبَضَه إذ كان بَشَرا ، وترك دينه يَضُمُّ من الأمة نَشَرا[4] ، فمن تَبِعَهُ لَحِق به ، ومن تركه نُوِّط[5] عنهُ فى مَنْسَبِه ، وكانت نجاته عَلَى قدر سَبَبه ، رُوِىَ عنهُ عليه الصلاة والسلام

---

(١) صعر خده : أماله كبراً .

(٢) إسرائيله : يعقوب عليه السلام ، والحكم : الحكمة ، وهو بدل من وصية .

(٣) الصمد : السيد ، لأنه يصمد أى يقصد فى قضاء الحوائج . (٤) النشر : المنتشر ، ومنه : « اللهم اجمع نشرى » . (٥) أى أبعد عنه وطرد ، يقال ناطت الدار : أى بعدت .

أنه قال : « تركتُ فيكم ما إنْ تَمَسَّكْتُمْ به لم تَضِلُّوا بعدى ، كتابَ الله وَسُنَّتِى ، فَعَضُّوا عليهما بالنواجذ[١] » .

فاعملوا يا بَنِىَّ بوصيةٍ من ناصح جاهد ، وَمُشْفِقٍ شفقةَ والد ، واستشعروا حُبَّهُ الذى توافرت دواعيه ، وَعُوا مَرَاشِدَ هَدْيِه ، فيافَوْزَ وَاعِيه ! وَصِلُوا السبب بسببه ، وَآمِنُوا بكلِّ ما جاء به ، مُجْمَلاً أو مُفَصَّلاً عَلَى حَسَبِه ، وأوجِبُوا التجِلَّةَ لِصَحْبِه ، الذين اختارهم الله تعالى لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ، واشملوهم بالتوقير ، وَفَضِّلوا منهم أُولى الفضل الشهير ، وتبرَّءوا من العصبيَّة التى لم يَدْعُكم إليها داعٍ ، ولاتُعِرِ التشاجرَ بينهم أُذُنَ وَاعٍ ، فهو عنوان السَّداد ، وعلامة سلامة الاعتقاد ، ثم استَحِبوا فضل تعظيمهم عَلَى فقهاء المِلَّة ، وأئمتها الجِلَّة[٢] ، فهم حَمَلَةُ نُصُولهم ، وفروعٌ ناشئة من أُصولهم ، وَوَرَثَتُهم وورثة رسولهم ، واعلموا أننى قطعت فى البحث زمانى ، وجعلتُ النظر شانى ، منذ برانى الله تعالى وأنشانى ، مع نُبْل[٣] يعترف به الشانى ، وإدراكٍ يسلِّمه العقل الإنسانى ، فلم أجد خابِطَ وَرَقٍ ، ولا مصبِّبَ عَرَقٍ ، ولا نازِعَ خِطَامٍ ، ولا متكلِّفَ فِطَامٍ ، ولا مقتحِم بَحْرٍ طَامٍ ، إلا وغايتهُ التى يقصِدها قد نَصَلَتها الشريعة وَسَبَقتها ، وَفَرَعَتْ[٤] ثَنيتَها وَارتقتها ، فعليكم بالتزام جادَّتها[٥] السَّابِلة ، ومصاحبة رِفقتها الكاملة ، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة ، والله تعالى يقول ، وهو أصدق القائلين : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ، وقد عَلَتْ شَرَائِعُهُ ، وراعَ الشكوكَ رائعُه ، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين ، وابذُلوا دونه النفوس فِعْلَ المهتدين ، فلن ينفع مَتاعٌ بعد الخلود فى النار أبَدَ الأبدين ، ولا يضرُّ مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ، ومتاع الحياة الدنيا أخَسُّ ما وَرِث الأولاد عن الوالدين ، اللهم قد بَلَّغْتُ فأنت خير الشاهدين ، فاحذَروا المعاطِبَ التى توجب فى الشقاء الخلود ، وتستدعى شَوْهَ الوجوه وَنُضْجَ الجلود ، واستعيذوا برضا الله من سُخْطِه ، وارْبَئوا بنفوسكم عن غَمْطِه ، وارفعوا آمالكم عن القنوع بِغُرُورٍ قد خَدَع

---

(١) أقصى الأضراس . (٢) جمع جليل . (٣) النبل : الذكاء والنجابة ، والشانى : المبغض .

(٤) فرعه : علاه ، والثنية : العقبة ، أو الجبل أو الطريقة فيه أو إليه .

(٥) الجادة : الطريق الواضح ، والسابلة من الطرق المسلوكة .

أسلافكم ، ولا تحمَدوا على جيفة العَرَض الزائل ائتلافكم ، و اقنعوا منه بما تيسَّر ، ولا تأسَوْا[1] على ما فات وتعذَّر ، فإنما هى دُجُنَّة[2] ينسخها الصَّباح ، وَصَفْقة يتعاقبها الخسَار أو الرَّباح ، ودونكم عقيدةَ الإيمان فَشُدُّوا بالنواجذ عليها ، وَكفكفُوا الشُّبَهَ أن تَدْنُوَ إليها ، واعلموا أن الإخلال بشىء من ذلك خَرْقٌ لا يَرْفَوُه[3] عمل ، وكلُّ ماسوى الراعى هَمَل ، وما بعدَ الرأسِ فى صلاح الجسم أمل ، وتمسَّكوا بكتاب الله تعالى حِفْظًا وَتِلاوَة ، واجعلوا حَمْله على حَمْل التكليف عِلاوة ، وتفكروا فى آياته ومعانيه ، وامتثلوا أوامره ونواهيه ولا تتأولوه ولا تَغْلُوا فيه ، وأشْرِبُوا قلوبكم حُبَّ من أُنْزِلَ على قَلْبه ، وأكثرُوا من بواعث حُبِّه ، وصونوا شعائرَ الله صون المحترم ، واحفظوا القواعد التى ينبنى عليها الإسلام حتى لا يَنْخَرِم ، اللهَ اللهَ فى الصلاة ذريعةِ التَّجِلَّة ، وخاصَّة المِلَّة ، وحاقِنة الدم ، وَغِنَى للمستأجِر المستخدم ، وأم العبادة ، وحافظة اسم المراقبة لعالِم الْغَيْبِ والشَّهادة ، والناهية عن الفحشاء والمنكر ، إن عَرَضَ الشيطانُ عَرْضها ، ووطَّأ للنفس الأمَّارة سماءها وأرضها ، والوسيلة إلى بَلِّ الجوانح بِبَرُود الذكر ، وإيصال تُحْفَةِ الله إلى مريض الفكر ، وضامنة حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسالمة من الفجّار ، والواسمة بِسِمَة السلامة ، والشَّاهِدَة للعبد برفع المَلامة ، وَغَسُول[4] الطبْع إذا شانه طَبَع ، والخير الذى كلُّ ماسواه له تَبَع ، فاصبِروا النفس على وظائفها ، بين بَدْء وإعادة ، فالخيرعادة ، ولا تفضُّلوا عليها الأشغال البدنيَّة ، وَتُؤْثِرُوا عَلَى العَلِيَّة الدَّنيَّةَ ، فإن أوقاتها المعيَّنة بالانفلات تَنْبَسُ[5] ، والفلك بها من أَجْلِكم لا يُحْبَس ، وإذا قُورِنَت بالشواغل فلها الجاه الأصِيل ، والحكم الذى لا يغيِّره الغُدُوُّ ولا الأَصِيل ، والوظائف بعد أدائها لا تفوت ، وأين حقُّ من يموت من حق الحى الذى لا يموت ؟ وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها ، وأتبِعوها النوافلَ ما أطقتموها ، فبالإتقان تفاضَلت الأعمال ، وبالمراعاة

---

(١) ولا تحزنوا . (٢) الدجنة : الظلمة . (٣) رفأ الثوب كنع : لأم خرقه ، وضم بعضه إلى بعض.

(٤) الغسول كصبور وتنور : الماء يغتسل به ، وفى الأصل «فاسول» وهو تحريف ، والطبع الشين والعيب .

(٥) أى تذهب وتضيع ، يقال : انبس الرجل إذا ذهب ، وفى الأصل « تبتس » وأراه محرفا .

استحقت الكمال ، ولا شكرَ مع الإهمال ، ولا ربحَ مع إضاعة رأس المال ، وذلك أحْرَى بإقامة الفَرْض ، وَأَدْعى إلى مساعدة البعضِ البعضَ .

والطهارة التى هى فى تحصيلها سبب مُوَصِّل ، وشرط لمشروطه محصِّل ، فاستوفوها ، والأعضاء نَظِّفوها ، ومياهها بغير أوصافها الجيدة فلا تصفوها ، والحُجُولَ وَالغُرَر[1] فأطيلوها ، والنيَّات فى كل ذلك فلا تُهْمِلوها ، فالبناء بأساسه ، والسيف بِمِراسه ، واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطُهور ، وذِكرٍ مجهور وغير مجهور ، تستغرق الأوقات ، وتنازِع شتَّى الخواطر المفترقات ، فلا يضبطها إلا مَنْ ضَبَطَ نفسه بِعِقال ، واستماض صَدَأه بصِقال[2] ، وإن تراخى قَهْقَرَ[3] الباعُ ، وَسَرَقته الطِّباع ، وكان لما سواها أضيَع . فشمِلَ الضَّياع ، والزكاة أختها الحبيبة . وَلِدَتُها القَرِيبَة . مفتاح السعادة بالعَرَض الزائل . وشكران المسئول عَلَى الضِّدِّ من درجة السائل . وحق الله تعالى فى مال من أغناه . لمن أجهده فى المعاش وعنَّاه[4] من غير استحقاق مَلْء يده وإخلاء يد أخيه . وَلا عِلَّةَ إلا القَدَر الذى يُخفيه . وَما لم ينله حظّ الله تعالى فلا خَيْرَ فيه ، فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها . فى اختيار عَرَضها ونِتاجها . واستحيُوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بَذَل . وَخالفوا الشيطان كلما عَذَل . وَاذكروا خروجكم إلى الوجود لاتملِكُون ، ولا تدرون أين تسلكون . فوهَب وأقدر . وأورد بِفَضْلِه

---

(١) الحجول : جمع حجل بالكسر والفتح وهو الخلخال ، والمراد بها هنا الأطراف ، وبإطالتها استيعاب غسلها ، والغرر جمع غرة بالضم وهى الوجه ، والمراد بتطويلها فى الوضوء : غسل مقدم الرأس مع الوجه ، وغسل صفحة العنق ، وجملة المعنى : أنه يأمر بإسباغ الوضوء ، وفى الحديث الشريف : « أُمَّتِي الغُرُّ المُحَجَّلُونَ » والغر جمع الأغر من الغرة ، وهى بياض فى جبهة الفرس فوق الدرهم ، يقال : فرس أغر وغراء ، والمحجل : الفرس الذى يرتفع البياض فى قوائمه فى موضع القيد ، أى بيض مواضع الوضوء من الوجه والأيدى والأقدام ، استعار أثر الوضوء فى الوجه واليدين والرجلين من البياض الذى يكون فى وجه الفرس ويديه ورجليه .

(٢) صواب العبارة « واستعاض بصدئه صقالا » يقال استبدل الشىء بغيره : إذا أخذه مكانه (ومنه ترى أن الباء داخلة على المتروك) واعتاضه منه واستعاضه (والباء كن) .

(٣) قهقر وتقهقر : رجع القهقرى . (٤) أتعبه .

وأصْدَر . ليرتّب بكرمهِ الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل . فابتغوا إليه الوسيلة بماله وَاغْتَنِموا رضاه ببعض نَواله . وصيام رمضان عبادة السرِّ المقرِّبة إلى الله زُلْفَى . المحوضة[١] لمن يعلم السِّرَّ وأخفَى . مؤكَّدة بصيام الجوارح عن الآثام . والقيام ببرِّ القيام ، والاجتهاد ، وإيثار السُّهاد ، على المِهاد ، وإن وَسِعَ الاعتكافُ فهو من سُنَنه المَرْعِيَّةِ ، ولواحقه الشرعية ، فبذلك تَحْسُن الوجوه ، وتحصلُ من الرِّقة على ما ترجوه ، وتذهب قسوة الطباع ، ويمتد فى مَيْدان الوسائل الباع ، والحج مع الاستطاعة الركن الواجب ، والفرض على العين لا يحجُبه الحاجِب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدرَه فيما فرض عن ربه وسَنَّه ، وقال : « ليس له جزاء عند الله إلا الجنة » ويلحق بذلك الجهاد فى سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه ، وغِنى لديه ، فكونوا ممن يسمع نَفيره ويُطيعه ، وإن عجَزتم فأعِينوا من يستطيعه . هذه عُمَد الإسلام وفروضه ، ونقود مَهْره وعُرُوضه ، فحافِظوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يُناويكم ظاهرين[٢] ، وَتَلْقَوا الله لا مبدِّلين ولا مغيِّرينَ ، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب ، وتَجَلَّى محاسِنُها من بعد الانتقاب[٣] فعليكم بالعلم النافع دليلا بين يدى السامع ، فالعلم مفتاح هذا البابُ ، والموصِّل إلى اللُّباب ، والله عز وجل يقول : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » والعلم وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المُنيفة ، وشرطُه الخشية لله تعالى والخيفة ، وخاصَّةُ المَلَإِ الأعلى ، وصفة الله فى كتبه التى تُتلَى ، والسبيل فى الآخرة إلى السعادة ، وفى الدنيا إلى النِّحْلة[٤] عادة ، والذُّخر الذى قليله يشفع ، وكثيره ينفع ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلُبُه العدو المُناصِب ، ولا يبتزُّه الدهرُ إذا نال ، ولا يستأثِر به البحرُ إذا هال ، من لم يَنَلْه فهو ذليل ، وإن كثرت آماله ،

---

(١) الخالصة . (٢) يعاديكم ، وظاهرين : غالبين . (٣) أى بعد الاختفاء ، من انتقبت المرأة : لبست النقاب . (٤) نحله : أعطاه ، والاسم النحلة .

وقليل ، وإن جمَّ مالُه ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وَتَخَطَّى حِسابكم ، فالتمسوه لبنيكم ، واستدرِكُوا منه ما خرج عن أيديكم ، واحملوهم على جَمْعِه وَدَرْسه ، واجعلوا طباعهم ثَرَّى لِغَرْسِهِ ، واستسهلوا ما ينالهم من تَعَبٍ مِنْ جَرَاه[1] وَسَهَرٍ يهجُرُ له الجفنُ كَرَاه ، تَعْقِدُوا لهم وِلاية عزٍّ لاتُعْزَل ، وَتُحِلُّوهم مَثَابَةَ رِفعةٍ لايُحَطّ فارِعُها ولا يُسْتَنْزَل ، واختاروا العلوم التى يتَعَقَّبُها الوقت ، فلا ينالها فى غِيَرِه[2] المقت ، وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نَجَم بِمَنَابتها المَرِيعة[3] ، من علوم لسان لاتستغرق الأعمارَ فصولُها ، ولا يضايق ثمراتِ المَعاد حصولُها ، فإنما هى آلات لِغَيْر ، وأسباب إلى خير منها وخير ، فمن كان قابلا للازدياد ، وألْفَى فهمَه ذا انقياد ، فليخصَّ تجويد القرآن بتقديمه ، ثم حِفْظ الحديث ومعرفة صحيحه من سَقيمه ، ثم الشروع فى أصول الفقه فهو العلم العظيم المُنَّة ، المُهْدِى كنوز الكتاب والسُّنَّة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجِلَّة ، والتدرج فى طرق النظر بصحيح الأدِلَّة ، وهذه هى الغاية القصوى فى المِلَّة ، ومن قصُر إدراكه عن هذا المَرْمَى ، وتقاعدَ عن التى هى أسمى ، فَلْيَرْوِ الحديثَ بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وإياكم والعلومَ القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرُها لا يُفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً ركيكاً ، ولا يُثْمِر فى العاجلة إلا اقتحامَ العيون ، وتطريق الظنون ، وتطويق الاحتقار وَسِمَةَ الصَّغار ، وخمول الأقدار ، والخَسْف من بعد الإبْدار ، وجادَّة الشريعة أعْرَق فى الاعتدال ، وأوفق من قطع العمر فى الجدال ، هذا ابن رُشْد[4] قاضى المصر وَمُفْتيه

(١) يقال : فعلت ذلك من جراه ومن جرائه بالتشديد ويخففان ، ومن جريرته : أى من أجله ، والكرى : النوم . (٢) غير الدهر : أحداثه المغيرة ، والضمير فيه يعود على الوقت . (٣) المخصبة .

(٤) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها ، ولد سنة ٥٢٠ هـ ودرس علوم الدين والفلسفة والطب ، واتصل بيوسف بن عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وشرح له فلسفة أرسطو ، وقد ولاه قضاء إشبيلية ؛ ثم استدعاه إلى المراكش ، وجعله طبيبه الخاص ، ثم جعله قاضى القضاة بقرطبة ، ولما ولى بعده ابنه المنصور بالله علت مكانة ابن رشد عنده ، فأثار ذلك حسد خصومه ، فكادوا له عند السلطان واتهموه أنه يجحد القرآن ، وينشط الفلسفة وعلوم الأوائل بدلا من علوم الدين ، وينصر —

وملتمسُ الرشد وَمُولِيه ، عادت عليه بالسَّخطة الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورُّط فى ازدحامها ، ولا تخلِطوا جامكم[1] بجامها ، إلا ما كان من حساب ومِساحة ، وما يعود بجَدْوَى فلاحة ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فمحجور ، وَضَرَم[2] مَسْجُور ، وممقوت مهجور ، وأْمُرُوا بالمعروف أمراً رفيقاً ، وانهَوْا عن المنكر نهياً حَرِيًّا بالاعتدال حَقِيقاً ، وَاغبِطُوا مَنْ كان مِن سِنَةَ الغَفلة مُفِيقاً ، واجتنِبُوا ما تُنهَوْنَ عنهُ حتى لاتسلُكُوا منهُ طريقاً ، وأطيعوا أمر من ولَّاه الله تعالى من أموركم أمْراً ، ولا تقْرَبُوا من الفِتْنة جَمْرًا ، ولا تُدَاخلوا فى الخلاف زيداً ولا عَمْرًا ، وعليكم بالصدق فهو شِعارُ المؤمنين ، وَأهمّ ما أضْرَى[3] عليه الآباء ألسنة البنين ، وأكرم منسوبٌ إلى مذهبه ، ومَن أكثَرَ من شيء عُرِفَ به ، وإياكم والكذب فهو العَوْرة التى لاتُوَارَى ، وَالسَّوْءة التى لايُرْتاب فى عارها ولا يُتَمارَى . وأقل عقوبات الكذاب ، بين يَدَىْ مَا أعَدَّ الله له من العذاب ، أن لا يُقْبَلَ صِدْقه إذا صدَق، ولا يعوَّل عليه إن كان بالحق نطق ، وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم، وفى وجه الديانة كُلُوم[4] ، ومن الشريعة التى لا يُعذَر بجهلها ، أداء الأمانات إلى أهلها ، وحافِظُوا على الحِشْمَةِ وَالصِّيانة ، ولا تجزُوا مَنْ أقرضكم دَيْنَ الخيانة ، ولا توجدوا للغَدْر قَبولا وَلا تُقِرُّوا عليه طبعاً مجبولا، وَأوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ، ولا تستأثروا بكَنْز ولا خزْن، ولا تَذْهبوا لِغير مناصحة المسلمين فى سَهْل ولا حَزْن، ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ فى كَيْل أو وَزن ، والله اللهَ أن تُعينوا فى سَفك الدماء ولو بالإشارة أو الكلام ، أو مايرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعلموا أن الإنسان فى فُسْحَة ممتدَّة ،

مذهب القدماء فى القول بألوهية بعض الكواكب ، فنزله المنصور من قضاء قرطبة ، ثم عفا عنه ، واستدعاه إلى مراكش ، ولم يطل مقامه بها ، فمات سنة ٥٩٥ هـ ، وقد ترجم أكثر كتبه إلى اللغات الأجنبية ، وعليها عول الأوربيون فى نهضتهم الحديثة .

(١) الجام : إناء من فضة . (٢) جمع ضرمة بالتحريك : وهى الجمرة والنار ، وسجر التنور : أحماه

(٣) ضرى بالشيء كتعب : اعتاده وأولع به ، ويعدى بالهمز والتضعيف ، فيقال : أضريته وضريته : أى أغريته به. (٤) الكلوم جمع كلم بالفتح وهو الجرح .

وَسُبُلِ اللهِ تعالى غير مُنْسَدّة ، مالم يَنْبِذْ إلى الله تعالى بأمانه ، وَيَمَسَّ الدمَ الحرام بيد أو لسانه ، قال الله تعالى فى كتابه : الّذِى هَدَى بِهِ سَنَنًا قَوِيمًا ، وَجَلَّى من الجهل والضلال ليلا بَهِيمًا : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا . وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » . واجتناب الزنا وما تعلّق به ، مِنْ أَخْلَاقِ مَنْ كَرُمَتْ طِبَاعُه ، وامتد فى سبيل السعادة باعُه ، لو لم تتلق نورَ الله الذى لم يَهْدِ شُعَاعُه ، فالحَلَالُ لم تَضِقْ عن الشهوات أنواعُه ، ولا عُدِمَ إقناعُه ، ومن غَلَبَتْ غَرَائِزُ جهله . فلينظر : هل يحب أن يُزْنَى بأهله ؟ والله قد أعدَّ للزانى عذابًا وبيلا . وقال : « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا » . والخمر أم الكبائر . ومفتاح الجرائم والجرائر[1] . واللهو لم يجعله الله فى الحياة شرطا . والمحرَّم قد أغنى عنه بالحلال الذى سوَّغ وأعطى . وقد تركها فى الجاهلية أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد . ولا لنفوسهم بالمضرّة فى مَرْضَاةِ الأجساد . والله تعالى قد جعلها رِجسًا محرّما على العباد : وَقَرَنَهَا بالأنصاب والأزلام فى مُبَايَنَة السَّداد[2] . ولا تقربوا الرِّبا . فإنه من مَنَاحِى الدين . والله تعالى يقول : « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . وقال : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ » فى الكتاب المبين . ولا تأكلوا مالَ أحد بغير حقٍّ يُبيحه . وانزعوا الطَّمَع[3] عن ذلك حتى تذهب ريحُه . والتمسوا الحلال يَسْعَى فيه أحدُكم على قدمه . ولا يَكِلُ خياره إلا الثقة من خدَمه . ولا تَلْجَئُوا إلى المتشابه إلا عند عدَمه . فهو فى السُّلوك إلى الله تعالى أصلٌ مشروط . والحافظ عليه مَغْبوط . وإياكم والظلمَ . فالظالم ممقوت بكل لسان

---

(١) الجرائر جمع جريرة : وهى الجريمة .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

(٣) الطعم : الشهوة .

مجاهرِ الله تعالى بصريح العِصْيان ، « وَالظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » كما ورد فى الصِّحاح الحِسان ، والنميمة فسادٌ وشَتَات ، لايبقى عليه مُتَات[1] ، وفى الحديث : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ[2] » واطَّرِحوا الحَسَدَ ، فما ساد حَسود ، وإيا كم والغيبة فباب الخير معها مسدود ، والبخل، فما رُئِى البخيل وهو مودود ، وإيا كم وما يُعتذَر منه ، فمواقع الخزى لَاتُستقال عَثَراتُها ، ومَظِنَّات الفضائح لاتؤمَن غَمَراتها ، وتفقدوا أنفسكم مع الساعات وأفشوا السلامَ فى الطُّرُقات والجماعات ، ورِقُّوا على ذوى الزَّمانات[3] والعاهات ، وتاجِروا مع الله بالصَّدَقة يُرْبِحكم فى البضاعات ، وعوِّلوا عليه وحدَه فى الشدائد ، واذكروا المساكينَ إذا نَصَبْتم الموائد ، وتَقَرَّبوا إليه باليسير من ماله . واعلموا أن الخلق عِيالُ الله ، وأحبُّ الخلق إليه المحتاط لعياله ، وارعَوا حقوق الجار ، واذكروا ماورد فى ذلك من الآثار ، وتعاهَدوا أُولى الأرحام ، والوشائج[4] البادية الالتحام ، واحذروا شهادة الزور : فإنها تقطع الظهر ، وتُفْسِد السِّرَّ والجهر ، والرُّشا ، فإنها تحطُّ الأقدار ، وتستدعى الذِّلَّة والصَّغار ، ولا تَسَامَحوا فى لُعْبَة قَمْر[5] ، ولا تشارِكوا أهل البَطالة فى أمر ، وصونوا المواعيد من الإخلاف ، والأَيْمانَ من حِنْث الأوغاد والأجلاف ، وحقوق الله تعالى من الازدراء والاعتساف ، ولا تَلْهَجُوا بالآمالِ العِجاف[6] ولا تَتَكَلَّفُوا بالكهانة والارجاف ، واجعلوا العمر بين مَعاشٍ ومعاد ، وخصوصيَّة وابتعاد ، واعلموا أن الله سبحانه بالْمِرصاد ، وأن الخلق بين زرع وحَصاد ، وأَقِلّوا بغير الحالة الباقية الهمومَ ، واحذروا القواطِعَ عن السعادة كما تُحْذَر السُّموم ، واعلموا أن الخير أو الشر فى الدنيا مُحالٌ أن يدوم ، وقابِلوا بالصبر أذِيَّةَ المُؤْذِين ، ولا تعارضوا مقالاتِ الظالمين ، فالله لمن بُغِىَ عليه خيرُ الناصرين ، ولا تستعظموا

---

(١) المتات : ما يمت به أى يتوسل . (٢) القتات : النمام .

(٣) الزمانة : العاهة .

(٤) الوشائج جمع وشيجة : وهى اشتباك القرابة . (٥) قمره : غلبه فى لعب القمار .

(٦) العجاف جمع عجفاء : وهى المهزولة .

حوادث الأيام كلما نزلت ، ولا تضجّوا للأمراض إذا أعضلَت ، فكلُّ مُنقرِض حقير ، وكل مُنقَضٍ وإن طال قصير ، وانتظروا الفَرَج ، وانتشِقُوا من جَناب الله تعالى الأَرَج[1] ، وأوسِعُوا بالرجاء الجوانح ، واجنَحُوا إلى الخوف من الله تعالى فَطُوبَى لعَبْدٍ إليه جانح ، وتضرّعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والْجَئُوا إليه فى البَأساء والضَّرَّاء ، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذى يقيِّد به الشارد ، وَيَعْذُب الوارِد ، وَأَسْهِمُوا[2] منها للمساكين وأفْضِلوا عليهم ، وعيِّنُوا الحظُوظ منها لديهم ؛ فمن الآثار : « ياعائشة أحسنى جِوارَ نِعم الله ، فإنها قَلَّمَا زالت عن قوم فعادت إليهم » ، ولا تطغَوْا فى النِّعم وتقصِّرُوا عن شكرها ، وتغلبكم[3] الجهالة بِشُكْرِها ، وتتوهموا أن سعيكم جَلَبَها ، وَجِدَّكم حَلَبَها ، فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فِعل إلا لِلّهِ إذا نُظِر بعين اليقين ، واللهَ اللهَ لاتَنْسَوْا الفضلَ بينكم ، ولا تُذْهِبوا بذهابه زَيْنَكم ، وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به تَوَاخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبِرّ ، ومراعاةٍ فى علانية وسرّ ، وللإنسان مزية لاتُجْهَل ، وحق لايُهْمَل ، وأظهروا التعاضد والتناصر ، وَصِلوا التَّعاهد والتزاور ، تُرْغِمُوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأَوِدَّاء ، ولا تَتَنَافَسُوا فى الحظوظ السَّخِيفة ، ولا تهارشوا تهارُشَ السباع على الجِيفَة . واعلموا أن المعروف يَتكَدَّر بالامتنان ، وطاعة النساء شرّ ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمراً فاحْقِرُوه ، واللهَ اللهَ لاتنسَوْا مُقارضَة سَجْلِي[4] ، وَبَرُّوا أهل مودتى من أجلى ، ومن رُزِق منكم مالاً بهذا الوطن القَلِق المِهاد ، الذى لايصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمعَ فى العَقَار ، فيصبح عُرضة للذلّة والاحتقار ، وساعياً لنفسه — إن تغلَّب العدوّ على بلده —

(١) الأرج : توهج ريح الطيب . (٢) أسهم له : أعطاه سهماً .

(٣) فى الأصل : « وتلقيكم » ، وأراه محرفاً عن « وتغلبكم » .

(٤) السجل : النصيب . والمعنى : إنكم مدينون لى بما قدمت لكم من معروف ، فلا تنسوا أن تردوه لى بإكرام من أرده .

فى الافتضاح والافتقار ، ومعوِّقاً عن الانتقال ، أمام النُّوَب الثِّقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال فى الطلب أولى ، وازهَدُوا جهدَكم فى مصاحبة أهل الدنيا فخيرُها لايقوم بشرِّها ، ونفعها لايقوم بضرِّها ، وأعقابُ من تقدَّم شاهِدَة ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضِدة ، ومَن بُلِى بها منكم فليستظهِر بِسَعَة الاحتمال ، والتقلُّل من المال ، وَليحذَر مُعاداة الرجال ، وَمَزَلَّاتِ الإدلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العِيال ، وإفشاء السر ، وَسُكْر الاغترار ، فإنه دأب الغِرّ ، وَلْيَصُنِ الديانة ، وَيُؤْثِر الصمت ويلازم الأمانة ، وَيَسِرْ من رضا الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمرانِ قَصَدَ أقْرَبَهما إلى الحق ، وَلْيَقِفْ فى التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان ، والزعازعُ تسالم اللَّدْن[1] اللطيف من الأغصان ، وإياكم وطلبَ الولايات رغبةً واستجلاباً ، واستظهاراً على الخطوب وغِلَاباً ، فذلك ضرر بالمُرُوءات والأقدار ، داعٍ إلى الفضيحة والعار ، ومن امْتُحِن بها منكم اختياراً ، أو جُبِر عليه إكراهاً وإيثاراً ، فليتلقَّ وظائفها بِسَعَة صدره ، ويبذل من الجهر فيها ما يَشْهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فِتْنة وَمِحْنَة ، وَأَسْرٌ وَإِحْنَة ، وهى بين إخْطَاءِ سعادة ، وإخلالٍ بعبادة وتوقُّع عَزْل ، وإدالة[2] بإزاء بيع جِدّ بهَزْل ، وَمَزَلّة قدم ، واستتباع ندم . ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتِعاد . جَعَلكم الله ممن نفعَهُ بالتبصير والتنبيه وممن لاينقطع بسببه عملُ أبيه . هذه — أسعدكم الله — وصيتى التى أصدرتها . وتجارتى التى لربحكم أدَرتها . فتلقَّوها بالقَبُول لنصحها . والاهتداء بضوء صبحها . وبقدر ما أمضيتم منْ فروعها . واستفشيتم من دروعها . اقتنيتم منْ المناقب الفاخرة . وَحَصَلتم على سعادة الدنيا والآخرة . وبقدر ما أضَعتم لآلئها النفيسة القِيَم . استكثرتم من بواعث الندم . ومهما سئمتم إطالتها . واستغزرتم مقالتها ، فاعلموا أن تقوى الله فَذْلَكَة[3] الحساب ، وضابط هذا الباب . كان الله خليفتى عليكم فى كل حال . فالدنيا

---

(١) اللدن : اللين . (٢) الإدالة : الغلبة .

(٣) فذلك حسابه كدحرج : أنهاه وفرغ منه ، مخترعة من قوله إذا أجمل حسابه : فذلك كذا وكذا .

مُناخ ارتحال ، وتأميل الإقامة فرض مُحَال . فالموعِد للالتقاء دار البقاء . جعل الله من وراء خُطَّته النجاة ، وَنَفَّق بَضَائعها المُزْجاة[1] بلطائفه المرتجاة . والسلام عليكم من حبيبكم المودِّع . والله سبحانه يُلْئِمه[2] حيث شاء من شَمْلٍ متصدِّع . والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ورحمة الله وبركاته . (نفح الطيب ٤ : ٤١٩)

١٨ — خطبة وعظية له

وصدر عنهُ على لسان واعظ :

« الحمد لله الوليّ الحميد . المبدئ المعيد . البعيد فى قُرْبه من العَبيد . القريب فى بعده وهو أقرب من حَبْل الوَريد[3] . مُحْيى ربوعِ العارفين بتحيَّاتِ حياة التوحيد . وَمُغْنِى نفوسِ الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار إلى العَرَض الزهيد . وَمُخَلِّص خواطر المُحَقِّقين من سجون دُجُون[4] التقييد . إلى فُسَح التجريد . نحمَده وله الحمد المنتظمةَ دُرَرُه فى سُلُوك الدوام . وَسُمُوط[5] التأييد . حَمْدَ من نَزَّه أحكام وَحْدَانيتّه . وأعلام فَرْدانيتِه ، عن مَرَابط التقييد ، ومَخَابط الطَّبْع البليد ، ونشكره شكرَ من افتتح بشكره أبوابَ المزيد ، ونشهد أنه الله الذى لا إله إلا هو شهادةً نتخطَّى بها معالِمَ الخلق ، إلى حضرة الحق ، على كَبِد التَّفْريد ، وَنَشْهَدُ أن محمداً عبده ورسوله قِلَادة الجِيد النَّجِيد ، وهلال العيد ، وَفَذْلَكة الحساب وبيت القَصِيد ، المخصوص بمنشور الإدلال[6] ، وإقطاع الكمال ، بين مقام المُراد ومقام المُريد ، الذى جعله السببَ الأوصلَ فى نَجَاةِ الناجى وسعادة السعيد ، وخاطب الخلائقَ على لسانه الصادق بِحُجَّتَى الوعد والوعيد ، فكان مما أوحى به إليه ، وأنزل المَلَك به عليه ، من الذكر الحميد ، ليأخذَ

---

(١) بضاعة مزجاة : رديئة أو قليلة يردها ويدفعها من رآها رغبة عنها ، ونفق السلعة تنفيقاً : روجها . (٢) لأم الجرح والصدع كقطع ، وألأمه : سده .

(٣) عرق فى العنق . (٤) أى ظلام التقييد ، والدجون جمع دجن بالفتح : وهو إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء . (٥) سموط جمع سمط بالكسر : وهو خيط النظم . (٦) أدل عليه : وثق بمحبته .

بالحجز[1] والأطواق من العذاب الشديد: « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ . وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ : لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقّه الأكيد ، وَتَسْرِى إلى تُرْبته الزَّكية من ظهور المَواجد الجاثية على البَريد :

قعدتُ لتذكير ، ولو كنتُ منصِفاً لذكَّرتُ نفسى فهى أحوجُ للذِّكرى
إذا لم يكن منى لنفسِىَ واعظٌ فياليت شعرى كيف أفعل فى الأخرى؟

آهِ ، أىُّ وعظ بعد وعظ الله تعالى يا أحبابَنا يُسْمَع ، وفى ماذا ـ وقد تبيَّن الرُّشْدُ من الغَىِّ ـ يُطْمَع ؟ يامن يُعْطِى ويمنع ، إذا لم تَتِم الصنيعة فماذا نصنع ؟ أَجْمِعْنا بقلوبنا يامن يُفرِّق ويجمع ، وَلَيِّنْ حَديدَها بنار خَشْيتك ، فقد استعاذ نبيُّك صلى الله عليه وسلم مِنْ قلب لايَخْشَع ، ومن عين لاتَدْمع : اعلموا رحمكم الله أن الحكمة ضالَّة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما أملاه المَلَوَان[2] ، فإن الحق نور لايضرّه أنْ صَدَر من الخامل ، ولا يقصِّر بمحموله احتقارُ الحامل ، وأنتم تدرون أنكم فى أطوار سَفَرٍ لاتستقِرّ لها دون الغاية رِحلة ، ولا تتأتَّى معها إقامة ولا مُهْلة ، من الأصلاب إلى الأرحام إلى الوجود ، إلى القبور إلى النُّشُور إلى إحدى دارَىْ البقاء ، أفى الله شك؟ فلو أبصرتم مسافراً فى البرِّيَّة يبنى وَيَغْرِش ، وَيُمَهِّد ويعرِّش، ألم تكونوا تضحكون من جهله ، وَتَعجَبون من ركاكة عقله ؟ ووالله ما أموالُكم ولا أولادُكم ، وشواغِلُكم عن الله ، التى فيها اجتهادُكم ، إلا بقاء سَفْرٍ[3] فى قَفْر ، أو إعراسٌ

(١) الحجز جمع حجزة كغرفة : وهى معقد الإزار ، ومن السراويل موضع التكة .

(٢) الملوان : الليل والنهار .

(٣) السفر : جماعة المسافرين .

فى ليلةِ نَفْر[1] ، كأنكم بها مُطَّرحةً تَعْبَر فيها المواشى ، وتنبو العيونُ عن خبرها للتلاشى « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » ما بعد المَقِيل إلا الرَّحيل ، ولا بعد الرحيل إلا المنزلُ الكريم ، أو المنزل الوبيل ، وإنكم تستقبلون أهوالا ، سَكَرَاتُ الموت بَوَاكِرُ حسابها ، وَعتَبُ أبوابها ، فلو كشف الغطاء عن ذَرَّة منها لَذَهِلَت العقول وطاشت الألباب ، وما كلّ حقيقةٍ يشرحها الكلام ، « يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ » أفلا أعددتم لهذه الورْطة حِيلَة ، وأظهرتم للاهتمام بها مَخِيلة[2] ! أتعويلا على عفوه مع المقاطعة ؟ وهو القائل فى مقام التهديد : « إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ » ، أَأَمْناً من مكره مع المنابذة ؟ « وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » أطمَعاً فى رحمته مع المخالفة؟ وهو يقول : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » ، أَمُشاقَّةً وَمعانَدَةً ؟ « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » ، أشكًّا فى الله ؟ فتعالَوْا نُعيد الحساب ، وَنُقرِّر العَقْد ، وَنَتَّصِف بدعوة الحقّ (أَوَ غيْرها) من اليوم ، يُفقَد عَقْدُ العقائد عند التساهل بالوعيد[3] ، فالعامىُّ يَدْمِى الأصبع الوَجِعَة ، والعارف يضمّد لها مبدأ العَصَب :

هكذا هكذا يكون التّعامى   هكذا هكذا يكون الغرور

« يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » وما عدا مما بدا ، ورسولُكم الحريص عليكم الرءوف الرحيم يقول لكم : « الْكَيِّسُ من دان نفسه وَعَمِلَ لما بعد الموت ؛ والأحمق من أَتْبَعَ نفسهُ هواها ، وتمنى على الله الأمانى » فَعلام بعد هذا المعوَّل ، وماذا يتأوَّل ؟ اتقوا الله تعالى فى نفوسكم وَانْصَحُوهَا واغتنِمُوا فُرَص الحياةِ وارْبحُوها ، « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ

---

(١) أعرس القوم وعرسوا : نزلوا فى آخر الليل للاستراحة ، ونفر الحاج من منى كضرب نفراً ونفورا .

(٢) المخيلة: الظن . (٣) أى أن المرء إذا لم يحسب لوعيد الله حسابا، واستوسل فى اقتراف المعاصى والموبقات ، أفضى به ذلك إلى زلزلة العقيدة ، ولو أنه كان خالص الإيمان لارعوى عما نهى عنه .

فِى جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ » ، وتنادى أخرى : « هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » ، وتستغيث أخرى : « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » ، وتقول أخرى : « رَبِّ ارْجِعُونِ » ، فَرَحِمَ اللهُ من نظر لنفسه ، قبل غُرُوب شمسه وَقَدَّمَ لِغَده من أمسه ، وَعَلِمَ أن الحياة تَجُرُّ إلى الموت ، والغفلة تقود إلى الفَوْت ، والصحة مَرْكَب الألم ، والشبيبة سفينة تَقطَع إلى ساحل الهَرَم » .

وإن شاء قال بعد الخطبة :

« إخوانى ، ما هذا التوانى ؟ والكَلَفُ بالوجود الفانى ، عن الدائم الباقى ، والدهر يقطع الأمانى ، وهَادِمُ اللذات قد شرع فى نقض المبانى ، أَلَا معتبر فى عالم هذه المعانى ، أَلَا مرتحل عن مَغَانِى هذه المَغَانِى[1] ؟

أَلَا أُذُنٌ تُصْغِى إِلَىَّ سَمِيعَة ... أُحَدِّثها بالصِّدْق مَا صَنَعَ المَوْتُ

مددتُ لكم صوتى فأوّاه حسرةً ... على ما بدا منكم فلم يُسْمَعِ الصوتُ

هو القَدَرُ الآتى على كل أُمّةٍ ... فتوبوا سِرَاعا قبل أن يقع الفَوْتُ

يَا كَلِفاً بما لا يدوم ، يا مفتوناً بغُرور الوجود المعلوم ، يا صَرِيعَ جِدَارِ الأجل المهدوم ، يا مشتغِلاً ببنيان الطُّرُق قد ظهر المُناخ وَقَرُبَ القُدُوم ، يا غريقاً فى بحار الأمل ما عساك تعوم ! يا مُعَلَّل الطعام والشراب ، وَلَمْعِ السَّرَاب[2] ، لابد أن تهجُر المشروب وتترك المطعوم ، دَخَل سارِقُ الأجل بيتَ عمرك فَسَلَب النشاطَ وأنت تنظر ، وَطَوَى البساط وأنت تُكرَب[3] ، واقتلع جواهر الجوارح ، وقد وَقع بك النَّهْب ، ولم يَبْقَ إلا أن يحمل الوسادة على أنفك ويقعد :

لو خُفِّفَ الوجْدُ عنى دعوتُ طالب ثارى

« كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » ، كيف التَّرَاخِى والفوتُ مع الأنفاس يُنتظر ،

---

(١) المغانى : جمع مغنى وهو المنزل .

(٢) السراب : ما يرى وسط النهار كأنه ماء .   (٣) كربه الغم كنصر : اشتد عليه .

كيف الأمان وهاجِم الموت لا يُبْقِى ولا يَذَر ، كيف الركون إلى الطمع الفاضح وقد صَحّ الخبر ؟ من فكّر فى كَرْب الخُمار[1] تنغّصت عنده لذةُ النبيذ ، من أحسّ بلَفْظِ[2] الحريق فوق جِدَاره ، لم يُصغِ بصوته لِنغْمة العود ، من تيقّنَ بذُلّ العُزلة ، هان عليه تركُ الولاية .

ما قامَ خيرُكَ يازمانُ بشرِّه أولَى لنا ماقلَّ منك وما كَفَى

أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه : أنْ ضَعْ يدك على مَتْنِ ثور فَبِعَدَد ما حاذَتْه من شَعره تعيش سنين ، فقال: يارب وبعد ذلك ؟ قال : تموت ، قال : يارب فالآن .

رأى الأمرَ يُفضِى إلى آخرٍ فصـيَّر آخره أوّلا

إذا شعَرَت نفسك بالميل إلى شىء فَأَعْرِض عليها غُصّة فِراقه « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ » فالمفروح به هو المحزون عليه ، أين الأحباب مرّوا ؟ فياليت شعرى أين استقروا ؟ استكانوا والله واضطُرُّوا ، واستغاثوا مَنْ سَبَقك[3] بأوليائهم فغرُّوا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضَرُّوا ، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية ، والعروش ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاصل متشابهة متساوية ، والمساكن تَندُب فى أطلالها الذئابُ العاوية .

صِحْتُ بالرَّبع فلم يستجيبوا ليت شِعْرى أين يمضى الغريبُ ؟

وَبِجَنْب الدار قَبْرٌ جَدِيدٌ منه يستسقِى المكانُ الجديبُ

غاضَ قلبى فيه عند التَّماحِى قلت : هذا القبر فيه الحبيبُ[4]

لاتَسَل عن رَجْعَتى كيف كانت إنَّ يوم البَيْنِ يوم عَصِيبُ

---

(١) الخمار : صداع الخمر وأذاها . (٢) أى برميه . (٣) هكذا فى الأصل ، وكان يمكن أن يقول : « واستغاث من سبقك بأوليائهم » إلا أن يخرج على أن « من » مبتدأ مؤخر كما فى قوله تعالى : « ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » وقوله : « وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِين ظَلَمُوا » أو « من » بدل من واو الجماعة . (٤) لحه والمحه والتمحه : إذا أبصره بنظر خفيف .

باقتراب الموت علّلتُ نفسى بعد إلْفى ، كلّ آتٍ قريبُ

أين المعمَّر الخالد ، أين الولد أين الوالد ، أين الطارف أين التالد ، أين المجادل أين المُجَالِد ؟ « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ؟ »[1] وجوه علاهُنَّ الثّرَى ، وصحائفُ تُفَضّ ، وأعمال على الله تُعْرَض ، بَحَثَ الزُّهَّاد والْعُبَّاد ، والعارفون والأوتاد ، والأنبياء الذين يُهْدَى بهم العباد ، عن سبب الشقَاء الذى لا سعادة بعده ، فلم يجدوا إلا الْبُعْدَ عن الله تعالى ، وسببه حُبُّ الدنيا ، « لن تَجْتمع أمّتى على ضلالة » .

هَجَرْتُ حبائبى من أجل ليلَى فما لى بعد ليلى من حبيبِ

وماذا أرتجى مِن وصل ليلى سَتَجْزِى بالْقَطِيعَةِ عن قريب

وقالوا : ما أوردَ النفسَ الموارِد ، وَفَتَحَ عليها بابَ الحَتْفِ إلا الأمل ، كلما قَوَّمَتْهَا مثاقِفُ الحدود ، فتح لها أركانَ الرُّخَصِ . كلما عَقَدَتْ صومَ العزيمة ؛ أهداها طُرَفَ الْغُرُور فى أطباق « حَتَّى وإذا ولكن ورُبَّمَا » فأفرط القلبُ فى تقليبها حتى أفطَرَ :

ما أوْبَقَ الأنفسَ إلا الأَمَلُ وَهْوَ غُرُورٌ ما عليه عَمَلُ

يَفْرِض منهُ الشخصُ وَهْماً مَالَهُ حالٌ ، ولا ماضٍ ، ولا مستقبَلُ

مافوق وَجْهِ الأرض نفسٌ حيَّةٌ إلا قد انقضَّ عليها الأَجَلُ

لَوْ أنَّهُم مِن غيرها قد كُوِّنُوا لَامْتَلأَ السَّهْلُ بهم والْجَبَلُ

ما ثَمَّ إلا لُقَمٌ قد هُيِّئَت للموت ، وَهْوَ الأَكِلُ المستعجِلِ

وَالوعد حقٌّ ، وَالْوَرَى فى غفلةٍ قد خُودِعوا بعاجل وَضُلِّلوا

أين الذين شَيَّدُوا واغترسوا وَمَهَّدُوا وافترشوا وَظُلِّلوا ؟

---

(١) الركز : الصوت الخفى .

أين ذوو الراحات زادت حسرة ... إذ جُنِبُوا إلى الثرى وانتقلوا[1]

لم تدفع الأحبابُ عنهم غيرَ أنْ ... بَكَوْا على فراقهمْ وَأعْوَلُوا

اللهَ فى نفسك أوْلَى من له ... ذخرتَ نُصحًا وَعِتابًا يُقبَلُ[2]

لا تتركَنْهَا فى عَمًى وَحَيْرَة ... عن هول ما بين يديها تَغفُلُ

حَقِّر لها الفانى، وحاول زُهْدَها ... وَشَوِّقْهَا إلى الذى تستقبل

وَفِدْ إلى الله بها مضطرةً ... حتى ترى السَّيْرَ عليها يَسْهُلُ[3]

هو الفناء، والبقاء بعده ... والله عن حِكمته لا يُسْأَل

يا قُرَّةَ العين ويا حسرتها ... يوم يُوَفَّى النَّاسُ ما قد عَمِلُوا

يا طُرُدُ[4] الخالفة، إنكم مُدْرَكون، فاستبِقُوا باب التوبة: فإن رَبَّ تلك الدار يُجير ولا يُجار عليه «فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا هَدَاكُمْ». يا طُفَيْلية الهمَّة، دُسُّوا أنفسكم بزُمَر التائبين، وقد دُعوا إلى الله دعوة الحبيب، فإن لم يكن أَكْلٌ فلا أَقلَّ من طيب الوَلِيمة، قال بعض العارفين: إذا عَقَدَ التائبون الصلح مع الله تعالى، انتشرت رعايا الطاعة فى عِمَالة الأعمال، «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا. وَوُضِعَ الْكِتَابُ» معانى هذا المجلس والله نَسيمُ سَحَرٍ، إذ استنشقه مخمور الغَفْلَةِ أفاق، سَعُوط[5] هذا الوعظ يَنقُضُ[6] إن شاء الله زُكْمةَ البَطالة، إن الذى أنزل الداء أنزل الدواء، إكْسِير[7] هذا الكتاب يلقَّب بحكمة جابر[8]، القلوب المنكسرة عين من كان له قلب

(١) جنبه: دفعه. (٢) أى اتق الله فى نفسك التى هى أولى . . . الخ.

(٣) فد: أمر من وفد أى اقدم. (٤) الطريدة: ما طردت من صيد أو غيره.

(٥) فى الأصل «سوط» وأراه محرفا عن «سعوط» كما يدل عليه سياق الكلام، والسعوط: الدواء يصب فى الأنف. (٦) فى الأصل «ينفض» وأراه «ينقض» أى يذهب.

(٧) الإكسير: الكيمياء.

(٨) يريد جابر بن حيان. قال ابن القفطى فى تاريخ الحكماء فى ترجمته «هو جابر بن حيان الصوفى الكوفى، وكان متقدما فى العلوم الطبيعية، وفى صناعة الكيمياء . . . الخ» وذكره ابن زيدون فى رسالته الهزلية، فقال: «وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء» قال ابن نباتة فى سرح العيون: «وأما جابر بن حيان المذكور فلا أعرف له ترجمة صحيحة فى كتاب يعتمد عليه، وهذا دليل على قول —

« إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ » إلهى دُلَّنا من حَيرةٍ يَضِلُّ فيها — إلا إن هَدَيْتَ — الدليلُ ، وَأَجِرْنَا من غَمْرة[1] وكيف — إلا بإغاثتك — السبيلُ ، نفوسٌ صَدِئٌ من مَرِّ الأزمان منها الصَّقِيلُ ، وَنَبَا بِجُنُوبها عن الحقِّ المَقِيلُ — وآذان أنهضها القول الثقيل ، وَعَثَرات لا يقبلها إلا أنت يا مُقِيل العثرات يا مُقيل ، أنت حَسْبُنَا ونعم[2] الوكيل » . (نفح الطيب ٤ : ٨٥)

١٩ — وصية موسى بن سعيد العنسى[3] لابنه

قال أبو الحسن علىّ بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العَنْسى :

لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة ، أول وصولى إلى الإسكندرية رأى أبى أن يكتب لى وصية أجعلها إماماً فى الغربة ، فبقى فيها أياماً إلى أن كتبتها عنهُ ، وهى هذه :

أُودِعُكَ الرَّحمنَ فى غُرْبَتِكْ   مُرْتَقِباً رُحْمَاه فى أَوْبَتِكْ

— أكثر الناس إنه اسم موضوع وضعه المصنفون فى هذا الفن . وزعموا أنه كان فى زمن جعفر الصادق ، وأنه إذا قال فى كتبه : قال لى سيدى ، وسمعت من سيدى ، فإنه يعنى به جعفراً الصادق ، وقد قدمنا لك أن جعفراً الصادق توفى سنة ١٤٨ هـ

(١) الغمرة : الشدة . (٢) أورد المقرى فى نفح الطيب لسان الدين عقب ذلك كلاما آخر فى الوعظ وهو على نمط ما أوردناه لك فانظره هناك إن شئت .

(٣) هو الكاتب الشهير أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى ، من سلالة عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه ، وقد نوه به ابن هود ملك الأندلس ، وولاه الجزيرة الخضراء ، وهو ممن رحل من علماء الأندلس إلى المشرق ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٤٠ هـ عن ٦٧ عاما . وكان أبوه محمد وزيراً جليلا بعيد الصيت ، عالى الذكر ، رفيع الهمة ، كثير الأموال ، وكان ذا حظوة لدى الموحدين ، وولى لهم أعمالا كثيرة بمراكش وإشبيلية وغرناطة ، واتصلت ولايته على أعمال غرناطة ، وكان من شيوخها وأعيانها .

وكان جده عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بنى سعيد تحت طاعة على بن يوسف بن تاشفين ملك البربر ، إلى أن استبد بها سنة ٥٣٩ .

وابنه أبو الحسن على هو متمم كتاب : « المغرب فى أخبار المغرب » ، وكان السبب فى تأليفه هو جده عبد الملك بن سعيد ، ثم تممه ابنه محمد بن عبد الملك ، ثم تمم ما بقى منه ابنه موسى بن محمد ، ثم أربى على الجميع فى إتمامه على بن موسى ، وقد ذكر فى خطبته أنه بدئ فيه من سنة ٥٣٠ ، ومنتهاه إلى غرة سنة ٦٤١ هـ ، وكان مولد أبى الحسن بغرناطة سنة ٦١٠ ، ووفاته بتونس سنة ٦٨٥ هـ

وما اختيارى كان طَوْعَ النَّوَى ... لكننى أجْرِى على بُغيَتِكْ[1]

فلا تُطِلْ حَبْلَ النوى ، إننى ... واللهِ أشتاقُ إلى طَلْعَتِكْ

من كان مفتونًا بأبنائهِ ... فإنّنى أمعَنْتُ فى خِبْرَتِكْ

فاختصِرِ التوديعَ أخذاً ، فما ... لِى ناظِرٌ يَقْوَى على فُرْقَتِكْ

واجعل وَصاَتِى نُصْبَ عين ، ولا ... تَبْرَحْ مَدَى الأيام من فِكْرَتِكْ

خُلاصة العمر التى حُنِّكَتْ ... فى ساعةٍ زُفَّتْ إلى فِطْنَتِكْ[2]

فالتجارِيب أمورٌ إذا ... طالَعْتَهَا تَشْحَذُ من غفلتِكْ

فلا تنَمْ عن وعيها ساعةً ... فإنها عونٌ إلى يَقْظَتِكْ[3]

وكلّ ما كابَدْتَه فى النَّوَى ... إياكَ أن يكسِرَ من هِمَّتِكْ

فليس يُدْرَى أصلُ ذى غُرْبَةٍ ... وإنما تُعْرَفُ من شِيمتِكْ

وكل ما يُفضِى لِعُذْرٍ فلا ... تجعلْه فى الغربة من إرْبتِكْ[4]

ولا تجالِسْ مَنْ فَشَا جهلُهُ ... واقْصِدْ لِمَنْ يرغبُ فى صنعتِكْ

ولا تجادِلْ أبداً حاسِداً ... فإنه أدْعَى إلى هيبتِكْ

وامْشِ الهُوَيْنَى مُظْهِرًا عِفَّةً ... وابغِ رِضا الأعينِ عن هيئتِكْ

أفْشِ التحيَّاتِ إلى أهلِها ... وَنَبِّهِ النَّاسَ على رُتبتِكْ

وانْطِقْ بحيثُ العِيُّ مستقبَحٌ ... واصمُتْ بحيث الخيرُ فى سَكْتَتِكْ

ولا تزَلْ مُجتَمِعًا طَالِبًا ... من دهركَ الفُرْصَةَ فى وَثْبَتِكْ

وكلما أبْصَرْتَها أمْكَنَتْ ... ثِبْ وَاثِقًا باللهِ فى مُكْنَتِكْ[5]

وَلِجْ عَلَى رزقكَ مِنْ بابِهِ ... واقْصِدْ له ماعِشْتَ فى بُكْرَتِكْ

---

(١) النوى : البعد . (٢) حنكت : أحكمت . (٣) اليقظة بالتحريك وسكنه الشعر .

(٤) الإربة : الحاجة .

(٥) المكنة بفتح فكسر : التمكن والقدرة ، وسكنه الشعر .

وأُيأَسْ من الودِّ لدَىَّ حاسِدٍ ضِدٌّ ، ونافِسه عَلَى خُطَّتِكْ[1]

وَوَفِّرِ الجهدَ ، فَمَنْ قَصْدُهُ قَصْدُكَ لا تعتِبْهُ فى بِغضَتِكْ

وَوَفِّ كُلاًّ حَقَّهُ ، وَلتكن تَكْسِرُ عند الفخرِ من حِدَّتِكْ

وَلا تكن تحقِرُ ذا رُتبةٍ فإنه أنفع فى غُرْبتِكْ

وَحيثما خَيَّمْتَ فاقْصِدْ إلى صُحْبَةِ من ترجوه فى نُصْرَتِكْ

وللرَّزايا وَثْبَةٌ ، ما لَها إلا الذى تَذخَرُ من عُدَّتِكْ

وَلا تَقُلْ : (أَسْلَمُ لِى وَحْدَتِى) فقد تُقَاسِى الذلَّ فى وَحْدَتِكْ

وَالْزَمِ الأحوالَ وَزْنًا وَلا ترجع إلى ما قام فى شهوتِكْ

وَلتجعلِ العقلَ مِحَكًّا ، وَخذ كُلاًّ بما يَظهَرُ فى نَقْدَتِكْ

وَاعتبرِ الناسَ بألفاظهم وَاصْحَبْ أخا يرغبُ فى صُحْبَتِكْ

بعد اختبارٍ منك يَقضِى بما يَحْسُنُ فى الآخذِ من خُلْطَتِكْ[2]

كم من صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نُصْحَه وَفِكْرُه وَقْفٌ عَلَى عَثْرَتِكْ

إياكَ أن تَقْرَبَهُ ، إنه عَوْنٌ مع الدهر عَلَى كُرْبَتِكْ

وَاقْنَعْ إذا ما لَمْ تجد مَطْمَعًا وَاطْمَعْ إذا أنعشْتَ من عَثْرَتِكْ

وأنْمُ نُمُوَّ النبت قد زارَهُ غِبُّ النَّدَى ، واسْمُ إلى قدرتِكْ

وإنْ نَبَا دهرٌ فَوَطِّنْ له جَأْشَكَ ، وانظرهُ إلى مُدَّتِكْ

فكل ذى أمرٍ له دولةٌ فَوَفِّ ما وافاكَ فى دولتِكْ

وَلا تُضَيِّعْ زَمَنًا مُمْكِنًا تَذكَارُه يُذْكِى لَظَى حَسْرَتِكْ

وَالشَّرَّ مهما اسْطَعْتَ لا تأته فإنه حَوْزٌ عَلَى مُهْجَتِكْ[3]

* * *

---

(١) فى الأصل « وأس من الود . . . . » وقد أصلحته «وايأس» و به يستقيم المعنى .

(٢) الخلطة مثل العشرة وزنا ومعنى ، والخلطة بالضم : اسم من الاختلاط ، مثل الفرقة من الافتراق .

(٣) حازه حوزا : جمعه وضمه وامتلكه كاحتازه احتيازاً ، والمعنى : أنك إن أتيت الشر استحوذ على نفسك وتملكك .

يا بُنيّ الذى لا ناصح له مثلى ، ولا منصوحَ لى مِثْلُه ، قد قدمتُ لك فى هذا النظم ما إنْ أخطَرْتَه بخاطرك فى كل أوان ، رجوتُ لك حسن العاقبةَ إن شاء الله تعالى ، وإنَّ أخفّ منه للحفظ ، وأعلَقَ بالفكر ، وأحقّ بالتقدم قول الأول :

يَزِينُ الغريبَ إذا ما اغترَبْ ثلاثٌ ، فمنهن : حُسْنُ الأدبْ

وَثانيــــةٌ : حُسْنُ أَخلاقِهِ وثالثـــةٌ : إجتنابُ الرِّيَبْ

وإذا اعتبرتَ هذه الثلاثة ، ولزمتَها فى الغربة ، رأيتها جامعة نافعة ، لاَ يَلْحَقُك إن شاء الله مع استعمالها نَدَمٌ ، ولا يفارقك بِرّ ولا كَرَم ، ولله دَرُّ القائل :

يُعَدُّ رَفيعَ القومِ مَن كَان عاقِلاً وإن لم يكن فى قومه بحسيبِ

إذا حَلّ أرضاً عاشَ فيها بعقـــله وما عاقِـــلٌ فى بلدة بِغَرِيب

وما قَصَّر القائل حيث قال :

وَاصْبِرْ عَلَى خُلُقِ من تُعاشِرُهُ وَدَارِهِ ، فاللبيبُ مَنْ دَارَى

واتّخِذِ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَنَاً وَمَثِّلِ الأرْضَ كلَّهَا دَارَا

وَأَصْغِ يا بُنَيّ إلى البيت الذى هو يَتيمة الدهر(١) ، وسُلَّم الكرم والصبر :

وَلَوَ أنَّ أوطان الديار نَبَتْ بِكُمْ لَسَكَنْتُمُ الأخــلاقَ والآدابا(٢)

إذ حُسْنُ الخُلُقِ أكرم نزيل ، والأدب أرْحَب منزِل ، ولكن كما قال بعضهم فى أديب متغرب : « وكان كلما طرَأَ(٣) على ملك ، فكأنه معه وُلِد ، وإليه قَصَد ، غيرَ مُسْتَرِيب بدهره ، ولا مُنْكر شيئاً من أمره » ، وإذا دعاك قلبُك إلى صحبةِ مَنْ أخذ بمجامع هواه(٤) ، فاجعل التكلف له سُلَّما ، وَهُبَّ فى روض أخلاقه هبوبَ النسيم ، وَحُلَّ بِطَرْفه حلولَ الوَسَن(٥) وأنزل بقلبه نزولَ المسرة ، حتى يتمكن لك ودادُه ، ويخلُصَ فيك اعتقادُه ، وطَهِّرْ من الوقوع فيه لسانَك ، وَأَغلِقْ سَمْعَك ، وَلا تُرَخِّص

---

(١) يقال : درة يتيمة : أى لا نظير لها ، وكل شىء مفرد يعز نظيره فهو يتيم .

(٢) نبابه منزله : إذا لم يوافقه . (٣) طرأ عليهم كنع : أتاهم من مكان ، أو خرج عليهم متفجأة .

(٤) الضمير فيه يعود على « قلبك » . (٥) الوسن : النعاس .

فى جانبه لحسودٍ لَكَ منه ، يريد إبعادك عنه لمنفعته ، أوحسود له يَغَارُ لتجمُّله بصحبتك وَمَعَ هذا فلا تَغترَّ بطول صحبته ، ولا تتمهَّدْ بدوام رَقدته ، فقد ينبِّهه الزمان ، ويُغيِّر منه القلْبَ واللِّسان ، ولذا قيل : « إذا أحببْتَ فأَحْبِبْ هَوْنًا مَّا ، فنى الممكن أن ينقلب الصديق عدواً ، والعدو صديقًا » وإنما العاقل من جعل عقلَه مِعْيارا ، وكان كالمرآة يَلْقَى كلَّ وجه بمثاله ، وجعل نُصب ناظره قول أبى الطيِّب :

ولما صار ودّ الناس خِبًّا جزيتُ على ابتسام بابتسام[1]

وفى أمثال العامة : « من سَبَقك بيوم فقد سبقك بِعَقل » ، فاحْتَذِ بأمثلة من جرَّب ، واستمِعْ إلى ما خلَّد الماضون بعد جَهْدهم وتعَبهم من الأقوال ، فإنها خُلاصة عمرهم ، وزُبْدة تجاربهم ، ولا تتكِلْ على عقلك ، فإن النظر فيما تَعِب فيه الناس طول أعمارهم ، وابتاعوه غاليًا بتجاربهم ، يُرْبِحك ويقع عليك رخيصًا ، وإن رأيت مَنْ له مُروءة وَعقل وتجربة ، فاستفِد منه ، ولا تضيع قوله ولا فعله ، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك ، وحثًّا لك واهتداء .

وإياكَ أن تعمل بهذا البيت فى كلِّ موضع : وَالحُرُّ يُخْدَعُ بالكلام الطَّيِّب : فقد قال أحدهم : ما قيل أضرُّ من هذا البيت على أهل التجمل ، وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يَحسُنُ بك أن تتبعهُ حتى تتدبره ، فإن كان موافقاً لعقلك ، مُصلِحاً لحالك، فراعِ ذلك عندك: وإلا فانبِذْه نَبْذَ النواة ، فليس لكل أحد يُتَبَسَّم ، ولا كل شخص يُكلَّم ، ولا الجود مما يُعَمُّ به ، ولا حُسْن الظن وَطِيب النفس مما يعامل به كل أحد ، ولله درّ القائل :

ومالِيَ لا أُوفى البريَّة قِسْطَهَا على قدرِ ما يُعْطِي وَعَقْلِيَ ميزانُ

وإياكَ أن تُعْطِيَ من نفسك إلا بِقَدَر ، فلا تعامل الدُّون بمعاملة الكفء ، ولا

---

(١) الخب : الخداع والخبث .

السكف بمعاملة الأعلى ، ولا تضيع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع ، وَيُثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة ، بغائبة آجلة ، واسمع قول الأول :

وَبِعْ آجِلاً منك بالعاجِلِ : وَأَقْلِلْ من زيارة الناس ما استطعت ، ولا تجفهم بالجملة ، ولكن يكون ذلك بحيث لا يَلْحَق منه مَلَل ولا ضجر ولا جفاء ، وَلا تقل أيضاً : أقعُدُ فى كِسْر بيتى ، وَلا أرى أحداً ، وَأستريح من الناس ، فإن ذلك كسل داع إلى الذل وَالمَهانة ، وَإذا علم عدو لك أو صديق منك ذلك ، عاملاك بحَسَبه ، فازدراك الصديق ، وَجَسَرَ عليك العدو ، وَإياك أن يَغُرك صاحب عن أن تَدَّخر غيره للزمان ، وَتطيعه فى عداوة سواه ، ففى الممكن أن يتغير عليك ، فتطلب إعانة غيره ، أو استغناء عنه ، فلا تجد ذخيرة قدَّمتها ، وَكان هو فى أوسع حال ، وَأعلَى رأى ، بما دبَّره بحيلته فى انقطاعك عن غيره ، فلو اتفق لك أن تصحَب من كل صناعة وَرياسة ، مَنْ يكون لك عُدَّة ، لكان ذلك أولَي وَأصوَب ، وَسَلْني فإنى خبير ، طال ـ وَالله ـ ما صحبتُ الشخص أكثرَ عمرى ، لا أعتمد على سواه ، وَلا أعتدّ إلا إياه ، منخدعا بِسَرَابه ، موثوقاً فى حبائل خِطابه ، إلى أن لايحصُل لى منه غير العضّ على البنَان ، وَقول : لو كان وَلو كان ! وَلا يحملنَّك أيضاً هذا القول أن تظنه فى كلّ أحد ، وَتعجّل للمكافأة ، وَليكن حسن الظن بمقدار مَّا ، وَالفطِن لا تخفَى عليه مَخَايِلُ الأحوال ، وَفي الوجوه دلالات وَعلامات ، وَأصغِ إلى القائل :

ليس ذا وَجهٍ مَنْ يَضيفُ وَلا يَقْـ ـرِى وَلا يدفع الأذى عن حَرِيم[1]

فمن يكن له وَجه مثل هذا الوجه فوَلِّ وَجْهَك عنه قِبلَةً تَرْضاها ، وَلتحرص جُهْدَك عَلَى أن لا تصحَب أو تخدُم إلاَّ رَبَّ حِشْمَةٍ وَنعمة ، وَمن نشأ فى رفاهية وَمُروءة ، فإنك تنام معهُ فى مِهاد العافية ، وَإن الجياد عَلَى أعراقها[2] تجرى ، وَأهل الأحساب

(١) ضافه يضيفه : نزل به ضيفاً ، وقرى الضيف كرمى : أحسن إليه .

(٢) الأعراق : جمع عرق بالكسر وهو الأصل .

وَالمروءات يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها وَصْمَةٌ ، وَقد قيل فى مجلس عبد الملك ابن مَرْوَان: أشَرِبَ مُصْعَبٌ الخمرَ ؟ فقال عبدالملك ـ وَهو عدوٌ له محارب له عَلَى الملك ـ : لو عَلِم مُصْعَب أن الماء يُفسد مُروءته ما شربه ؛ وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ به الأعداء.

يا بنى ، وَقد علمت أن الدنيا دار مفارقة وَتغيّر ، وَقد قيل : « أَصْحَبْ من شئت فإنك مُفَارقه » فمتى فارقت أحداً فَعلَي حُسْنَي فى القول وَالفعل ، فإنك لا تدرى : هل أنت راجع إليه ؟ فلذلك قال الأوَّل :

« وَلما مضى سَلْمٌ بكيتُ عَلَى سَلْمِ » ، وَ إياك وَالبيتَ السائر :

وَكنْتَ إذا حَلَلْتَ بدار قوم رَحَلْتَ بِخزْيَةٍ وَتَرَكْتَ عارا

وَاحرص عَلَى ما جمع قول القائل : « ثلاثة تُبْـقِي لك الودَّ فى صدر أخيك : أن تبدأه بالسلام ، وَتوسّع له فى المجلس ، وَتدعُوَه بأحب الأسماء إليه » ، وَاحذر كل ما بيَّنه لك القائل : « كل ما تَغرِسه تجنيه إلاّ ابنَ آدم ، فإنك إذا غرَسْتَه يَقلَعُك » وقول الآخر : « ابن آدم يتمَسْكَنُ حتى يتمكَّن » وقول الآخر : « ابن آدم ذئب مع الضعف ، أسَدٌ مع القوة » .

وإياك أن تثبُت على صُحْبة أحد قبل أن تطيـل اختباره ، فيحكَى أن ابن المقفع خطب من الخليل صُحْبَتَه ، فجاوبه : « إن الصحبة رِقّ ، ولا أضع رِقّى فى يدك حتى أعرِف كيف مَلَكَتُك[1] » ، وأستملِ[2] من عينِ مَنْ تعاشره ، وتفقَّدْ فى فَلتَات الألسن وصَفحات الأوجه ، ولا يَحْمِلك الحياء على السكوت عما يضرك أن لا تبيِّنه ، فإن الكلام سِلاَح السِّلْم ، وبالأنين يُعْرَف ألم الجُرْح ، واجعل لكل أمر أخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك .

---

(١) ملكه ملكة بالتحريك ، وملكا مثلث الميم ، وملكة مثلث اللام : احتواه قادراً على الاستبداد به .

(٢) من استمليته الكتاب : سألته أن يمليه على ، والمعنى : استرشد وتبين من نظرات عينه أحبيب لك هو أم عدو .

وآكدُ ما أُوصيك به أن تطرح الأفكار ، وتسلِّمَ للأقدار .

واقبلْ من الدهر ما أتاكَ به مَنْ قرَّ عيناً بعيشه نفعَهْ

إذ الأفكار تَجلِبُ الهموم ، وتضاعِفُ الغموم ، وملازمة القُطوب ، عُنوان للمصائب والخُطوب ، يستريب به الصاحب ، ويشمَتُ العدو المُجانِب ، ولا تضرّ بالوساوس إلا نفسَك ، لأنك تنصر بها الدهر عليك ، ولله درّ القائل :

إذا ما كنتَ للأحزان عوْناً عليك مع الزمان فمَنْ تلوم

مع أنه لا يردُّ عليك الفائتَ الحزَنُ ، ولا يرعوى بطول عتْبك الزمَنُ ، وَلقد شاهدتُ بِغَرْناطة شخصاً قد أَلِفَته الهمومِ ، وعشِقته الغموم ، من صغره إلى كبره ، لا تراه أبداً خَليًّا من فكره ، حتى لُقِّب بصدر الهم ، ومن أعجب ما رأيته منه أنه يتنكّد فى الشدة ، ولا يتعلل بأن يكون بعدها فرج ، ويتنكّد فى الرخاء خوفا من أن لا يدوم .

وَيُنشِد : توقَّعْ زَوَالاً إذا قيل تَمّ ، ويُنْشِد : وعند التناهى يَقصُر المُتطَاوِلُ .

وله من الحكايات فى هذا الشأن عجائب ، ومثل هذا عُمْره مَحْسور يمرّ ضَياعا .

ومتى رفعك الزمان إلى قوم يذُمُّون من العلم ما تُحْسِنُه حَسَداً لك ، وَقَصْداً لتصغير قدرك عندك ، وَتزهيداً لك فيه ، فلا يَحْمِلْكَ ذلك على أن تزهَدَ فى علمك ، وَتَرْكَن إلى العلم الذى مدحوه ، فتكون مِثْلَ الغراب الذى أعجبه مَشْيُ الحَجَلَة[1] فرام أن يتعلمه فصَعُب عليه ، ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فَنَسِيَه ، فبقِيَ مُخبَّلَ المشى ، كما قيل :

إن الغراب (وكان يمشى مِشْيَةً فيما مضى من سالف الأجيال)[2]
حَسَدَ القَطَا ، وَأراد يمشى مشيَها فأصابه ضَرْبٌ من العُقَّالِ[3]

---

(١) الحجل بالتحريك : طائر على قدر الحمام كالقطا أحمر المنقار والرجلين ، والواحدة حجلة واسم جمعه حجل بكسر فسكون ففتح ولا نظير له سوى ظربى (ومفرده ظربان بفتح فكسر وهو دويبة منتنة الريح)

(٢) هذا البيت ليس مثبتاً فى الأصل ، وقد أورده الدميرى مع البيتين بعده فى حياة الحيوان الكبرى ٢ : ٢٤٤ . (٣) العقال : داء فى رجل الدابة إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط .

فأضَلَّ مِشْيَته ، وأخطأ مشيَها   فلذاك سمَّوه أبا مِرْقالِ[1]

وَلا يُفْسِدِ خاطرَكَ مَن جَعَلَ يذُمُّ الزمان وأهلَه ، وَيقول : « ما بَقِيَ فى الدنيا كريم ولا فاضل ، وَلا مكان يُرْتاحُ فيه » ، فإن الذين تراهم على هذه الصفة ، أكثر ما يكونون ممن صَحِبه الحِرْمان ، وَاستحقت طَلْعَته للهوان ، وَأبْرَمُوا[2] على النـاس بالسؤال فمقتوهم ، وَعجزوا عن طلب الأمور من وجوهها ، فاستراحوا إلى الوقوع فى الناس ، وإقامة الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم ، وتعذر أمورهم ، وَلا تَزِلْ هذين البيتين من فكرِكَ :

لِنْ إذا ما نِلْتَ عِزًّا   فأخو العزِّ يلينُ

فإذا نابك دهـرٌ   فـكما كنتَ تـكون

وَقول الآخر :

تِهْ وَارتَفِعْ إن قيل أقـتَرَ ، وانخفِضْ إن قيل أثرَى[3]

كالغصنِ يسفُل ما اُكتَسَي   ثمرًا ، ويسـمـو ما تعَرَّى

ولا قول الآخر :

الخير يَبْقَى وَإن طال الزمانُ به   والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ مِنْ زاد

واعتقد فى الناس ما قاله القائل :

وَمَنْ يَلْقَ خيراً يحمَدِ الناسُ أمرَه   ومن يَغْوِ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لاَئماً

وَقريبٌ منه قول القائل :

بقدر الصُّعود يكون الهبوطُ   فإياك والرُّتَبَ العاليـهْ

وَكن فى مكانٍ إذا ما سَقَطْتَ   تقومُ ورجلاك فى عافيـهْ

وَتحَفَّظْ بمـا تضمَّنه قول الآخر :

---

(١) من أرقلت الدابة : إذا أسرعت .   (٢) أورد الفعل لازما وهو متعد ، جاء فى كتب اللغة : « أبرمه فبرم كفرح وتبرم : أمله فمل » .   (٣) أثر : افتقر.

ومن دعا الناس إلى ذَمِّهِ   ذَمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ

وللهِ درّ القائل :

ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً   فإذا قَنِعت فكلّ شيء كافِ

والأمثال يَضْرِبها لذى اللُّبِّ الحكيم ، وذو البَصَر يمشى على الصراط المستقيم ، والفطِن يقنع بالقليل ، ويستدلّ باليسير ، والله سبحانه خليفتى عليك ، لا رَبَّ سِوَاهُ » .

(نفح الطيب ١ : ١٩٣)

٢٠ — خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف (توفى سنة ٧٢٨ هـ)

وخطب أحمد بن الحسن بن علىّ بن الزيات[1] خطبة ألغيت الألف من حروفها على كثرة ترددها فى الكلام ، وهى :

« حمِدْتُ رَبِّى جَلَّ من كريمٍ محمود ، وشكرتُه عزَّ مِنْ عظيمٍ معبود ، ونَزَّهتُه عن جَهل كلِّ مُلْحِد كفور ، وقَدَّسْتُه عن قول كلِّ مُفْسِد غرُور . كبيرٌ لو تَقَوَّم فى فَهْمٍ لَحُدَّ[1] ، قديرٌ لو تَصَوَّر فى رَسْمٍ لَحُدّ[2] ، لو عرَتْه[3] فكرةٌ تصوُّر لتصوَّرَ ولو حدَّثته فكرة لتقدَّر[4] ، ولو فُهِمت له كيفية لبطَلَ قِدَمُه ، ولو عُلِمَتْ له كيفيةٌ لحصَلَ عَدَمُه ، ولو حُصِر فى ظرف لَقُطِعَ بتجسُّمه ، ولو قهره وَصْف لَصُدِعَ[5] بتقسُّمه ، ولو فُرِض له شَبَح لرَهِقه[6] كَيْفٌ . عظيمٌ من غير تركيبِ قُطْر ، عليمٌ من

---

(١) هو أحمد بن الحسن بن على بن الزيات الخطيب المتصوف ، من أهل بلش مالقة ولد سنة ٦٤٩ هـ ، وتوفى سنة ٧٢٨ هـ . قال فيه لسان الدين بن الخطيب : « كان يفتتح مجالسه أكثر الأحيان بخطب غريبة ، يطبق بها مفاصل الأغراض التى يشرع فيها ، وينظم الشعر دائماً فى مراجعته ومخاطبته وإجازته من غير تأنٍ ولا روية ، حتى اعتاده ملكة ، واستعمل فى السفارات بين الملوك لدحض السخائم ، وإصلاح الأمور ، فكانوا يوجبون حقه ، ويلتمسون بركته ودعاءه » وله تصانيف كثيرة ذكرها ابن الخطيب .

(١) أى لعرف ، من الحد : وهو التعريف . (٢) من التحديد ، أى لصارت له ذات محدودة ، ولو أنه قال : « قديم » بدل « قدير » لناسب أن يقول بعده : « جد » بالجيم المفتوحة أى لصار جديداً حادثاً . (٣) عرته : أى اعترته وتناولته ، وفى الأصل « عدته » بالدال وأراه محرفا ، وتصور أى تمثل فى صورة ، يقال : صوره فتصور . (٤) لتقدر : أى صار له قدر بجسم ، وفى الأصل « لتعذر » وأراه محرفا . (٥) صدع به : جهر . (٦) رهقه : غشيه ولحقه .

غير ترتيب فِكر، موجود من غير شىء يُمسكه، معبودٌ من غير وهم يُدرِكه، كريم من غير عِوَض يَلحقُه، حكيم من غير عرَض يَلْحقُه(١)، قوىٌّ من غير سَبَب يجمعه، علىٌّ من غير سبب يرفعه، لو وُجد له جِنس لُعورِضَ فى قَيُّومِيته(٢)، ولو ثَبَتَ له حِسٌّ لنُوزع فى دَيْمُومِيته(٣).

ومنها: تقدَّس وعزَّ فعلُه، وتنزَّه عزَّ اسمُه وفضلُه، جلَّ قاهرُ قدرته، وعزَّ باهرُ عِزَّته، وعظُمت صِفتُه، وكثُرت مِنَّتُه، فَتَقَ وَرَتَقَ، وَصَوَّرَ وَخَلَق، وَقَطَعَ وَوَصَلَ وَنَصرَ وَخَذَل، حَمِدْتُه حَمْدَ من عرَف ربه، وَرَهِبَ ذنبَه، وَصفَّت حقيقةُ يقينِه قلبه، وَزَكَّت(٤) بصيرةُ دينه لُبَّه، رَبَط سلك سلوكه وَشَدَّ(٥)، وَهَدَم صَرْح عُتُوِّه وَهدَّ، وَحرَس مَعْقِل عقله وحدَّ، وطرد غرور غِرَّته(٦) وَرَذَلَه(٧)، عَلِمَ عِلْمَ تحقيقٍ فنحا نحوه، نُقِرّ له عزَّ وجلَّ بثبوت ربوبيته وَقِدَمه، ونعتقد صدورَ كلِّ جوهرٍ وَعَرَضٍ عن جُوده وَكَرَمه، ونشهد بتبليغ محمد صلى رَبُّه وَسلَّم عليه، رسوله وخير خالقه، وَنُعْلِن بنهوضه فى تبيين فرضه، وتبليغ شَرْعه، ضرب قُبَّة شرعه فنسخَت كلَّ شرع، وَجدَّ عزيمته فَقَمَع عدوَّه خير قَمْع، قَوَّم كل مقوَّم بقويم سنته، وكريم هَدْيه، وبيَّن لقومه كيف يَرْكَنُونَ(٨)، ففازوا بِقَصْده وَسَدِيد سعيه، بشَّر مُطِيعه فظفر برحمته، وَحَذَّر عاصِيَه فشقِىَ بنِقمته.

وبعد: فقد نصحتكم لو كنتم تعقلون، وهديتكم لو كنتم تعلمون، بَصَّرتم لو كنتم تُبصِرُون، وذُكِّرتم لو كنتم تَذْكُرُون، ظهرتْ لكم حقيقةُ نَشرِكم،

---

(١) يلحقه الأول: أى يناله ويأخذه، ويلحقه الثانى بمعنى يتصف به.

(٢) القيوم: من أسمائه تعالى، أى الذى لاند له. (٣) الديمومة: الدوام.

(٤) زكت: طهرت.

(٥) فى الأصل «وشيد» وأراه محرفا عن «شد» إذ هى التى تلائم قوله قبلها «وربط».

(٦) الغرة: الغفلة. (٧) رذله وأرذله: عده رذلا.

(٨) ركن إلى الشىء ركونا: مال إليه واطمأن، أى بين لهم كيف يركنون إلى الحق والصواب، وقد كانوا من قبله يعمهون فى ضلالتهم ويخبطون.

وبرزت لكم حقيقةُ حَشْرِكم ، فكم تركُضُون فى طَلَق[1] غفلتكم ، وتغفلون عن يوم بعثكم ، والموت عليكم سيفٌ مسلول ، وحُكمُ عزمٍ غيرِ معلول ، فكيف بكم يومَ يؤخذ كلٌّ بذَنْبه ، ويُخْبَر بجميع كَسْبه ، ويفرَّق بينه وبين صحبه ، ويَعْدَم نُصرةَ حِزْبه ، ويشتغل بهمّهِ وكَرْبه ، عن صديقه وتِرْبه ، وتُنْشَر له رُقْعة ، وتعيَّن له بُقْعة ؟ فربح عبدٌ نظرَ وهو فى مَهَلٍ لنفسه ، وتوسَّل فى رَضِيِّ عملٍ جنةٍ لحلول رمْسه[2] وكَسَر صَنَمَ شهوته ، ليَقَرَّ فى بُحْبُوحَة[3] قُدْسه .

ومنها : فتَنَبَّهْ ـ وَيْحَك ـ من سِنَتك ونومك ، وتفكر فيمن هَلَك من صحْبتك وقومك ، هتَف بهم مَنْ تعلَمُ ، وشَبَّ عليهم منهُ حَرَقٌ[4] مُظْلِمٌ ، فخرَبتْ بصَيْحَته ربوعُهم ، وتفرقت لهَوله جُمُوعُهم ، وذلَّ عزيزهم ، وخَسِىَ رفيعهم ، وصَمَّ سميعُهم ، فخرج كل منهم عن قصره ، ورُمِىَ غيرَ مُوَسَّد فى قبره ، فهُمْ بين سعيد فى رَوْضةٍ مُقرَّبٍ ، وبين شَقِىٍّ فى حُفْرَة معذَّب ، فنستوهِبُ منهُ عزَّ وجلَّ عِصْمَةً من كلِّ خَطيئة ، وخُصُوصِيَّةً تَقِى من كل نفس جريئة[5] » .

(الإحاطة ، فى أخبار غرناطة ١ : ١٥٤)

٢١ — خطبة القاضى عياض التى ضمنها سور القرآن

وخطب القاضى أبو الفضل عِياض[6] خطبة ضمَّنها سُوَر القرآن ، فقال :

« الحمد لله الذى افْتَتَحَ بالحمد كلامَه ، وبَيَّنَ فى سورة البقرة أحكامَه ، ومَدَّ

---

(١) يقال : جرى الفرس طلقاً أو طلقين : أى شوطاً أو شوطين . (٢) الرمس : القبر .

(٣) بحبوحة المكان : وسطه . (٤) الحرق : النار ولهبها .

(٥) يلاحظ أن فى الخطبة خمس كلمات فيها ألف وهى : قاهر . بادر . عاصيه . ففازوا . فتحا

(٦) هو القاضى أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض ولد سنة ٤٧٦ هـ ، بسبتة — بلد بمراكش على الساحل الشمال ودخل الأندلس طالباً العلم ، فأخذ بقرطبة عن جماعة ، وجمع من الحديث كثيراً ، وكان له به كبير عناية ، وكان إمام وقته فيه ، وفى النحو واللغة ، واستقضى ببلده سبتة ، ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة ، وتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ ، قال المقرى بعد أن أورد هذه الخطبة : « وفى نفسى من نسبتها له شىء ، لأن نفس القاضى فى البلاغة أعلى من هذه الخطبة ، والله تعالى أعلم » .

فى آل عِمْرَانَ والنساء مائِدَةَ الأنْعَام لِيُتِمَّ إنعامَه ، وجعل فى الأعراف أنفالَ تَوْبةِ يُونس وألر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، بمجاورة يوسف الصِّدِّيق فى دار الـكرامة ، وسبَّح الرعدُ بحمده ، وجعل النار بَرْداً وسلاماً على إبراهيم ، لِيُؤْمِن أهلُ الحِجْر[1] أنه إذا أتى أمْرُ الله سبحانه فلا كَهْفَ ولا ملجأ إلا إليه ، ولا يُظْلَمُونَ قُلامَة ، وجعل فى حروف كَهيعص سِرًّا مكنونًا ، قدَّم بسببه طٰه صلى الله عليه وسلم على سائرِ الأنبياء ليُظهر إجلالَه وإعظامَه ، وأوضح الأمرَ حتى حَجَّ المؤمنون بِنُور الفُرْقان ، والشعراء صاروا كالنمل ذُلّا وَصَغَاراً لِعَظَمَته ، وظهرت قَصَصَ العنـكبُوت فآمن به الروم ، وأيقنوا أنه كلام الحىِّ القيُّوم ، نزل به الرُّوح الأمين على زَيْنِ مَنْ وَافَى يومَ القيامة ، وأوضح لقمانُ الحـكمة بالأمر بالسجود لربِّ الأحزاب ، فَسَبَأ فَاطِرُ السموات أهلَ الطاغوت ، وأ كْسَبَهم ذلا وخِزْياً وحَسْرة وندامة ، وأمدَّ يٰس صلى الله عليه وسلم بتأييد الصَّافَّات[2] ، فصادَ الزُّمَر يوم بَدْره ، وأوقع بهم ما أوقع صناديدَهم فى القَلِيب[3] مكدوس ومكبوب ، حين شَالَت بهم النَّعامة[4] ، وغفر غافرُ الذنب وقابِلُ التَّوْبِ للبدريِّين رضى الله عنهم ما تقدم وما تأخر حين فُصِّلَت كلماتُ الله ، فذلَّ مَنْ حَقَّت عليه كَلِمَةُ العذاب وأيِسَ من السلامة ، ذلك بِأَنَّ أمْرَهم شُورَى بينهم ، وشَغَلهم زُخْرُف الآخِرة عن دُخَان الدنيا ، فجثَوا أمام الأحْقَاف[5] لقتال أعداء محمد صلى الله عليه وسلم يمينه وَشِمَالَه وخلفَه وأمامَه ، فأعطوا الفتح وَبُوِّئُوا حُجُرَاتِ الجِنان ، وحين تَلَوْا : قٓ والقُرْآنِ المَجيد ، وتدبَّرُوا جوابَ قَسَم الذَّاريات[6] والطور ، لاح لهم نجم الحقيقة وانشقَّ لهم قمر اليقين ، فنافروا السآمة ، ذلك بأنهم أمَّنهم الرحمن إذا وقعت الواقعة ،

(١) واد بين المدينة والشام ، وهو منازل ثمود .

(٢) الملائكة تصف نفوسها للعبادة . (٣) القليب : البئر .

(٤) شالت نعامتهم : خفت منازلهم منهم ، أو تفرقت كلمتهم ، أو ذهب عزهم .

(٥) واد باليمن به منازل عاد. (٦) الذاريات : الرياح تذر والتراب وغيره .

واعترف بالضعف لهم الحديدُ ، وهزم المجادلون ، وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، حين نافروا السلامة .

أحمده حمدَ من امتحنته صفوفُ الجموع فى نَفَق التغابُن ، فطلّق الحُرُمات حين اعتبرَ المُلك وعامَه ، وَقد سمع صَرِيف القلم وكأنه بالحاقّة[1] والمعارج بمينه وَشماله وخلفه وأمامه ، وقد ناح نوح الجن فتزمَّل[2] وتدثَّرَ فَرَقاً من يوم القيامة ، وأنِس بمُرْسَلات النبأ ، فنزع العُبُوسَ من تحت كُور العمامة ، وظهر له بالانفطار التطفيفُ ، فانشقّت بُرُوجُ الطارق بتسبيح الملك الأعلى وغَشِيَته الشهامة ، فوربِّ الفجر والبلد والشمس والليل والضحى ، لقد انشرحت صدور المتقين ، حين تَلَوْا سورة التين ، وعَلِق الإيمان بقلوبهم ، فكلٌّ على قدر مقامه يُبين ، ولم يكونوا بمنفكين دهرهم ، ليلَه ونهارَه وصيامَه وقيامَه ، إذا ذكروا الزَّلْزَلة رَكِبوا العاديات[3] ليطفئوا نور القارعة ، ولم يُلْهِهِم التكاثُر حين تلوا سورة العصر والهُمَزة ، وتمثلوا بأصحاب الفيل فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . أرأيتهم كيف جعلوا على رءوسهم من الكُور عِمَامة ؟ فالكوثر[4] مكتوب لهم ، والكافرون خُذِلوا ، وهم نُصِرُوا ، وَعُدِل بهم عن لَهَبِ الطَّامَّةِ ، وبسورة الإخلاص قرءوا وَسَعِدُوا ، وبرب الفَلَق[5] والنَّاس ، استعاذوا فأُعيذوا من كل حُزن وهمّ وغمّ وندامة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، شهادةً تُنال بها منازلُ الكرامة صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غرّدتْ فى الأَيْكِ حَمامة » .

(نفح الطيب ٤ : ٣٩١)

---

(١) الحاقة : القيامة التى فيها يحق ما أنكر من البعث والجزاء .

(٢) تزمل بثيابه : تلفف بها ، وكذا تدثر .

(٣) الخيل تعدو فى الغزو ، والقارعة التى تقرع القلوب بأهوالها .

(٤) الكوثر : نهر فى الجنة .　　(٥) الفلق : الصبح .

٢٢ — خطبة سعيد بن أحمد المقرى التى ضمنها سور القرآن

وخطب سعيد بن أحمد المَقَّرِى[1] خطبة على هذا النمط نصّها :

« الحمد لله الذى افتتح بفاتحة الكتاب سورةَ البقرة ، ليصطفِىَ من آل عِمْرَانَ رجالا ونساء ، وفضَّلهم تفضيلا ، وَمَدَّ مائِدة إنعامه وَرِزْقه ، ليعرِفَ أعراف أنفالِ كرمه حقَّ على أهل التوبة ، وجعل لِيُونُسَ فى بطن الحوت سبيلا ، ونجَّى هوداً من كَرْبه وحزنه ، كما خلَّص يوسف من جُبِّه وسجنه ، وسبَّح الرعدُ بحمده ويُمْنه ، وَاتَّخَذَ اللهُ إبراهيم خليلا ، الذى جعل فى حِجر الحِجْر من النحل شراباً نوَّع باختلافِ ألوانهَ ، وأوحَى إليه بخَفِىّ لطفه سبحانه ، واتخذ منهُ كهفاً قد شيَّد بنيانهَ ، وأرسل رُوحَهُ إلى مريم فتمثَّلَ لها تمثيلا ، وفَضَّلَ طه على جميع الأنبياء ، فأتى بالحج والكتابِ المكنون ، حيثُ دعا إلى الإسلام قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، إذْ جَعَلَ نور الفرقان دليلا ، وَصَدَّق محمداً صلى الله عليه وسلم الذى عجزت الشعراء فى صِدْق نَعْته ، وَشهدت النملُ بصدق بَعْثه ، وَبيَّن قصص الأنبياء فى مُدَّة مُكثِه ، ونسجَ العنكبوت عليه فى الغار سِتْرًا مَسْدُولا ، وَمُلِئَتْ قلوب الروم رُعْباً من هيبته ، وتعلَّم لُقْمان الحكمةَ من حِكمته ، وهَدَى أهل السَّجدة للإيمان بدعوته ، وَهَزَمَ الأحزاب وسبَاهم وأخذهم أخذاً وَبيلا ، فَلَقَّبَهُ فاطِرُ السموات والأرض يس ، كما نفَّذ حكمه فى الصَّافَّاتِ وَبَيَّن ص صِدْقه بإظهار المعجزات ، وفرَّق زُمَر المشركين ، وصَبَر على أقوالهم وهجرهم هَجْرًا جميلا ، فغفَر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وَفُصِّلَت رقابُ المشركين إذ لم يكن أمرهم شُورَى بينهم ، وزخرف منار الإسلام ، وَخَفِىَ دخان الشِّرك ، وخرَّتِ المشركون جاثيةً ، كما أنذر أهلَ الأحقافِ فلا يهتدون سبيلا ، وأذلَّ الذين كفروا بشدة القتال ،

---

(١) هو سعيد بن أحمد المقرى عم أحمد المقرى صاحب نفح الطيب .

وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز ، وحِجْر الحجرات الحريز ، وَبقّ القدرة قُتّلَ الخرّاصون[1] تقتيلا ، كلّمَ موسى على جبل الطُّور ، فارتقى نجم محمد صلى الله عليه وسلم ، فاقتربت بطاعته مبادئ السرور ، وأوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور ، فتعجب الحديد من قوته ، وكثرة المجادلة فى أمته ، إلى أن أُعيد فى الحشر بأحسن مَقيلا أمتحنه فى صفّ الأنبياء وصلّى بهم إماماً ، وفى تلك الجمعة مُلِئت قلوبُ المنافقين من التغابُن خُسْرًا وَإرغاماً ، فطلّق وحرّم ، تبارك الذى أعطاه المُلْك ، وعلّم بالقلم ، ورتّلَ القرآن ترتيلا ، وعن علم الحاقّة كم سأل سائل فسأل الإيمان، ودعا به نوح فنجاه الله تعالى من الطوفان ، وأتت إليهِ طائفة الجن يستمعون القرآن ، فأنزل عليه : « يٰأَيُّهَا المُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا » ، فكم من مُدَّثِّر يوم القيامة شفقةً على الإنسان إذا أرسل مُرْسَلات الدمع ، فعمّ يتساءلون أهل الكتاب ، وما تقبل من نازعات المشركين إذا عَبَس عليهم مالك وتولّاهم بالعذاب ، وَكُوِّرت الشمس وانفطرت السماء ، وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ، فَوَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ » إذا انشقت السماء بالغمام ، وَطُوِيت ذات البروج ، وَطرَق طارق الصُّور بالنفخ للقِيام ، وعزّ اسم ربك الأعلى لغاشية الفجر ، فيومئذ لا بلدَ ولا شمسَ ولا ليلَ طويلا ، فطُوبى للمصلين الضحى عند انشراح صدورهم ، إذا عاينوا التين والزيتون وأشجار الجنة ، فسجدوا بِاقْرَأْ اسْمَ رَبِّكَ الذى خلق هذا النعيم الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيَوا ليلة القدر ، وتبتّلوا تبتيلا ، ولم يكن للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم ، وتسوقهم كالعاديات إلى سواء[2] الجحيم ، وزلزلت بهم قارعةُ العقاب ، وقيل لهم : أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، هذا عصر العقاب الأليم ، وَحُشِرَ الهُمَزة وأصحاب الفيل إلى النار فلا يظلمون فَتِيلا ، وقالت قريش ما أمنتم من هول الحشر ، أرأيت الذى يكذّبُ بالدين كيف

(١) الكذابون . (٢) وسط .

طُورِد عن الكوثر ؟ وَسِيق الكافرون إلى النار ، وجاء نصر الله والفتح ، فَتَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ : إذ لا يجد إلى سورة الإخلاص سبيلا ، فنعوذُ بِربِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَاخَلَقَ ، ونعوذ بربِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلٰهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الذى فَسَق ، ونتوب إليه ونتوكل عليه وَكَفَى بالله وكيلا » . (نفح الطيب ٤ : ٢٩٢)

٢٣ — خطبة الكفعمى التى ضمنها سور القرآن أيضا

وخطب الكفعمى[1] خطبة على هذا النمط أيضا نصها :

« الحمد لله الذى شرَّف النبى العربى بالسبع المَثَانى وخواتيم البقرة من بين الأنام ، وفضَّل آل عمران على الرجال والنساء ، بما وهب لهم من مائدة الأنعام ، ومنحهم بأعراف الأنفال ، وكتب لهم بَرَاءةً من الآثام ، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحدَه لاشريك له ، الذى نَجَّى يونس وهوداً ويوسف من قومهم ، برَعْد الانتقام ، وغذَّى إبراهيم فى الحِجْر بلُعاب النحل ذاتِ الإسرار ، فضاهى كهف مريم عليها السلام ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى هو طه الأنبياء ، وحج المؤمنين ، ونور فرقان الملك العَلّام ، فالشعراء والنمل بفضله تُخْبِر ، ولقصص العنكبوت الروم تذْكُر ، ولقمان فى سجدته يَشْكُر ، والأحزاب كأيادى سَبَأ تُقْهَر ، وفاطر يس لصافّاته يُنْصَر ، وصاد مقلةِ زُمَره تنظر الأعلام ، فآل حٰم بقتال فتحه فى حُجُرات قافه قد ظَهَرت ، وذَاريات طُوره ونجمه وقمره قد عَطِرت ، وبالرحمن واقعةُ حديده يوم المجادلة قد نُصِرت وأبصار معانديه فى الحشر يوم الامتحان حَسَرت[2] ، وَصَفَّ جمعته فائز إذ أجساد المنافقين بالتغابن استعرتْ ، ولهالطلاق والتحريم وَمَقام المَلِك والقلم ، فناهيك به من

(١) قال صاحب نفح الطيب فى ترجمته : « هو إبراهيم بن على بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر عيما قرية من قرى أعمال صفد كما نقول فى النسبة إلى بنى عبد الدار عبدرى ، وإلى حصن كيفا : حصكفى » .

(٢) حسر البصر كضرب : كل فهو حسير .

مقام ، وفى الحاقة ، أعْلَى الله له المعارج نوح المطهر ، وخصه من بين الإنس والجن بِيَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ، وَيَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، وشفَّعهُ فى القيامة إذا دموع الإنسان مُرْسَلات كالماء المتفجر ، ووجههُ عند نبإ النازعات وقد عبس الوجه كالهلال المتنوِّر ، ويوم التكوير والانفطار وهلاك المطففين وانشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضجِّر ، وقد حُرِست لمولده السماء بالطارق الأعلى ، وتمت غاشية العذاب إلى الفجر على المرَدَة اللئام ، فهو البلد الأمين، وشمس الليل والضحى المخصوص بانشراح الصدر ، والمفضَّل بالتين والزيتون ، المستخرج من أمشاج[1] الْعَلَق ، الطاهر العلىّ القدر ، شجاع البرية يوم الزلزال ، إذ عاديات القارعة تدوس أهل التكاثر ومشركى العصر ، أهلك الله به الهُمَزَة وأصحاب الفيل إذ مَكَرُوا بقريش ولم يتواصَوْا بالحقّ ولم يتواصَوْا بالصبر ، المخصوص بالدين الحنيف والكوثر السَّلْسال ، والمؤيد على أهل الجحْد بالنصر ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما تبَّت يدَا مُعَادِيه ، وَنَعم بالتوحيد مُوالِيه ، وما أفصح فلقُ الصبح بين الناس وامتد الظلام » .

(نفح الطيب ٤ : ٣٩٥)

---

(١) مشج بينهما كضرب : خلط ، والشىء مشيج ، والجمع أمشاج كيتيم وأيتام .

الباب الثانى

فى

خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

١ — خطبة أبى بكر بن عبد الله بالمدينة

لما وَلِىَ أبو بكر بن عبد الله المدينة[1] وطال مُكْثُهُ عليها ، كان يبلغهُ عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَإسعافٌ من آخرين لهم على ذلك ، فأمر أهلَ البيوتاتِ وَوجوه الناس فى يوم جمعة أن يقرُبوا من المِنْبر ، فلما فرغ من خطبة الجمعة قال :

« أيها الناس : إنى قائِلٌ قولا ، فمن وَعاه وَأدَّاه فعلى الله جزَاؤُه ، وَمن لم يَعِه فلا

---

(١) لا أعرف صاحب هذا الاسم والياً على المدينة ، وإنما الذى قرأته فى تاريخ الطبرى أن أبا بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصارى ولى المدينة من سنة ٩٦ إلى سنة ١٠٠ فى خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز « انظر تاريخ الطبرى ، الجزء الثامن : حوادث السنين من ٩٦ إلى ١٠٠ » وذكر أيضاً القلقشندى فى صبح الأعشى « ج ٤ : ص ٢٩٦ » أن أبا بكر بن محمد هذا ولى المدينة أيام سليمان بن عبد الملك ، والظاهر أنه صاحب هذه الخطبة ، وإنى لأستأنس فى ذلك بقوله : « وطال مكثه عليها » فقد تولاها خمس سنين ، وبالغرض الذى قيلت فيه الخطبة ، وأنت تذكر ما كان فى العهد الأموى من اتساع دائرة الاختلاف الحزبى ، والنضال السياسى البعيد المدى ، وربما كان « عبد الله » اسماً آخر لأبيه محمد ، تسمى به تواضعاً ، وكان ذلك من عادة السلف الصالح رضوان الله عليهم كثيراً ، انظر مثلا كتاب عمر فى صلح أهل إيليا « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان » . (الطبرى ٤ : ١٥٩) .

يعدُ من ذِمامها[١] إن قصَّرتم عن تفصيله ، فلن تعجزوا عن تحصيله ، فأرعوه أبصاركم ، وأوعوه أسماعكم ، وأشعروه[٢] قلوبكم ، فالموعظة حياة ، والمؤمنون إخوة « وَعَلَى اللهِ قَصْدُ[٣] السبيل » ، « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » فأتوا الهدى تهتدوا ، واجتنبوا الغيَّ ترشدوا ، « وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، والله جلَّ ثناؤه ، وتقدَّست أسماؤه ، أمركم بالجماعة ، ورضيها لكم ، ونهاكم عن الفُرْقة ، وسخطها منكم ، فـ « اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ[٤] وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا[٥] حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ، جعلنا الله وإياكم ممن تبع رضوانه ، وتجنب سخطه ، فإنما نحن به وله .

وإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين ، واختاره على العالمين ، واختار له أصحاباً على الحق ، ووزراء دون الخلق اختصهم به ، وانتخبهم له ، فصدَّقوه ونصروه ، وعزَّروه[٦] ووقَّروه ، فلم يقدموا إلا بأمره ، ولم يحجموا إلا عن رأيه ، وكانوا أعوانه بعهده ، وخلفاءه من بعده ، فوصفهم فأحسن صفتهم ، وذكرهم فأثنى عليهم ، فقال ــ وقوله الحق ــ : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ[٧] ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ

---

(١) أى فلا يخرج عن حرمتها ، وتأنيث الضمير فى « ذمامها » باعتبار الموعظة أو المقالة .

(٢) أى الزقوه به . (٣) القصد : استقامة الطريق ، أى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق .

(٤) التقاة : التقوى ، وجمعها تقى كرطبة ورطب ، وأصلها وقية قلبت واوها المضمومة تاء كما في تؤدة وتخمة ، والياء ألفاً . (٥) الشفا : حرف كل شىء .

(٦) التعزير : التفخيم والتعظيم ، وهو أيضاً أشد الضرب . ضد .

(٧) أى ذلك مثلهم فى الكتاب ، والشطء : فراخ الزرع ، فآزره أى فقواه ، فاستوى على سوقه : أى فاستقام على أصوله وسيقانه .

فَآزَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ، لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » ، فمن غاظه كفر وخاب، وفجر وخسر، وقال الله عز وجل: « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[1] ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فمن خالف شريطة الله عليه لهم ،وأمره إياه فيهم ، فلا حقّ له فى الفَىْء ولا سَهْمَ له فى الإسلام ، فى آيٍ كثيرة من القرآن .

فرَقت مارقة من الدين ، وفارقوا المسلمين ، وجعلوهم عِضِين[2] ، وتشعَّبوا أحزابا ، أشاباتٍ وأوشابا[3] ، فخالفوا كتاب الله فيهم ، وثناءه عليهم ، وآذَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة « ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » . « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ؟ » مالى أرى عيونًا خُزْرًا[4] ، ورقابًا صُعْرًا[5] وبطونًا بُجْرًا[6] شجًا لا يُسيغه الماء[7] ، وداء لا يُشْرَب فيه الدواء « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ؟ » كلا والله ، بل هو الهِناء[8] والطِّلاء ، حتى يظهر العُذر ، ويَبُوح السِّرُّ ، ويَضِحَ الغَيْب ،

---

(١) يؤثرون : يفضلون ويقدمون والخصاصة : الحاجة والفقر .

(٢) جمع عضة كعدة : وهى الفرقة والقطعة . (٣) أشابات جمع أشابة : وهى الأخلاط ، وأشبه كضربه : خلطه ، والأوشاب جمع وشب كحمل ، والأوباش جمع وبش كسبب : الأخلاط والسفلة .

(٤) جمع خزراء مؤنث أخزر وصف من الخزر بالتحريك ، وهو النظر فى أحد الشقين

(٥) الصعر بالتحريك: ميل فى الوجه ، أو فى أحد الشقين ، أو داء فى البعير يلوى عنقه منه ، صعر كفرح فهو أصعر . (٦) بجر بطنه كفرح أيضاً فهو أبجر : عظم ، والجمع بجر كحمر.

(٧) الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه ،لا يسيغه: أى لا يجعله سائغاً سهل المدخل فى الحلق .

(٨) الهناء : القطران، يريد أنه يعالجهم كما تطلى الإبل الجربى بالقطران لمداواتها .

وَيُسَوِّس الجُنُبَ[(١)] ، فإنكم لم تُخْلَقوا عَبَثاً ، ولم تُتركوا سُدًى ، وَيْحكم ! إنى لست أتاوِيّاً[(٢)] أعلَم ، وَلا بَدوِيّاً أفهَم ، قد حَلَبْتُكم أشطُرَه[(٣)] ، وَقلَّبتكم أبطُناً وأظهراً ، فعرفت أنحاءكم وأهواءكم ، وعلمت أن قوماً أظهروا الإسلام بألسنتهم ، وأسرُّوا الكفر فى قلوبهم ، فضربوا بعضَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وَسلم ببعض ، وَوَلَّدوا الروايات فيهم ، وضَرَبوا الأمثالَ ، ووجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعواناً يَأذَنُونَ لهم[(٤)] ، وَيُصغُون إليهم، مَهلاً مَهلاً قبلَ وقوعِ القَوارِع[(٥)] ، وَطُولِ الروائع ، هذا لهذا وَمع هذا[(٦)] ، فلست أعتنِش[(٧)] آئباً ولا تائباً ، « عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » ، فأسِرُّوا خيراً وأَظهروه ، وأجهَرُوا به وَأخلِصُوه ، فطالما مَشَيتم القَهقَرَى ناكِصين ، وَليعلَم من أدبر وأصَرَّ أنها موعظة بين يَدَى نِقمة ، ولست أدعوكم إلى أهواء تُتَّبَع ،ولا إلى رأى يُبْتَدَع ، إنما أدعوكم إلى الطريقة المُثْلى ، التى فيها خيرُ الآخرة والأُولَى ، فمن أجاب فإلى رشده ، ومن عمِى فعن قَصْده ، فهلمَّ إلى الشرائع الجَدائع[(٨)] ، وَلا تَوَلَّوا عن سبيل المؤمنين ، وَلاَ تَستَبْدِلوا

---

(١) باح السر : ظهر ، وباح بسره : أظهره ووضح يضح واتضح واحد ، ويسوس : أى يروض ويذلل : مضعف ساسه يسوسه . يقال : سوست له أمراً إذا روضته وذلله ، والجنب : الصعب الذى لا ينقاد . (٢) الأتاوى : الغريب عن القوم . (٣) اقتبسه من المثل المشهور : « حلب الدهر أشطره » والناقة شطران ، قادمان وآخران ، فكل خلفين شطر بفتح الشين — والخلف للناقة كالضرع البقرة — وأشطره منصوب على البدل ، فكأنه قال : حلب أشطر الدهر ، والمعنى : اختبر الدهر وعرف خيره وشره . (٤) أذن له وإليه كفرح : استمع . (٥) القوارع جمع قارعة : وهى الداهية الفاجئة ، والروائع جمع رائعة ، وهى المفزعة . (٦) أى هذا الذى أتهددكم به من القوارع والروائع ، لهذا الذى تخوضون فيه ، ومقرون به .

(٧) اعتنشه : ظلمه .

(٨) الذى فى كتب اللغة : « جداع كسحاب وقطام : السنة الشديدة تجدع بالمال وتذهب به » وهذه الكلمة هى التى يسوغ أن تجمع على جدائع ، ولكنها لا تناسب المقام هنا ، فلعل الأصل « الجوادع » جمع جادعة : وهى القاطعة ، يريد الشرائع الصحيحة الحقة لأنها تقطع الباطل وتزهقه كأنه يقول : اتبعوا الملة الحاسمة ، أو الجدائع جمع جدوع كعجوز صيغة مبالغة من جادعة ، وفى التعليق على نهاية الأرب « ولعله الجوامع : أى التى تجمع الناس على اتباعها ، كما يدل عليه ما بعده » .

الذى هو أَدْنَى[١] بالذى هو خَيْر « بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً » .

إياكم وَبُنَيَّاتِ[٢] الطريق ، فعندها التَّرْنِيقُ وَالرَّهَقُ[٣] ، وَعليكم بالجادَّة ، فهى أَسَدُّ[٤] وَأَوْرَدُ ، وَدَعوا الأمانىّ فقد أَرْدَتْ من كان قبلكم ، وَليس للإنسان إلا ماسَعَى ، وَلله الآخِرَةُ وَالأُولى ، وَ « لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ[٥] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى » . « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٥٦ ؛ وصبح الأعشى ١ : ٢٢٠)

٢ — وصية أعمى من الأزد لشاب يقوده

عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه قال : رأيت بِبِيشَةَ[٦] رجلا من أَزْد السَّرَاةِ أعمى ، يقوده شاب جيل ، وهو يقول له : « يا سَمِىَّ ، لا يَغُرَّنَّكَ أن فسَّح الشبابُ خَطْوَك ، وَخَلَّى سَرْبَك ، وَأَرْفَهَ وِرْدَكَ[٧] ، فكأنك بالكِبَر قد أَرَبَ طَوْفَك ، وَأثقل أَوْقَك ، وأوهن طَوْقك[٨] ، وَأتعب سَوْقَك ، فَهَدَجْتَ بعد الهَمْلَجَة ، وَدَجَجْت بعد الدَّعْلَجَة[٩] ، فخذ من أيام التَّرْفيه لأيام الإِنْزعاج ، ومن ساعات المُهْلَةِ لساعة

---

(١) أى أخس وأدون قدرا ، وأصل الدنو : القرب فى المكان استعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة ، أو هو مسهل من أدنأ من الدناءة ، وقد قرىء فى الآية الكريمة : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَأُ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ » . (٢) بنيات الطريق : الترهات (جمع ترهة كقبرة وهى الطريق الصغيرة المتشعبة من الجادة ، أى اسلكوا الطريق العام طريق الجماعة ، ولا تعرجوا فى سواه .

(٣) الترنيق : الضعف فى الأمر « وفى البصر والبدن أيضاً » ، والرهق : السفه والحمق والخفة ، وركوب الشر والظلم ، وغشيان المحارم . (٤) أفعل من السداد . (٥) أسحته : استأصله .

(٦) بيشة : واد بطريق اليمامة . (٧) السرب : الطريق والوجه ، ورفهت الإبل كمنع : وردت الماء متى شاءت ، وقد أرفهتها ورفهتها بالتشديد . (٨) أرب العقد : شده ، والأربة بالضم : العقدة ، وظاف البعير يظوفه : إذا داق بين قينيه ، والقينان بفتح القاف موضعا القيد من الوظيف ، والأوق : الثقل ، والطوق : الوسع والطاقة . (٩) الهدجان كخفقان وغراب : مشية الشيخ ، هدج كضرب ، والهملجة : سرعة فى المشى ، ودج كضرب دجيجاً ، مرمرا ضعيفاً ، والدعلجة : ضرب من المشى ، والتردد فى الذهاب والمجىء ، والدحرجة .

الإعجال[1] ، يابن أخى : إن اغترارك بالشباب ، كالتذاذك بِسَمادير[2] الأحلام ، ثم تنقشع فلا تتمسّك منها إلا بالحسْرة عليها ، ثم تُعرّى راحلةَ الصِّبا ، وتشرب سَلْوةً[3] عن الهوى . واعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قدّم ذخيرة ، وأشدّهم اغتباطًا يوم الحسرة من أحسنُ سَريرةً » . (الأمالى ٢ : ٢١٦)

٣ — وصية رجل لآخر وقد أراد سفراً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلا يوصى آخر وأراد سفراً ، فقال :

« آثِر بعملك مَعادَك ، وَلا تَدَع لشهوتك رَشادَك ، وَليكن عقلُك وَزيرَكَ الذى يدعوك إلى الهُدَى ، وَيَعْصِمك من الرَّدى ، أَلْجِم هواكَ عن الفواحش ، وَأَطْلِقه فى المكارم ، فإنك تَبَرُّ بذلك سَلَفَك، وَتَشيد شَرَفَك » . (الأمالى ١ : ٢٠٠)

٤ — وصية رجل لابنه وقد أراد التزوج

وَقال بعضهم لولده وَقد أراد التزوج :

« يا بنى : لا تتخِذْها حَنَّانَةً ، وَلَا أَنَّانَةً ، وَلا مَنَّانَةً[4] ، وَلا عُشْبَةَ الدَّار[5] ،

---

(١) رفه عيشه ككرم فهو رفيه ورافه : مستريح متنعم ، وأرفهه الله ورفهه ترفيها ، ومن ساعات المهلة أى الدنيا المهلة : أى التى ستمهلها وتتقادرها ، وربما كانت « المهلة »

(٢) السمادير : ما يتراءى للإنسان فى نومه من الأباطيل ، وما يتراءاه السكران فى سكره .

(٣) السلوة : اسم السلوان . قال الأصمعى : يقول الرجل لصاحبه : « سقيتنى سلوة (بالفتح) وسلوانا (بالضم) أى طيبت نفسى عنك » ، وذكروا أيضا أن السلوة والسلوانة : خرزة شفافة تدفن فى الرمل فتسود فيبحث عنها ، ويسقاها الإنسان فتسليه .

(٤) الحنانة : التى لها ولد من سواه فهى تحن عليهم . والأنانة : التى مات عنها زوجها ، فهى إذا رأت الزوج الثانى أنت ، وقالت : رحم الله فلانا ، لزوجها الأول . والمنانة : التى لها مال ، فهى تمن على زوجها ، كلما أهوى إلى شىء من مالها .   (٥) عشبة الدار : يريد الهجينة ، وعشبة الدار : التى تنبت فى دمنة الدار ، وحولها عشب فى بياض الأرض ، فهى أضخم منه وأضخم ، لأنها غذتها الدمنة ، وذلك (أى العشب) أطيب للأكل رطباً ويبساً ، لأنه نبت فى أرض طيبة ، وهذه نبتت فى دمنة ، فهى منتنة رطبة ، وإذا يبست صارت حتاتا (بالضم) وذهب قفها فى الدمنة فلم يمكن جمعه ، وذلك يجمع قفه لأنه فى أرض طيبة (والقف بالضم : ما يبس من البقل ، وسقط على الأرض فى موضع نباته) .

وَلا كُبَّةَ القَفَا[١] » . (الأمالى ٢ : ٢٦)

٥ — وصية بعض العلماء لابنه

وَأوصى بعض العلماء ابنه فقال :

« أُوصيك بتقوى الله ، وَلْيَسَعْكَ بيتُك ، وامْلِكْ عليك لسانَك ، وَابْكِ على خطيئتك » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

٦ — وصية لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء :

« لا يكونَنَّ منكم المُحَدِّثُ ولا يُنْصِتُ له ، والداخِلُ فى سِرِّ اثنين لم يُدْخِلاه ، ولا آتِى الدعوةِ لم يُدْعَ إليها ، ولا الجالِسُ المجلِسَ لا يستحقُّه ، ولا الطالِبُ الفضل من أيدى اللِّئام ، ولا المتعرِّضُ للخير من عند عدوِّه ، ولا المتحمِّق فى الدَّالَّة[٢] » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٨)

٧ — وصية أخرى

وقال بعض الحكماء :

« إياكَ والعجلةَ ، فإن العرب كانت تَكْنيها : أُمّ الندامة » لأن صاحبها يقول قبل أن يَعْلَمَ ، وَيُجيبُ قبل أن يَفْهَمَ ، وَيَعْزِم قبل أن يفكِّر ، وَيَقْطَع قبل أن يُقَدِّر ، وَيَحْمَد قبل أن يُجَرِّب ، وَيَذُمّ قبل أن يَخْبُر ، ولن يصحب هذه الصِّفَةَ أحدٌ إلا صَحِب الندامة ، واعتزل السلامة » . (زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

---

(١) كبة القفا : هى التى يأتى زوجها أو ابنها القوم ، فإذا انصرف من عندهم ، قال رجل من جبناء القوم : قدوالله كان بينى وبين امرأة هذا المولى أو أمه أمر .

(٢) الدالة : ما تدل به على حميمك .

٨ — وصية أخرى

وقال ابن دُرَيد : أوصى بعض الحكماء رجلًا ، فقال :

« آمُرُكَ بمجاهدة هواك، فإنه يقال : إنَّ الْهَوَى مِفتاح السيئات، وخصيم الحسنات وكل أهوائك لك عدو ، وأهواها[١] هوًى يكتُمُك فى نفسه ، وأعداها هوى يمثِّل لك الإثمَ فى صورة التقوى ، ولن تَفْصِلَ بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلا بحزم لايَشُوبه وَهَنٌ ، وَصِدْقٍ لايَطْمَعُ فيه تكذيبٌ ، وَمَضَاء لا يقاربه التثبُّطُ[٢] ، وَصَبْرٍ لَا يغتاله جَزَعٌ ، وَنِيَّةٍ لا يتقسمها التضييعُ » . (زهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٩ — عظة لبعض الحكماء

عن الأصمعى قال : بلغنى أن بعض الحكماء كان يقول :

« إنى لَأَعِظكم ، وإنى لكثير الذنوب مُسْرِف على نفسى ، غيرُ حامد لها ، ولا حاملِها على المكروه فى طاعة الله عزَّ وجل ، قد بَلَوْتها فلم أجد لها شكراً فى الرَّخاء ولا صَبْرًا على الْبَلَاء ، ولو أن المرء لَا يَعظ أخاه حتى يُحْكِمَ أمرَ نفسه ، لَتُرِكَ الأمرُ بالخير والنهى عن المنكر ، ولكن محادثة الإخوان حياةٌ للقلوب ، وَجِلاء للنفوس ، وتذكيرٌ من النسيان . واعلموا أن الدنيا سرورها أحزان ، وإقبالها إدبار ، وآخِر حياتها الموت ، فكم من مستقبلٍ يوما لَايَسْتكمِله ، وَمُنْتَظِرٍ غداً لَايَبْلُغه ، ولو تنظرون إلى الأجَل ومَسِيره ، لأبغضتم الأمَلَ وَغُرُورَه » . (الأمالى ٢ : ٥٧)

---

(١) أى وأشدها . (٢) التوقف والإبطاء .

١٠ — نصيحة لبعض الحكماء

وَحذَّر بعض الحكماء صديقاً له صُحبةَ رجل فقال :

« احْذَر فلاناً ، فإنه كثير المَسْألة ، حَسَن البحث ، لطيفُ الاستدراج ، يحفظ أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخَّرْتَ بما قدمتَ ، فلا تُظهِرَنَّ له المخافةَ ، فيرى أنك قد تَحَرَّزْتَ . واعلم أن من يَقَظة الفِطْنَة إظهارَ الغَفْلة مع شدة الحَذَر ، فباثّه مباثَّة الآمن ، وتَحفَّظْ منه تحفظ الخائف ، فإن البحث يُظْهِر الخفيَّ الباطن ، وَيُبْدِى المستكِنَّ الكامن » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١١ — كلمات شتى لبعض الحكماء

عن الأصمعى قال : قال بعض الحكماء :

« من كانت فيه سَبْعُ خِصال لم يَعْدَم سبعاً : من كان جَوَاداً لم يعدم الشرف ، ومن كان ذا وفاء لم يعدم الثِّقَة ، ومن كان صَدُوقاً لم يعدم القَبُول ، ومن كان شَكُوراً لم يعدم الزيادة ، ومن كان ذا رِعاية للحقوق لم يعدم السُّؤْدُد ، ومن كان منصِفاً لم يعدم العافية ، ومن كان متواضعاً لم يعدم الكرامة » .

(الأمالى ٢ : ٣٩)

وقيل لبعض الحكماء : كيف تَرَى الدهر ؟ قال : يُخْلِق الأبدان ، ويُجَدِّد الآمال ، وَيُقَرِّب الآجال ، قيل له : فما حال أهله ؟ قال : من ظَفِر به نَصِب ، ومن فاته حَزِن ، قيل : فأى الأصحاب أبرُّ ؟ قال : العمل الصالح ، قيل : فأيهم أضرُّ ؟ قال : النفس والهوى ، قيل : فيم المَخْرج ، قال . فى قطع الراحة وبذل المجهود .

(الأمالى ٢ : ٥٩)

وأخبر عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلا يقول :

« الحسد ماحِقُ الحَسنَات ، وَالزَّهْو جالبٌ لِمَقْتِ الله ومقت الصالحين ، والعُجْب صَارِفٌ عن الازدياد من العلم ، داع إلى التخمُّط[1] والجهل ، والبخلُ أذَمُّ الأخلاق ، وأجْلَبُهَا لسُوء الأُحْدُوثة » . (الأمالى ١ : ٢٠٠)

وقال : قال بعض العرب :

« أَوْلَى الناس بالفضل أعْوَدُهم بفضله ، وأعونُ الأشياء على تَذْكِية العقل التعلُّم ، وأدلُّ الأشياء على عقل العاقل حسن التدبير » . (الأمالى ١ : ٢١٧)

وقال الأصمعى : العرب تقول :

« لا ثَناء مع الكِبْر ، ولا صديقَ لذى الحسد ، ولا شرفَ لِسَيِّئ الأدب » .

قال : وكان يقال : « شرّ خِصال الملوك الجُبْن عن الأعداء ، والقَسْوَة على الضعفاء ، والبخلُ عند الإعطاء » . (الأمالى ١ : ٢٠١)

وقال أبو علىّ القالى ، وأملى علينا أبو عبد الله قال : من كلام العرب ووصاياها :

« جالِسْ أهل العلم ، فإن جَهِلت علَّموك ، وإن زَلَلْت قوَّموك ، وإن أخطأتَ لم يُفَنِّدُوك[2] ، وإن صَحِبت زانوك ، وإن غِبْتَ تفقَّدوك . ولا تجالس أهل الجهل ، فإنك إن جهِلْتَ عنَّفوك ، وإن زَلَلْتَ لم يقوِّموك ، وإن أخطأتَ لم يثبِّتوك » .
(الأمالى ٢ : ٧٢)

١٢ — رجل من العرب والحجاج

سأل الحجاج رجلا من العرب عن عَشيرته قال : أىُّ عشيرتك أفضل ؟ قال : أتقاهم لله ، بالرَّغبة فى الآخرة ، والزهدِ فى الدنيا ، قال : فأيهم أسْوَد ؟ قال : أرزَنُهم حِلْمًا حين يُسْتَجْهَل ، وأسخاهم حين يُسأل ، قال : فأيهم أدهى ؟ قال : من كتم سِرَّه

(١) تخمط : تكبر وغضب . (٢) فنده : ضعف رأيه وخطأه .

ممن أحبَّ ، مخافةَ أن يُشارَّه يوماً ، قال : فأيهم أكْيَس ؟ قال : من يُصلِح ماله ويقتصد فى معيشته ، قال : فأيهم أرفق ؟ قال : من يعطى بِشْرَ وجهه أصدقاءه ، ويتلطَّف فى مسألته ، ويتعاهد حقوق إخوانه ، فى إجابة دَعَواتهم ، وعيادةِ مَرْضاهم ، والتسليم عليهم ، والمشىِ مع جنائزهم ، والنُّصْح لهم بالْغَيْب ، قال : فأيهم أفطن ؟ قال : من عَرَف مايوافق الرجال من الحديث حين يجالسهم ،قال:فأيُّهُم أصْلبُ ؟:قال من اشتدت عارِضتُه[1] فى اليقين ، وَحَزُم فى التوكل ، ومنع جاره من الظلم .(مجمع الأمثال ٢ : ١٧٨)

١٣ — أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز

ووفد وافد على عمر بن عبد العزيز رحمهُ الله ، فقال له : كيف تركت الناس ؟ فقال :

« تركت غنيَّهم موفوراً ، وفقيرهم مَحْبوراً ، وَظالِمَهم مقهوراً ، ومظلومَهم منصوراً »

فقال : « الحمد لله ، لو لم تتمّ واحدة من هذه الخِصَال إلا بعُضو من أعضائى ، لكان يسيراً » . (الأمالى ٢ : ٣٩)

١٤ — كاتب وأمير

ودخل بعض الكتاب على أمير بعد نكبة نابَتْه ، فرأى من الأمير بعض الازدراء فقال له :

« لايَضَعْنى عندك خُمُول النَّبْوَة ، وزوالُ الثروة ، فإن السيف العتيق إذا مَسَّه كثيرُ الصَّدَإ استغنى بقليل الجَلَاء ، حتى يعود حَدُّه ، ويظهر فِرِنْدُه ، ولم أصف نفسى عُجْباً ، لكن شكراً ، قال صلى الله عليه وسلم : أنا أشرف ولد آدم ولا فخرَ » . فجهر بالشكر ، وترك الاستطالة بالكبر » . (زهر الآداب ٣ : ٩١)

---

(١) العارضة ، الجلد والصرامة والسن .

١٥ — وصف الملباجة

من أمثال العرب : « أعجز منْ هِلْباجَة » وهو النَّئُوم الكسلان العُطُل[١] الجافى ، وقد سار فى وصف الملباجة فصل لبعض الأعراب المتفصِّحين ، وفصل آخر لبعض الحضَريين ، فأما وصف الأعرابى ، فقد سئل ابن أبى كَبْشَة بن القَبَعْثَرَى عنه فقال : « الهِلْباجة : الضعيف العاجز ، الأخرق الأحمق ، الجِلْف[٢] الكسلان ، الساقط لامعنى فيه ، ولا غَناءَ[٣] عنده ، ولا كِفايةَ معه ، ولا عمل لديه » .

وأما وصف الحضرى فإن بعض بُلَغاء الأمصار سئل عن الهلباجة فقال :

« هو الذى لايَرْعَوِى لِعَذْل العاذل ، ولا يُصغِى إلى وعظ الواعظ ، ينظر بعين حَسُود ، ويُعرِضُ إعراضَ حَقُود ، إن سَأَل أَلْحف[٤] ، وإن سُئِل سوّف ، وإن حَدَّث حَلَف ، وإن وَعَدَ أخلف ، وإن زَجَرَ عَنَّف ، وإن قَدَر عَسَف[٥] ، وإن احتمل أَسَفّ[٦] ، وإن استغنى بَطِر ، وإن افتقر قنِط ، وإن فَرِح أَشِر[٧] ، وإن حَزِن يئس ، وإن ضحِك زَأَر ، وإن بكى جَأَر[٨] ، وإن حكم جار ، وإن قَدَّمته تأخر ، وإن أخَّرته تقدم ، وإن أعطاك مَنَّ عليك ، وإن أعطيته لم يشكرك ، وإن أسررتَ إليه خانك ، وإن أَسَرَّ إليك اتهمك ، وإن صار فوقك قَهَرك ، وإن صار دُونك حَسَدك ، وإن وَثِقت به خانك ، وإن انبسطت إليه شانك ، وإن أكرمته أهانك ، وإن غاب عنه الصديق سَلَاه ، وإن حَضَره قَلَاه[٩] ، وإن فاتحه لم يُجِبه ، وإن أمسك عنه لم يَبْدَأه ، وإن بدأ بالودّ هجَر ، وإن بدأ بالبرّ جفا ، وإن تكلم فضَحه العِيُّ ، وإن عمِل قصَّر به

---

(١) عطل كفرح : عظم بدنه ، ومن المال والأدب : خلا فهو عطل كقفل وعنق .

(٢) الجافى . (٣) لاغناء : لا كفاية .

(٤) ألح . (٥) ظلم . (٦) من أسف الطائر : دنا من الأرض فى طيرانه ، أى لم يستطع النهوض بما حمل . (٧) أشر : مرح . (٨) صاح واستغاث .

(٩) أبغضه وكرهه غاية الكراهة .

الجهل ، وإن اؤْتُمِن غَدَر ، وإن أجار أخفر[١] ، وإن عاهد نَـكَثَ ، وإن حَلَفَ حَنِث لَا يَصْدُرُ عنه الآمِلُ إلا بخَيبة ، ولا يضطر إليْه حرٌّ إلا بمِحْنة » .

قال خلف الأحمر : سألت أعرابياً عن الملباجة ، فقال : « هو الأحمق الضَّخْم الفَدْم[٢] الأَكُول الذى والذى . . . ثم جعل يلقانى بعد ذلك ، ويَزيد فى التفسير كل مرة شيئاً ، ثم قال لى بعد حين ـ وأراد الخروج ـ هو الذى جمع كل شرّ » .

(مجمع الأمثال ١ : ٣٣٦)

١٦ ــ بعض البلغاء يصف رجلا

ووصف بعض البلغاء رجلا فقال :

« إنه بَسِيط[٣] الـكف ، رَحْب الصدر ، مُوَطَّأ الأكناف ، سَهْل الخلق ، كَرِيم الطِّباع ، غيْثٌ مُغَوِّث[٤] ، وبحرٌ زَخُور ، ضَحُوك السن ، بشير الوجه ، بادى القَبول[٥] غير عبوس ، يستقبلك بِطَلَاقة ، ويحيِّيك ببِشر ، ويستدبرك بكرم غيث ، وجميل بِشر ، تبْهجك طلاقته ، ويرضيك بشره ، ضَحَّاكٌ على مائدته ، عبْدٌ لضيفانه ، غير ملاحظ لأَكِيله ، بَطِين[٦] من العقل ، خَمِيص[٧] من الجهل ، راجح الحلم ، ثاقب الرأى ، طَيِّب الخلق ، مُحصَن الضَّريبة[٨] معطَاء غير سآل ، كاسٍ[٩] من كل مَـكْرُمة ، عارٍ من كل مَلْأمة ، إن سئل بذل ، وإن قال فعل » .

(زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

---

(١) أخفره وخفر به : نقض عهده وغدره . (٢) الفدم : العيى عن الـكلام فى ثقل ورخاوة ، وقلة فهم ، والغليظ : الأحمق الجافى .

(٣) أى مبسوط الـكف سخى . (٤) غوث تغويثاً : قال واغوثاه .

(٥) القبول بالفتح وقد يضم : الحسن . (٦) أى ممتلئ وأصله : عظيم البطن .

(٧) خميص : خال ، وأصله : الجائع . (٨) الضريبة : الطبيعة ، ومحصن : عف .

(٩) أى مكسو .

١٧ — خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن

عن ابن الكلبي عن أبيه قال :

اجتمع خمسُ جَوَارٍ من العرب ، فقلن : هَلُمُّن نَصِفْ خيلَ آبائنا .
فقالت الأولى :

« فرسُ أبي وَرْدَةْ ، وما وردة ؟ ذات كَفَلٍ مُزَحْلَق ، وَمَتْنٍ أَخْلَق ، وَجَوْفٍ أَخْوَق[1] ، وَنَفْسٍ مَرُوح ، وَعَيْنٍ طَرُوح ، وَرِجْلٍ ضَرُوح ، وَيَدٍ سَبُوح[2] ، بُدَاهَتُهَا إِهْذَابٌ ، وَعَقْبُهَا غِلَابٌ[3] » .

وقالت الثانية :

« فرسُ أبي اللَّعَاب ، وما اللَّعاب ؟ غَبْيَة سَحاب ، واضطرامُ غاب ، مُتْرَصُ الأوصال ، أشمُّ القَذَال ، مَلَاحِكُ المَحَال[4] ، فارسُهُ مجيد ، وَصَيْدُه عتيد ، إن أقبل فَظَبْيٌ مَعَّاج ، وإن أدبر فَظَلِيمٌ هَدَّاج ، وإن أحضر فَعِلْجٌ هَرَّاج[5] » .

وقالت الثالثة :

« فرس أبي حُذَمَة ، وما حُذَمة ؟ إن أقبلتْ فَقَنَاةٌ مُقَوَّمة ، وإن أدبرتْ فأثفية

---

(١) المزحلق : المملس الذي كأنه زحلوقة (بالضم) وهي آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل . والأخلق : الأملس ، وأخوق : واسع . (٢) مروح : كثيرة المرح ، طروح : بعيدة موقع النظر ، ضروح : دفوع ، يريد أنها تضرح الحجارة برجليها إذا عدت ، سبوح : كأنها تسبح في عدوها من سرعتها . (٣) بداهتها : فجاءتها ، والبداهة والبديهة واحد ، والإهذاب : السرعة ، والعقب : جري بعد جري ، وغلاب مصدر ، غالبته مغالبة وغلابا ، كأنها تغالب اخرى.

(٤) الغبية : الدفعة من المطر . والغاب جمع غابة : وهي الأجمة ، مترص : محكم ، أترصت الشيء : أحكمته . أشم : مرتفع ، القذال : معقد العذار (والعذار من اللجام ككتاب : ما سال على خد الفرس) . ملاحك مداخل (بفتح الخاء) كأنه دوخل بعضه في بعض ، والمحال جمع محالة : وهي فقار الظهر (كسحاب) جمع فقارة وذكر الأصمعي أنه رأى فقار فرس ميت ، فإذا ثلاث فقر من عظم واحد ، وكذا تكون العراب فيما ذكروا . (٥) مجيد : صاحب جواد . عتيد : حاضر ، معج في سيره وعمج : إذا أسرع ، والهدج كشمس : المشي الرويد ويكون السريع . والعلج : حمار الوحش السمين القوي . وهرج الفرس : كضرب اذا كان كثير الجري .

مُلَمْلَمَةَ ، وإن أعرَضَتْ فَذِئْبة مُعَجْرِمَة[١] ، أرساغُها مُتْرَصَة ، وفصوصُها مُمَحَّصَة ، جَرْيُهَا انْـثِرَارٌ ، وَتَقْرِيبُها انـكِدار[٢] » .

وقالت الرابعة :

« فرسُ أبي خَيْفَق ، وما خَيْفَق ؟ ذاتُ ناهِق مُعْرَق ، وَشِدْق أشدق ، وأديمٍ مُمَلَّق[٣] ، لها خَلْقٌ أشْدَف ، وَدَسِيعٌ مُنَفْنَف ، وَتَليلٌ مُسَيَّف[٤] وَثَّابَة زَلُوج ، خَيْفَانَة رَهُوج ، تقريبُها إِهْمَاج ، وَحُضْرُها ارتعاج[٥] » .

وقالت الخامسة :

« فرس أبي هُذْلول ، وما هُذْلول ؟ طَرِيدُه مَحْبُول ، وَطَالِبُهُ مَشْكُول ، رَقِيقُ اللَّاغِم ، أمينُ المَعَاقِم[٦] ، عَبْلُ المَحْزِمِ ، مِخَدٌّ مِرْجَم[٧] ، مُنِيفُ الحَارِك ، أشمّ

---

(١) ملمة : فعلة من الحلم وهو السرعة أو القطع ، فقناة مقومة تريد أنها دقيقة المقدم ، وهو مدح في الإناث ، والأثفية : الحجر توضع عليه القدر ، ململمة : مجتمعة ، تريد أنها مدورة المؤخر ، لأن الأثافي تختار مدورة ، معجرمة بكسر الراء اسم فاعل من العجرمة ، وهي إسراع في مقاربة خطو . قال الشاعر :

أمّا إذا يعدو فثعلب جَرْيَةٍ . أو ذئبُ عادية يعجرِم عجرمه

ويقال ناقة معجرمة بفتح الراء : أي شديدة . (٢) ممحصة : قليلة اللحم قليلة الشعر ا محص الجلد كفرح ، إذا سقط شعره واملاس . انثرار : انصباب ، كأنه ينثره نثرا ، والتقريب : ضرب من العدو أو أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً . ، وانكدر : أسرع وانقض . وانكدر عليه القوم : انصبوا .

(٣) خيفق : فيعل من الخفق كشمس : وهو السرعة . الناهقان : العظمان الشاخصان في خدى الفرس معرق : قليل اللحم . أشدق : واسع الشدق . ملق : ملس . (٤) الأشدف : العظيم الشخص . والشدف محركة : الشخص . الدسيع : مغرز العنق في الكاهل . منفنف : واسع من النفنف كجعفر : وهو الهواء بين السماء والأرض . التليل : العنق . مسيف : كأنه سيف .

(٥) زلوج : سريعة . الزليج والزلجان بالتحريك : السرعة . الخيفانة : الجرادة التي فيها نقط سود تخالف سائر لونها . وإنما قيل للفرس : خيفانة لسرعتها لأن الجرادة إذا ظهر فيها تلك النقط كان أسرع لطيرانها. رهوج : كثيرة الرهج . (والرهج بالتحريك : الغبار) أهمج الفرس إهماجا : إذا اجتهد في عدوه . والحضر : ارتفاع الفرس في عدوه . الارتعاج : كثرة البرق وتتابعه .

(٦) محبول : في حبالة . مشكول : موثق في شكال (الشكال ككتاب : الحبل تشد به قوائم الدابة) اللاغم من الإنسان : ما حول الفم . أرادت هاهنا الجحافل (والجحافل جمع جحفلة بالفتح بمنزلة الشفة للخيل البغال والحمير) والمعاقم : المفاصل . (٧) عبل : غليظ . والمحزم موضع الحزام . مخد : يخد الأرض أي يجعل فيها أخاديد (والأخاديد : الشقوق جمع أخدود) . مرجم : يرجم الحجر بالحجر . أو يرجم الأرض بحوافره .

السَّنَابِكِ ، مَجْدُولُ الخَصَائِلِ ، سَبِطُ الغَلَائِلِ[1] ، غَوْجُ التَّلِيلِ ، صَلْصَالُ الصَّهِيلِ ، أَدِيمُهُ صافٍ ، وَسَبِيبُهُ ضَافٍ[2] ، وَعَفْوه كافٍ » .
(الأمالى ١ : ١٩٠)

١٨ — رجل من العرب يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

سئل رجل من العرب عن مطر كان بعد جَدْب فقال :

« نشأ حَمَلاً[3] سَدًّا متقاذِفَ الأحضان ، مُحْمَوْمِيَ الأركان ، لَمَّاعَ الأقراب ، مُسْكَفْهِرَّ الرَّبَاب ، تَحِنُّ رُعودُهُ حنينَ اضطرابٍ ، وَتَزْمَجِرُ زَمجرةَ اللُّيوثِ الغِضَاب ، لبوارِقِه التهابٌ ، وَلِرَوَاعِدِه اضطرابٌ ، فجاحَفَتْ[4] صدورُهُ الشِّعَافَ ، وركبت أعجازُه القِفَافَ ، ثم ألقى أعْبَاءه ، وَحَطَّ أثقاله ، فتألّق وأصعق[5] ، وانبجس وانبَعَق ، ثم أنجم فانطاق ، فغادر النِّهاءَ[6] مُتْرَعَةً ، وَالْغِيطانَ مُمْرِعَةً ، حياءً للبلاد ، ورزقًا للعباد » .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٠٠)

---

(١) منيف : مرتفع ، والحارك : منبت أدنى العرف إلى الظهر الذى يأخذ به من يركبه ، والسنابك : أطراف الحوافر جمع سنبك كقنفذ ، مجدول : مفتول ، الخصائل : جمع خصيلة وهى كل قطعة من اللحم مستطيلة أو مجتمعة ، الغليل : الشعر المجتمع ، ويقال للقطعة من الشعر : الغليلة ، سبط : مسترسل .

(٢) الغوج : اللين المنعطف ، والصلصلة صوت الحديد ، وكل صوت حاد ، والسبيب : شعر الناصية : ضاف : سابغ .

(٣) الحمل : السحاب الكثير الماء ، والسد : الذى قد سد الأفق ، احموى : اسود ، والأقراب جمع قرب كقفل وعنق وهو الخاصرة ، والرباب : السحاب الأبيض . (٤) جاحفه : زاحمه وداناه ، والشعاف جمع شعفة كرقبة : وهى رأس الجبل ، والقفاف جمع قف بالضم وهو ما غلظ من الأرض وارتفع لم يبلغ أن يكون جبلا . (٥) صعقتهم السماء وأصعقتهم : ألقت عليهم صاعقة ، وانبجس : انفجر بالماء وانبعق السحاب : انبعج بالمطر واندفع ، والانبعاق : أن يندفع عليك الشىء فجأة وأنت لا تشعر ، وأنجمت السماء : أسرع مطرها . (٦) النهاء جمع نهى بالكسر والفتح : الغدير ، ومترعة : مملوءة ، والغيطان جمع غائط : وهو المطمئن الواسع من الأرض ، ممرعة : مخصبة ، حياء : عطاء .

الباب الثالث

في

نثر الأعراب

قولهم في الوعظ والتوصية

١ — مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

قام أعرابيٌّ بين يدَيْ سليمان بن عبد الملك ، فقال :

« إني مُكَلِّمك يا أمير المؤمنين بكلامٍ فيه بعض الغِلْظَة ، فاحتمِلْه إن كرِهْتَه ، فإنَّ وَراءه ما تُحبُّه إن قبِلْتَه » ، قال : هاتِ يا أعرابي : إنا نجود بسَعَة الاحتمال على من لانرجو نُصْحَه ، ولا نأمَن غِشَّه ، وأرجو أن تكون الناصحَ جَيْباً ، المأمون غَيْباً ، قال : « يا أمير المؤمنين أما إذ أمنت بَادِرَة غضبك ، فإني سأُطْلِق لساني بما خَرِسَتْ عنه الألسُن من عِظَتك ، تأديةً لحقِّ الله وحقِّ إمامتك . إنه قد اكْتَنفَك رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم ، فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسُخْط ربهم ، خافُوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للآخرة ، سِلْم للدنيا ، فلا تأْمَنْهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لا يألُونك[1] خَبَالاً ، والأمانةَ تضييعاً ، والأمةَ عَسْفاً وَخَسْفاً[2] ، وأنت مسئول عما اجترحوا[3] ، وليسوا مسئولين عما اجترحْتَ ، فلا تُصْلِح دنياهم بفساد آخرتك . فإن أخسر الناس صَفْقَةً يوم القيامة ، وأعظمهم غَبْناً من باع آخرته بدنيا غيره »

(١) ألا يألو : قصر وأبطأ ، والخبال : الفساد . (٢) العسف : الظلم . والخسف : الذل .
(٣) اكتسبوا ، وفي رواية : « اجترموا » .

قال سليمان : « أمّا أنت يا أعرابى ، فقد سَلَلْتَ لسانك ، وهو أقطع سَيْفيك » ، فقال : « أجَلْ يا أمير المؤمنين لك لا عليك » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، والعقد الفريد ١ : ٣٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ . وزهر الآداب ١ : ٢٧٧)

٢ — أعرابى يعظ هشام بن عبد الملك

ودخل أعرابى على هشام بن عبد الملك ، فقال له : عِظْنى يا أعرابى ، فقال :

« كفى بالقرآن واعظاً ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ(١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، ثم قال « يا أمير المؤمنين ، هذا جزاء من يُطَفِّف فى الكيل والميزان ، فما ظنُّك بمن أخذه كله(٢) ؟ » . (العقد الفريد ٢ : ٨٤)

٣ — خطبة أعرابى(٣)

وولّى جعفر بن سليمان(٤) أعرابيًا بعضَ مياههم(٥) فخطبهم يوم الجمعة فقال :

« الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، أما بعد : فإن الدنيا دارُ بَلاغ(٦) ، والآخرة دار قَرار ، فخذوا لِمَقَرِّكم من مَمَرِّكم ، ولا تَهْتِكوا أستاركم عند من لا تَخْفَى عليه أسرارُكم ، وأخرِجوا من الدنيا قلوبَكم ،

---

(١) طفف : نقص المكيال . (٢) وروى صاحب العقد أيضاً هذه العظة (ج ١ ص ٣٠٦) وذكر أنها لابن السماك وعظ بها الرشيد .

(٣) قدمنا فى الجزء الثانى ص ٤٨٢ أن هذه الخطبة متنازع فيها ، فهى تعزى تارة إلى الإمام على كرم الله وجهه ، وأخرى إلى سحبان وائل ، وثالثة إلى أعرابى . (٤) هو ابن عم أبى جعفر المنصور ، وكان والياً على المدينة سنة ١٤٦ — ١٥٠ هـ . (٥) فى مجمع الأمثال : « عن الأصمعى قال : حدثنى شيخ من أهل العلم قال : شهدت الجمعة بالضرية « ضرية كغنية : قرية بين البصرة ومكة » وأميرها رجل من الأعراب ، فخرج وخطب ، ولف ثيابه على رأسه ، وبيده قوس فقال . . . . وأورد هذه الخطبة » ، وفى الكامل للمبرد : « قال الأصمعى فيما بلغنى خطبنا أعرابى بالبادية فحمد الله . . . » .

(٦) وفى رواية الميدانى ، وعيون الأخبار « بلاء » وفى رواية العقد « دار ممر والآخرة دار مقر »

قبل أن تخرُج منها أبدانُكم، ففيها حَيِيتم، ولغيرها خُلِقتم، اليوم عملٌ بلا حساب، وغداً حسابٌ بلا عمل، إن الرجل إذا هَلَك، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة: ماقدَّم؟ فلله آباؤكم! قدِّموا بعضاً، يكون لكم قَرْضاً، ولا تخلِّفوا كُلًّا، يكون عليكم كَلًّا[1]، أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم، والمحمود الله، والمصلَّى عليه محمد، والمدعوُّ له الخليفة، ثم إمامكم جعفر بن سليمان، قُوموا إلى صلاتكم».

(الأمالى ١ : ٢٤٨، والعقد الفريد ٢ : ١٦٤، وتهذيب الكامل ١ : ٢٨ ومجمع الأمثال ١ : ٣١٨، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣، وزهر الآداب ٢ : ٤).

٤ — خطبة أخرى

وخطب أعرابى فقال:

« الحمد لله الحميد المستحمَد، وصلى الله على النبى محمد.

أما بعد: فإن التعمُّق فى ارتجال الخطب لَمُمكن، والكلام لا يَنثنى حتى يُنْثَنَى عنه، والله تبارك وتعالى لا يُدْرِكُ واصفٌ كُنْهَ صفته، ولا يَبلغ خطيبٌ مُنتهَى مِدْحته، له الحمدُ كما مدح نفسه، فانهَضوا إلى صلاتكم» ثم نزل فصلَّى. (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٥ — خطبة أخرى

وخطب أعرابى قومه فقال:

« الحمد لله، وصلى الله على النبى المصطفى وعلى جميع الأنبياء، ما أقبح بمثلى أن يَنهَى عن أمرٍ ويرتكبَه، ويأمر بشىء ويجتنبَه، وقد قال الأول:

وَدَعْ ما لُمْتَ صاحِبَه عليه ... فَذَمٌّ أَن يَلومَك مَنْ تَلُومُ

ألهمنا الله وإياكم تقواه، والعملَ برضاه». (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٦ — أعرابية توصى ابنها وقد أرادالسفر

قال أبَانُ بن تَغْلِب — وكان عابداً من عُبَّاد أهل البصرة توفى سنة ١٤١ هـ — شَهِدْتُ أعرابية وهى توصى ولداً لها يريد سفراً وهى تقول له:

---

(١) الكل: الثقل.

« أىْ بُنَىّ اجاس أَمْنَحْك وصيتى ، وبالله توفيقُك ،فإن الوصية أَجْدَى[1] عليك من كثير عقلك ، أىْ بُنَىّ . إياكَ والنَّميمةَ فإنها تزرع الضَّغينة ، وتفرق بين المُحِبِّين ، وإياكَ والتعرضَ للعيوب فَتُتَّخَذَ غرَضاً[2] ، وَخَلِيق أن لا يَثْبُتَ الغرضُ على كثرة السِّهام ، وقلما اعتورت[3] السِّهام غَرضا إلا كَلَمَتْه[4] حتى يَهِيَ[5] ما اشتد من قوّته ، وإياكَ والجودَ بدينك، والبخلَ بمالك ، وإذا هززتَ فَاهزُز كريماً يلين لهزّتك، ولا تهزُز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها ، وَمَثِّل لنفسك مِثالَ ما استحسنْتَ من غيرك فاعمَلْ به ، وما استقبحْتَ من غيرك فاجتنِبْه ، فإن المرء لا يرى عيبَ نفسه ، ومن كانت مودَّتُه بِشْرَه ، وخالَف ذلك منه فعلُه ، كان صديقُه منهُ على مِثْل الرِّيح فى تصرُّفها » ثم أمسكت ، فدنوتُ منها ، فقلت : بالله يا أعرابيةُ إلَّا زِدْتِهِ فى الوصية ، فقالت : أوَقد أعجبك كلام العرب يا عراق ؟ قلت : نعم ، قالت : والغدرُ أقبح ما تعامَل به الناس بينهم ، ومن جمع الحِلْمَ والسَّخاء فقد أجاد الحُلَّةَ[6] : رَيْطَتَها وَسِرْبالَهَا .

(الأمالى ٢ : ٨١ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٥ ، وبلاغات النساء ص ٥٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٢١) .

٧ — أعرابية توصى ابنها

وقالت أعرابية لابنها :

« يا بُنَىّ ، إن سؤالَك الناسَ ما فى أيديهم من أشدّ الافتقار إليهم ، ومن افتقرْتَ إليه هُنْتَ عليه ، ولا تزال تُحفَظ وَتُكرَم ، حتى تسأل وَترْغَب ، فإذا ألحّتْ عليك الحاجةُ ، ولزِمك سوءُ الحال ، فاجعل سؤالك إلى من إليه حاجةُ السائل والمسئول ، فإنه يُعطى السائل » . (العقد الفريد ٢ : ٨٥)

---

(١) أنفع (٢) هدفا . (٣) تداولت . (٤) جرحته وحطمته .

(٥) وهى يهى : ضعف .

(٦) الحلة لا تكون إلا من ثوبين إزار ورداء ، والريطة : الملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، والسربال : القميص.

٨ — أعرابى يوصى ابنه

ووصى أعرابىّ ابنهُ فقال :

« ابذُل المودَّةَ الصادقة تستفدْ إخوانًا ، وتتخذْ أعوانًا ، فإن العداوة موجودة عَتِيدة ، والصداقة مُسْتَعْزَرَة[1] بعيدة ، جنِّب كرامتَك اللئام ، فإنهم إن أحسنتَ إليهم لم يشكروا ، وإن نزلتْ شديدة لم يصبِرُوا » . (الأمالى ١ : ٢٠١)

٩ — أعرابى ينصح لابنه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيًّا يقول لابنه :

« لا يَغُرَّنك ما ترى من خَفْض العيش ، ولين الرِّياش[2] ، ولكن فانظر إلى سوء الظَّعْن ، وسوء المُنْقَلَب » . (الأمالى ٢ : ٥٩)

١٠ — أعرابى ينصح لابنه

وقال : سمعت أعرابيًّا يقول لابنه :

« كن للعاقل المُدْبِر أرجَى منك للأحمق المُقْبِل » ، ثم أنشد :

عَدُوُّك ذو الحِلم أبقَى عليك ... وأرعَى من الوَامِق الأحمق[3]

(ذيل الأمالى ص ٣٤)

١١ — أعرابى ينصح لأخيه

ونصح أعرابى لأخيه ، فقال :

« اعلم أن الناصح لك ، المشفِقَ عليك ، مَنْ طالع لك ما وراء العواقب بروِيّته ونظره ، ومَثَّل لك الأحوال المَخُوفةَ عليك ، وخَلَط الوَعْر بالسهل من كلامه ومَشُورته ليكون خوفك كِفاءً[4] رجائك ، وشكرك إزاء النِّعمة عليك ، وأن الغاشَّ لك ،

---

(١) مستعزرة : منقبضة شديدة . (٢) الخصب والمعاش .
(٣) الوامق : المحب . (٤) مكافئاً .

والحاطب[1] عليك، مَنْ مَدَّ لك فى الاغترار، ووطَّأ لك مِهادَ[2] الظُّلْم، تابعاً لمرضاتك منقاداً لهواك ». (الأمالى ٤ : ١٩٨)

١٢ — أعرابى يعظ أخاه

ووعظ أعرابى أخاً له أفسد ماله فى الشَّراب، فقال:

« لا الدهرُ يَعظك، ولا الأيام تُنْذِرك، ولا الشَّيْب يَزْجُرك، والساعاتُ تُحصَى عليك، والأنفاسُ تُعَدُّ منك، والمنايا تُقاد إليك، أحبُّ الأمور إليك، أعْوَدُها بالمضَرَّة عليك ».

(العقد الفريد ٢ : ٨٥، والأمالى ١ : ١٩٨، وزهر الآداب ٣ : ١١٥)

١٣ — أعرابى يعظ صاحبه

وقال أعرابى لصاحبه:

« والله لئن هَمْلَجْتَ[3] إلى الباطل، إنك لقَطُوف[4] عن الحق. ولئن أبطأتَ لَيُسْرَعَنَّ بك، وقد خسِر أقوام وهم يظنون أنهم رابحون، فلا تغرنَّك الدنيا، فإن الآخرة من ورائك ». (البيان والتبيين ٢ : ١٥٨، والعقد الفريد ٢ : ٨٦)

١٤ — أعرابى يعظ أخاه

وقال أعرابى لأخيه:

« يا أخى: أنت طالب ومطلوب، يَطلُبُك مالا تَفُوته، وتطلُب ما قد كُفيتَه. فكأن ماغاب عنك، قد كُشِف لك، وما أنت فيه قد نُقِلْتَ عنه، فامْهَدْ[5] لنفسك، وأعِدَّ زادك، وخذ فى جِهازك ». (العقد الفريد ٢ : ٨٤)

---

(١) هو حاطب ليل: أى مخلط فى كلامه. (٢) المهاد: الفراش.

(٣) من هملج البرذون: مشى مشية سهلة فى سرعة.

(٤) من قطفت الدابة كنصر وضرب: ضاق مشيها، فهى قطوف.

(٥) أى مهد وأعدد.

١٥ — أعرابى يعظ رجلا

وقال أعرابى لرجل :

« أىْ أخى : إنّ يَسَار النفسِ أفضلُ من يسار المال ، فإن لم تُرزق غِنًى فلا تُحْرَمْ تقوى ، فَرُبَّ شَبْعَانَ من النِّعم ، عُرْيَانٌ من الكرم ، واعلم أن المؤمن على خَيْر : تُرَحِّب به الأرض ، وتستبشِر به السماء ، ولن يُسَاء إليه فى بَطْنها ، وقد أحْسَنَ على ظهرها » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٥)

١٦ — أعرابى يعظ رجلا

وقال الأصمعى : سمعت أعرابيًّا يعظ رجلا وهو يقول :

« وَيْحَكَ! إن فلانًا وإن ضحِك إليك، فإنه يضحك منك،ولئن أظهر الشفقةعليك، إن عقاربه لَتَسْرِى إليك،فإن لم تتخذه عدوًّا فى علانيتك، فلا تجعلْه صديقًا فى سريرتك» .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٧ — أعرابى يعظ رجلا

وَسمع أعرابى رجلا يقع فى السلطان ، فقال :

« إنك غُفْل لم تَسِمْك التجارِبُ ، وفى النصح لَسْعُ العقارب ، كأنى بالضاحك إليك ، وهو باكٍ عليك » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٨ — كلام أعرابى لابن عمه

وشاور أعرابىّ ابنَ عَمٍّ له ، فأشار عليه برأى ، فقال :

« قد قلتَ بما يقول به الناصح الشفيق الذى يخلط حُلْو كلامه بِمُرِّه ، وَحَزْنَه بسَهْله ويحرِّكُ الإشفاقُ منهُ ماهو ساكِنٌ من غيره ، وقد وَعَيْتُ النصح منهُ وَقَبِلته ، إذ كان مصدرُه من عند من لا شكَّ فى مودّته ، وصافِى غَيْبه ، وما زلتَ بحمد الله إلى الخير مَنْهجًا واضحًا ، وطريقًا مَهْيَعًا[1] » .

(الأمالى ٢ : ٨٢)

---

(١) طريق مهيع : بين واضح .

١٩ — كلمات حكيمة للأعراب

قيل لأعرابى : مَالَكَ لا تشرب النَّبيذ ؟ قال : « لثلاثِ خِلاَلٍ فيه : لأنه مُتْلِف للمال ، مُذْهب للعقل ، مُسْقِط للمُرُوءة » .

وقال أعرابى : « الدراهم مَيَاسِم[1] ، تَسِمُ حمداً وَذمّا ، فمن حَبَسها كان لها ، ومن أنفقها كانت له ، وما كلُّ مَنْ أعْطى مالاً أعْطى حَمْداً ، ولا كل عَدِيم ذميم » .

وقال أعرابى لأخ له : « يا أخى إنَّ مالك إنْ لم يكن لك كنتَ له ، وإن لم تُفْنه أفناك ، فكُلْه قبل أن يأكلك » .

وقال أعرابى : « إنَّ الموفَّق مَن تَركَ أرفَق الحالات به ، لأصْلَحِها لدينه ، نَظَراً لنفسه ، إذا لم تنظر نفسُه لها » .

وقال أعرابى : « إن الله مُخلِف ما أتلفَ الناسُ ، والدهر مُتْلِفٌ ما أخْلَفُوا ، وكم من مِيتَةٍ عليها طَلَبُ الحياة ، وكم من حياةٍ سَبَبُهَا التعرضُ للموت » .

وقال أعرابى : « إن الآمال قطعتْ أعناقَ الرِّجال ، كالسَّرَابِ غرَّ من رآه ، وأخلَفَ من رجاه » .

وقال أعرابى لصاحب له : « أصْحَب من يتناسى مَعْرُوفَه عليك ، ويتذكر حقوقَك عليه » .

وقال أعرابى : « لا تسأل من يَفِرُّ من أن تسأله ، ولكن سَل مَنْ أمرَكَ أن تسأله ، وهو الله تعالى » .

وقال أعرابى : « ما بقاء عُمْرٍ تقطعهُ الساعاتُ ، وسلامةُ بدنٍ مُعَرَّضٍ للآفاتِ ؟ ولقد عجبتُ من المؤمن ! كيف يكره الموتَ ؟ وهو يَنْقُله إلى الثواب الذى أحيا له ليلَه وأظمأ له نهارَه » .

---

(١) مياسم جمع ميسم بالكسر : وهو المكواة .

وذُكر أهلُ السلطان عند أعرابى فقال: « أمَا والله لئن عَزّوا فى الدنيا بالجَوْر ، لقد ذَلّوا فى الآخرة بالعدل ، وَلقد رضُوا بقليلٍ فانٍ ، عِوَضاً عن كثير باقٍ ، وإنما تَزِلُّ القدمُ حيث لا ينفع الندم » .

وقال أعرابى : « من كانت مطيتُه الليل وَالنهار ، سارا به وإن لم يَسِرْ ، وبلغا به وإن لم يبلغ » .

وقال أعرابى : « الزهادة فى الدنيا مِفتاح الرغبة فى الآخرة ، والزهادة فى الآخرة مفتاح الرغبة فى الدنيا » .

وقيل لأعرابى وقد مرض : إنك تموت ! قال : « وإذا مُتُّ فإلى أين يُذْهَب بى ؟ » قالوا : « إلى الله تعالى » ، قال : « فما كراهتى أن يُذْهَبَ بى إلى من لم أر الخير إلا منه ؟ » .

وقال أعرابى : « من خاف الموتَ بادر الموتَ ، ومن لم يُنَحِّ النفسَ عن الشهوات ، أسرعت به إلى المَلَكات ، والجنة والنار أمامك » .

وقال أعرابى : « خيرٌ لك من الحياة ما إذا فقدتَه أبغضتَ له الحياة ، وشرٌّ من الموت ما إذا نزل بك أحببتَ له الموتَ » .

وقيل لأعرابى : من أحقُّ الناس بالرحمة ؟ قال : « الكريمُ يُسَلَّط عليه اللئيم ، والعاقلُ يسلَّط عليه الجاهل » .

وقيل له : أىُّ الداعين أحقُّ بالإجابة ؟ قال: المظلوم ، وقيل له : فأى الناس أغنى عن الناس ؟ قال: « من أفرد الله بحاجته » .

وقال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول : « إذا أشكل عليك أمران ، فانظر أيهما أقرب من هواك فخالفه ، فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى » .

وقال أعرابى : « الشرُّ عاجِلُه لذيذ ، وآجِلُه وَخِيم » .

وقال أعرابى : « من ولد الخيرَ أنتج له فِراخاً تطير بأجنحة السرور ، ومن غرس الشّر أنبت له نباتاً مُرّاً مَذَاقه ، وَقضبانه الغيظُ ، وثمرته الندم » .

وقال أعرابى : « من كساهُ الحَيَاء ثوبَه ، خَفِىَ على الناس عيبه » وقال : « بئس الزاد ، التَعَدِّى على العباد » ، وقال : « التلطُّف بالحيلة ، أنفع من الوسيلة » ، وقال : « من ثَقُلَ على صديقه ، خفَّ على عدوِّه ، ومن أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه مالا يعلمون » .

وقال أعرابى : « أعجزُ الناس مَنْ قصَّر فى طلب الإخوان ، وأعجز منهُ من ضيَّع من ظَفِر به منهم » .

وقال أعرابى لابنه : « لا يسرك أن تغلب بالشرّ ، فإن الغالب بالشرّ هو المغلوب » .

وقال أعرابى لأخ له : « قد نهيتك أن تُريق ماء وجهك عند من لا ماء فى وَجْهِه ، فإن حَظَّك مِن عطيَّته السؤالُ » .

وقال أعرابى : « إن حبّ الخير خير وإن عجزتْ عنهُ المقدِرة ، وبغض الشرّ خير وإن فعلتَ أكثره » .

وقال أعرابى : « والله لولا أن المروءةَ ثقيل مَحْمِلُها[1] ، شديدة مُؤْنتها ، ما ترك اللئام للكرام شيئاً » .

واحتُضِر أعرابى ، فقال لهُ بنوه : عِظْنا ياأبتِ ، فقال : « عاشروا الناس معاشرةً ، إن غبتم حنُّوا إليكم ، وَإن متم بَكَوْا عليكم » .

ودخل أعرابى على بعض الملوك فى شَمْلة[2] شعر ، فلما رآه أعرض عنه ، فقال له : « إن الشَّملة لا تكلمك ، وإنما يكلمك مَن هو فيها » .

وقال أعرابى : « رُبَّ رجل سِرُّه منشور على لسانه ، وآخر قد التحفَ عليه قلبهُ التحافَ الجَناح على الخَوَافِى » .

---

(١) المحمل فى الأصل : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان . (٢) كساء دون القطيفة يشتمل به .

وقيل لأعرابى : كيف كتمانك للسرّ ؟ قال : « ما جوفى له إلا قَبْرٌ » .

ومرّ أعرابيان برجل صلبه بعض الخلفاء ، فقال أحدهما : أَنْبَتَتْهُ الطاعةُ ، وَحَصَدَتْه المعصية ، وقال الآخر : « من طَلَّقَ الدنيا فالآخرة صاحِبته ، ومن فارق الحق فالجِذْعُ راحلته » .

وقال أعرابى : « إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ، ودوامَ عهده ، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه ، وشوقه إلى إخوانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه » .

وقال أعرابى : « إذا كان الرأى عند من لايُقْبَل منه ، والسلاح عند من لايستعمله، والمال عند من لا ينفقه ، ضاعت الأمور » . (العقد الفريد ٢ : ٨٥ — ٨٧)

وقال أعرابى : « إن الدنيا تنطق بغير لسان ، فتخبر عما يكون بما قد كان » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٠)

وقال الأصمعى : سمعت أعرابياً يقول : « غَفَلْنا ولم يغفُل الدهر عنا ، فلم نتعِظ بغيرنا ، حتى وُعِظَ غيرُنا بنا ، فقد أدركت السعادةَ مَنْ تنبَّه ، وأدركت الشقاوة من غفَل ، وكفى بالتجربة واعظاً » . (زهر الآداب ٢ : ٥)

وقال أعرابى لرجل : « اشكُر للمنعِم عليك ، وأَنْعِم على الشاكر لك ، تستوجِبْ من ربك زيادته ، ومن أخيك مُناصحتَه » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

وتذاكر قوم صِلَةَ الرَّحِم ، وأعرابىٌّ جالس ، فقال : « مَنْسَأَةٌ[1] فى العمر ، مَرْضاةٌ للربّ ، محبَّة فى الأهل » . (الأمالى ١ : ٢١٧)

وقال أعرابى : « لا أعرف ضُرًّا أَوْصَل إلى نِياط القلب ، من الحاجة إلى من لم تَثِق بإسعافه ، ولا تأمَن رَدَّه ، وأَكْلَمُ المصائب فَقْدُ خليلٍ لا عِوَضَ منه » .

وقيل لأعرابى : أى شىء أمتع ؟ فقال : « مُمازحةُ المُحِبّ ، ومحادثة الصديق ، وأمانىّ تقطع بها أيامَك » .

---

(١) إطالة .

وقال أعرابى : « من لم يرضَ عن صديقه إلا بإيثاره على نفسه ، دام سَخطُه ، وَمن عاتب على كل ذنب كثُر عدوّه ، ومن لم يؤاخِ من الإخوان إلا مَن لا عيبَ فيه قَلَّ صَدِيقه » . (الأمالى ١ : ٢١٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابى ما تقول فى المِراء ؟ قال : « ما عسى أن أقول فى شىء يُفسد الصداقة القديمة ، وَيحُلّ العُقدة الوثيقة ، أقلُّ ما فيه أن يكون دُرْبَةً للمغالبة ، والمغالبةُ من أمتَنِ أسبابِ الفتنة » . (الأمالى ١ : ٢٥٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيًا يقول : « لا يوجَد العَجُول محموداً ، ولا الغَضُوبُ مَسْروراً ، ولا المَلُول ذا إخوان ، ولا الحُرُّ حريصاً ، ولا الشَّرِه غنياً » .

وقال : سمعت أعرابيًا يقول : « صُن عقلك بالحلم ، وَمُروءتك بالعفاف ، ونجدتك بتجانبة الخُيلاَء ، وخَلَّتك[1] بالإجمال فى الطلب » (الأمالى ٢ : ٣٢)

وقال : سمعت أعرابيًا يقول : « أقبحُ أعمال المقتدرين الانتقام ، وما استُنْبِطَ الصوابُ بمثل المشاورة ، ولا حُصِّلَت النعم بمثل المواساة ، ولا اكتسِبَتْ البغضاء بمثل الـكِبْر » . (الأمالى ٢ : ٣٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

وقال أعرابى : « خير الإخوان من يُنيلُ عُرْفًا ، أو يدفع ضرًّا » .
(الأمالى ٢ : ٤١)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيًا يقول : « العاقِل حقيقٌ أن يُسَخّىَ بنفسه عن الدنيا ، لعلمه أن لا ينال أحد فيها شيئًا إلا قَلَّ إمتاعُهُ به ، أو كَثُرَ عَنَاؤُه فيه ، واشتدت مَرزِئَتُه[2] عليه عند فِراقه ، وَعَظُمَت التَّبِعَة فيه بعده » .
(الأمالى ٢ : ٤١)

وقال أعرابى : « خَصْلتان من الـكرم : إنصاف الناس من نفسك ، ومواساة الإخوان » . (الأمالى ٢ : ٧٣)

---

(١) الخلة : الفقر (٢) المرزئة والرزء والرزيئة : المصيبة .

وقال أعرابى : « ما غُبِنْتُ قَطُّ حتى يُغْبَن قومى » ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : « لا أفعل شيئًا حتى أشاوِرهم » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

وقال أعرابى لرجل مَطَلَه فى حاجة : « إن مِثْل الظفر بالحاجة تعجيل اليأس منها ـ إذا عَسُر قضاؤُها ، وإن الطلب وإن قَلَّ ، أعظمُ قدراً من الحاجة وإن عَظُمَتْ ، والمطلُ من غير عُسْرٍ آفةُ الجود » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

وقال أعرابى : « وَعد الكريم نَقْد وتعجيل ، ووعد اللئيم مَطْلٌ وتعليل » .. (البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

وقال أعرابى : « اعتذارٌ من مَنْع ، أجملُ من وَعْدٍ مَمْطول » . (الأمالى ٢ : ١٩٨)

وقال أعرابى : « عوِّد لسانَكَ الخيرَ ، تسلمْ من أهل الشرِّ » . (ذيل الأمالى ص ٢٩)

وَقال أعرابى : « خرجت ليلة حين انحدرت أيدى النجوم ، وشالت[1] أرجلُها ، فما زلت أصْدَع الليل حتى انصدع الفجر ، فإذا بجارية كأنها عَلَم ، فجعلت أغازلها ، فقالت : ياهذا : أمَالكَ ناهٍ من كَرَم ، إن لم يكن لك زاجِرٌ من عقل ؟ قال : والله مايرانى إلا الكواكب ! قالت : فأين مُكَوْكِبُها ؟ » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥١ ، وزهر الآداب ٢ : ٦)

أجوبة الأعراب

٢٠ — مجاوبة أعرابى للحجاج

خرج الحجاج ذات يوم فأصْحَر[2] ، وحضر غَداؤه ، فقال : اطلبوا من يتغدَّى معى ، فطلبوا ، فإذا أعرابى فى شَمْلة : فأُتِىَ به ، فقال السلام عليكم ، قال : هَلُمَّ أيها الأعرابىّ ، قال : قد دعانى من هو أكرم منك فأجَبْتُه ، قال : ومن هو ؟ قال : دعانى

(١) ارتفعت : من شالت الناقة بذنبها وأشالته : رفعته ، فشال هو .
(٢) أصحر : برز فى الصحراء .

الله ربّي إلى الصوم ، فأنا صائم ، قال : وصومٌ فى مثل هذا اليوم الحارّ ؟ قال : صمت ليومٍ هو أحرّ منه ، قال : فأفطر اليومَ وَصُمْ غداً ، قال : وَيَضمَن لى الأمير أنى أعيش إلى غد ؟ قال : ليس ذاك إليه ، قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجلٍ ، ليس إليه سبيل ؟ قال : إنه طعام طيِّب ، قال : والله ماطيَّبه خبَّازك ولا طبَّاخك ، قال : فمَن طيَّبه ؟ قال : العافية ، قال الحجاج : تالله إن رأيت كاليوم ! أخرجوه عنى .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٧)

٢١ — مساءلة الحجاج أعرابيا فصيحا

وقال الحجاج لأعرابى كلّمه فوجده فصيحاً : كيف تركتَ الناس وراءك ؟ فقال :

« تركتهم — أصلح الله الأمير — حين تفرّقوا فى الغيطان ، وأخذوا النيران ، وتَشَكَّت النساء ، وعَرَض الشَّاء ، ومات الكَلْبُ » ، فقال الحجاج لجلسائه : «أخِصبًا نَعَتَ أم جدْباً ؟ قالوا : بل جدبًا ، قال : بل خِصبًا ، قوله : تفرقوا فى الغيطان[1] ، معناه : أنها أعشبت ، فإبلهم وغنمهم ترْعَى ، وأخذوا النيران ، معناه : استغنَوا باللبن عن أن يشتوُوا اللحومَ إبلهم وغنمهم ويأكلوها ، وتشكَّت النساء أعضادَهن ، من كثرة ما يَمخَضْن[2] الألبان ، وعَرَض الشاء : استنّ[3] من كثرة العُشْب والمرعى ، ومات الكلب : لم تَمُتْ أغنامُهم وإبلهم فيأكل جِيَفَها » . (ذيل الأمالى ص ٨٧)

٢٢ — مجاوبة أعرابى لعبد الملك بن مروان

ودخل أعرابى على عبد الملك بن مروان ، فقال له : يا أعرابى صف الخمر ، فقال :

شَمُولٌ إذا شُجَّتْ ، وفى الكأس مُزَّةٌ ... لها فى عِظام الشاربين دَبيبُ[4]

---

(١) جمع غائط : وهو المطمئن الواسع من الأرض . (٢) مخض اللبن من باب قطع ونصر وضرب أخذ زبده . (٣) استن : سمن ، سن الإبل كنصر : إذا رعاها فأسمنها .

(٤) الشمول : الخمر أو الباردة منها ، لأنها تشمل بريحها الناس ، أو لأن لها عصفة كعصفة الشمال ، وشيج الشراب : مزجه .

تُرِيكَ الْقَذَى من دونها وهى دُونَه ... لوجــه أخيها فى الإناء قُطُوبُ[1]

فقال : ويحك يا أعرابى ! لقد اتهمك عندى حُسْنُ صفتك لها ، قال : « يا أمير المؤمنين ، وَاتهمك عندى بمعرفتك بحسن صفتى لها » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢١٥)

٢٣ — مجاوبة أعرابى لخالد بن عبد الله القسرى

وخطب خالد بن عبد الله القَسْرِى فقال :

« يأهل البادية : مَا أخشنَ بلدكم ، وأغلظَ معاشكم ، وأجْفَى أخلاقكم ، لاتَشْهَدُون جُمعة ، وَلا تجالِسُون عالما » ، فقام إليه رجل منهم دَمِيم ، فقال : « أمَّا ما ذكرت من خشونة بلدنا ، وغِلَظِ طعامنا ، فهو كذلك ، ولكنكم معشرَ أهل الحضَر ؛ فيكم ثلاثُ خِصال ، هى شَرٌّ من كلِّ ما ذكرتَ » ، قال له خالد : وما هى ؟ قال : « تَنقُبون الدور ، وتنبُشُون القبور ، وتنكِحون الذكور » ، قال : « قَبَّحَكَ الله ، وقَبَّح ماجئتَ به » . (العقد الفريد ٢ : ١٢٧)

٢٤ — أجوبة شتى

وَقُدِّم أعرابى إلى السلطان ، فقال له : قل الحق ، وإلَّا أوجَعْتُك ضربا ، قال له : « وأنتَ فاعمَلْ به ، فوالله لَما أوْعَدَكَ الله على تركه ، أعظم مما تُوعِدُنى به » .

ونظر عثمان إلى أعرابى فى شَمْلة ، غائرِ العينين ، مُشْرِفِ الحاجبين ، نَاتِئِ الجَبْهة ، فقال له : أين ربك ؟ قال : بالمِرْصاد !

وقيل لأعرابى : إنك تُحْسِن الشَّارة[2] ، قال : « ذلك عُنْوانُ نعمةِ الله عندى » .

---

(١) القذى : ما يقع فى الشراب ، قطب كضرب قطبا وقطوبا : زوى ما بين عينيه وكلح ، وأخوها : هو نبيذ الزبيب ، والمعنى : أن الشاربين يفضلونها عليه فيشربونها دونه ، فهو يقطب من أجل ذلك ، وفى أخيها يقول الشاعر :

دع الخمر يشربها الغواة فإننى ... رأيت أخاها مغنيا بمكانها
فإلا يكنها أو تكنه فإنه ... أخوها غذته أمه بلبانها

(٢) الشارة : اللباس والهيئة والزينة .

وقيل لأعرابى : « كيف أنت فى دِينك ؟ قال : أخْرِقه بالمعاصى ، وأرقَعُه بالاستغفار » .

وسئل أعرابى عن القَدَر فقال : « الناظر فى قدر الله كالناظر فى عين الشمس ، يَعْرِف ضوءها ، ولا يقف على حدودها » .

وسئل آخر عن القدر ، فقال : « علم اختصمت فيه العقول ، وتقاولَ فيه المختلِفون، وَحقّ علينا أن يرد إلينا ما التبس علينا من حكمه ، إلى ما سبق علينا من علمه » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٦ — ٨٧)

وقيل لأعرابى : من أبْلَغُ الناس ؟ قال : « أحسنهم لفظًا وأسرعهم بديهة » .

وقيل لأعرابى : مالك لاتُطِيل الهجاء ؟ قال : « يكفيك من القِلادة ما أحاط بالعُنُق » .

وقال معاوية لأعرابية : هل من قِرًى ؟ قالت : نعم ، قال : وما هو ؟ قالت : « خُبْزٌ خَمِير ، ولبن فَطِير ، وماء نَمِير[1] » .

وقيل لأعرابى : فِيمَ كنتم ؟ قال : « كنا بين قِدْر تفور ، وكأس تَدُور ، وحديث لايَحُور[2] » .

وقيل لأعرابى : ما أعددتَ للبرد ؟ قال : « شدة الرِّعدة ، وَقُرْفُصاءَ القِعْدَة ، وَذَرَبَ المِعْدَة[3] » .

وقيل لأعرابى : « ما لَكَ من الولد ؟ قال : قليلٌ خبيث » قيل له : ما معناه ؟ قال : « إنه لا أقل من واحد ، ولا أخبث من أنثى » .

وقيل لأعرابى — وقد أدخل ناقته فى السوق ليبيعها — صف لنا ناقتك ، قال :

---

(١) الخمير : الذى اختمر ، وماء نمير : ناجع ، عذبا كان أو غير عذب .

(٢) أى لا ينقص ، وربما كان لا يحور بالجيم . (٣) القرفصاء : أن يجلس على أليتيه ، و يلصق فخذيه ببطنه ، ويحتبى بيديه يضعهما على ساقيه ، أو يجلس على ركبتيه منكبا ، ويلصق بطنه بفخذيه ، ويتأبط كفيه ، والذرب : الحدة ، والمعدة كـكلمة وكسرة .

ما طَلَبتُ عليها قَطُّ إلا أدركتُ ، ولا طُلِبتُ إلا فُتُّ ، وقيل له : فلم تبيعها ؟ قال : لقول الشاعر :

وقد تُخْرِج الحاجاتُ يا أمَّ عامرٍ كرائمَ من رَبٍّ بهنَّ ضَنِينِ

وقيل لأعرابى : ما عندكم فى البادية طبيب ؟ قال : « حُمُر الوحش لاتحتاج إلى بَيْطَار » .

وقيل لِشُرَيْح القاضى : هل كلمك أحد قطُّ فلم تُطِقْ له جوابا ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون أعرابيًّا ، خاصم عندى وهو يشير بيديه ، فقلت له : أَمْسِكْ ، فإن لسانك أطولُ من يدك ، قال : « أسامِرِيٌّ أنت لا تُمَسُّ ؟[1] » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقيل لأعرابى : أىُّ الألوان أحسنُ ؟ قال : « قصورٌ بيضٌ ، فى حدائقَ خُضْر » .

وقيل لآخر : أى الألوان أحسنُ ؟ قال : « بَيْضة[2] ، فى رَوْضة ، عن غِب سَارِية ، والشمس مُكَبِّدَة » . (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ، قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ » .

والسامرى : هو موسى بن ظفر السامرى نسبة إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لها : السامرة ، وكان من قوم يعبدون البقر ، وقع فى مصر ، فدخل فى بنى إسرائيل ، وآمن بموسى ، وكان منافقاً لايزال فى قلبه عبادة البقر ، فلما ذهب موسى لمناجاة ربه فتن بنى إسرائيل ، وكانوا حين خرجوا من مصر حملوا معهم من حلى القبط التى أخذوها منهم رهائن على ما يقرضونهم من المال — فاتخذ لهم منها عجلا جسداً له خوار . . . إلى آخر ما هو معروف فى القصة ، من أثر الرسول : أى من أثر حافر الرسول وهو جبريل ، والأثر : التراب الذى تحت حافره ، والمساس مصدر ماس ، وهو نفى أريد به النهى ، أى لا تمسنى ولا أمسك .

(٢) البيضة : ساحة القوم ومجتمعهم ، والسارية : السحابة تسرى ليلا ، وكبدت الشمس السماء : صارت فى كبدها أى وسطها ، وفى الأصل « مكيدة » بالياء وهو تصحيف .

وخطب أعرابى إلى قوم فقالوا : ما تبذل من الصداق ؟ وارتفع السِّجف[1] فرأى شيئاً كرهه فقال : « والله ما عندى نقد ، وإنى لأكره أن يكون علىّ دين » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٠٠)

وقيل لأعرابية مات ابنها : « ما أحسن عزاءك عن ابنك ! » ، قالت : « إن مصيبته آمنتنى من المصائب بعده » .

وقال محمد بن حرب الهلالى : قلت لأعرابى : « إنى لك لوادّ » ، قال : « وإن لك من قلبى لرائدًا » . (البيان والتبيين ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٢)

وقال الأصمعى : رأيت أعرابيًّا أمامه شاء ، فقلت لِمَنْ هذه الشاء ؟ قال : « هى لله عندى » . (العقد الفريد ٢ : ٨٦ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٠٩)

قولهم فى الاستمناح والاستجداء

٢٥ — أعرابى يجتدى عتبة بن أبى سفيان

اعترض أعرابىّ لعُتبة بن أبى سفيان ، وهو على مكة ، فقال : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ، ولم تُبْعِد ، قال : يا أخاه ، قال : أسمعت فقل ، قال :

« شيخ من بنى عامر يتقرّب إليك بالعُمُومة ، ويختص بالخئُولة ، ويشكو إليك كثرةَ العيال ، ووَطْأة الزمان ، وشدة فقر ، وترادُف ضُرّ ، وعندك ما يسَعه ويَصْرِف عنه بؤسه » قال : « أستغفر الله منك ، وأستعينه عليك ، قد أمرت لك بِغِناك ، فليت إسراعنا إليك ، يقوم بإبطائنا عنك » .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٣٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١)

(١) السجف بالفتح والكسر : الستر .

٢٦ — أعرابى يجتدى عمر بن عبد العزيز

وأتى أعرابى عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« رجل من أهل البادية ، ساقته إليك الحاجة ، وبلغت به الغاية ، والله سائلك عن مقامى غداً ، فقال عمر : « والله ما سمعتُ كلمة أبلغ من قائل ، ولا أوعظ لمَقُولٍ له منها » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٣ ، والأمالى ٢ : ١٧٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١) .

٢٧ — خطبة أعرابى بين يدى هشام بن عبد الملك

وكانت الأعراب تنتجع هشام بن عبد الملك بالخُطَب كل عام ، فتقدَّم إليهم الحاجب يأمرهم بالإيجاز ، فقام أعرابى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى جعل العَطاء مَحبَّةً ، والمنعَ مَبْغَضَةً ، فَلَأَن نحبَّك خير من أن نُبغِضك[1] » ، فأعطاه وأجزل له . (العقد الفريد ٢ : ٨٣)

٢٨ — مقام أعرابى بين يدى هشام

وقام أعرابى بين يدى هشام فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أتت على الناس ثلاث سِنِين ، أمَّا الأولى : فَلَحَتِ[2] اللحم ، وأما الثانية : فأكلت الشَّحْم ، وأما الثالثة : فهاضت[3] العَظْم ، وعندكم فُضولُ أموالٍ ، فإن كانت لله فاقْسِموها بين عباده ، وإن كانت لهم فَفِيمَ تحظُرَ[4] عنهم ؟ وإن كانت لكم فتصدَّقوا عليهم بها ، إن الله يَجْزِى المتصدقين ، فقال هشام : هل من حاجة غير هذه يا أعرابى ؟ قال : « ما ضربتُ إليك أكبادَ الإبل ، أدَّرِعُ الْهَجِير ، وأخوضُ الدُّجى لخاصٍّ دون عام » ، فأمر هشام بمال ، فَقُسِّم بين الناس ، وأمر

---

(١) يروى هذا لمحمد بن أبى الجهم العدوى ، قاله فى حضرة هشام أيضاً . انظر الجزء الثانى ص ٤٢٢ .

(٢) من لحا الشجرة : أخذ لحاءها (بالكسر) وهو قشرها . (٣) هاض العظم : كسره بعد الجبور فهو مهيض ، وفى رواية : « وعام أنقى العظم » أى وصل إلى نقيه (بالكسر) وهو مخ العظم .

(٤) تحجب وتمنع .

للأعرابي بمال ، فقال « أ كلُّ المسلمين له مثل هذا ؟ » قالوا : « لا ، ولا يقوم بذلك بيتُ مال المسلمين » ، قال : « فلا حاجة لى فيما يَبْعَثُ لأَئمةَ الناس على أمير المؤمنين »

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٨ والعقد الفريد ٢ : ٨٢)

٢٩ — أعرابي يستجدى عبيد الله بن زياد

وقال العُتْبىّ : وقف أعرابى بباب عُبَيْدِ الله بن زياد فقال :

« يأهل النَّضَارة[١] ، حَقِبَ[٢] السَّحابُ ، وانقشَعَ الرَّبابُ ، واستأسَدَت الذئابُ وَرُدِمَ الثَّمَدُ[٣] ، وَقَلَّ الحَفَدُ[٤] ، ومات الوَلَدُ ، وكنت كثير العُفَاةِ[٥] ، صَخِبَ[٦] السُّقَاةِ ، عظيمِ الدُّلَاةِ[٧] لاتصال الزمان ، وَغَفَلِ[٨] الحِدْثان ، حَى حِلَال[٩] ، وعدد ومال ، فتفرَّقنا أيدِى سَبَا[١٠] ، بين فقد الأبناء والآباء وكنت حَسَن الشَّارة[١١] ، خَصِيبَ الدَّارة[١٢] سليم الجارة[١٣] ، وكان مَحَلى حِمًى ، وقومى أُسًى[١٤] ، وعزى جَدًا[١٥]

---

(١) النضارة : النعمة والسعة والخصب ، وفى الأصل : « النضاضة » وهو تحريف — والنضاضة القلة والمنقصة — . (٢) حقب المطر وغيره : احتبس ، والرباب : السحاب الأبيض.

(٣) الثمد كشمس وسبب : الماء القليل لامادة له . (٤) الحفد : الأعوان جمع حافد .

(٥) العفاة جمع عافٍ : وهو الوارد والضيف ، وكل طالب فضل أو رزق .

(٦) وصف من الصخب بالتحريك وهو شدة الصوت ، والسقاة جمع ساق كقاض ، وفى الأصل « صعب السفاه » وأراه محرفا . (٧) فى الأصل : « عظيم الزلات » وأراه محرفا عن « الدلاة » ، والدلاة كقضاة جمع دال كقاض ، وهو النازع فى الدلو المستقى به الماء من البئر . يقال : أدليت الدلو ودليتها : إذا أرسلتها فى البئر . ودلوتها أدلوها فأنا دال ، إذا أخرجتها . (٨) الغفل بالتحريك : الغفلة ، والحدثان : نوب الدهر وحوادثه ، وفى الأصل : « ولا أعقل الحدثان » وأراه محرفا . وربما كان الأصل « ولاغفال الحدثان » بتكرير لام الجر . (٩) الحلة بالكسر : القوم النازلون ، والجمع حلال وحلل ككتاب وعنب ، وتطلق الحلة على البيوت مجازاً تسمية المحل باسم الحال ، وهى مائة بيت فما فوقها .

(١٠) يقال : ذهبوا أيدى سبا ، وتفرقوا أيدى سبا ، وأيادى سبا : أى تبددوا ، شبهوا بأهل سبأ لما مزقهم الله فى الأرض كل ممزق ، فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة ، واليد : الطريق . يقال ، أخذ القوم يد بحر ، فقيل للقوم إذا تفرقوا فى جهات مختلفة : ذهبوا أيدى سبا : أى فرقتهم طرقهم التى سلكوها كما تفرق أهل سبأ فى مذاهب شتى والعرب لا تهمز سبأ فى هذا الموضع ، لأنه كثر فى كلامهم فاستثقلوا فيه الهمزة وإن كان أصله مهموزا ، وقد بنوا أيدى سبا ، وأيادى سبا على السكون لكونه مركباً تركيب خمسة عشر .

(١١) الشارة : الهيئة واللباس والزينة والجمال . (١٢) الدارة : الدار .

(١٣) الجارة ، من معانيها : الزوجة . (١٤) الأسى جمع أسوة : وهى القدوة .

(١٥) الجدا : العطية ، والمطر الذى لايعرف أقصاه.

قضى الله — ولا وُجْمَانَ لما قَضَى — بِسَوَاف[1] المال ، وَشَتَاتِ الرجال ، وتغيُّر الحال فأعِينوا مَن شَخْصُهُ شاهِدُه ، ولِسانُه وافِدُه ، وفقرُه سائِقه وقائِدُه » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٠٧)

٣٠ — أعرابية تستجدى عبد الله بن أبى بكرة

ودخلت أعرابية على عبد الله بن أبى بَكْرة بالبصرة ، فوقفت بين السِّماطين[2] فقالت :

« أصلح الله الأمير وأمْتَعَ به ، حَدَرَتْنا إليك سَنَةٌ اشتد بلاؤها ، وانكشف غِطَاؤها ، أَقُودُ صِبْيَةً صغاراً ، وآخَرين كباراً ، فى بلدة شاسعة ، تَخْفِضنا خافِضة ، وترفعنا رافعة ، لِمُلِمَّاتٍ من الدهر ، بَرَيْنَ عظمى ، وأذهَبْن لحمى ، وَتَرَكْنَنِى وَالِهَةً ، أَدُور بالحضيض ، وقد ضاق بى البلدُ العَرِيض ، فسألت فى أحياء العرب : مَنِ الكامِلةُ فضائلُه ، المُعْطَى سائِلُه ، المَكْفِيّ نائِلُه ؟ فَدُلِلْت عليك — أصلحك الله تعالى — وأنا امرأة من هَوازن ، قد مات الوالد ، وغاب الرافد ، وأنت بعد الله غِياثى ، وَمُنْتَهَى أملى ، فاصنع بى إحدى ثلاث خِصال : إما أن تَرُدَّنى إلى بلدى ، أو تُحْسِن صَفَدِى[3] ، أو تقيم أَوَدِى فقال : بل أجمعهن لك ، فلم يزل يُجْرِى عليها كما يُجْرِى على عياله حتى ماتت » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٠٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

قال الأصمعى : وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما فقالت :

« إنى أتيت من أرضٍ شاسعة ، تَخْفِضُنِى خافضة ، وترفعنى رافِعة ، فى بَوَادِىَ

---

(١) السواف بالضم وبفتح : مرض الإبل ، وساف المال يسوف ويساف : هلك ، أو وقع فيه السواف .

(٢) السماطان من الناس : الجانبان . (٣) الصفد : العطاء .

بَرَيْن لحى ، وَهِضَن[1] عظمى ، وتركتني وَالِهَةً ، قد ضاق بى البلد ، بعد الأهل وَالْوَلَد ، وكثرة من الْعَدَد ، لاَ قَرَابَةَ تُؤْوِينِى ، ولا عشيرةَ تَحمينى ، فسألت أحياء العرب ، مَن المرتجَى سَيْبُهُ[2] ، المأمون عَيْبُه ، الكثيرُ نائِلُه ، المَكْفِيُّ سائِله ، فَدُلِلْتُ عليك ، وأنا امرأة من هوازن ، فقدت الولد والوالد ، فاصنع فى أمرى واحدة من ثلاث : إما أن تُحْسِن صَفَدِى ، وإما أن تقيم أَوَدِى ، وإما أن تردَّنى إلى بلدى » ، قال : بل أجمعهن لك ، ففعل ذلك بها . (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣١ — أعرابى يستجدى خالد بن عبد الله القسرى

ودخل أعرابى على خالد بن عبد الله الْقَسْرِىّ ، فقال :

« أصلح الله الأمير : شيخٌ كبير ، حَدَتْه إليك باريةُ الْعِظَام[3] ، وَمُؤَرِّثة الأسقام ، وَمُطَوِّلة الأعوام ، فذهبتْ أمواله ، وَذَعْذَعَتْ[4] آباله ، وَتَغَيَّرت أحواله ، فإن رأى الأمير أن يَجْبُرَه بفضله ، وَيَنْعَشَهُ بِسَجْله[5] ، ويردّه إلى أهله ! » فقال : كل ذلك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . (الأمالى ٢ : ٤٩)

٣٢ — أعرابى يستجدى معن بن زائدة

وقَدِم أعرابى من بنى كِنانة على مَعْن بن زائدة وهو باليمن فقال :

« إنى والله ما أعْرِف سَبَبًا بعد الإسلام وَالرَّحِم ، أقوى من رِحْلَة مثلى من أهل السِّنّ والحَسَب إليك من بلاده ، بلا سبب ولا وسيلة ، إلا دعاءك إلى المكارم ، ورغبتك فى المعروف ، فإن رأيتَ أن تضعنى من نفسك بحيثُ وضَعْتُ نفسى من رجائك فافعل » فوصله وأحسن إليه . (العقد الفريد ٢ : ٨٠)

---

(١) هاض العظم : كسره بعد الجبور . (٢) السيب : العطاء .

(٣) حدته : ساقته ، وبارية العظام : أى النكبات التى تبرى العظام ، مؤرثة : مهيجة ، من التأريث وهو إيقاد النار .

(٤) ذعذعت : فرقت ، وآبال جمع إبل . (٥) السجل فى الأصل : الدلو العظيمة مملوءة .

٣٣ — خطبة الأعرابى السائل فى المسجد الحرام

عن أبى زيد قال : بَيْنا أنا فى المسجد الحرام إذ وقف علينا أعرابىّ فقال :

« يامسلمون ، إنَّ الحمد لِلهِ ، والصلاة على نبيه ، إنى امرؤ من أهل هـذا المِلْطَاط الشَّرْقِىِّ المُوَاصِى أسيافَ تِهامَةَ [١] ، عكَفَتْ عَلَىَّ سِنُونَ مُحُشٌ [٢] ، فاجْتَبَّتِ الذُّرَى ، وَهَشَمَتِ العُرَى [٣] ، وَجَمَشَتِ النَّجْمَ ، وَأَعْجَتِ البَهْمَ [٤] ، وَهَمَّتِ الشحمَ ، وَالتَحَبَتِ اللحمَ ، وَأَحْجَنَتِ العَظْمَ [٥] ، وغادرتِ التراب مَوْراً ، والماء غَوْراً ، والناسَ أوْزَاعا [٦] ، وَالنَّبَطَ قُعَاعا ، وَالضَّهْلَ جُزَاعا ، وَالمَقَامَ جَعْجَاعا [٧] ، يُصَبِّحنا الهَاوِى ، وَيَطْرُقنا العَاوِى [٨] ، فخرجْتُ لا أتلفَّع بِوَصِيدة ، ولا أتفوَّت هَبِيدة [٩] ، فالبَخَصَاتُ وَقِعَةٌ ، والرُّكُبَاتُ زَلِعة ، وَالأَطْرَافُ قَفِعة [١٠] ، والجسم مُسْلَهِمٌّ ، والنظر مُدْرَهِمٌّ [١١] ، أَعْشُو فأَغْطَشُ ، وَأَضْحَى فأَخْفَشُ [١٢] ، أُسْهِلُ ظالعا ، وَأُحْزِن راكعا [١٣] فهل من آمرٍ

---

(١) الملطاط : كل شفير نهر أو واد ، والمواصى والمواصل واحد ، يقال تواصى النبت : إذا اتصل بعضه ببعض ، وأسياف جمع سيف بالكسر : وهو ساحل البحر . (٢) عكفت : أقامت ، والسنون الجدوب ، ومحش جمع محوش كصبور ، وهى التى تمحش (بضم الحاء) الكلأ أى تحرقه .

(٣) اجتبت : قطعت واستأصلت ، وهشمت : كسرت ، والعرى جمع عروة ، والعروة : القطعة من الشجر لايزال باقياً على الجدب ترعاه أموالهم . (٤) جمشت : احتلقت ، والنجم : ما نجم ولم يستقل عن ساق ، وأعجت : أى جعلتها عجايا ، والعجى : السيىء الغذاء المهزول .

(٥) همت : أذابت ، والعرب تقول : همك ما أهمك ، أى أذابك ما أحزنك ، والتحبت اللحم : أى عرقته من العظم ، وأحجنت العظم : أى عوجته فصيرته كالمحجن . (٦) مار موراً : اضطرب وماج ، والغور : الغائر ، أوزاع : فرق . (٧) النبط : الماء الذى يستخرج من البئر أول ما تحفر ، والقعاع الماء الملح المر : والضهل : القليل من الماء ، والجزاع : أشد المياه مرارة ، والجعجاع : المكان الذى لا يطمئن من قعد عليه . (٨) الهاوى : الجراد ، والعاوى : الذئب .

(٩) التلفع : الاشتمال ، والوصيدة : كل نسيجة ، والهبيد : حب الحنظل يعالج حتى يطيب فيختبز .

(١٠) البخصات جمع بخصة ، وهى لحم باطن القدم ، ووقعة : من قولهم : وقع الرجل كفرح إذا اشتكى لحم باطن قدمه ، وزلعة : متشققة ، وقفعة ومقفعة واحد : وهى التى قد تقبضت ويبست .

(١١) المسلهم : الضامر المتغير ، والمدرهم : الضعيف البصر الذى قد ضعف بصره من جوع أو مرض.

(١٢) أعشو : أنظر : فأغطش : أصير غطشاً (بكسر الطاء) والغطش محركة : ضعف فى البصر ، وضحى للشمس كفرح وسعى : برز لها ، والخفش بالتحريك : ضعف البصر خلقة ، أو فساد فى الجفون بلا وجع أو أن يبصر بالليل دون النهار . (١٣) أسهل ظالعاً : أى إذا مشيت فى السهول ظلعت ، وظلع كمنع : غمز فى مشيه ، وأحزن راكعاً : أى إذا علوت الحزن ركعت أى كبوت لوجهى .

بِمَيْرٍ[1] ، أو داعٍ بخير ؟ وقاكم الله سَطْوَةَ القادِرِ ، وَمَلَكَةَ الْكاهِرِ[2] ، وسوء الموارد ، وَفُضُوحَ المَصَادر » ، قال : فأعطيته ديناراً وكتبت كلامه ، واستفسرته مالم أعرفه . (الأمالى ١ : ١١٣)

٣٤ — خطبة الأعرابى السائل فى المسجد الجامع بالبصرة

وروى الجاحظ قال :

قال أبو الحسن : سمعت أعرابيًّا فى المسجد الجامع بالبصرة بعد العصر سنة ثلاثٍ وخمسين ومائة : وهو يقول :

« أما بعد : فإنّا أبناء سبيل ، وأَنْضاء[3] طريق ، وَفَلُّ[4] سَنَةٍ . تَصَدَّقوا علينا ، فإنه لا قليلَ من الأجر ، ولا غِنى عن الله ، ولا عَمَلَ بعد الموت . أَمَا والله إنّا لنقوم هذا المقام ، وفى الصدر حَزَازَةٌ[5] ، وفى القلب غُصَّة » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٥ — صورة أخرى

وروى أبو علىّ القالى هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهاكها :

عن يُونُس قال : وقف أعرابىّ فى المسجد الجامع فى البصرة فقال :

« قَلَّ النَّيْلُ ، وَنَقَصَ الْكَيْلُ ، وَعَجِفَتْ[6] الخيل ، والله ما أصبحنا ننفخ فى وَضَحٍ[7] ، وَما لَنَا فى الديوان وَشْمَةٌ[8] ، وإنا لَعِيالُ جَرَبَةٍ[9] ، فهل من مُعين ، أعانه الله ، يُعين ابنَ سبيل ، وَنِضْوَ طريق ، وفَلَّ سَنَة ؟ فلا قليلَ من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت » . (الأمالى ٢ : ١٩٧)

---

(١) المير : العطية ، من قولهم : مارهم يميرهم ميراً . (٢) الكاهر والقاهر : واحد ، وقد قرأ بعضهم (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَكْهَرْ) .

(٣) أنضاء جمع نضو كقرد : وهو المهزول ، أى قد هزلنا وأضنانا سلوك الطريق .

(٤) السنة : الجدب والقحط ، وقوم فل : منهزمون ، والجمع فلول وأفلال ، أى هزمنا القحط .

(٥) الحزازة : وجع فى القلب من غيظ ونحوه . (٦) هزلت . (٧) الوضح : اللبن ، سمى وضحاً لبياضه . (٨) الوشمة : مثل الوشم فى الذراع ، يريد الخط .

(٩) الجربة : الكثير ، أو العيال يأكلون ولا ينفعون .

٣٦ — صورة أخرى

ورواها صاحب العقد فقال : وقف أعرابي على حَلْقة يُونُس فقال :

« الحمد لله ، وأعوذ بالله ، أنْ أذكِّر به وَأنساه ، إنا أناس قَدِمنا المدينة ثلاثون رجلا لا ندفِن ميتاً ولا نتحول من منزل وَإن كَرِهناه ، فرحم الله عبداً تصدق على ابن سبيل، ونِضو طريق ، وَفَلِّ سَنة ، فإنه لا قليلَ من الأجر ، ولا غِنًى عن الله ، ولا عملَ بعد الموت ، يقول الله عزَّ وجلَّ : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً) إن الله لا يستقرض من عوَزٍ ، ولكن لِيَبْلُوَ خِيار عباده » . (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣٧ — أعرابي يستجدي

وقال المدائني : سمعت أعرابياً يسأل وهو يقول :

« رحم الله امرأ لم تَمُجَّ أذُنَاه كلامي ، وقدَّم لنفسه مَعَاذَةً[1] من سوء مَقامِي ، فإن البلاد مُجْدِبة ، والدار مُضَيِّعة ، والحال سيئة[2] ، والحياء زاجر ينهى عن كلامكم ، والعُدْم عاذِرٌ يحملني على إخباركم ، والدعاء إحدى الصَّدَقتين ، فرحم الله امرأ أمَرَ بِمَيْرٍ[3] ، أو دعا بخير » ، فقال له بعض القوم : مِمَّن الرجل ؟ فقال : « مِمَّن لا تنفعكم معرفتُه ، ولا تضرّكم جَهالته ، ذلُّ الاكتساب ، يمنع من عزّ الانتساب » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١ ، والأمالي ١ : ١٣٨)

٣٨ — أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : أصابت الأعراب أعوام جَدْبة وشدة وَجَهْد ، فدخلت طائفة منهم البصرة وبين يديهم أعرابي وهو يقول :

« أيها الناس ، إخوانكم في الدين ، وشركاؤكم في الإسلام ، عَابِرُو سبيل ،

---

(١) المعاذة والمعاذ والعياذ : الالتجاء . (٢) وفي الأمالي « والحال مسغبة » أي مجاعة .

(٣) مار عياله ميراً : جلب لهم الميرة (بالكسر) وهي الطعام ، وفي العقد : « فرحم الله امرأ يمير ، وداعياً بخير » .

وأفلال بُؤْس ، وَصَرْعى جَدْب ، تتابعت علينا سِنُون ثلاثةٌ ، غَبَّرَتِ[1] النَّعَم ، وأهلكت النَّعَم ، فأ كلْنا ما بقى من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نعلِّل بذلك أنفسنا ، وَنمَنِّى بالغيث قلوبنا ، حتى عاد مُخُّنَا عِظَامًا ، وَعاد إشراقنا ظلامًا ، وأقبلْنا إليكم يَصْرَعنا الوَعْر ، وَيُكِنُّنا[2] السهل ، وهذه آثار مصائبنا لائحة فى سِمَاتنا ، فرحم الله متصدقاً من كثير ، وَمُوَاسِياً من قليل ، فلقد عظُمت الحاجة ، وكَسَف البال ، وبلغ المجهود ، والله يَجْزِى المتَصَدِّقين » .

٣٩ — أعرابى يستجدى

وقال الأصمعى : كنت فى حَلْقة بالبصرة إذ وقف علينا أعرابى سائلا ، فقال :

« أيها الناس ، إن الفقر يهتك الحجاب ، وَيُبْرِزُ الكَعَاب[3] ، وقد حَمَلتنا سِنُو المصائب ، وَنَكَبات الدهور ، على مركَبِها الْوَعْر ، فواسُوا أبا أيتام ، وَنِضْوَ زمان ، وَطرِيدَ فاقَةٍ ، وطَرِيح هَلَكَة ، رحمكم الله » .

٤٠ — أعرابى يستجدى

وقال الأصمعى : وقف أعرابى علينا فقال :

« ياقوم : تتابعت علينا سِنُون بتغير وانتقاص ، فما تركت لنا هُبَعًا ولا رُبَعًا[4] ، ولا عافطة ، ولا نافِطَة[5] ، ولاثاغِيَةً ولاراغيةً ، فأماتت الزرع ، وقتلت الضَّرع ، وعندكم من مال الله فضلُ نِعمة ، فأعينونى من عطيَّة ما آتاكم الله ، وَارحموا أبا أيتام ، وَنِضْوَ زمان ، فلقد خَلَفْتُ أقوامًا يمرَضون ولا يكفّنون ميتهم ، ولا ينتقلون من منزل ، وإن كَرِهوه ، ولقد مشيتُ حتى انتعلتُ الدِّماء ، وَجُعْت حتى أ كلتُ الثَّرَى » .

---

(١) غبره لطخه بالغبار ، أو هى «غيرت» بالياء . (٢) أى يسترنا . (٣) جارية كعاب : نهد ثديها .

(٤) الهبع : الفصيل ينتج فى آخر النتاج ، والربع : الفصيل ينتج فى الربيع ، وهو أول النتاج .

(٥) النافطة : النعجة ، من العفط : وهو الضرط ، عفطت كضرب : ضرطت فهى عافطة ، والعفط أيضاً : نثير الضأن تنثر بأنوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة : العنز ، من النفط ، نفطت العنز كضرب : نثرت بأنفها أو عطست فهى نافطة ، أو لأنها تنفط ببولها : أى تدفعه دفعاً ، أو النافطة إتباع العافطة ، أو العافطة : الأمة الراعية ، والنافطة : الشاة .

٤١ — أعرابية تستجدى

وقال الأصمعى : وقفت أعرابية فقالت :

« ياقوم سَنَة جرَدت ، وأيدٍ جمُدت ، وحال جَهَدت[1] ، فهل من فاعلٍ لخير ، وآمرٍ بِمَيْر ؟ رَحِم الله من رَحِم ، فأقْرَضَ من لايظلم » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠ — ٨٤)

٤٢ — أعرابى يستجدى

ووقف أعرابى بقوم فقال :

« أشكو إليكم أيها المَلأُ زماناً ، كَلَح فى وجهه ، وأناخ علىَّ بِكَلْكَله ، بعد نعمة من المال ، وَثَروة من المآل ، وَغِبْطَة من الحال ، اعتورتنى جَدَائِده[2] ، بِنَبْلِ مصائبه ، عن قِسِىِّ نوائبه ، فما تركا لى ثاغية[3] أجْتَدِى ضَرعها ، ولا رَاغِيَةً أرتجى نفعها ، فهل فيكم من مُعِينٍ على صَرْفه ، أو مُعْدٍ[4] على حَتْفه ؟ » ، فرد القوم عليه ، ولم يُنِيلوه شيئاً ، فأنشأ يقول :

قد ضاع من يأ كل من أمثالكمْ　　جُوداً ، وليس الجودُ من فِعالكمْ

لا بارك الله لكم فى مالكمْ　　ولا أزاح السوء عن عِيَالِكمُ

فالفقر خيرٌ من صلاح حالكم

٤٣ — أعرابى يستجدى

وَسَمِع عَدِىّ بن حاتم رجلا من الأعراب وهو يقول :

« ياقوم تَصَدَّقُوا على شيخ مُعِيل ، وعابر سبيل ، شَهِدَ له ظاهره ، وَسَمِع شكواه

(١) جهده المرض كنع : هزله .

(٢) سنة جداء : محلة مجدبة ، والجداء من كل حلوبة : الذاهبة اللبن من عيب ، والجدودة : القليلة اللبن من غير عيب ، والجمع جدائد وجداد . (٣) الثاغية : الشاة من الثغاء بالضم ، وهى صوت الغنم ، والراغية : الناقة ، من الرغاء ، وهو صوت الإبل .

(٤) معين ، أعداه عليه : نصره وأعانه وقواه .

خالقُه ، بَدَنهُ مطلوب ، وثوبه مسلوب » ، فقال له : من أنت ؟ قال : رجل من بنى سعد فى دِيَةٍ لَزِمتنى ، قال : فكم هى ؟ قال : مائة بعير ، قال : دُونَكها فى بطن الوادى .

(العقد الفريد ٢ : ٨٢ — ٨٣)

٤٤ — أعرابى يستجدى

ووقف أعرابى على قوم فقال :

« إنَّا — رَحِمَكم الله — أبناء سبيل ، وأنْضَاء طريق وقاسية[1] ، رحم الله امرأ أعطى من سَعة ، وَوَاسَى من كَفاف » .

فأعطاه رجل درهما فقال : « آجرَكَ الله من غير أن يَبْتَلِيك » .

٤٥ — أعرابى يستجدى

ووقف أعرابى بقوم فقال :

« ياقوم : تتابعت علينا سِنُونَ جَمَادٌ[2] شِدَاد ، لم يكن للسماء فيها رَجْع[3] ، ولا للأرض فيها صَدْع[4] ، فنَضَبَ العِدُّ[5] ، وَنَشِفَ الوَشَلُ ، وَأَمْحَلَ الخِصْبُ ، وَكَلَحَ الجَدْب ، وَشَفَّ[6] المال ، وَكَسَفَ البال ، وَشَظِفَ المعاش ، وذهب الرِّيَاشُ ، وطرحتنى الأيام إليكم غريبَ الدار ، نائِىَ المحلّ ، ليس لى مالٌ أرجع إليه ، ولا عشيرة أَلحق بها ، فرَحِم الله امرأ رَحِم اغترابى ، وجعل المعروفَ جوابى » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠)

---

(١) أى وحال قاسية ، وربما كان الأصل « وقاسية » .   (٢) الجماد : السنة التى لامطر فيها .

(٣) الرجع : المطر ، لعوده كل حين   (٤) أى انشقاق عن النبات ، اقتبسه من الآية الكريمة :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

(٥) العد : الماء الجارى الذى له مادة لاتنقطع كماء العين ، ونضب الماء : غار ، والوشل : الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره ، ونشف الماء فى الأرض : ذهب ، ونشف الحوض الماء شربه ، وأمحل : أجدب .

(٦) شف : رق ، والشظف بالتحريك : يبس العيش وشدته ، والرياش : المال والخصب والمعاش

٤٦ — أعرابية تستجدى

وخرج المهدى يطوف بعد هَدْأة[١] من الليل ، فَسَمِع أعرابية من جانب المسجد ، وهى تقول :

« قوم متظلِّمون ، نَبَتْ[٢] عنهم العيونُ ، وَفَدَحتهم الديونُ ، وَعَضَّتهم السِّنونَ ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق ، وصية الله ووَصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فهل من امرئٍ يجير ؟ كَلَأه الله فى سَفَره ، وَخَلَفه فى أهله » .

فأمر نُصَيراً الخادم ، فدفع إليها خمسمائة درهم .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

٤٧ — أعرابى يستجدى

ووقف أعرابى فى شهر رمضان على قوم فقال :

« يا قوم : لقد خَتَمَتْ هذه الفريضةُ على أفواهنا من صُبْح أمس ، ومعى بُنتان لى ، والله ما عَلِمتهما تحلَّتا بِحَلَال ، فهل رجل كريم يَرْحَم اليوم مَقامَنا ، ويرد حُشَاشَتَنا[٣]؟ مَنَعه الله أن يقوم مَقَامه ، فإنه مقام ذُل وعار وَصَغَار » .

فافترق القوم ولم يعطوه شيئاً ، فالتفت إليهم حتى تأمَّلهم جميعاً ، ثم قال :

« أشَدُّ واللهِ عَلَىَّ من سُوءِ حالى وفاقتى ، توهُّمِى فيكم المواساةَ ، أُنْتَعِلُوا الطريق ، لا صَحِبكم الله ! » . (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

---

(١) أى حين هدأ الليل ، أو هو أول الليل إلى ثلثه .

(٢) اقتحمتهم وازدرتهم ، وفدحتهم : أثقلتهم .

(٣) الحشاشة : بقية الروح فى المريض ، والصغار : الذل .

٤٨ — أعرابى يستجدى

وقام أعرابى ليسأل فقال :

« أينَ الوجوهُ الصِّباح[1] ، والعقول الصِّحاح ، والألْسُنُ الفِصاح ، والأنساب الصُّراح[2] ، والمكارم الرِّباح ، والصدور الفِساح ؟ تُعيذنى من مقَامِى هذا » .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٣٢)

٤٩ — أعرابى يستجدى

ودعا أعرابى فى طريق مكة فقال :

« هل من عائدٍ بفَضْل ، أو مُوَاسٍ من كفاف ؟[3] » ، فأُمْسِكَ عنهُ فقال : « اللهم لاتَكِلْنا إلى أنفسنا فنعجِزَ ، ولا إلى الناس فنَضيع » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤)

٥٠ — أعرابى يستجدى

وقف أعرابى فسأل قوماً فقالوا له : عليك بالصَّيارِفة ، قال : هُناكَ واللهِ قَرارَةُ اللؤم !

(البيان والتبيين ٢ : ٤٨)

٥١ — أعرابى يستجدى

وسأل أعرابى ناساً فقال : « جعل الله حظَّكم فى الخير ، ولا جعل حَظَّ السائل منكم عِذْرة[4] صادقة » .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

٥٢ — أعرابى يستجدى

وسأل أعرابى ، فقال له صبى من جوف الدار : « بُورِكَ فيكَ » ، فقال : قَبَّحَ الله هذا الفَمَ ، لقد تعلَّمَ الشرَّ صغيراً » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

---

(١) جمع صبيحة : وهى الجميلة من الصباحة كفصاحة أى الجمال . (٢) جمع صريحة : وهى المحضة الخالصة .
(٣) الكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٤) العذرة : اسم من العذر .

٥٣ — أعرابى يستجدى

ووقف أعرابى على قوم فمنعوه، فقال :

« اللهم اشْغَلنا بذكرك، وأعِذْنا من سُخْطِك، وأولِجْنا إلى عفوك، فقد ضَنَّ خَلقُك برزقك، فلا تَشْغَلْنا بما عندهم عن طلب ما عندك، وآتِنا من الدنيا القُنْعان[1]، وإن كان كثيرها يُسْخِطك، فلا خيرَ فيما يُسْخِطك» .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

٥٤ — أعرابى يستجدى

وقال أبو الحسن : وقف علينا أعرابى فقال :

« أخ فى كتاب الله، وجار فى بلاد الله، وطالِبُ خيرٍ من رزق الله، فهل فيكم من مُواسٍ فى الله » .

وسأل أعرابى رجلا، فاعتلّ عليه فقال : « إن كنت كاذباً، فجعلك الله صادقاً » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٤)

٥٥ — أعرابى يسأل رجلا حاجة له

أتى أعرابى رجلا (لم تكن بينه وبينه حُرْمة) فى حاجة له، فقال :

« إنى امتطيتُ إليك الرجاء، وَسِرْتُ على الأمل، ووفَدْتُ بالشكر، وتوسَّلْتُ بحسن الظن، فحقّق الأمل، وَأَحْسِنِ المَثوبة، وأكرِم القَصْد، وأَتِمّ الودّ، وَعَجِّلِ المُراد » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٢، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

---

(١) القنعان : القناعة .

قولهم فى بكاء الموتى

٥٦ — أعرابية تبكى ابنها

وَحَجَّت أعرابية ومعها ابن لها فأُصيبت به ، فلما دُفن قامت على قبره وهى وَجِعة فقالت :

« واللهِ يا بُنَىَّ لقد غَذَوْتك رَضيعاً ، وَفَقَدْتُك سَرِيعا ، وكأنه لم يكن بين الحالين مدةٌ أَلتذُّ بِعَيْشِك فيها ، فأصبحْتَ بعد النَّضارة وَالْغضارة[1] ، وَرَوْنق الحياة ، وَالتَّنَسُّم فى طِيب روائحها ، تحت أطْبَاق الثَّرَى جَسَداً هامِدًا ، وَرُفاتاً سَحِيقاً ، وَصَعِيداً جُرُزاً[2] .

أَىْ بُنى لقد سَحَبَتِ الدنيا عليك أذيالَ الْفَنا ، وَأسْكنَتْكَ دار الْبِلَى ، وَرَمَتْنى بعدك نَكْبَةُ الرَّدَى ، أَىْ بُنى لقد أَسْفَرَ لى عن وجه الدنيا صَبَاحٌ داجٍ ظلامُه[3] ، ثم قالت :

أَىْ رَبِّ ، ومنك العدلُ ، وَمِنْ خَلقك الجوْر ، وَهَبْتَه لى قُرَّة عين ، فلم تمتِّعنى به كثيراً ، بل سَلَبْتَنِيه وَشِيكاً[4] ، ثم أمرتَنى بالصبر ، وَوَعَدْتَنِى عليه الأجرَ ، فَصَدَّقْتُ وَعْدَكَ ، وَرَضِيتُ قضاءَك ، فَرَحِمَ الله من ترَحَّم على من اسْتَوْدَعْتَه الرَّدْمَ[5] ، وَوَسَّدْتَه الثَّرَى ، اللهم ارحم غُرْبته ، وَآنِسْ وَحْشَته ، وَاسْتُرْعَوْرَته ، يوم تَنْكَشِف الْهَنَاتُ[6] وَالسَّوْءات .

---

(١) النضارة : النعمة والحسن والغنى ، والغضارة أيضاً : النعمة والسعة والخصب .

(٢) أطباق جمع طبق : وهو وجه الأرض ، والرفات : الحطام ، وسحيقاً : مسحوقا ، والصعيد : التراب ، أو وجه الأرض وأرض جرز : لاتنبت ، أو أكل نباتها ، أو لم يصبها مطر .

(٣) أسفر الصبح وسفر كضرب : أضاء وأشرق ، داج : قال الأصمعى : دجا الليل ، إنما هو ألبس كل شىء ، وليس هو من الظلمة ، قال : ومنه قولهم : دجا الإسلام أى قوى ، وألبس كل شىء .

(٤) سريعاً . (٥) الردم ، السد ، وما يسقط من الجدار المتهدم . (٦) السيئات .

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقفت على قبره فقالت :

أى بنى : إنى قد تزوَّدت لسفرى ، فليت شِعْرِى ، ما زادُكَ لِبُعْدِ طريقك ، ويومِ مَعادِكَ ! اللهم إنى أسألك له الرِّضا برضاى عنه ، ثم قالت :

استودعتُكَ من استودَعنيك فى أحشائِى جَنيناً ، وَاثُكْلَ الوالدات ! مَا أَمَضَّ[1] حرارةَ قلوبهن ، وأقلقَ مضاجعَهُن ، وأطولَ ليلَهُنَّ ، وأقصرَ نهارَهن ، وَأَقَلَّ أُنْسَهُنَّ ، وَأَشَدَّ وَحْشَتَهُنَّ ، وَأَبْعَدَهُنَّ من السرور ، وَأَقْرَبَهُنَّ من الأحزان » .

فلم تزل تقول هذا ونحوه ، حتى أبكت كل من سَمِعها ، وَحَمِدت الله عزَّ وجل ، واسترجعَت وصلت رَكَعاتٍ عند قبره وانطلقت . (زهر الآداب ٢ : ٢)

٥٧ ــ حديث امرأة سكنت البادية قريباً من قبور أهلها

وروى أبو على القالى : عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« دَفَعْتُ يوما فى تَمَشِّى بالبادية إلى وادٍ خَلَاء لَا أَنيسَ به إلا بَيْتٌ مُعْتَنِزٌ[2] ، بِفِنائِه أَعْنُزٌ ، وقد ظَمِئْتُ فَيَمَّمْته ، فسلَّمت فإذا عجوزٌ قد بَرَزَت ، كأنها نعامةٌ رَاخِمٌ[3] ، فقلت : هل من ماء ؟ فقالت : أو لَبَن ، فقلت : ما كانت بُغْيتى إلَّا الماء ، فإذا يَسَّرَ اللهُ اللَّبن فإنى إليه فقير ، فقامت إلى قَعْب[4] فأفرغت فيه ماء ، وَنظَّفت غَسْلَه ، ثم جاءت إلى الأعنُز ، فتغبَّرتْهُن[5] حتى احتلبت قُرَابَ[6] مِلْءِ القَعْب ، ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وَطَفَتْ ثُمالَتَه[1] ، كأنها غمامة بيضاء ، ثم ناولتنى إياه ، فشربت حتى تحبَّبْت[2] رِيًّا واطمأننت ، فقلت :

(١) مضه الشىء : بلغ من قلبه الحزن به كأمضه .

(٢) منفرد . (٣) الراخم : التى تحضن بيضها ، أرخت الدجاجة على بيضها ورخته ، ورخت عليه فهى مرخم وراخم . (٤) القعب : قدح إلى الصغر ، ويشبه به الحافر .

(٥) أى احتلبت الغبر (كقفل) : وهى بقية اللبن فى الضرع ، وجمعه أغبار .

(٦) قراب وقريب واحد ، مثل كبار وكبير وجسام وجسيم .

(١) الثمالة : الرغوة « وهى مثلثة الراء » . (٢) امتلأت .

إنى أراكِ معتَنِزَة فى هذا الوادى المُوحِش، وَالحِلّةُ[١] منك قريب، فلو انضممتِ إلى جَنابهم فأنِستِ بهم! فقالت:

«يابن أخى، إنى لآنَسُ بالوَحْشَة، وأستريح إلى الوَحْدة، ويطمئن قلبى إلى هذا الوادى المُوحِش، فأتذكر مَنْ عهِدتُ، فكأنى أخاطب أعيانَهم، وأتَرَاءى أشباحهم[٢] وتتخيَّلُ لى أندِيَةُ رجالهم، ومَلَاعِبُ وِلْدانهم، ومُنَدَّى[٣] أموالهم، والله يابن أخى لقد رأيت هذا الوادى بَشِعَ اللَّدِيدَين[٤] بأهل أدْواح وقِباب، ونَعَم كالهِضَاب، وخيل كالذِّئاب، وفتيان كالرماح، يبارُون الرياح، ويَحْمُون الصِّبَاح[٥] فأحال عليهم الجَلَاء قَمًّا بغَرْفَة[٦] فأصبحتِ الآثارُ دارِسَةً، والمَحالُّ طامِسةً، وكذلك سيرةُ الدهر فيمن وَثِقَ به».

ثم قالت: ارْمِ بعينك فى هذا المَلَا المتباطِن[٧]، فنظَرْتُ فإذا قبورٌ نحو أربعين أو خمسين، فقالت: ألا ترى تلك الأجْداثَ؟ قلت نعم، قالت: ما انطوت إلا على أخٍ أو ابن أخٍ، أو عمّ أو ابن عمّ، فأصبحوا قد ألْمَأَتْ[٨] عليهم الأرضُ، وأنا أترقب ما غالهم، انصرِف راشداً رَحِمَكَ الله. (الأمالى ٢ : ٧)

٥٨ — حديث امرأة مات ابنها بين يديها

عن عبد الرحمن عن عمه قال: دخلتُ على امرأة من العرب بأعْلَى الأرض فى خِباء لها، وبين يديها بُنَيٌّ لها، قد نزل به الموت، فقامت إليه فأغمضته وعَصَّبَتْه وسَجَّتْه[٩]، ثم قالت:

---

(١) الحلة: جماعة بيوت الناس والجمع حلال ككتاب. (٢) أشخاصهم جمع شبح كشمس وسبب.

(٣) التندية: أن يورد الرجل إبله، ثم يرعاها، ثم يوردها، ثم يرعاها، والمندى: المكان الذى يندى فيه المال. (٤) بشع: ملآن، واللديدان: الجانبان، والدوحة: الشجرة العظيمة.

(٥) الصباح جمع صبيحة: وهى الجميلة من الصباحة كسحابة: الجمال.

(٦) قم البيت قما: كنسه، والمقمة: المكنسة، والقمامة: الكناسة، والغرفة الواحدة من الغرف: وهى ضرب من الشجر. (٧) الملا: الفضاء، والمتباطن: المطامن.

(٨) أى احتوت عليهم، وغالهم: أهلكهم. (٩) تسجية الميت: تغطية.

« يابن أخى ، قلت : ما تشائين ؟ قالت : ما أحقَّ مِن أُلبِسَ النعمة ، وأطِيلَت له النَّظِرةُ[1] ، أن لا يَدَعَ التوثُّق من نفسه ، قبل حَلِّ عُقْدته[2] ، والحُلولِ بِعَقْوته[3] ، وَللمَحالَةِ بينه وبين نفسه » ، قال : وما يَقْطُرُ من عينها قطرةٌ صبراً واحتساباً ، ثم نظرت إليه فقالت : والله ما كان مالُكَ لِبَطْنِك ، ولا أمرُكَ لِعِرْسِك[4] ، ثم أنشدت تقول :

رَحِيبُ الذراعِ بالتى لا تَشِينُهُ وإن كانَتِ الفَحْشاء ضَاقَ بهاَ ذَرْعاً[5]

(الأمالى ٢ : ٢٨٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١)

قولهم فى الشكوى

٥٩ — أعرابى يشكو حاله

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« قَدِم علينا البصرة رجل من أهل البادية شيخ كبير ، فقصدته فوجدته يَخْضِب لحيته ، فقال : ما حاجتك ؟ فقلت : بلغنى ما خَصَّك الله به ، فجئتك أقتبِس من علمك ، فقال : أتيتَني وأنا أخضِب ، وإن الخِضاب لمن علامات الكِبَر ، وطَالَ والله ما غَدَوْتُ على صيد الوحوش ، ومشيتُ أمامَ الجيوش ، واختَلْتُ بالرِّداء ، وَهُوِئتُ[6] بالنساء ، وَقَرَيْت الضيفَ ، وأرويتُ السيفَ ، وَشربت الرَّاح ، ونادمت الجَحْجَاح[7] ، فاليوم قد حنَانِى الكِبَر ، وَضَعُف منى البصر ، وجاء بعد الصفو الكدر ، ثم قبض على لحيته ، وأنشأ يقول :

شَيْبٌ تُغَيِّبُـــه كيْما تَغُرَّ به كبَيْعِكَ الثوْبَ مطوِيًّا على حَرَقِ
قد كنتُ كالغُصْن ترتاح الرِّياحُ له فَصِرْتُ عُوداً بلا ماء ولا وَرَقِ

---

(١) النظرة : الإمهال . (٢) كناية عن الموت .
(٣) العقوة : المحلة ، أى بقبره . (٤) العرس : امرأة الرجل .
(٥) ضاق بالأمر ذرعا : ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً .
(٦) هوئت به : فرحت به . (٧) الجحجاح : السيد .

صبراً على الدهر ، إن الدهر ذو غِيَرٍ ... وأهلُه منه بين الصفو والرَّنَقِ[1]

(الأمالى ٢ : ٩٤)

٦٠ — كلمات شتى فى الشكوى

قيل لأعرابية أصيبت بابنها : ما أحسنَ عَزاءكِ ! قالت : « إن فَقْدِى إياه أمَّننى كلَّ فَقْدٍ سواه ، وإن مصيبتى به هوَّنت علَىَّ المصائبَ بعده » ، ثم أنشأت تقول :

مَنْ شاء بعدكَ فَلْيَمُتْ ... فعليك كنتُ أحاذِرُ

ليتَ المنازلَ وَالدِّيا ... رَ حفائرٌ وَمقَابِرُ

* * *

وقيل لأعرابى : كيف حزنُك على ولدك ؟ قال « ما ترك هَمُّ الغَداء والعَشاء لى حُزْناً » .

* * *

وقيل لأعرابى : ما أنحل جِسْمَك ؟ قال : « سوء الغِذَاء ، وَجُدُوبة المَرْعَى ، واختلاف الهموم فى صدرى » ، ثم أنشأ يقول :

الهمُّ مالم تُمْضِه لسبيله ... داء تضمَّنه الضلوعُ عظيمُ

ولربما استيأستُ ثم أقول : لا ... إن الذى ضَمِنَ النجاحَ كريمُ

* * *

وقيل لأعرابى قد أخذ به السِّنُّ : كيف أصبحتَ ؟ قال : « أصبحتُ تُقيِّدنى الشعرَةُ ، وأعثُرُ فى البَعْرة ، قد أقام الدهر صَعَرى ، بعد أن أقمتُ صَعَره » .

* * *

---

(١) الرنق : الكدر .

وقال أعرابى : « لقد كنتُ أُنكِر البيضاء ، فصِرْتُ أُنكِر السوداء ، فيا خير مبدول ، ويا شَرَّ بَدَل ! » .

* * *

وذكر أعرابى منزلاً بَادَ أهْلُه فقال : « مَنْزِلٌ وَاللهِ رَحَلت عنه رَبَّاتُ الخُدُور ، وأقامت فيه رَوَاحِلُ[1] القُدُور ، وقد اكتسَى بالنَّبات كأنما أُلبِس الحُلَلَ ، وكان أهله يَعْفُون[2] فيه آثارَ الرياح ، وأصبحت الريح تَعْفُو آثارهم ، فالعهد قريب ، والملتقَى بعيد » .

* * *

وذكر أعرابى قوما تغيرت أحوالهم فقال : « أعْيُنٌ وَاللهِ كُحِلت بالعَبْرَة بعد الحَبْرَة[3] ، وَأَنفُسٌ لَبِسَتِ الحزن بعد السرور » .

* * *

وذكر أعرابى قوما تغيرت حالهم فقال : « كانوا والله فى عيش رقيق الحواشى ، فطواه الدهر بعد سَعة ، حتى لَبِسُوا أيديهم من القُرِّ[4] ، ولم أرَ صاحبًا أغرَّ من الدنيا ، ولا ظالمًا أغشَمَ[5] من الموت ، ومن عَصَفَ عليه الليلُ والنهار أرْدَياه[6] ، وَمَنْ وُكِّلَ به الموتُ أفناه » .

* * *

ووقف أعرابى على دار قد باد أهلها فقال : « دارٌ واللهِ مُعْتَصِرَةٌ للدموع ، حطَّت بها السحابُ أثقالَهَا ، وجَرَّت بها الرِّياحُ أذيالَهَا » .

* * *

(١) الرواحل جمع راحلة : وهى فى الأصل : الناقة الصالحة لأن ترحل ، والمراد هنا الحوامل التى تحمل القدور ، أى الأثافى . (٢) عفا المنزل : درس ، وعفته الريح ، يتعدى ويلزم ، وبابهما عدا ، وعفته الريح أيضاً بالتشديد للمبالغة . (٣) الحبرة : السرور . (٤) القر مثلث القاف : البرد . (٥) أظلم . (٦) أهلكاه .

وذكر أعرابي رجلاً تغيرت حاله فقال : « طُوِيَت صحيفتُه ، وذهب رزقه ، فالبلاء مُشْرِع إليه ، وَالعَيْشُ عنه قابضٌ كفَّيْه » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً ضاق عيشه بعد سَعة فقال : « كان والله في ظِلٍّ عَيْشٍ ممدود ، فَقُدِحَت عليه من الدهر زَنْدٌ غيرُ كابِيَة[1] » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ — ٨٠)

* * *

وذكر أعرابي مصيبة نالته ، فقال : « مُصِيبَةٌ واللهِ تَركت سُودَ الرءوس بِيضاً ، وَبِيضَ الوجوه سُوداً ، وهوَّنت المصائبَ بعدها » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)

* * *

وذكر أعرابيّ قَطيعة بعض إخوانه فقال : « صَفِرتْ عِيَابُ[2] الود بيني وبينه بعد امتلائها ، وَأَقْفَرَت وجوهٌ كانت بمائها ، فَأَدْبَرَ ما كان مُقْبلا ، وأقبل ما كان مدبراً » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

وقيل لأعرابي : ما أذهَبَ شبابَك ؟ قال : « من طال أَمَدُه ، وَكثر وَلَدُه ، وَدَفَّ عَدَدُه ، وَذَهَبَ جَلَدُه ذهب شبابُه » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٧)

* * *

وسئل أعرابي عن سَفَرٍ أَكْدَى[3] فيه ، فقال : « ما غَنِمنا إلاَّ ماقَصَرنا في صلاتنا ، فأما ما أكلته الهواجِر[4] ، وَلَقِيته منا الأباعر ، فَأَمْرٌ استخففناه لِمَا أَمَّلْناه » .

---

(١) الزند : العود الذي يقدح به النار ، وكبنا الزند : لم يخرج ناره ، وفي الأصل « زنة عين كابية » وهو تحريف . (٢) صفرت : خلت ، وعياب جمع عيبة بالفتح : ما يجعل فيه الثياب .

(٣) أصله من « حفر فأكدى » أي صادف الكدية — والكدية كغرفة : الأرض الغليظة ، والصفاة العظيمة الشديدة . (٤) الهواجر جمع هاجرة ، وهي شدة الحر .

وقالت امرأة من الأعراب : « أصبحنا ما يرقد لنا فَرَس ، وما ينام لنا حَرَس » .

(البيان والتبيين ٢ : ٨٢)

• • •

وقال أعرابى « مضى لنا سَلَفٌ أهل تَوَاصُل ، اعتقدوا[١] مِننًا ، واتخذوا الأيادى ذخيرةً لمن بعدهم ، يَرَوْن اصطناع المعروف عليهم فَرْضاً لازماً ، وإظهارَ البرّ واجباً ، ثم جاء الزمان ببنينَ ، اتخذوا مِنَنَهم بضاعة ، وَبِرَّهم مُرَابَحة[٢] ، وأياديَهم تجارة ، واصطناعَ المعروف مُقَارَضةً ، كنقدٍ ، خُذْ منى وهاتِ » .

• • •

وقيل لأعرابى فى مرضه : ما تشتكى ؟ قال : « تمـام العِدَّة ، وانقضاء المدة » .

• • •

ونظر أعرابى إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضرّ فقال : « يا هـذا : أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ؟ » . (العقد الفريد ٢ : ٨٥)

• • •

ووصف أعرابى الدنيا فقال : « هى رَنْقَة[٣] المشارب ، جَمَّة المصائب ، لا تُمَتِّعك الدهرَ بصاحب » .

• • •

وقال أعرابى : « حَسْبُك من فساد الدنيا أنك ترى أَسْنِمَةً[٤] تُوضَع ، وأخفافاً ترفَع ، والخير يُطْلَب عند غير أهله ، والفقير قد حلّ غير محلّه » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٦)

• • •

(١) من اعتقد مالا ؛ اقتناه . (٢) رابحه على السلعة : أعطاه ربحاً .

(٣) كدرة . (٤) جمع سنام ، والمراد ما كان عالياً .

وقيل لأعرابى : كيف ابنُك ــ وكان به عاقًا ــ قال : « عذابٌ لا يقاومه الصبر ، وفائدة لا يجب فيها الشكر ، فليتنى قد استودعته القبرَ » . (العقد الفريد ٢ : ٩٧)

• • •

عن الأصمعى قال : قيل لأعرابى قَدِمِ الحَضْرة[1] ، ماأقْدَمَك ؟ قال : « الحَيْن[2] ، الذى يُغَطِّى العَيْن » . (الأمالى ١ : ٢٠٢)

• • •

وأصيب أعرابى بابن له ، فقال وقد قيل له أصْبِر : « أعَلَى الله أتجلَّد ، أم فى مصيبتى أتبلَّد ؟ والله لَلجَزَع من أمره أحبُّ إلىَّ الآن من الصبر ، لأن الجزع استكانة ، والصبر قساوة ، ولئن لم أجزَع من النقص لم أفْرَح بالمزيد » . (زهر الآداب ٢ : ١٦٤)

• • •

وقيل لأعرابى : لِمَ لا تَضْرِب فى الأرض ؟ فقال : « يمنعنى من ذلك ، طِفْل بَارِكٌ ، ولِصٌّ سائك ، ثم إنى لست بعد ذلك واثقاً بِنُجْح طَلِبتى ، ولا معتقداً قضاء حاجتى ، ولا راجياً عطف قرابتى ، لأنى أَقْدَم على قوم أطغاهم الشيطانُ ، واستمالهم السلطانُ ، وساعدهم الزمان ، وأسكرهم حَدَاثَةُ الأسنان » .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

• • •

وقال بعض الأعراب : « نالنا وَسْمِىٌّ[3] ، وَخَلَفَه وَلِىٌّ ، فالأرض كأنها وَشْى[4]

---

(١) الحضرة : خلاف البادية كالحضر بالتحريك . (٢) الهلاك .

(٣) الوسمى : مطر الربيع الأول ، والولى : المطر الذى يأتى بعد المطر .

(٤) الوشى : نقش الثوب ، والعبقرى : المنقطع النظير ، نسبة إلى عبقر ، موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن ، ثم نسبوا إليه كل شىء تعجبوا من حذقه ، أو جودة صنعته .

عَبْقَرِيٌّ ، ثم أتتنا غيومُ جَرَادٍ ، بمناجِلَ حَوادّ[1] ، فخرّبت البلاد ، وأهلكت العباد ، فسبحان من يُهْلِكُ القويّ الأكُول ، بالضعيف المأكول » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٤٦)

٦١ – قولهم فى العتاب والاعتذار

عاتب أعرابىّ أباه فقال : « يا أبت ، إن عظيم حقك علىّ لا يُذهب صغيرَ حقى عليك ، والذى تَمُتُّ به[2] إلىّ ، أَمُتُّ بمثله إليك ، ولستُ أزعم أنّا سَواء ، ولكنى أقول : لا يَحِلّ لك الاعتداء » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، وزهر الآداب ٣ : ١٠٠)

* * *

وقال أعرابى لصديق استبطأه فلامَه : « كانت بى إليك زَلَّةٌ يمنعنى من ذكرها ما أمَّلْتُ من تجاوُزِك عنها ، وليس أعتذِرُ إليك منها إلا بالإقلاع عنها » .

* * *

وقال آخر لابن عمّ له : « والله ما أعْرِف تقصيراً فأُقْلِع ، ولا ذنباً فأُعْتِب ، ولست أقول إنك كذبت ، ولا إننى أذنبت » . (زهر الآداب ٣ ، ١٦٣)

* * *

وقال آخر لابن عمّ له : « سأتخطَّى ذنبَك إلى عُذرك ، وإن كنتُ من أحدهما على يقين ، ومن الآخر على شكّ ، ولكن لِيَتِمّ المعروفُ منى إليك ، وتقومَ الحُجَّة لى عليك » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٤ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٥)

وَعَذَلت أعرابية أباها فى الجُود وإتلاف ماله ، فقالت : « حَبْسُ المال ، أنفع للعيال ، مِنْ بَذْلِ الوجه فى السؤال ، فقد قَلَّ النوال ، وكثر البُخّال ، وقد أتلفتَ

---

(١) المناجل جمع منجل كمنبر : حديدة يقضب بها الزرع . وحواد جمع حادة : أى قاطعة ؛ وفى الأصل « حراد » وأراه محرفا . (٢) تتوسل .

الطارفَ والتَّلادَ ، وبقيت تطلبُ ما فى أيدى العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أوشكَ أن يسعى فيما يضرّه » . (زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

٦٢ — قولهم فى المدح

دخل أعرابى على بعض الملوك فقال : « رأيتُنى فيما أتعاطَى من مدحك ، كالمُخْبِر عن ضوء النَّهار الباهر ، والقَمَر الزاهر ، الذى لا يَخْفى على الناظر ، وأيقنت أنى حيثُ انتهى بى القولُ ، منسوبٌ إلى العَجْز ، مُقصِّر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك ، إلى الدعاء لك ، وَوَكَلْتُ الإخبار عنك ، إلى عِلْم الناس بك » . (الأمالى ٢ : ٧٣)

* * *

وأثنى أعرابى على رجل فقال : « إن خيرك لَسَريع[1] ، وإن منعك لَمُرِيح ، وإن رِفْدَك لَرَبيح » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٥)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً من بنى كلاب يذكر رجلاً فقال : « كان واللهِ الفَهْمُ منه ذا أُذُنَيْنِ ، والجوابُ ذا لسانين ، لم أر أحداً كان أرْتَقَ لِخَلَل رأى منه ، ولا أبعدَ مسافةَ رَوِيَّةٍ ، ومُرَادَ[2] طَرْف ، إنما يرمى بهمته حيث أشار إليه الكرمُ ، وما زال واللهِ يَتَحَسَّى مرارة أخلاق الإخوان ، ويسقيهم عُذُوبةَ أخلاقه » .

(الأمالى ٢ : ١٦ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

* * *

وقال : سمعت أعرابيًّا ذكر رجلا فقال : « كان واللهِ للإخاء وَصُولا ، وللمال بَذُولا ، وكان الوفاء بهما عليه كفيلا ، وَمَنْ فاضَلَه كان مفضولا » .

(الأمالى ١ : ١١٦ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩) .

* * *

(١) أى عطاء بلا مطال ولا إبطاء ، ومريح : أى من كد الطلب .

(٢) رواد الإبل : اختلافها فى المرعى مقبلة ومدبرة ، والموضع مراد ومستراد .

ووصف أعرابى رجلا فقال : « ذاك والله ممن يَنْفع سِلْمُـه ، وَيتَوَاصَف حِلْمُه ، ولا يُسْتَمْرَأُ[1] ظُلْمُه ، إن قال فعل ، وإن وَلِىَ عدل » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

• • •

وذكر أعرابى قوماً فقال : « أدَّبتهم الحكمةُ ، وأحكمتهم التجاربُ ، ولم تغرُرهم السلامةُ المنطوية على الهَلَكة ، وجانبوا التسويف الذى به قطع الناس مسافةَ آجالهم ، فذَلَّت ألسنتهم بالوعد ، وانبسطت أيديهم بالإنجاز ، فأحسنوا المقال ، وشَفَعُوه بالفعال» .

(الأمالى ٢ : ٢٣ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٨)

• • •

عن عبد الرحمن عن عمه قال : وصفت أعرابية زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها ، فقالتْ : « يا أُمَّهْ ، من نَشَرَ ثوب الثناء ، فقد أدَّى واجِبَ الجزاء ، وفى كِتْمان الشكر جُحُودٌ لِمَا وجب من الحق ، ودخولٌ فى كُفْر النِّعم » ، فقالت لها أمها : « أىْ بُنَيَّة : أطَبْتِ الثناء ، وقمتِ بالجزاء ، ولم تَدَعِى للذم موضعاً ، إنى وجدت مَنْ عقَلَ ، لمْ يَعْجَلْ بذمٍ ولا ثناء إلا بعد اختبار » ، فقالت : « يا أمَّه ، ما مدحتُ حتى اختبرتُ ، ولا وصفتُ حتى عرفتُ » .   (الأمالى ١ : ٢٢٥)

ووصف بعض الأعراب أميراً فقال : « إذا أوعد أخَّر ، وإذا وَعَدَ عجَّل ، وَعِيده عفوٌ ، ووعده إنجاز » .   (البيان والتبيين ٣ : ٢١٧)

• • •

ونعت أعرابى رجلا فقال : « كأنَّ الألسن والقلوب رِيضَت له ، فما تنعقِد إلا على ودِّه ، ولا تنطق إلا بحمده » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآدب ٢ : ٣)

• • •

---

(١) لا يستطاب ، من استمرأ الطعام : وجده مريئاً أى هنيئاً حميد المغبة .

وذكر رجل عند أعرابي فوقع فيه قوم فقال : « أما والله إنه لآ كَلُكُمْ للمأدُوم وأعطاكم للمَغْرُوم(١) ، وأكسبكم للمعدوم ، وأعطفكم على المحروم » .

(الأمالي ٢ : ١٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٢)

* * *

وأعطى رجل أعرابياً فأكثر له ، فقال له الأعرابي : « إن كنتَ جاوزْتَ قدري عند نفسي ، فقد بلغتَ أمَلي فيك » .

(الأمالي ٢ : ٥٠)

* * *

ومدح أعرابي رجلا فقال : « كان والله يُعَنَّى(٢) في طلب المكارم ، غيرَ ضَالٍّ في معارج طرقها ، ولا متشاغل عنها بغيرها » .

(الأمالي ٢ : ٥٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

ودخل أعرابي على رجل من الولاة فقال : « أصلح الله الأمير : اجعلني زماماً من أزِمَّتك يُجَرُّ بها الأعداء ، فإني مِسعَرُ حَرْبٍ(٣) ، وَرَكَّابُ نُجُبٍ ، شديد على الأعداء لَيِّن على الأصدقاء ، منطوى الحصيلة(٤) ، قليل الثَّمِيلَة ، غِرار النَّوْم ، قد غَذَّتني الحرب بأفاويقها(٥) ، وَحَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَه ، ولا تمنعك مني الدَّمامة(٦) ، فإن من تحتها شهامة » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨٠)

* * *

---

(١) أى المال المغروم ، فمن لزمه غرم حمله عنه .　　(٢) أى يتعب وينصب .

(٣) أى موقدها ، والنجب جمع نجيب .　　(٤) حصل الشيء تحصيلا : جمعه ، والاسم الحصيلة ، والمعنى مكتتم السر ، والثميلة في الأصل : ما يبقى في بطن الدابة من العلف والماء ، وما يدخره الإنسان من طعام أو غيره ، وفي حديث عبد الملك قال الحجاج : « أما بعد فقد وليتك العراقين ، صر إليها منطوى الثميلة » والمعنى فسر إليها خفيفا ، والغرار : القليل من النوم .　　(٥) الأفاويق جمع أفواق ، وهو جمع فيقة بالكسر ، والفيقة : اسم اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين .　　(٦) الدمامة : قبح المنظر .

ومدح أعرابى رجلا فقال: « ذاك والله فسيح الأدب، مستَحْكِم السبب مِن أى أقطاره أتيتَه، تثنى عليه بكرم فِعال، وَحُسْنِ مقال » .

(زهر الآداب ٢ : ٦ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

ومدح أعرابى رجلا فقال « كان والله يَغْسِل من العار وجوهاً مُسْوَدَّة، ويفتح من الرأى عيوناً مُنْسَدَّة » . (العقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

* * *

وذكر أعرابى قوماً عُبَّاداً فقال: « تركوا واللهِ النعيم ليتَنَعَّمُوا، لهم عَبَرَاتٌ متدافقة، وَزَفَرَات متتابعة، لاتراهم إلّا فى وجهٍ وجيهٍ عند الله » .

* * *

وذكر أعرابى قوماً فقال: « ما رأيت أسرع إلى داعٍ بِلَيْل، على فَرَس حَسِيب، وجمل نَجِيب[1]، ثم لاينتظر الأولُ السابقُ، الآخر اللاحِقَ » .

* * *

وذكر أعرابى قوماً فقال: « جعلوا أموالهم مَناديلَ أعراضهم، فالخير بهم زائد، والمعروف لهم شاهد، يُعْطُونها بِطِيبة أنفسهم إذا طُلِبت إليهم، ويباشرون المعروف بإشراق الوجوه إذا بُغِيَ لديهم » .

* * *

وذكر أعرابى قوماً فقال: « والله ما أنالوا شيئاً بأطراف أناملهم إلا وَطِئْناه بأخماص[2] أقدامنا، وإنّ أقصى هِمَمِهم لَأَدْنَى فِعالنا » .

* * *

(١) النجيب : الجمل السريع الخفيف فى السير .

(٢) جمع أخمص كأحمر : وهو من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

وذكر أعرابى أميراً فقال : « إذا وَلِىَ لم يُطَابِقْ بين جُفونه[1] ، وأرسل العُيُونَ على عيونه ، فهو غائب عنهم ، شاهد معهم ، فالمحسن راجٍ ، والمُسِىء خائف » .

* * *

وذكر أعرابى رجلا ببراعة المنطق فقال : « كان والله بارعَ المَنْطِق ، جَزْلَ الألفاظ ، عربىَّ اللسان ، فصيح البيان ، رقيقَ حَواشِى الكلام ، بَلِيلَ الرِّيق ، قليلَ الحركات ، ساكن الإشارات » .

* * *

وذكر أعرابى رجلا فقال : « رأيت له حِلْماً وأَناةً ، يُحَدِّثُك الحديث على مَقاطعه ، ويُنْشِد الشعر على مَدَارِجِه[2] ، فلا تسمع له لَحْناً ولا إحالة[3] » .

* * *

وذكر أعرابى قوما فقال : « آلَتْ[4] سيوفُهم ألَّا تَقْضِى دَيْناً عليهم ، ولا تضيِّع حقًّا لهم ، فما أُخِذَ منهم مردودٌ إليهم ، وما أخذوا متروكٌ لهم »

* * *

ومدح أعرابى رجلا فقال : « ما رأيت عيناً قطُّ أخرَق لِظُلْمة الليل من عينه ، ولَحْظَةً أشبهَ بلهيب النار من لَحْظَتِه ، له هِزَّة كهِزَّة السيف إذا طَرِب ، وجُرْأة كجرأة الليث إذا غَضِب » .

* * *

ومدح أعرابى رجلا فقال : « كانت ظُلْمة ليله كضوء نهاره ، آمِراً بارتياد ، وناهِياً عن فساد ، لَحبيب السوء غير منقاد » .

* * *

(١) أى لم ينم من شئون رعيته ، والعيون : الجواسيس .
(٢) مدارج جمع مدرج ومدرجة : المذهب والمسلك . (٣) أحال الكلام إحالة : إذا أفسده ، والمحال من الكلام : ما عدل به عن وجهه ، وأحال : أتى بالمحال وتكلم به . (٤) حلفت .

وذكر أعرابي رجلا فقال : « اشترى والله عِرْضَه من الأذى ، فلو كانت الدنيا له فأنفقها ، لَرَأى بَعْدَها عليه حُقُوقًا ، وكان مِنْهَاجًا للأمور المُشْكِلة إذا تناجز الناسُ باللَّائمة » .

• • •

وذكر أعرابي رجلا فقال : « يُفَوِّق[1] الكلمةَ على المعنى، فتمرقُ مُرُوقَ السهم من الرَّمِيَّة ، فما أصاب قَتَل ، وما أَخْطَأَ أَشْوَى[2] ، وما غَطْمَطَ[3] له سهمٌ منذ تحرك لسانُهُ في فيهِ » .

وذكر أعرابي أخاه فقال : « كان والله رَكُوبًا للأهوال ، غير أَلُوف لِلْحِجَال[4] إذا أُرْعِدَ[5] لقوم من غير قُرٍّ ، يهين نفساً كريمة على قومها ، غير مُبْقِية لغدٍ ما في يومها » .

• • •

ومدح أعرابي رجلا فقال : « كان واللهِ من شَجَر لايُخْلِف ثمرَه ، ومن بَحْر لايُخاف كَدَره » .

• • •

وذكر أعرابي رجلا فقال : « ذاك والله فَتًى رماه الله بالخَيْر ناشئًا ، فأحسن لُبْسَهُ ، وزيَّن به نفسَهَ » .

• • •

---

(١) يسدد ويصوب ، والرمية : ما يرى . (٢) أشواه : أصاب شواه ، والشوى كعصا : اليدان والرجلان والأطراف وقحيف الرأس وما كان غير مقتل . (٣) الغطمطة : حكاية صوت القدر في الغليان وما أشبهها ، وقد يكون الأصل « وما غطمط » أي ما اضطرب من الغطمطة وهي اضطراب موج البحر .

(٤) الحجال جمع حجلة بالتحريك : القبة وموضع يزين بالثياب والستور للعروس ، والمراد النساء .

(٥) أرعد : أخذته رعدة .

ومدح أعرابى رجلا فقال : « يُصِمُّ أذنيه عن استماع الخنا ، وَيُخْرِسُ لسانه عن التكلم به ، فهو الماء الشَّرِيب[1] ، وَالْمِصْقَعُ الخطيب » .

* * *

وذكر أعرابى رجلا فقال : « ذاك رجل سبق إلىَّ معروفُه قبل طَلَبِى إليه ، فالْعِرْض وافر ، والوجْه بمائِه ، وما أَسْتَقِلُّ[2] بنعمة إلا أَقْفَلَنِى بأخرى » .

* * *

وذكر أعرابى رجلا فقال : « ذاك رَضِيع الجود والمفطومُ به ، عَقِيم عن الفحشاء ، مُعْتَصِم بالتقوى ، إذا حَذَفَت[3] الألسن عن الرأى ، حذف بالصواب ، كما يَحْذِف الأرنب ، فإن طالت الغاية ، ولم يكن من دونها نهاية ، تَمَهَّلَ أمام القوم سابقاً » .

* * *

وذكر أعرابي رجلا فقال : « إن جليسه لِطِيب عِشْرَتِهِ أطربُ من الإبل على الْحُدَاء ، وَالثَّمِل على الْغِناء » .

* * *

وذكر أعرابى رجلا فقال : « كان له عِلْمٌ لايخالطه جهل ، وصدق لايشوبه كذب ، كأنه الْوَبْل عند الْمَحْل[4] » .

* * *

وذكر أعرابي رجلا فقال : « ما رأيتُ أعشَقَ للمعروف منه ، وما رأيت للنكَرَ أبغضَ لأخذٍ بُغْضَه له » .

* * *

(١) الشريب والشرب : مايشرب . المصقع : البليغ ، أو العالى الصوت ، أو من لايرتج عليه فى كلامه ولا يتعتع . (٢) أى وما أحمل . وأقفلنى : أرجعنى وردفى . (٣) حذفت : رمت .
(٤) الجدب .

وقدم أعرابي البادية وقد نال من بنى بَرْمَك ، فقيل له كيف رأيتَهم ؟ قال : « رأيتهم وقد أنِسَت بهم النِّعمة ، كأنها من ثيابهم » .

• • •

وذكر أعرابى رجلا فقال : « ما زال يَبْنِى المجد ، وَيَشْترى الحمد ، حتى بلغ منهُ الجهْد » .

• • •

ودخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « إن جهلا أن يقول المادح بخلاف ما يعرف من الممدوح ، وإني والله ما رأيت أعشقَ للمكارم فى زمان اللؤم منك » ، وأنشـد :

مالى أرى أبوابَهم مَهْجُورَةً ؟ وكأنَّ بابَك مَجْمَع الأسواق

حابَوْك أم هابُوك أم شامُوا النَّدَى بيديك فاجتمعوا من الآفاق

إني رأيتك للمكارم عاشِـقاً والمكرُماتُ قليلةُ العُشّاقِ

(العقد الفريد ٢ : ٨٨ — ٩٠)

• • •

وضل أعرابى الطريق ليلا ، فلما طلع القمر اهتدى ، فرفع رأسه إليه فقال : ما أدرى ما أقول ؟ أأقول : رَفَعَك الله ؟ فقد رَفَعَك ، أم أقول : نَوَّرَك الله ؟ فقد نَوَّرك ، أم أقول : حَسَّنَك الله ؟ فقد حَسَّنَك ، أم أقول : عمَّرك الله ؟ فقد عمَّرك ، ولـكنى أقول : جعلنى الله فِدَاك . (العقد الفريد ٢ : ٩٧)

• • •

وذكر أعرابي قومه فقال: « كانوا والله إذا اصْطَفُّوا تحت القَتَام[1] ، خطَرتْ بينهم السِّهَامُ بِوُفُود الحِمَام ، وإذا تصافحوا بالسيوف فغَرَتْ[2] المنايا أفواهَها ، فرُبَّ

---

(١) القتام: الغبار . والحمام: الموت. ورواية العقد : « كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام » — سفر بين القوم كضرب ونصر : أصلح » . (٢) فغرت : فتحت .

يوم عارِمٍ[1] قد أحسنوا أدَبَه ، وحربٍ عَبُوس قد ضاحَكتها أسنَّتُهم ، وخَطْبٍ شَزْرٍ[2] قد ذلّلوا مَناكِبَه ، ويومٍ عَمَاسٍ[3] قد كشَفوا ظُلْمته بالصبر حتى ينجلى ، إنما كانوا البحرَ الذى لا يُنْكَش[4] غِمارُه ، ولا يُنْهَنَه تيّارُه » .

(الأمالى ١ : ١٢٩ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٨ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

ووصف أعرابي رجلا فقال : « هو أطهرُ من الماء ، وأرقُّ طباعاً من الهواء ، وأمضَى من السَّيل ، وأهدَى من النَّجْم » . (زهر الآداب ٢ : ٢)

* * *

ووصف أعرابي قومه فقال : « لُيوثُ حرب ، ولُيُوث جَدْب ، إن قاتلوا أبلَوْا ، وإن بَذلوا أغْنَوْا » . (زهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

وقال الأصمعى : سمعت أعرابيًّا يقول : « إذا ثبتت الأصول فى القلوب ، نطقت الألسنة بالفروع ، واللهُ يعلم أن قلبى لك شاكر ، ولسانى ذاكر ، وَمُحَالٌ أن يَظْهر الوُدّ المستقيم ، من الفؤاد السَّقيم » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٥)

* * *

وسئل أعرابى عن قومه فقال : « يقتلون الفقر ، عند شدة القُرّ[5] ، وأرواح[6] الشتاء ، وهبوب الجِرْبياء[7] ، بأسْنِمةِ الجَزُور ، ومُتْرَعات[8] القُدُور ، تحسُن وجوههم عند طلب المعروف ، وتعبس عند لقاء السيوف » .

* * *

---

(١) العرامة بالفتح والعرام بالضم : الشراسة والأذى ، عرم كنصر وضرب وكرم وعلم .

(٢) شزر : شديد مقلق . (٣) العماس من الليالى : المظلم الشديد ، وأمر لا يقام له ولا يهتدى لوجهه .

(٤) لا ينكش : لا ينزح ، والغمار جمع غمر كشمس : وهو الماء الكثير ، ونهنه : كفه وزجره . وفى رواية العقد : « إنما كانوا البحر ما ألقمته التقم » . ورواية زهر الآداب : « إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف فغر فيه الحمام » .

(٥) القر بتثليث القاف : البرد . (٦) جمع ريح كرياح . (٧) ريح الشمال أو بردها .

(٨) جمع مترعة : وهى المملوءة .

ووصف أعرابي قوماً فقال : « لهم جُود كرامٍ اتسعت أحوالُها ، وبأسُ ليوثٍ تتبّعها أشبالها ، وَهِمَم ملوكٍ انفسحت آمالُها ، وفخرُ صميمٍ آباء شَرُفتْ أحوالها » .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

٦٣ — قولهم فى الذم

وذكر أعرابى قوماً فقال : « أولئك سُلِخَت أقفاؤهم بالهِجاء ، وَدُبِغَتْ وجوههم باللؤم ، لِباسُهم فى الدنيا المَلامَةُ ، وزادُهم إلى الآخرة النَّدامة » .

• • •

وذكر أعرابى قوماً فقال : « لهم بيوتٌ تُدْخَل حَبْوًا ، إلى غير نَمارقَ[1] ، ولا وسائدَ ، فُصُحُ الألْسُن برَدِّ السائل ، جِعَاد الأكفِّ عن النائِل[2] » .

• • •

وقال أعرابى : « لقد صَغَّر فلانا فى عينى عِظَمُ الدنيا فى عينه ، وكأنما يَرَى السائلَ إذا أتاه ، مَلَكَ الموتِ إذا رآه » .

• • •

وسئل أعرابى عن رجل فقال : « ما ظنُّكم بِسِكِّيرٍ لا يفيق ، يتَّهم الصديق ، وَيَعْصِى الشفيق ، لا يكون فى موضع إلا حَرُمت فيه الصلاة ، ولو أفلتت كلمةُ سوء لم تَصِرْ إلا إليه ، ولو نزلت لعنةٌ من السماء لم تقعْ إلا عليه » .

• • •

(١) النمارق جمع نمرقة (بالضم) : وهى الوسادة الصغيرة . (٢) النائل : العطاء ، وهو جعد اليدين أو الأنامل (كشمس) : أى بخيل ، وقد جمعوا جعد الشعر على جعاد ككتاب كما فى اللسان ، فليكن هذا مثله ، وقد جاء فى الأصل « جعد » بدون ألف ، وأراه محرفا ، إذ لا يجمع جعد (بالفتح) على جعد بضم فسكون ، ولا على جعد بضمتين .

وذكر أعرابى رجلا فقال : « إن فلاناً لَيَهْذِى بإثمه ، مَنْ تسمّى باسْمه ، ولئن خيَّبنى فلرُبَّ باقيةٍ قد ضاعت فى طلب رجل كريم » .

• • •

وذكر أعرابى رجلا فقال : « تغدو إليه مَرَاكِبُ الضلالة ، فترجع من عنده ببذور الآثام ، مُقْدِم مما تحب ، مُكْثِر مما تكرَه ، وصاحب السوء قطعة من النار » .

• • •

وقال أعرابى لرجل : « أنت واللهِ ممن إذا سأل أَلحف ، وإذا سُئل سوّف ، وإذا حدَّث حَلف ، وإذا وعد أخلف ، تنظر نظر حَسُود ، وتُعْرِض إعراضَ حَقود » .

• • •

وسافر أعرابى إلى رجل فحرمه ، فقال لمّا سئل عن سفره : « ما رَبِحْنا فى سفرنا إلا ما قصَرنا من صلاتنا ، فأما الذى لقيناَ من الهواجر[1] ، ولقيت منا الأباعرُ ، فعُقُوبةٌ لنا فيما أفْسَدْنا من حسن ظننا » ، ثم أنشأ يقول :

رجَعنا سالمين كما خرجنا   وما خابت سَرِيَّةُ سالمينا

• • •

وذكر أعرابى رجلا فقال : « كان إذا رآنى قرَّب من حاجبٍ حاجباً ، فأقول له : لا تقبِّح وجهَك إلى قبحه ، فوالله ما أتيتك لطامعٍ راغباً ، ولا لخوفٍ راهباً » .

• • •

وذم أعرابى رجلا فقال : « عبدُ الفعال ، حُرّ المقال ، عظيم الرُّواق ، دَنِيء الأخلاق ، الدهر يرفعه ، ونفسُه تضعُه » .

• • •

وقال أعرابى : « دخلت البصرة ، فرأيت ثيابَ أحرار على أجساد عبيد ، إقبالُ

---

(١) الهواجر جمع هاجرة : وهى شدة الحر .

حَظُّهم إدبارُ حظٍّ الكرام ، شجرٌ أصولُه عند فروعه ، شغلهم عن المعروف رَغبتُهم في المنكر » .

• • •

وذكر أعرابى رجلا فقال : « ذاك سُمّ المجالس ، أعيا ما يكون عند جلسائه ، أبلغُ ما يكون عند نفسه » .

• • •

وذكر أعرابى رجلا فقال: « ذلك مَنْ يُداوى عقله من الجهل ، أحوجُ منهُ إلى مَنْ يداوى عقله من المرض ، إنه لا مرضَ أوجعُ من قِلّة عقل » .

• • •

وذكر أعرابى رجلا لم يدرك بثأره فقال : « كيف يُدْرِك بثأره مَنْ فى صدره من البَلْغَم حَشْوُ مُرَقَّعة ، لو دُقّتْ بوجهه الحجارةُ لرَضّها[1] ، ولو خلا بالكعبة لسَرقها » .

• • •

وذكر أعرابى رجلا فقال : « تسهَر وأُلْهِ زوجته جُوعًا إذا سهِر الناس شِبَعا ، ثم لا يخاف مع ذلك عاجِلَ عَارٍ ، ولا آجلَ نارٍ ، كالبهيمة أكلت ما جَمعت ، ونكحت ما وجدت » .

• • •

وسمع أعرابى رجلا يَزْعَق فقال : « ويحك ! إنما يستجابُ لمؤمن أو مظلوم ، ولست بواحد منهما، وأراك يخِفّ عليك ثِقْلُ الذنوب ، فيَحْسُن عندك مَقابِحُ العيوب» .

• • •

---

(١) رضها : دقها .

وذكر أعرابى رجلا بِضَعف فقال : « سيئُ الرَّوِيَّة ، قليل التقيَّة ، كثير السِّعاية ، ضعيف النكاية » .

* * *

وذكر أعرابى رجلا فقال : « عليه كلَّ يوم من فعله شاهدٌ بِفِسْقِه ، وشهاداتُ الأفعال ، أعدل من شهادات الرجال » .

* * *

وذكر أعرابى رجلا بِذِلَّة فقال : « عاش خاملا ، ومات مَوْتُورًا » .

* * *

وقال أعرابى لرجل شريف البيت ، دنىء الهمة : « ما أحوجَكَ أن يكون عِرْضُك لمن يصونه ، فتكون فوق ما أنت دونه » .

* * *

وذكر أعرابى رجلا فقال : « إن حَدَّثته يُسابقك إلى ذلك الحديث ، وإن سكتَّ عنهُ أخذ فى التُّرَّهَاتِ[1] » .

* * *

وذكر أعرابى رجلا راكبًا هواه فقال : « والله لهو أقْصَدُ إلى ما يَهْواه ، من الطُّرُقِ إلى المِياه ، أفقَره ذلك أو أغناه » .

* * *

وقال أعرابى : « ليت فلانًا أقالنى من حسن ظَنِّى به ، فأَخْتِم بصواب إذ بدأت مخطئًا ، ولكن من لم تُحْكِمْهُ التجارب ، أسرعُ بالمدح إلى من يستوجب الذم ، وبالذم إلى من يستوجب المدح » .

* * *

---

(١) الترهات جمع ترهة : وهى الباطل .

وقال أعرابي لرجل : « هل أنت إلا أنت لم تَغَيَّر ؟ ولو كنتَ من حديد مُحْمًى ووُضِعْتَ على عَيْنٍ لم تَذُبْ » .

• • •

وقال أعرابي لأخيه : « قد كنتُ نهيتك أن تدنِّس عِرْضك بعرض فلان ، وأعلمك أنه سمينُ المال ، مهزول المعروف ، مِن المرزوقين فَجْأَة ، قصيرُ عمر الغِنَى ، طويل عمر الفقر » .

• • •

وقال أعرابي : « لا ترك الله مُخًّا في سُلاَمَي[1] ناقةٍ حملتنى إليك ، وَلَلدَّاعِى عليها أحقُّ بالدعاء عليه ، إذ كلَّفها المسيرَ إليك » .

• • •

وذكر أعرابي رجلا فقال: «لا يُؤْنس جاراً ، ولا يُؤْهِل داراً ، ولا يَبْعث نارًا» .

• • •

وذكر أعرابي امرأة قبيحة فقال: «تُرْخِي ذيْلَها على عُرْقُوبَىْ نعامةٍ، وَتُسْدِل خِمَارها على وجه كالجِعالة[2] » .

• • •

وقال أعرابي لامرأة : « والله إنكِ لَمُشْرفة الأذنين ، جاحِظَة العينين ، ذات خَلْق متضائل : يُعْجبك الباطل ، إن شَبِعت بطرت ، وإن جُعْتِ صَخِبت[3] ، وإن رأيْتِ حسنًا دفَنْتِه ، وإنْ رأيتِ سيئًا أذَعْتِه ، تكرمين من حَقَرك ، وتَحْقِرين من أكرمكِ » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٠ — ٩٣)

• • •

---

(١) السلاميات : عظام الأصابع . (٢) الجعالة : خرقة ينزل بها القدر .

(٣) الصخب : شدة الصوت .

وسأل أعرابي رجلا فحرمه ، فقال له أخوه : « نزلتَ وَاللهِ بوادٍ غيرِ ممطُور ، وأتيتَ رجلا بك غير مسرور ، فلم تُدرِك ما سألتَ ، ولا نلت ما أمَّلتَ ، فارتحِل بندَم ، أو أقِم على عدَم » . (العقد الفريد ٢ : ٩٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)

• • •

ودخلت أعرابية على حَمدونة بنت المهدي ، فلما خرجت سئلت فقالت : « والله لقد رأيتها فما رأيت طائلا ، كأن بطنها قِربة ، كأنَّ ثديها دُبَّة ، كأن استها رُقعة[1] ، كأن وجهها وجهُ ديك قد نفش عِفريتَه[2] يقاتل ديكاً » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٢ ، والأمالي ٢ : ١٥٦)

• • •

وذم أعرابي رجلا فقال : « أفسَدَ آخِرَته بصلاح دنياه ، ففارق ما أصلح غيرَ راجع إليه ، وقدِم على ما أفسد غيرَ منتقل عنه ، ولو صَدَق رجل نفسَه ما كذبته ، ولو ألقى زمامَهُ أوطأه راحلته » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

• • •

قال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصمه : « والله لو صُوِّر الجهل لأظلم معهُ النهارُ ، ولو صُوِّر العقلُ لأضاء معهُ الليلُ ، وإنك من أفضلهما لمُعدِم فخفِ الله ، واعلم أن من ورائك حَكما لا يحتاج المُدَّعى عِنده إلى إحضار بيِّنةٍ » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

• • •

وقال أعرابي يَعيب قومًا : « هم أقلُّ الناس ذُنُوبًا إلى أعدائهم ، وأكثرهم جُرْمًا إلى أصدقائهم ، يَصُومون عن المعروف ، وَيُفطِرُون على الفحشاء » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٩٠)

• • •

---

(١) شجرة عظيمة . (٢) عفرية الديك : ريش عنقه .

ووصف أعرابي رجلا فقال: «صَغِير القَدْر، قَصِير الشِّبْر[1]، ضَيِّق الصدر، لئيم النَّجْر[2]، عظيم الكِبْر، كثير الفخر».

(البيان والتبيين ١ : ١٥٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٩١)

* * *

وذكر أعرابي أميراً فقال: «يَقضِي بالعَشْوَة، ويطيل النَّشْوَة، ويقبل الرشْوَة[3]».

(البيان والتبيين ٢ : ٥٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٩١)

* * *

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أعرابيًّا يقول: «اللهم اغفِرْ لأمِّ أوفَى» قال: «وَمَنْ أمُّ أوفى؟»، قال. «امرأتي، وإنها لَحَمقاء مِرْغَامة[4]، أكُولٌ قامَّة[5] لا تَبقَى لها حامَّة[6]، غير أنها حسناء فلا تُفْرَك[7]، وأم غِلمان فلا تُترَك».

(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال: سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول: «والله إن شُربك لَاشتِفَافٌ[8]، وإن ضِجعَتَك لَانجِعَافٌ[9]، وإن شِمْلتك لَالتِفَاف، وإنك لَتَشبَع ليلة تُضَافُ، وتنام ليلة تخاف»، فقال لها: «والله إنك لَكَرْوَاء الساقين[10]، قَعْوَاء الفَخِذين[11]، مَقَّاء الرُّفغين[12]، مُفاضة الكَشْحَين[13] ضيفُكِ جائع، وشرُّكِ شائع». (الأمالي ١ : ١٠٤)

* * *

---

(١) الشبر: القد. (٢) النجر: الأصل. (٣) العشوة والنشوة والرشوة بتثليث الفاء في الثلاثة، العشوة: ركوب الأمر على غير بيان، والنشوة: السكر، والرشوة: الجعل والبرطيل «بكسر الباء». (٤) المرغامة: المغضبة لبعلها. (٥) قامة: اسم فاعل، من قم: أي أكل ما على الخوان كالتقمه، وقد: كنسه: (٦) الحامة: الخاصة.

(٧) فرك زوجه وفركه كسمع، وكنصر شاذ: أبغضه، ورجل مفرك بالتشديد تبغضه النساء وامرأة مفركة: يبغضها الرجال. (٨) اشتف ما في الإناء: شربه كله.

(٩) الانجعاف: الانصراع. (١٠) الكرواء: الدقيقة الساقين.

(١١) القعواء: الدقيقة، أو الدقيقة الفخذين، وقيل: هي المتباعدة ما بين الفخذين (كالفجواء).

(١٢) الرفغ: أصل الفخذ، والمقاء: الدقيقة الفخذين، أو الطويلة من المقق بالتحريك وهو الطول.

(١٣) المفاضة: المسترخية، والكشحان: الخاصرتان.

عن عبد الرحمن عن عمه قال : مرّ أعرابى برجل يكنى أبا الغمر – وكان ضخماً جسيما ، وكان بواباً لبعض الملوك – فقال : « أعِنِ الفقير الحسير ، فقال : ما ألحفَ سائلَكم ، وأكثر جائعكم ، أراحنا الله منكم » ، فقال له الأعرابى : « لو فُرِّق قوتُ جسمك فى جسوم عشرة منا ، لكفانا طعامُك فى يوم شهراً ، وإنك لعظيم السَّرْطَة[١] ، شديد الضَّرْطَة ، لو ذُرِّى بِحَبْقَتك بَيْدَرٌ ، لكَفَتْه ريحُ الجِرْبِياء[٢] » .

(الأمالى ١ : ٢٢٦)

٦٤ – قولهم فى الغزل

سئل أعرابى عن امرأة فقال : « هى أرقُّ من الهواء ، وأطيبُ من الماء ، وأحسن من النَّقْهاء ، وأبعد من السماء » .　　(الأمالى ١ : ٢٠١ ، والعقد الفريد ٢ : ٩٤)

* * *

وذكر أعرابى امرأة فقال : « لها جِلْدٌ من لؤلؤ ، مع رائحة المِسْك ، وفى كل عُضْو منها شمسٌ طالعة » .

* * *

وذكر أعرابى امرأة فقال : « كاد الغزالُ أن يكونها ، لولا ما تَمَّ منها وما نَقَصَ منهُ » .

وذكر أعرابى نِسْوَةً خرجن متنزهاتٍ فقال : « وجوهٌ كالدنانير ، وأعناق كأعناق اليَعَافِير[٣] ، وأوساطٌ كأوساط الزَّنابير ، أقبلن إلينا بِحُجُول[٤] تخفِق ، وَأوْشِحَة تُعَلَّق ، وكم أسيرٍ لهن وكم مُطْلَقٍ » .

* * *

(١) البلعة ، من سرطه كنصر وفرح : ابتلعه . (٢) الحبقة: الضرطة، والبيدر : الموضع الذى تداس فيه الحبوب ، والجربياء : ريح الشمال الباردة . (٢) اليعافير جمع يعفور : وهو ولد البقرة الوحشية . (٤) الحجول جمع حجل بالكسر والفتح : وهو الخلخال . والأوشحة جمع وشاح بالضم والكسر : أديم عريض يرصع بالجوهر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .

ووصف أعرابي امرأة حسناء فقال : « تَبْسِم عن خَمْش[1] الثَّنات ، كَأَقَاحِى النبات ، فالسعيد من ذاقه ، والشقى من راقه » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « هى السُّقْم الذى لابُرْء منه ، والبرء الذى لاسقم معه وهى أقرب من الحشاَ ، وأبعد من السَّما » .

* * *

ووصف أعرابي امرأة فقال : « بيضاء جَعْدة[2] لا يَمَسّ الثوبُ منها إلا مُشَاشةَ[3] كتفيها ، وَحَلَمَةُ ثدييها ، ورضْفَىْ ركبتيْها ، ورانِفَتَىْ أَلْيتيها ، وأنشد :

أَبَتِ الرَّوَادِفُ والثُّدِىُّ لِقُمْصِها ... مَسَّ البطون وأن تمس ظهوراً

وإذا الرياح مع الْعَشِىِّ تناوحت ... نَبَّهْنَ حاسِدَةً وَهِجْن غَيُوراً

* * *

وذكر أعرابى امرأة فقال : « تلك شمس باهت بها الأرضُ شمسَ سمائها ، وليس لى شفيع فى اقتضائها[4] ، وإن نفسى لَكَتُوم لدائها ، ولكنها تَفِيض عند امتلائها » .

* * *

وقال أعرابى فى امرأة ودّعها للسير : « والله ما رأيت دمعة تَرَقْرَقُ من

---

(١) خمش ، والأقاحى جمع أقحوان بالضم : وهو نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض ، ووسطه صفر ، وراقه : أعجبه .

(٢) الجعد من الشعر : خلاف السّبط ، أو القصير منه ، ورجل جعد الشعر والأنثى جعدة ، والجعد أيضا المدمج الخلق المجتمع بعضه إلى بعض ، والجعد إذا ذهب به مذهب المدح فله معنيان مستحبان : أحدهما أن يكون معصوب الجوارح شديد الأسر والخلق غير مسترخ ولا مضطرب ، والثانى أن يكون شعره جعدا غير سبط لأن سبوطة الشعر هى الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس ، وجعودة الشعر هى الغالبة على شعور العرب . (٣) المشاشة : رأس العظم ، والرضف : عظام فى الركبة كالأصابع المضمومة قد أخذ بعضها بعضا ، والرانفة : أسفل الألية عند القيام .

(٤) اقتضى دينه وتقاضاه بمعنى .

عين بإثمِدٍ[١] على ديباجة خَدّ ، أحسن من عَبْرة أمطرتها عينها ، فأعشت بها قلبي » .

* * *

وقال أعرابي : « إن لى قلباً مَرُوعًا[٢] ، وعيناً دَمُوعًا ، فماذا يصنع كل واحد منهما بصاحبه ، مع أن داءهما دواؤهما ، وَسُقْمهما شفاؤهما ؟ » .

* * *

وقال أعرابي : « مَا أشَدَّ جَوْلَةَ الرأى عند الهوى ، وَفِطَامَ النفس عن الصِّبا ! ولقد تقطعت كَبدى ! لَوْمُ العاذِلين للعاشقين قِرَطَةٌ فى آذانهم ، وَلَوْعات الحب نيرانٌ فى أبدانهم ، مع دموع على المَغانِى[٣] ، كَغُرُوب السَّوَانِى » .

* * *

وذكر أعرابى امرأة فقال « لقد نَعِمت عَيْنٌ نظرَتْ إليها ، وَشَقِىَ قلب تفجَّع عليها ، ولقد كنت أزُورها عند أهلها ، فَيُرَحِّب بى طَرْفُها ، ويتجهَّمنى لسانُها » قيل له فما بلغ من حُبِّك لها ؟ قال : « إنى ذاكِرٌ لها وبينى وبينها عَدْوَة الطائر ، فأجد لذكرها ريحَ المسك » .

* * *

وقال أعرابي : « الْهوَى هوان ، ولكن غُلِط باسمه ، وإنما يعرف من يقول ، من أبكتَه المَنازِلُ وَالطلُول » .

* * *

وذكر أعرابى امرأة فقال : « إن لساني لِذِكْرها لذَلُول ، وإن حبَّها لِقلبي لقتول ، وإن قصيرَ الليل بها ليَطُولُ » .

* * *

---

(١) الإثمد : الكحل ، والديباجة : الخد . (٢) مفزع .

(٣) المغانى جمع مغنى : وهو المنزل ، والغروب جمع غرب كشمس : وهو الدلو العظيمة ، والسوانى جمع سانية : وهى الناقة يستى عليها ، والغرب وأداته .

ووصف أعرابي نساء ببلاغة وجمال فقال : « كلامهن أَقْتَلُ من النَّبل ، وأوقَعُ بالقلب من الْوَبْل بالمَحْل ، فروعُهن أحْسَنُ من فروع النخل » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٣ — ٩٥)

• • •

وقال أعرابي : « دخلت البصرة ، فرأيت أعيناً دُعْجاً[(١)] ، وَحَوَاجِبَ زُجًّا ، يَسْحَبْن الثياب ، وَيَسْلُبْن الألباب » . (العقد الفريد ٢ : ٩٣ ، وزهر الآداب ٣ : ١٧)

• • •

وذكر أعرابي نساء فقال : « ظَعَائِنُ[(٢)] في سَوَالِفهنَّ طُولٌ ، غير قبيحات الْعُطُول[(٣)] إذا مَشَيْن أسبلْن الذيولَ ، وإن رَكِبْن أثقلْنَ الْحُمُولَ[(٤)] » .

(زهر الآداب ٣ : ١٧)

• • •

وقال أعرابي : « لقد رأيت بالبصرة بُرُوداً كأنها صُبغت بأنوار الرَّبيع ، فهي تَرُوع[(٥)] ، واللابس لها أروع » . (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

• • •

وقال أعرابي : « شَيَّعنا الحيّ وفيهم أدوية السَّقام[(٦)] ، فقَرَأْنَ بالحَدَق السَّلامَ ، وَخَرِست الألسن عن الكلام » . (الأمالي ٢ : ٥٠)

• •

وسئلت أعرابية عن الْهَوَى فقالت : « لامُتِّع الهوى بملكه ، ولا مُلِّيَ[(٧)]

---

(١) دعجا جمع دعجاء، وصف من الدعج بالتحريك : وهو سواد العين مع سعتها . وزجا جمع زجاء من الزجج بالتحريك أيضاً : وهو دقة الحاجبين في طول .

(٢) ظعائن جمع ظعينة : والظعينة في الأصل وصف المرأة في هودجها ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت في بيتها لأنها تصير مظعونة ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة لأن زوجها يظعن بها ، والسوالف جمع سالفة : وهي ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى نقرة الترقوة . (٣) عطلت المرأة كفرح عطلا بالتحريك وعطولا : إذا لم يكن عليها حلي . (٤) الحمول : الهوادج : أو الإبل عليها الهوادج جمع حمل بالكسر ويفتح . (٥) تعجب .

(٦) أي المحبوبات المداوية السقام .

(٧) ملاه الله حبيبه تملية : متعه به وأعاشه معه طويلا .

بسلطانه ، وَقَبَضَ اللهُ يده ، وأوهَنَ عَضُدَه ، فإنه جائرٌ لا يُنْصِف فى حكم ، أعمى لا ينطق بعدل ، ولا يُقَصِّرُ فى ظلم ، ولا يرعوى لذمّ ، ولا ينقاد لحقّ ، ولا يُبْقِى على عقل وفهم . لو مَلَكَ الهوى وأُطِيع، لرَدَّ الأمور على أدبارها، والدنيا على أعقابها » .

• • •

وسئل أعرابى عن الهوى فقال : « هو داء تَدَاوَى به النفوس الصِّحَاح ، وَتَسِلُ منه الأرواح، وهو سُقْم مُكْتَتَم ،وَجَمِيم[1] مُضْطَرِم، فالقلوب له مُنْضَجة،والعيون ساكِبَة » .

(زهر الآداب ٣ : ١٨)

• • •

ووصف أعرابى امرأة يحبها فقال : « هى زينة الحُضُور ، وباب من أبواب السرور ، وَذِكْرُها فى المغيب ، والبعدِ عن الرقيب ، أشهى إلينا من كل والد وَنَسِيب ، وبها عُرِف فضل الحور العين ، واشتِيقَ بها إلى يوم الدِّين » .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

• • •

ووصف أعرابىّ نساء فقال :

« يَلْتَثِمْنَ على السَّبائِك[2] ، وَيَتَّشِحْن على النَّيازك[3] ، وَيَأْتَزِرن على العَوَانِك[4] وَيَرْتَفِقْن على الأرائِك[5] ، ويتهادَيْنَ على الدَّرانِك[6] ، ابتسامُهن وَمِيضٌ عن وَلِيجٍ كالإغْرِيض[7] ، وهُنَّ إلى الصِّبا صُورٌ ، وعن الخنا نُورٌ[8] » .

(الأمالى ١ : ٤٤ ، وزهر الآداب ٢ : ١٨)

---

(١) الحميم : الماء الحار . وفى الأصل : « وحى » وأراه محرفا من حيم ، ويناسبه قوله بعد : « والعيون ساكبة » .

(٢) اللثام على الفم ، واللفام على طرف الأنف ، تلثمت المرأة وتلفمت ، والسبائك هنا الأسنان شبهها لبياضها بالسبائك . (٣) النيازك جمع نيزك كجعفر ، وهو الرمح القصير .

(٤) العوانك جمع عانك ، وهو رمل متعقد يشق فيه البعير لا يقدر على السير .

(٥) الأرائك جمع أريكة ، وهى السرر أو الفرش ، وارتفق : اتكأ على مرفق يده ، أو على المخدة .

(٦) يتهادين : يمشين مشياً ضعيفاً ، والدرانك : الطنافس جمع درنوك كعصفور ، ودرنك كزبرج .

(٧) الوميض : اللمعان الخفى ، والوليج : الطلع ، كأنه نظم اللؤلؤ فى شدة بياضه . قال الشاعر يصف ثغر امرأة : وتبسم عن نير كالوليج ، والإغريض : الطلع حين ينشق عنه كافوره ، والبرد (بتحريك الراء) .

(٨) صور : موائل ، ومنه قيل للمائل العنق أصور ، ونور : نافرات من الريبة جمع نوار كسحاب .

قولهم في الوصف

٦٥ ـ أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سئل أعرابي عن مطر فقال :

« استقلَّ سُدٌّ مع انتشار الطَّفَلِ[١] ، فَشصا وَاحزَألَّ[٢] ، ثم اكْفَهَرَّتْ أرْجاؤه ، وَاحْمَوْمَتْ أرْحاؤه ، وَابْذَعَرَّتْ فَوَارِقُه[٣] ، وَتضاحَكَتْ بَوَارِقُه ، واستطارَ وَادِقُهُ ، وَارْتتقت جُوَبُه ، وَارْثعَنَّ هَيْدَبُه[٤] ، وَحَشَكَتْ أخلافُه ، واستقلّت أرادفُه ، وانتشرت أكنافه[٥] ؛ فالرعد مُرْتَجِس ، والبرق مُخْتَلِس ، والماء مُنْبَجِس[٦] ، فَأَتْرَعَ الغُدُر ، وانتَبَثَ الوُجُر[٧] ، وَخَلَطَ الأوعالَ بالآجال ، وَقَرَنَ الصِّيرانَ بالرَّئالِ[٨] ،

---

(١) استقل : ارتفع ، والسد : السحاب الذى يسد الأفق : والطفل : العشى إلى حد المغرب .

(٢) شصا : ارتفع ، واحزأل مثله . (٣) المكفهر من السحاب : الذى يركب بعضه بعضا ، وأرجاؤه : نواحيه جمع رجا كعصا ، واحومت : اسودت ، وأرجاؤه : أوساطه : جمع رجا كعصا ، وابذعرت تفرقت : والفوارق جمع فارق ، وهو السحاب الذى ينقطع من معظم السحاب ، وأصله فى الإبل ، يقال ناقة فارق : وهى التى تندعن الإبل عند نتاجها .

(٤) استطار : انتشر ، والودق الذى يكون فيه الودق (كشمس) وهو المطر العظيم القطر ، وارتتقت التأمت ، وجوبه : فرجه ، وارثعن : استرخى ، والهيدب : الذى يتدلى ويدنو من الأرض مثل هدب القطيفة

(٥) حشكت : امتلأت ، والأخلاف جمع خلف كحمل ، وهو للناقة كالضرع للبقرة ، أردافه : مآخيره والأكناف : النواحى .

(٦) مرتجس : مصوت من الرجس كحمل وهو الصوت ، مختلس : كأنه يختلس البصر لشدة لمعانه ، منبجس : منفجر .

(٧) أترع : ملأ والغدر جمع غدير ، والوجر جمع وجار ككتاب وسحاب : وهو جحر الضبع والثعلب ، وانتبث : أخرج نبيثتها وهو تراب البئر والقبر ، أى أنه لشدته هدم الوجر حتى أخرج ما بداخلها من التراب

(٨) الأوعال جمع وعل ، (كشمس وكتف ودئل) : التيس الجبلى ، والآجال جمع إجل كحمل وهو القطيع من البقر أى أنه لشدته جمع بين الوعول — وهى تسكن الجبال — وبين البقر — وهى تسكن القيعان والرمال ، والصيران جمع صوار كشجاع ، وصيار ككتاب وهو القطيع من البقر ، والرئال جمع رأل كشمس فرخ النعام ، فالرئال تسكن الجلد (بالتحريك وهى الأرض الصلبة المستوية المتن) والصيران تسكن الرمال والقيعان ، فقرن بينهما .

فللأودية هَدِير، وللشِّراج خَرِير، وللتِّلاع زفير[1]، وَحطَّ النَّبْعَ وَالْعُتْمَ، من القُلَل الشُّمِّ، إلى القِيعانِ الصُّحْمِ[2]، فلم يَبْقَ في القلل إلا مُعْصِمٌ مُجْرَنْثِمٌ، أو داحِضٌ مُجْرَجَمٌ[3]، وذلك من فضل رب العالمين، على عباده المُذْنبين ».

(الأمالى : ١ : ١٧٣)

٦٦ — أعرابى يصف مطرا

عن الأصمعى قال : سمعت أعرابياً من غنِيٍّ يذكر مطراً أصابَ[4] بلادهم فى غِبِّ جَدْب فقال :

« تداركَ رَبكَ خلقَه، وقد كَلِبَت الأَمْحَالُ، وتقاصرت الآمالُ، وَعَكَفَ اليأس، وَكُظِمَت الأنفاس، وأصبح الماشِي مُصْرِماً[5]، وَالْمُتْرِبُ مُعْدِما، وَجُفِيَتْ الحَلَائِل، وَامْتُهِنَتِ العَقائِل، فأنشأ سَحَابا رُكاماً[6]، كَنَهْوَراً سَجَّاما، بُرُوقه متألِّقة، وَرُعُوده مُتَقَعْقِعَة، فَسَحَّ ساجِياً[7] راكِدا، ثلاثا غيرَ ذى فُوَاق، ثم أمر رَبُّك الشَّمال، فَطَحَرَتْ[8] رُكامَه، وَفَرَّقَت جهامَه، فانقشع محمودا، وقد أحيا

---

(١) هدير : أى صوت كهدير الابل ، الشراج جمع شرج كشمس وهو مسيل الماء من الحرة إلى السهل . والتلاع : مسايل الماء من الجبال حتى ينصب فى الوادى . (٢) النبع : شجر يتخذ منه القسى ينبت فى الجبال ، والعتم : الزيتون الجبلى كقفل وعتق ، والقلل : أعالى الجبال جمع قلة كغرفة ، والشم : المرتفعة جمع شماء والقيعان جمع قاع : وهى أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، والصحم : التى تعلوها حمرة جمع أصحم . (٣) المعصم : الذى قد تمسك بالجبال وامتنع فيها (ويقال الرجل الذى يمسك بعرف فرسه خوف السقوط : معصم) مجرنثم : متقبض ، الداحض : الذى يفحص برجليه عند الموت ، والمجرجم : المصروع.

(٤) صاب : جاد ، وكلبت : اشتدت ، والأمحال جمع محل كشمس وهو القحط . وعكف : أقام .

(٥) الماشى : صاحب الماشية ، مشى الرجل وأمشى : كثرت ما شيته ، والمصرم : المقارب المال المقل ، والمترب الغنى الذى له المال مثل التراب كثرة ، يقال : أترب الرجل إذا كثر ماله (وقل أيضاً . ضد) وترب كفرح إذا افتقر كأنه لصق بالتراب ، وامتهنت : استخدمت واعملت ، والعقائل جمع عقيلة ، وأنشأ أحدث ، والنشء : السحاب أول ما يخرج .

(٦) الركام : المتراكم ، والكنهور من السحاب قطع كأنها الجبال ، أو المتراكم منه ، واحدته كنهورة ، وسجام : صباب ، ومتألقة : لامعة ، ومتقعقعة : مصوتة .

(٧) سح : صب ، ساجياً : ساكناً ، راكداً : ثابتا ، والفواق : أن يصب صبة ثم يسكن ، ثم يصب أخرى ثم يسكن مأخوذ من فواق الناقة وهو ما بين الحلبتين ، كأنه يحلب حلبة ثم يسكن ، ثم يحلب أخرى ثم يسكن . (٨) طحرت : أذهبت وأبعدت ، والجهام : السحاب الذى قد هراق ماءه ، تكت : تمحى .

وأغنَى ، وجاد فأروَى ، والحمد لله الذى لاتُـكتُ نِعمَه ، ولا تَنفَد قِسمُه ، ولا يَخِيب سائلُه ، ولا يَنزُر[1] نائلُه » .

(الأمالى ١ : ١٧٦)

٦٧ — أعرابى يصف مطرا

عن الأصمعى قال : « سألت أعرابيًّا من بنى عامر بن صَعْصَعَة عن مطر صابَ بلادهم فقال :

« نشأ عارضاً[2] ، فطَلَع ناهضاً ، ثم ابتسم وَامِضاً ، فأعَسَّ فى الأقطار فأسْجاها ، وامتدَّ فى الآفاق فغَطَّاها ، ثم ارتجز[3] فهَمْهَمَ ، ثم دَوَى فأظلم ، فأركَّ وَدَثَّ ، وَبَغَشَ وطَشَّ ثم قَطْقَطَ[4] فأفرَط ، ثم دَيَّمَ فأغْمَطَ ، ثم رَكَد فأثْجَمَ ، ثم وَبَلَ فسَجَمَ ، وجاد فأنعم ، فقَمَسَ الرُّبَا[5] وأفرَطَ الزُّبَى ، سَبْعاً تباعًا ، مايريد انقشاعًا ، حتى إذا ارتوت الحُزُون[6] وَتَضَحْضَحَت المُتُون ، ساقهُ ربُّك إلى حيث شاء ، كما جلبه من حيثُ شاء » .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٤٩)

---

(١) ينزر : يقل ، ومنه قيل : امرأة نزور : إذا كانت قليلة الولد .

(٢) العارض : السحاب المعترض فى الأفق ، وومض البرق كوعد : لمع خفيفا ، ولم أجد فى كتب اللغة « أعس » وإنما الذى فيها « عسعس السحاب : دنا من الأرض » وأسجاها : غطاها ، وفى الأصل « أسحاها » بالحاء وهو تصحيف . (٣) ارتجز الرعد : صات ، وارتجز السحاب : تحرك بطيئا لكثرة مائه ، وهمهم الرعد : إذا سمعت له دويا ، والهمهمة : كل صوت معه بحح ، وأرك : أتى بالرك (بفتح الراء ويكسر) وهو المطر القليل أو هو فوق الدث ، والدث بالفتح : المطر الضعيف ، والبغشة بالفتح : المطرة الضعيفة وقد بغشت السماء كمنع ، والطش : المطر الضعيف وهو فوق الرذاذ ، طشت السماء كنصر وضرب .

(٤) القطقط بالكسر : المطر المتتابع العظيم القطر ، وقد قطقطت السماء ، والديمة بالكسر : مطر يدوم فى سكون بلا رعد وبرق ، أو يدوم أياما ، وقد ديمت السماء . أغمط : دام ولازم ، وأثجمت السماء : أسرع مطرها ودام ، والوبل : المطر الشديد الضخم القطر ، وقد وبلت السماء كوعد : أمطرته ، وسجم كنصر : سال وانصب . (٥) قمس الربا : كنصر وضرب : غوصها ، وأفرطها : ملأها حتى فاضت ، والزبى جمع زبية كغرفة ، وهى الرابية لا يعلوها الماء ، وحفرة تحفر لصيد الأسد (وهو المراد هنا) سميت بذلك لأنهم كانوا يحفرونها فى موضع عال .

(٦) الحزون جمع حزن كشمس وهو الغليظ من الأرض ، والمتون جمع متن كشمس : وهو ماصلب من الأرض وارتفع ، والضحضح والضحضاح والضحضاح : الماء القليل ، وقيل هو مالا غرق فيه ، وقيل هو الماء إلى الكعبين أو إلى أنصاف السوق — وفى لغة هذيل الكثير — وقد تضحضح الماء ، والتضحضح أيضاً جرى السراب ، تضحضح إذا ترقرق .

٦٨ — ثلاثة غلمة من الأعراب يصفون مطرا

عن الأصمعي قال: مررت بِغلمة من الأعراب يتماقلون[1] في غدير، فقلت لهم: أيكم يصف لي الغيث وأعطيه دِرهما؟ فخرجوا إليَّ فقالوا: كلنا، وهم ثلاثة، فقلت لهم: صِفُوا، فأيكم ارتضيت وصْفَه أعطيته الدرهم، فقال أحدهم:

« عَنَّ لنا عَارِض قَصْرًا[2]، تسوقه الصَّبا، وتَحْدُوه الجَنُوب، يحبو حَبْو المُعْتَكِ[3]، حتى إذا ازْلَأَمَّت[4] صدورُه، وانتحلت خُصُورُه، وَرَجَّع هَدِيرُه، وصَعَّقَ زَئيره، واستقل نَشَاصُه[5]، وتَلَاءَمَ خَصَاصُه، وارتمج ارتعاصُه، وأوفدت سِقَابُه[6]، وامتدت أطنابُه، تدارك وَدْقُه، وتألَّق بَرْقه، وَحَفَزَت تَوالِيه[7]، وانْسَفَحَت عَزَالِيه، فغادر الثَّرَى عَمِدًا[8]، والْعَزَاز ثَئِدًا، والْخَثَّ عِقَدًا[9]، وَالضَّحَاضِحَ مُتَوَاصِيَةً، وَالشِّعَابَ مُتَدَاعِيَة ».

---

(١) يتماقلون في الماء. (٢) عن: عرض، والقصر: العشي، والصبا: ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار. (٣) عتك الرمل كعصر: تعقد وارتفع فلم يكن فيه طريق، ورملة عاتك: فيها فلتعقه لا يقدر البعير على المشي فيها إلا أن يحبو، واعتتك البعير واستعتك: حبا في العاتك فلم يقدر على السير. وقال رؤبة: أوحيت إن لم تحب حبو المعتتك.

(٤) ازلأمت: ارتفعت، والخصور جمع خصر: وهو وسط الإنسان، والترجيع: ترديد الصوت في الحلق. (٥) النشاص ككتاب وسحاب: السحاب المرتفع، أو المرتفع بعضه فوق بعض، وخصاصه: فرجه، وأصله الفرج بين الأثافي والثقب الصغير وكل خلل أو خرق في باب ومنخل وبرقع ونحوه، وارتمج: ارتعد، وارتعص: تلوى وانقبض، وارتعص الرمح: اشتد اهتزازه.

(٦) أوفدت: أشرفت، والسقاب جمع سقب كقفل وهو عمود الخباء، والأطناب جمع طنب كعنق وهو حبل طويل يشد به الوتد. (٧) حفزه كضربه: دفعه من خلفه، والتوالي: الأعجاز والمآخير، والعزالي بكسر اللام وفتحها جمع عزلاء: وهي مصب الماء من الراوية ونحوها، والسفحت: انصبت، من سفح الدمع أراقه. (٨) عمد الثرى كفرح: بلله المطر حتى إذا قبضت عليه تعقد لندوته، والعزاز: الأرض الصلبة مكان الثئد: ند من الثأد بالتحريك وهو الندى. (٩) الخث: اليابس الخشن من الرمل، والعقد ككتف وجبل: ما انعقد من الرمل وتراكم، والضحضح كجعفر والضحضاح: الماء اليسير، متواصية: متواصلة، والشعاب جمع شعبة كغرفة: وهي المسيل في الرمل، وما عظم من سواقي الأودية، وصدع في الجبل يأوي إليه المطر.

وقال الآخر : « تَرَاءتْ المَخَايِل[1] من الأقطار ، تَحِن حَنِينَ العِشَار ، وتترامَى بِشُهُب النَّار ، قَوَاعِدُها متلاحِكَة[2] ، وَبَوَاسِقُها متضاحِكَة ، وأرجاؤها متقاذِفة ، وأعجازها مُتَرادِفة ، وأرحاؤها مُتَرَاصِفة ، فوصَلت الغرب بالشرق ، والوَبْل بالوَدْق ، سَحًّا دَرًّا كَاًّ[3] ، متتابعاً لَكاًّ كاًّ ، فَضَحْضَحَت الجفَاجِفَ[4] ، وأنهَرَت الصَّفَاصِفَ ، وَحَوَّضت الاصالِفَ ، ثم أقلعت محمودةَ الآثار ، مَوْمُوقَة الخيار » .

فقال الثالث : واللهِ ما خِلته بلغ خُمْساً ، فقال : هلمَّ الدرهمَ أَصِفه لك ، فقلت : لا ، أو تقول كما قالا ، قال : لأَبُذَّنَّهما[5] وَصْفاً ، ولأوقِفَنَّهما رَصْفاً ، فقلت : هاتِ للهِ أبوك ، فقال : « بينما الحاضِرُ بين الباس والإبلاس ، قد غَمَرَهم الإشفاق ، رَهبَةَ الإملاق ، وقد جفَّت الأنواء[6] ، ورفرف البلاء ، واستولى القُنُوط على القلوب ، وكَثُر الاستغفار من الذنوب ، ارتاح ربك لعباده ، فأنشأ سحاباً مُسْتَجْهِرًا[7] كَنَهْوَرًا مُعْنَوْنِكاً مُحْلَوْلِكاً ، ثم استقل واخزألَّ ، فصار كالسماء دون السماء ،

---

(١) مخايل جمع مخيلة « بضم الميم وكسر الخاء » والمخيلة والخيلة « بتشديد الياء المكسورة » السحابة التي تحسبها ماطرة ، والعشار جمع عشراء كنفساء : وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية ، أو هي كالنفساء من النساء ، والشهب جمع شهاب ككتاب : وهو شعلة من نار ساطعة .

(٢) قواعدها : أسافلها ، وأصله من قواعد البيت : أي أساسه ، متلاحكة : أي قد اشتد التئامها ، والمتلاحكة : الناقة الشديدة الخلق ، وبواسقها : أعاليها جمع باسقة ، من بسق : أي طال وارتفع ، ومتضاحكة أي يضحك فيها برقها ، متقاذفة : أي يقذف بعضها بعضا بالمطر ، وأرحاؤها : أوساطها ، متراصفة : متراكة قد رصف بعضها فوق بعض . (٣) أي صبا متتابعة ، ولكاكا : متزاحما من اللكاك ككتاب وهو الزحام .

(٤) الجفاجف جمع جفجف كجعفر : وهي الأرض المرتفعة ليست بالغليظة ، وضحضحتها : جعلت فيها ضحاضح والصفاصف جمع صفصف كجعفر : وهو المستوى من الأرض ، وأنهر الماء : أساله ، والأصلف والصلفاء : ما صلب من الأرض ، والجمع أصالف ، وحوضت جعلت فيها حياضا .

(٥) بذه : فاته وغلبه ، والحاضر : ساكن الحضر ، والباس : العذاب والشدة ، والإبلاس : التحير واليأس : والاشفاق : الخوف ، والإملاق : الفاقة . (٦) الأنواء جمع نوء : وهو في الأصل سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله في ساعته من المشرق ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إليها . (٧) مستجهراً : لم أجد هذه الكلمة في كتب اللغة ، وربما كان الأصل : مستنهراً من استنهر الشيء إذا اتسع ، والمحلولك : الشديد السواد ، وقد تقدم معنى اعتنك واعتنك : واعنونك افعوعل من هذه المادة ، ولم أجده في كتب اللغة .

وكالأرض المَدْحُوَّة[1] فى لُوح الهواء ، فأخْصَبَ السهولَ وأتْأَقَ الهُجُولَ ، وأحيا الرجاء ، وأمات الضَّرَّاء ، وذلك من فضل رب العالمين » .

قال : فلاً واللهِ اليَفعُ صدرى ، فأعطيت كل واحدٍ درهما ، وكتبت كلامهم .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٢)

٦٩ — أعرابى يصف مطرا

عن الأصمعى قال : سألت أعرابيا عن مطر صابَهم بعد جَدْب فقال :

« ارتاح لنا ربك بعد ما استولى علىّ الظنونُ ، وخامرَ القلبَ القُنُوطُ ، فأنشأ بِنَوْءِ الجَبْهة[2] قَزَعَةً كالفَرْض من قِبَل العَيْن ، فاحْزَأَلَّت عند ترجُّل النهار ، لإزْمِيم السِّرار[3] ، حتى إذا نَهَضَت فى الأفق طالعةً ، أمر مسخِّرها الجنوب فتنسَّمَتْ لها ، فانتشرت أحضانُها ، وَاحْوَمَت أركانها ، وَبَسَق عَنانها[4] واكفهرت رَحَاها ، وانبعجت كُلاَها ، وَدَمَرَت أُخراها أولاها ، ثم استطارت عَقَائقها ، وَتَقَعْقَعَتْ صوَاعِقُها ، ثم ارْثَعَنَّت[5] جوانبها ، وتداعَتْ سَوَّا كبُها ، وَدَرَّتْ حَوَالِبُها فكانت الأرضُ طَبَقًا[6] سحَّ فهضَبَ ، وَعمَّ فأخصَبَ ، فعَلَّ القيعانَ ، وَضَحْضَحَ

---

(١) المبسوطة ، واللوح : الهواء وأخصبها : أرواها ، من أخصبه إذا أطعمه وسقاه حتى شبع وروى ، وأتأق : ملأ ، والهجول جمع هجل كشمس : وهو المطمئن من الأرض ، واليفع واليافع : الشاب .

(٢) الجبهة : منزل القمر ، قزعة : قطعة من السحاب ، والفرض : الترس ، والعين : القبلة ، وترجل النهار : ارتفع .

(٣) الإزميم : ليلة من ليالى المحاق — والمحاق مثلثة : ثلاث ليال من آخر الشهر ، والسرار : آخر ليلة من الشهر ، وأحضانها جمع حضن كحمل : وهو جانب الشىء وناحيته ، واحومت : اسودت .

(٤) بسق : ارتفع ، والعنان : السحاب ، رحاها : وسطها ، وانبعجت : انشقت ، والكلية من السحاب : أسفله — ومن المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، ودمرت : حضت — والتدامر : التحاض على القتال ، عقائقها : بروقها المشبهة للعقائق .

(٥) ارثعن المطر : ثبت وجاد . (٦) غيث طبق : عام واسع يطبق الأرض ، وهضب كضرب : مطر .

الشيطان ، وَجَوَّخ الأضواج[1] ، وأترع الشراج ، فالحمد لله الذى جعل كِفاء إساءتنا إحسانًا ، وَجزَاء ظلمنا غُفْرَانًا » . (بلوغ الأرب ٣: ٢٥٢)

٧٠ — أعرابى يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيا من بنى عامر بن لُؤَىّ بن صَعْصَعَة يصف مطراً فقال :

« نشأ عند الْقَصْر ، بِنَوْء النَّفْر[2] ، حَبِيًّا عَارِضًا ، ضاحكا وامِضًا ، فَكَلاَ وَلاَ[3] ما كان ، حتى شَجِيت به أقطارُ الهواء ، واحتجبت به السماء ، ثم أطرق[4] فا كْفَهَرّ ، وتراكم فَادْلَهَمّ ، وَبَسَق فازْلأَمّ ، ثم حدَتْ به الريح ، فَحَنّ ، فالبرق مُرْتَهِج ، والرعد مُتَبَوِّج[5] ، والخَرْج متبعّج ، فأثجم ثلاثًا ، متحيّراً هَثْهَاثًا[6] ، أخْلاَفُه حاشِكَة ، وَدُفَعه متواشِكة ، وَسَوَامُه متعارِكة ، ثم وَدَّعَ مُنْجِيا[7] ، وأقلعَ مُتْهِمًا ، محمودَ البَلاء ، مُتْرِعَ النِّهاء ، مشكور النعماء ، بِطَوْل[8] ذى الكبرياء » .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٤)

---

(١) جوخ السيل الوادى : إذا كسر جنبتيه واقتلع أجرافه ، وفى الأصل « حوخ » وهو تصحيف . والأضواج جمع ضوج كشمس ؛ وهو منعطف الوادى ، والشراج جمع شرج كشمس أيضاً ؛ وهو مسيل الماء من الحرة (بفتح الحاء) إلى السهل .

(٢) القصر : العشى ، والنفر : منزل القمر ، والحبى : السحاب يشرف من الأفق على الأرض ، أو الذى بعضه فوق بعض . (٣) قال فى اللسان : « والعرب إذا أرادوا تقليل مدة فعل أو ظهور شىء عنى قالوا : كان فعله كلاه وربما كرروا فقالوا كلا ولا ، قال الشاعر : يكون نزول القوم فيها كلا ولا : » ، والشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه ، وقد شجى به كرضى .

(٤) هو من أطرقت الإبل : تبع بعضها بعضا ، وادلهم : اسود .

(٥) التبوج : الصياح ، والخرج : السحاب أول ما ينشأ ، متبعج : متشقق .

(٦) الهثهاث : السريع ، حاشكة : كثيرة الماء ، متواشكة : يسارع بعضها بعضاً ، والسوام : الإبل الراعية .

(٧) أثجم المطر وغيره : أقلع ، ومتهما : أى سائرا نحو تهامة ، والنهاء جمع نهى بالكسر والفتح وهو الغدير .

(٨) أى بفضله وقدرته .

٧١ — أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : خرج النّعمان في بعض أيامه في عَقِب سَماء ، فلقي أعرابيًّا على ناقة ، فأمر فأُتي به ، قال : كيف تركتَ الأرض وراءك ؟ قال :

« فِيحٌ رُحابٌ[١] ، منها السهولُ ومنها الصِّعاب ، منشوطة بِجبالها ، حاملة لأثقالها » ، قال : إنما سألتك عن السماء ! قال :

« مُطِلَّة[٢] مستقِلَّة ، على غير سِقَاب ولا أطناب ، يختلف عَصْراها ، ويتعاقب سِرَاجاها » ، قال : ليس عن هذا أسألك ! قال : َفسَلْ ما بدا لك ، قال : هل صابَ الأرضَ غيثٌ ؟ قال :

« نعم : أغمطت[٣] السماء في أرضنا ثلاثا رَهْواً ، فثَرَّت وأرْزَغَتْ ، وَرَسَغَتْ ، ثم خرجتُ من أرض قومي أقروُها[٤] ، فإذا هي مُتَوَاصِيَة ، لاخَطِيطة بينها ، حتى هبطتُ بِعِشَار ، فتداعى السحابُ من الأقطار ، فجاءنا بالسيل الخرَّار ، فعفا[٥] الآثارَ ، وملأ الجِفارَ ، وَقوَّر عاليَ الأشجار ، فأجحَرَ الحُضَّار ، ومنع السُّفَّار ، ثم أقلَعَ عن نفع وإضرار ، فلما اتلأبَّت[٦] لي القِيعَان ، ووضَحَت السُّبُل في الغيطان ، وفات العَنَانُ ، من أقطار الأعْنَان ، فلم أجد وَزَراً إلا الغِيران ، ففات وِجار الضَّبُع ، فغادرتُ السهول

---

(١) فيح جمع فيحاء : واسعة ، وكذا رحاب ، منشوطة : مشدودة ، من نشط الحبل كنصر عقده (وأنشطه : حله) . (٢) مطلة : مرتفعة ، وكذا مستقلة ، والسقاب جمع سقب كشمس : وهو عمود الخباء ، والعصران : الليل والنهار ، وسراجاها : الشمس والقمر . (٣) أي دامت ولازمت ، والرهو : السكون ، والثرة من العيون : الغزيرة كالثرارة ، وقد ثرت هي ، والرزغة بالتحريك : الوحل ، وأرزغ المطر الأرض بلها ولم تسل ، ورسغ المطر : كثر وثرى الأرض حتى تبلغ يد الحافر عنه إلى أرساغه .

(٤) أتتبعها ، والخطيطة : الأرض لم تمطر بين ممطورتين ، أو التي مطر بعضها ، وعشار : موضع .

(٥) محاها وطمسها ، والجفار جمع جفر كشمس : البئر التي لم تطو ، وقورها : قطع من وسطها خرقا مستديرا ، وأجحر ، من أجحر الضب : أي أدخله في جحره ، والحضار جمع حاضر وهو المقيم في الحضر ، والسفار جمع سافر وهو المسافر لا فعل له . (٦) استقامت ، والعنان : السحاب ، والأعنان من السماء : نواحيها ، والوزر الملجأ ، والغيران جمع غار : وهو الكهف في الجبل ، والوجار بالكسر والفتح : جحر الضبع وغيرها .

كالبحار ، تتلاطم بالتَّيَّار ، والْحُزُونَ متلفِّعةً بالْغُثَاء[١] ، والوحوشَ مقذوفة على الأرجاء ، فما زِلت أطَأ السماء ، وأخوضُ الماء ، حتى وَطِئْت أرضكم » .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٧)

٧٢ – أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : وقف أعرابي على قوم من الحاجّ فقال :

« ياقومي بدا شأني ، والذي أَلْجَأَني[٢] إلى مسألتكم ، إن الغيثَ كان قد قَوِيَ عنَّا ثم تكرْفَأ السحابُ ، وَشَصَا الرَّبَابُ ، وَادْلَهَمَّ سَيِّقه[٣] ، فارتجس رَيِّقه ، وقلنا : هذا عامُ باكِرُ الوَسْمِيِّ[٤] ، محمود السُّمِيّ ، ثم هبَّت له الشَّمال ، فَاحْزَأَلَّت طَخَارِيرُه[٥] ، وتفزَّع كِرْفِئُه متباشراً ، ثم تتابع لمَعَانُ البرق ، حيث تَشِيمُه الأبصار ، وتحده النظَّار ، وَمَرَتِ[٦] الجَنُوبُ ماءه ، فقوَّض الحيُّ مُزْلَئِمِّين نحوه ، فَسَرَّحنا المالَ فيه وكان وَخْماً وَخِماً ، فأساف المالَ ، وأضفَّ الحالَ ، فرحِم الله امرأ جاد بخَيْر ، أو دلّ على خَيْر » .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٨)

٧٣ – أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

قال أبو مُجيب – وكان أعرابياً من بني ربيعة بن مالك – : « لقد رأيتُنا في أرضٍ

---

(١) الغثاء : البالى من ورق الشجر المخالط لزبد السيل .

(٢) ألجأنى ، وقوى المطر : احتبس ، وتكرفأ : تراكم ، وشصا : ارتفع ، والرباب : السحاب الأبيض

(٣) ادلهم : اسود ، والسيق : السحاب لا ماء فيه ، والريق : تردد الماء على وجه الأرض .

(٤) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والسمى جمع سماء : وهو المطر أو المطرة الجيدة . (٥) الطخارير جمع طخرور كعصفور بالخاء والحاء : القطع من السحاب ، والكرفئ : السحاب المرتفع المتراكم ، وتفزع : تفرق وانقشع ، وشام البرق : نظر إليه أين يقصد .

(٦) هو من مرى الناقة كرمى : مسح ضرعها لتدر ، مزلئمين : ماضين مرتحلين إليه ، وأساف المال : أهلكه ، والسواف كجبان وشجاع : الموت فى الناس والمال ، ساف سوفا أى هلك ، وأسافه الله ، ويقال أيضاً أساف الرجل : وقع فى ماله السواف أى الموت : وأضف من الضفف كسبب وهو الضيق والشدة ، أصابهم من العيش ضفف أى شدة .

عَجْفاء[١] ، وزمان أَعْجَف ، وشجر أَعْشَم ، فى قُفّ غليظ ، فبينما نحن كذلك ، إذ أنشأ الله تعالى من السماء غيثاً مُسْتَكِفًّا[٢] نَشْؤُه ، مُسْبَلَةً عَزَالِيه ، ضِخَاماً قَطْرُه ، جَوْدًا صَوْبُه زاكياً ، أنزله الله تعالى رزقًا لنا ، فَعَيَّش به أموالَنا ، وَوَصَل به طرقنا ، وأصابنا وإنا لَبِنَوْطَةٍ[٣] بعيدة الأرجاء ، فاهرمَّعَ مطرُها ، حتى رأيتنا وما نرى غير السماء والماء وَضَهوَات الطَّلْح[٤] ، وضَرَب السيلُ النِّجَافَ ، وملأ الأودية فَزَعَبها ، فما لَبِثْنا إلا عشرا ، حتى رأيتها رَوْضة تَنَدَّى » . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٩)

٧٤ـ أعرابى يصف مطرا

ودخل أعرابى على سليمان بن عبد الملك فقال :

« أصابتك سَمَاء فى وجهك يا أعرابى » ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، غير أنها سَحَّاء طَحْناء وَطْفاء[٥] ، كأن هَوَادِيَها الدِّلاء ، مُرْجَحِنَّة النواحى ، موصولة بالآكام تكاد تمس هَامَ الرجال ، كثيرٌ زَجَلُها[٦] ، قاصِفٌ رعدُها ، خاطف[٧] برقها ، حَثِيث وَدْقها ، بطىء مسيرها ، مُثْعَنْجِرٌ قَطْرُها ، مظلِم نَوْؤُها ، قد لجئت الوحش إلى أوطانها، تبحث عن أصولها بأظلافها، متجمعة بعد شتاتها ، فلولا اعتصامنا يا أمير المؤمنين

---

(١) ليس بها نبات ، وأصله من العجف بالتحريك وهو الهزال ، وأعشم : يابس ، وأصله من العشم بالتحريك وهو يبس فى مفصل الرسغ تعوج منه اليد والقدم ، والقف ، ما غلظ من الأرض وارتفع ، لم يبلغ أن يكون جبلا : وأنشأ الله السحاب : رفعه . (٢) مستكفا : مستديرا كالكفة ، (والكفة بالكسر وبضم كل مستدير) ، وصوبه : مطره . (٣) النوطة : الأرض يكثر بها الطلح (والطلح : شجر عظام) والموضع المرتفع عن الماء ، أو ليس بواد ولا تلعة بل بين ذلك ، واهرمع : كثر وأسرع .

(٤) الضهوة : بركة الماء ، والنجاف جمع نجف بالتحريك وبهاء : مكان لا يعلوه الماء ، أو هى أرض مستديرة مشرفة على ما حولها ، وزعبها : ملأها .

(٥) سحابة وطفاء : مسترخية لكثرة مائها، أو هى الدائمة السح الحثيثة ، هواديها : أوائلها ومقادمها، مرجحنة : ثقيلة مهتزة (٦) الزجل : الجلبة ورفع الصوت ، مثعنجر : سائل منصب ، ولجأ إليه كنع وفرح ، وأظلاف جمع ظلف بالكسر وهو للبقرة والشاة والظبى وشبهها كالقدم لنا ، والقنن جمع قنة ، وهى قة الجبل . (٧) زدت هذه الكلمة كى يستقيم بها الكلام والظاهر أنها سقطت من الأصل فى الطبع .

بِعِضَاهِ الشجر ، وتعلَّقنا بِقُنَن الجبال ، لكننا جُفَاء[1] فى بعض الأودية ، وَلَقَمِ الطريق ، فأطال الله للأمة بقاءك ، ونسأ لها فى أجلك ببركتك ، وعاد الله بك على رعيتك ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد » .

فقال سليمان : « لَعَمْرُ أبيك لئن كانت بديهة لقد أحسنت ، وإن كانت مُحَبَّرَةً لقد أجدت » قال : بل محبرة مَهْذورة ياأمير المؤمنين، قال : « يا غلام أعطِه، فوالله لَصِدْقُه أعجبُ إلينا من صِفته » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٦)

٧٥ــ أعرابية تصف مطرا

عن الأصمعى قال : « كان شيخ من الأعراب فى خِبائِه ، وابنة له بالفِناء[2] ، إذ سمع رعداً فقال : ماتَرَيْن يا بُنيَّة ؟ قالت : أراها حَوَّاء قَرْحاء[3] ، كأنها أقْرَابُ أتَانٍ قَمْرَاء ، ثم سمع راعدة أخرى فقال : كيف ترينها ؟ قالت : أراها جَمَّة التَّرْجاف[4] متساقطةَ الأكناف ، تتألق بالبرق الوَلَّافِ ، قال : هلُمِّى المِغْرَفَة ، انْتَئِى[5] نُؤْيًا » .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥١)

٧٦ــ أعرابية تصف مطرا

عن الأصمعى قال : كان أعرابى ضرير تقوده ابنته ، وهى ترعى غُنَيْمات لها ، فرأت سحابًا فقالت : ياأبت جاءتك السماء ، فقال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها فرس دَهْمَاء[6] تجُرّ جِلَالَها ، قال : ارعَىْ غنيماتِك ، فرعت مَلِيًّا ، ثم قالت : ياأبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها : قالت ؟ كأنها عين جمل طَرِيف[7] قال : ارعَىْ

---

(١) الجفاء : الزبد ، ولقم الطريق : معظمه ووسطه ، وفى الأصل : « لقم » وهو تحريف .

(٢) الفناء : ما اتسع أمام الدار . (٣) حواء : وصف من الحوة بالضم وهى حمرة إلى السواد ، والقرحة بالضم : وجه الفرس دون الغرة ، والوصف منه أقرح وقرحاء ، والأقراب جمع قرب كقفل وعنق : وهو الخاصرة ، والقمرة بالضم : بياض فيه كدرة ، حمار أقمر ، وأتان قمراء .

(٤) كثيرة الاضطراب ، الولاف : المتتابع ، من ولف البرق كوعد ولفاً وولافا بالكسر : تتابع .

(٥) النؤى : الحفير حول الخباء يمنع السيل ، وانتأيه عمله . (٦) سوداء ، والجلال جمع جل بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به . (٧) الجمل ينتقل من مرعى إلى مرعى .

غنيماتك ، فرعت مليًا ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟ قالت : سُطِحَتْ وابيضَّت ، قال : أدخلي غنيماتك ، قال : فجاءت السماء بشيء شطأ[1] له الزرع وأينع ، وَخَضِرَ وَنَضُرَ » ، (بلوغ الأرب ٣ : ٢٦٠)

٧٧ — أعرابي يصف أرضاً

ووصف أعرابي أرضًا أحدَبها فقال :

« خَلَعَ شِيحُها ، وأبْقَلَ رِمْثُها ، وَخَضَبَ عَرْفَجُها[2] ، وَاتَّسَقَ نبتُها ، واخضرَّتْ قُرْيَانُها ، وأخْوَصَتْ بُطْنَانُها[3] ، وَأَحْلَسَتْ أكامُها ، واعتمَّ نَبْتُ جَرَاثِيمِها[4] ، وأجْرَتْ بَقْلَتُها وَذُرَقَتُها وَخُبَّازَتُها[5] ، وَاحْوَرَّتْ خواصِرُ إبلِها ، وَشَكِرَتْ حَلُوبَتُها ، وَسَمِنَتْ قَتُوبَتُها[6] ، وَعَهِدَ ثَرَاها . وَعَقَدَتْ تَنَاهِيها ، وأماهتْ ثمارُها . وَوَثِقَ النَّاسُ بِصَائِرَتِها[7] » . (البيان والتبيين ٢ : ٧٧)

---

(١) شطأ الزرع : أخرج شطأه ، أي فراخه .

(٢) خلع الشيح : أورق (والخالع من العضاه : الذي لا يسقط ورقه أبداً ، والعضاه ككتاب : كل شجر له شوك) والرمث : مرعى للإبل ، وشجر يشبه الغضا ، والعرفج : شجر سهل ، وخضب الشجر كضرب وسمع وعني : اخضر . (٣) القريان : مجاري الماء من الربو إلى الرياض جمع قري كغني ، وأخوص العرفج : تفطر بورق ، أخوصت النخلة : أخرجت الخوص ، والبطنان جمع بطن وهو الغامض من الأرض أي المطمئن منها . (٤) أحلس النبت : غطى الأرض بكثرته ، وأحلست الأرض فهي محلسة : صار النبات عليها كالحلس كثرة ، الحلس كساء على ظهر البعير — والجراثيم جمع جرثومة بالضم ، وجرثومة الشيء : أصله ، واعتم : أي كأنه لبس عمامة . (٥) أجرت البقلة : صارت لها جراء — وجراء ككتاب جمع جرو بالتثليث وهو صغير كل شيء — والذرقة واحدة الذرق وهو نبات مثل الكراث الجبلي الدقاق في رأسه حب حلو يؤكل رطباً تحبه الرعاة يأتون به أهليهم ، والخبازة والخبازى : النبت المعروف .

(٦) احورت : ابيضت وذلك من الشد على خواصرها لئلا تحبط (والحبط بالتحريك : انتفاخ بطنها من مرعى ترعاه) والحلوبة : الحلوبة ، وشكرت الناقة : امتلأ ضرعها ، والقتوبة : سمنت ، والقتوبة : الإبل التي تقتبها (وأقتب الناقة : شد عليها القتب (بالتحريك) وهو إكاف صغير على قدر سنام البعير) . —

(٧) عهد الثرى : بله المطر حتى إذا قبضت عليه تعقد لندوته ، والتناهي جمع تنهية : وهي مستقر السيل حيث ينتهي الماء من الوادي ، وعقدت تناهيها : أن يمر السيل مقبلا حتى إذا انتهى منتهاه دار بالأبطح حتى يلتقي طرفا السيل ، وأماهت ثمارها : أي كثر ماؤها ، والصائرة : المطر والكلأ .

٧٨ — رائد يصف أرضا جدبة

قال أبو المجيب : وصف رائدٌ أرضًا جَدْبة فقال :

« أغبرَّتْ جادَّتُها[1] ، وَذَرَّع مَرْتَعها ، وَقَصِم شجرُها ، وَرَقَّت كَرِشها ، وَخَور عظمها . والتقى سَرْحاها[2] . وتميّز[3] أهلها . ودخل قلوبَهم الْوَهَلُ . وأموالَهم الْمزْلُ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٧)

٧٩ — رائد يصف أرضا

عن محمد بن كُناسة قال : أخبرني بعض فصحاء أعراب طيّ قال :

« بعث قوم رائدًا . فقالوا : ما وراءك ؟ قال : عُشْب وَتَعاشِيب[4] ، وَكَمْأَة متفرِّقة شِيبٌ ، تقلعها بأخفافها النِّيبُ[5] » ، قالوا : لم تصنع شيئًا ، هذا كذب ! فأرسلوا آخر ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : « عُشْب ثَأْدٌ مَأْدٌ مَوْلِيٌّ[6] وعَهْد . متدارك جَعْد[7] ، كأفخاذ نساءِ بني سعد ، تشبَع منه النِّيبُ وهي تُعَدُّ[8] » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

---

(١) الجادة : الطريق إلى الماء ، وذرع المرتع : بعد عن الماء ، وقصم شجرها : تكسر ، يقال : سيف قصم كفرح : أي طال عليه الدهر فتكسر حده ، وقصم السن : انصدع وتثلم ، وإذا لم يكن للجمال مرعى إلا الشجر وحده رقت أكراشه . (٢) يعني أنه إذا أكل كل سارح ما يليه ، التقيا عند الماء .

(٣) تفرقوا في طلب الكلأ ، والوهل : الفزع ، والمزل : موت مواشي الرجل .

(٤) العشب : الكلأ الرطب ، والتعاشيب : القطع المتفرقة منه . (٥) النيب جمع ناب : وهو الناقة المسنة . (٦) جاء في اللسان : « قال الأصمعي : قيل لبعض العرب : أصب لنا موضعاً أي أطلب فقال رائدهم : وجدت مكانا ثأداً مأدا (بفتح فكسر) وقال زيد بن كثوة : بعثوا رائداً فجاء وقال : عشب ثأد مأد (بفتح فسكون) كأنه أسوق بني سعد » وثئد النبت كفرح : ندي فهو ثئد ، ومأد كمنع اهتز وتروى وجرى فيه الماء وتنعم ولان والمأد : الناعم من كل شيء ، والمولي : الذي أصابه الولي (والولي : المطر الذي يأتي بعد المطر) ، والعهد : أول مطر الوسمي (والوسمي : أول مطر الربيع) .

(٧) من قولهم : زبد جعد : أي متراكب مجتمع قد صار بعضه فوق بعض .

(٨) يعني أن العشب قد طال وتم ، والنيب تشبع منه وهي تعد : لأنها تتناوله وهي قائمة لا تبرح مكانها ولا تطأطئ رأسها .

٨٠ — رائد يصف أرضا

وبعث رجل أولاده يرتادون فى خِصْب . فقال أحدهم : « رأيتُ بَقْلا . وماء غَيْلا[1] . يسيل سَيْلا . وخُوصه تميل مَيْلا ، يحسبها الرائِد ليلا » وقال الثانى : « رأيت دِيمة على دِيمة ، فى عهدها غير قديمة . وَكَلأً تشبَع منه النَّاب قبل الفطيمة » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

• • •

وروى هذا الوصف عن ابن الكلبى بصورة أخرى قال :

« خطب هندَ بنة الخسِّ الإيادية ثلاثةُ نفَر من قومها ، وارتَضَت أنسابَهم وجَمالهم ، وأرادت أن تَسْبُر عقولَهم ، فقالت لهم : « إنى أريد أن ترتادوا لى مَرْعًى ، فلما أتَوْها قالت لأحدهم : ما رأيت ؟ قال : رأيت بَقْلا وَبُقَيْلا ، وماء غدَقًا[2] سَيْلا ، يحسبه الجاهل ليلا ، قالت : أمرَعتَ[3] ، قال الآخر : رأيت دِيمة بعد دِيمة ، على عهادٍ غير قديمة ، فالناب تشبَع قبل الفَطِيمة ، قال الثالث : رأيت غيثًا ثَعْدًا مَعْدًا[4] ، مترا كما جَعْداً ، كأنخاذ نساء بنى سعد ، تشبع منهُ النِّيب وهى تُعَدّ » .

(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٦)

٨١ — أعرابى يصف أرضه وماله

عن أبى عمرو بن العلاء قال : لقِيت أعرابيا بمكة فقلت له : ممن أنت ؟ قال : أسَدِىّ ، قلت : ومن أيهم ؟ قال : نَهْدِى ، قلت : من أى البلاد ؟ قال : من عُمَان ،

---

(١) الغيل : الماء الذى يجرى بين الشجر .

(٢) الغدق : الماء الكثير . (٣) أمرعه أصابه مريعا كخصيب وزنا ومعنى .

(٤) الغيث : المطر والكلأ ، وقيل : الأصل المطر ثم سمى ما ينبت به غيثاً ، والمراد هنا الثانى ، ويقال ثعد معد : غض رطب رخص .

قلت: فأنّى لك هذه الفَصَاحة؟؟ قال: « إنَّا سكنَّا قُطْرًا لا نسمع فيه نَاجِخَة التيّار[1] »

قلت: صف لى أرضك، قال: « سِيفٌ أفْيَح، وفَضَاء صَحْصَح، وَجَبل صَرْدَح، وَرَمْل أصْبَح[2] »، قلت: فما مالُك؟ قال: النخل، قلت: فأين أنت من الإبل؟ قال: « إن النخل حَمْلُها غِذاء، وسَعَفُها[3] ضِياء، وجِذْعها بِناء، وكَرَبُها صِلاء، ولِيفها رِشَاء، وخُوصُها وِعاء، وقَرْوُها إناء ». (ذيل الأمالى ص ١٧)

٨٢ — أعرابى يصف بلدا

وذكر أعرابى بلداً فقال: « بلد كالتُّرس، ما تمشى فيه الرياح إلا عابرات سبيل، ولا يمرّ فيه السَّفْر إلا بأدلّ دليل ». (العقد الفريد ٢ : ٨٠)

وقال أعرابى: « مررت ببلد ألقى به الصَّيِّف[4] بِعَاعَه، فأظهر غَدِيراً يَقْصُر الطَّرْفُ عن أرجائه، وقد نفَتِ الريح القَذَى عن مائه، فكأنه سلاسل دِرْعٍ ذاتِ فُضُول[5] ». (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

وسئل أعرابى عن مسافة ما بين بلدين فقال: « عُمْر ليلة، وأَدِيم[6] يوم ».

وقال آخر: « سواد ليلة، أو بياض يوم ».

(البيان والتبيين ٢ : ٥١، والعقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقال آخر: « إن المسافر ومتَاعَه لعَلَى قَلَت[7] إلا ما وَقَى اللهُ ».

(العقد الفريد ٢ : ٥٢)

الناجخة: الصوت، والتيار: الموج. (٢) السيف: ساحل البحر، وساحل الوادى، أو لكل ساحل سيف، أو إنما يقال ذلك لسيف عمان، والأفيح: واسع، والصحصح: ما استوى من الأرض، والصردح: الصلب، والأصبح: الذى يعلو بياضه حمرة (٣) السعف: جريد النخل أو ورقه، والكرب: أصول السعف الغلاظ العراض، والرشاء: الحبل، والقرو: أسفل النخلة ينقر فينتبذ فيه — أى يتخذ فيه النبيذ —.

(٤) الصيف كسيد وصيفى: المطر يجىء فى الصيف أو بعد الربيع كالصيفى.

(٥) جمع فضل: وهو الزيادة. (٦) أديم النهار: عامته أو بياضه. (٧) القلت: الهلاك.

٨٣ — أعرابي يصف أشد البرد

سئل أعرابي فقيل له : ما أشدُّ البرد ؟ قال : ريح جِرْبِيَاء ، فى ظلّ عَمَاء ، غِبَّ سَمَاء[١] » . (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

٨٤ — أعرابي يصف إبلا

وقال : سمعت أعرابياً يصف إبلاً فقال :

« إنها لَعِظَامُ الحنَاجِر ، سِبَاطُ المَشَافِر ، كُومٌ بَهَازِر[٢] ، نُكْدٌ خَنَاجِر[٣] ، أجوافُها رِغَابٌ[٤] ، وأعطانُها رِحَابٌ ، تُمْنَع من البُهَم[٥] وتُبْذَل للجُمَم » .

(الأمالى ١ : ٥٢)

٨٥ — أعرابي يصف ناقة

ووصف أعرابي ناقة فقال : « إذا اكحالَّت عَيْنُها ، وأَلَّت[٦] أُذُنُها ، وسَجِح[٧] خدُّها ، وهَدِل[٨] مِشْفَرُها ، واستدارت جُمْجُمتُها ، فهي الكريمة » .

(الأمالى ١ : ٢١٧)

---

(١) الجربياء : ريح الشمال الباردة ، أو الريح بين الجنوب والصبا ، والعماء : السحاب المرتفع ، أو الكثيف ، أو الممطر ، فى غب سماء : أى عقب مطر . (٢) الحنجرة والحنجور كعصفور : الحلقوم ، وجمعه حناجر ، والمشافر جمع مشفر كمنبر : وهو للبعير كالشفة للإنسان ، والكوم : العظام الأسنمة جمع أكوم وكوماء والبهازر جمع بهزرة كبندقة : وهى العظيمة من النوق .

(٣) النكد : الغزيرات اللبن من الإبل (والتى لا لبن لها أيضا ضد) ، والخناجر : الغزيرات اللبن جمع خنجر كجعفر وبهاء وخنجورة بالضم . (٤) رغاب : واسعة ، وأعطانها : مباركها عند الماء جمع عطن كسبب . (٥) البهم جمع بهمة كغرفة : وهو الشجاع الذى لا يهتدى من أين يؤتى ، من شدة بأسه ، والجمم جمع جمة كقبة ، وهم القوم يسألون فى الديات .

(٦) أل البعير : نصب أذنيه وحددهما . (٧) سجح : سهل وحسن . (٨) هدل : استرخى .

٨٦ — أعرابي يصف خيلا

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « خرجت علينا خيلٌ مستطيرةُ النَّقْع[١] ، كأن هَوادِيَها[٢] أعلام ، وآذانها أطرافُ أقلام ، وفُرسانها أُسُودُ آجامٍ » .

٨٧ — أعرابي يصف خيلا

وذكر أعرابي خيلا فقال : « والله ما انحدَرتْ في وَادٍ إلا ملأَتْ بطنَه ، ولا رَكِبت بطن جبل إلا أَسْهَلَتْ حَزْنَهُ » . (العقد الفريد ٢ : ٩٥)

٨٨ — أعرابي يصف خيلا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يصف خيلا فقال : « سِبَاط الخَصَائل[٣] . ظِمَاءُ المَفَاصل ، شِدَاد الأبَاجل[٤] ، قُبُّ الأياطِل ، كِرام النَّوَاجِل[٥] » .

(الأمالي ١ : ٥٢)

٨٩ — أعرابي يصف فرسا

ووصف بعض الأعراب فرساً فقال : « قد انتهى ضُمُوره ، وَذَبُل فَرِيرُه[٦] ، وظهر حَصِيره[٧] ، وتفلَّقت غُرُوره[٨] ، واسترخت شاكِلَتُه[٩] ، يُقبل بِزَوْر الأسد ، وَيُدْبِر بِعَجُز الذئب » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣٣ ، والأمالي ٢ : ٢٥٦)

---

(١) الغبار . (٢) أوائلها . (٣) الخصائل جمع خصيلة : وهى كل قطعة من اللحم مستطيلة أو مجتمعة ، وقيل : هى ما انماز من لحم الفخذ بعضه من بعض ، وسباط جمع سبط ككتف وشمس ، رجل سبط الجسم إذا كان حسن القد والاستواء : وظماء : ضمر . (٤) الأباجل جمع أبجل : وهو عرق غليظ فى الرجل أو فى اليد ، يريد أنها شداد القوائم . (٥) الأياطل جمع أيطل : وهو الخاصرة ، قب جمع أقب ، وصف من القبب كسبب وهو دقة الخصر وضمور البطن ، والنواجل جمع ناجلة ، من نجله : أى ولدته . (٦) الفرير : موضع المجسة من معرفة الفرس .

(٧) الحصير : عرق يمتد معترضاً على جنب الدابة إلى ناحيتبطنها ، أو لحمة كذلك .

(٨) الغرور : الغضون التى فى جلده ، واحدها غر بالفتح . (٩) الشاكلة من الفرس : الجلد بين عرض الخاصرة والثفنة — والثفنة كفرحة : الركبة — .

٩٠ ــ أعرابى يصف خاتماً

وقال أعرابى يصف خاتَمًا : « شَفَّ[١] تقديرُ حلْقته ، وَدُوِّرَ كرسى فِضته ، وَأحكم تركيبه ، وأتقن تدبيره ، فبه يتم المُلْك ، وينفذ الأمر ، وَيَكْرُمُ الكِتَابُ ، وَيَشْرُفُ المكتوب إليه » .   (العقد الفريد ٢ : ٩٧)

٩١ ــ أعرابى يصف أطيب الطعام

وقال عبد الملك لأعرابى : « ما أطيبُ الطعام ؟ » ، فقال : « بَكْرَةٌ سَنِمَةٌ[٢] ، مُعْتَبَطَةٌ غير ضَمِنَة ، فى قُدُورٍ رَذِمَة[٣] ، بِشِفارٍ خَذِمة[٤] ، فى غداة شبِمة[٥] » ، فقال عبد الملك : وَأَبيك لقد أطيبت[٦] .   (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

٩٢ ــ أعرابى يصف السويق

وعاب رجل السَّوِيق[٧] بحضرة أعرابى فقال : « لا تَعِبْه ، فإنه عُدَّةُ المسافر ، وطعام العَجْلان ، وغِذَاء المُبَكِّر ، وَبُلْغة[٨] المريض ، وَيَسْرُو[٩] فؤادَ الحزين ، وَيَرُدُّ من نفَس المحدود[١٠] ، وجيّد فى التسمين ، ومنعوتٌ فى الطّب ، وَقَفاره[١١] يجلو

---

(١) رق .

(٢) البكرة : الفتية من الإبل ، والسنمة : العظيمة السنام ، وفعله كفرح ، عبط الذبيحة كضرب واعتبطها : نحرها من غير علة وهى سمينة فتية ، والضمنة : الزمنة والمبتلاة فى جسدها من الضمنة كفرصة وهى المرض . (٣) وذمت القصعة كفرح فهى رذمة ورذوم كصبور : امتلأت وتصببت جوانبها .

(٤) شفار جمع شفرة « بالفتح » : وهى السكين العظيم ، وخذمه كضربه : قطعه ، وسيف خذم ككتف وصبور ومعظم : قاطع . (٥) الغداة : البكرة « بالضم » أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، وشبمة : باردة ، وفعلها كفرح . (٦) أطاب الشىء وأطيبه : وجده طيباً .

(٧) السويق : ما يعمل من الحنطة والشعير . (٨) ما يتبلغ به . (٩) يسرو : يكشف ماعليه .

(١٠) المحدود : الذى قد حد أى قد ضرب الحد . (١١) القفار : الذى لم يلت بشىء من أدم ، لا زيت ولا سمن ولا لبن . يقال طعام قفار .

البَلْغَم ، وملتوته يُصَفِّى الدم ، وإن شئت كان شرابًا ، وإن شئت كان طعامًا ، وإن شئت فَثَرِيداً ، وإن شئت فَخَبِيصًا[١] » . (الأمالى ٢ : ١٩٧)

٩٣ ــ أعرابى يصف الجمال

وقيل لأعرابى ما الجمال ؟ قال : « طُول القامة ، وَضَخْم[٢] الهامة ، وَرُحْب[٣] الشِّدْق ، وَبُعْد الصوت » . وسئل آخر : ما الجمال ؟ قال « غُئُور العينين ، وإشراف الحاجبين ، وَرُحْب الشِّدْقين » . (البيان والتبيين ١ : ٦٧)

٩٤ ــ أبو المخش يصف ابنه

وسأل جعفر بن سليمان أبا المُخَشّ عن ابنه المُخَشّ[٤] ــ وكان جزع عليه جزعًا شديداً ــ قال : صف لى المخش ، فقال : « كان أشدق خُرْطُمَانيًّا[٥] ، سائلاً لُعَابُه ، كأنما ينظرُ من قَلْتَيْن[٦] ، كأن تَرْقُوَته بِوَانٌ ، أو خالِفَةٌ ، كأن مَنْكِبه كِرْكِرة جملٍ ثقَالٍ[٧] ، فقأ الله عينَىَّ إن كنتُ رأيتُ قبله أو بعده مِثْلَه » .

(البيان والتبيين ١ : ٦٧)

٩٥ ــ أعرابى يصف بنيه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابى بِحِمَى الرَّبَذَة : أَلَكَ بَنُونَ ؟ قال : نعم ، وخالِقِهم لم تَقُم عن مثلهم مُنْجِبَةٌ ، فقلت : صِفهم لى ، فقال : « جَهْم ! وما جَهْم ؟

---

(١) الخبيص : تمر الدقيق يخلط بالعسل .

(٢) ضخم ككرم ضخماً وضخامة فهو ضخم . (٣) رحب ككرم وسمع رحبا بالضم ورحابة فهو رحب بالفتح . (٤) المخش فى الأصل : الجرىء على العمل فى الليل .

(٥) أشدق : واسع الشدقين : خرطمانياً : طويلا . (٦) القلت : النقرة فى الجبل .

(٧) البوان : عمود الخباء ، والخالفة : عمود من أعمدة البيت فى مؤخره ، والكركرة : رحى زور البعير وبعير ثقال : بطىء .

يُنْضِي الوَهْم ، وَيصُدُّ الدَّهْمَ[١] ، وَيَفْرِي الصُّفُوف ، ويَعُلُّ السيوف[٢] » ، قلت : ثم مَن ؟ قال : « غَشَمْشَم ! وما غَشَمشَم ؟ مَالُه مُقَسَّم ، وقِرْنه مُجَرْجَم[٣] ، جِذْلُ حِكاكٍ[٤] ، ومِدْرَهُ لِسكاكٍ[٥] » ، قلت : ثم من ؟ قال : « عَشَرَّب ! وما عشرب ؟ لَيْثُ مُحرَّب ، وَسِمَامٌ مُقَشَّب[٦] ، ذِكْرُه باهِر ، وخَصْمُهُ عاثِر ، وفِناؤه رُحَابٌ[٧] ، وَدَاعِيه مُجابٌ » قلت : صف لى نفسك ، فقال : « ليث أبو رِيَابِل[٨] ، رَكَّابُ مَعَاضِل عَسَّافٌ[٩] مَجاهِل ، حَمَّالُ أعْباء ، نَهَّاضٌ بِبَزْلاء[١٠] » .   (الأمالى ٢ : ٥٣)

٩٦ ــ أعرابى يصف أخويه

عن العُتْبِي قال أخْبَرَنى أعرابى عن إخوة ثلاثة ، قال : قلت لأحدهم : أخْبِرْنى عن أخيك زيد فقال : « أزَيْدٍ إنيه[١١] ؟ والله ما رأيتُ أحداً أسْكَنَ فَوْرًا ، ولا أبعدَ غَوْرًا ، ولا آخَذَ لِذَنَب حُجَّة قد تقدَّم رأسُها من زيد » ، فقلت : أخبرنى عن أخيك زائد قال : « كان والله شديدَ العُقْدة ، ليِّن العَطْفة ، ما يُرْضِيه أقلُّ مما يُسْخِطه ، فقلت : فأخبرنى عن نفسك ، فقال : « والله إن أفضلَ ما فىَّ لَمَعرفتى بفضلهما ، وإنى مع ذلك لَغير منتشِر[١٢] الرأى ، ولا مَخْذُول العَزْم » .   (الأمالى ٢ : ١٤)

---

(١) ينضى : يهزل ، والوهم : الضخم العظيم من الإبل ، والدهم : العدد الكثير .

(٢) يفرى : يشق ، ويعل : أى يوردها الدماء ثانية ، مأخوذ من العلل فى الشرب .

(٣) المجرجم : المصروع . (٤) الجذل : أصل الشجرة ، وذلك أن الإبل الجرب تحتك به فتجد له لذة ، والمعنى أنه ممن يستشفى به فى الأمور بمنزلة ذلك الجذل الذى تستشفى به الإبل .

(٥) المدره : لسان القوم ، والمتكلم عنهم ، والدافع عنهم ، يقال : درهته عنى ودرأته : أى دفعته ، والسكاك : الزحام . (٦) المحرب : المغضب الذي قد اشتد غضبه واحتد ، وحربت السكين : إذا أحددته ، ومقشب : مخلوط . (٧) باهر غالب ، ورحاب : متسع .

(٨) ريابل جمع ريبال بالكسر يهمز ولا يهمز : وهو الأسد ، والمعاضل : الدواهى .

(٩) العساف : الذى يركب الطريق على غير هداية ، والأعباء : الأثقال .

(١٠) البزلاء : الرأى الجيد الذى يبزل (بضم الزاى) من الصواب : أى يشق عنه .

(١١) قال أبو على القالى : « هذه الزيادة تلحق فى الاستفهام فى آخر الكلمة إذا أنكرت أن يكون رأى المتكلم على ما ذكر ، أو يكون على خلاف ما ذكر » انظر هذا المبحث فى الأمالى ٢ : ١٥ .

(١٢) أى مفرقة .

قولهم فى الدعاء

٩٧ ــ دعاء أعرابى

قال أبو حاتم : أملى علينا أعرابىّ يقال له مَرْثَد :

« اللهم اغفر لى ، والجِلْدُ بارد ، والنفسُ رَطْبة ، واللسانُ منطلق ، والصحفُ منشورة ، والأقلامُ جارية ، والتوبةُ مقبولة ، والأنفسُ مِرِّيحَة[1] ، والتضرّع مرجوّ ، قبل آنِ الفراق ، وَحَشَكِ النفْس[2] ، وَعَلَزِ الصدر[3] ، وَتَزَيُّل الأوْصَال[4] ، وَنُصُول الشعر ، واحتياف[5] التراب ، وقبل أن لا أقدر على استغفارك حِينَ يَفْنى العمل ، ويحضُر الأجل ، وينقطع الأمل .

أعِنِّي على الموت وكُرْبته ، وعلى القبر وغَمَّتِه[6] ، وعلى الميزان وخِفَّته ، وعلى الصِّراطوزَلَّته ، وعلى يوم القيامة وَرَوْعته ، اغفِر لى مغفرة عَزْمًا ، لا تغادِر ذنبًا ، ولا تَدَع كرْبًا ، اغفر لى جميع ما افترضتَ علىّ ولم أؤدِّه إليك ، اغفر لى جميع ما تُبْتُ إليك منه ثم عُدْت فيه .

يا رب تظاهرت[7] علىّ منك النِّعمُ ، وتداركتْ عندك منى الذنوبُ ، فلك الحمد على النعم التى تظاهرَتْ ، وأستغفِرك للذنوب التى تداركتْ ، وأمسيتَ عن عذابى غنيًّا ، وأصبحتُ إلى رحمتك فقيراً .

---

(١) مرح كفرح : أشر وبطر ونشط واختال وتبختر فهو مرح ومريح .

(٢) الحشك : شدة النزع .   (٣) العلز : قلق وخفة وهلع يصيب المريض والمحتضر .

(٤) تزيلت وتزايلت : تفرقت ، والأوصال : المفاصل .   (٥) الاحتياف : افتعال من الحيف وهو الجور ، والمراد أكل تراب القبر الجثة ، والذى فى كتب اللغة « التحيف » تحيفت الشىء : إذا تنقصته من حافاته .

(٦) لعله من غم الشىء : أى غطاه فالغم ، أو هى « غمته » بالضم : أى بلائه وكرب عذابه .

(٧) من تظاهروا إذا تعاونوا : أى تتابعت .

اللهم إنى أسألك نجاح الأمَل ، عند انقطاع الأجَل ، اللهم اجعل خير عملى ما وَلِىَ أجلى ، اللهم اجعلنى من الذين إذا أعطيتَهم شكروا ، وإذا ابتليتَهم صَبَرُوا ، وإذا أذْكرتهم ذَكَرُوا ، واجعل لى قلبًا تَوَّابًا أَوَّابًا ، لا فاجراً ولا مُرْتابًا ، اجعلنى من الذين إذا أحسنوا ازدادوا ، وإذا أساءوا استغفروا .

اللهم لا تحقِّق علىَّ العذابَ[1] ، ولا تقطَعْ بى الأسباب ، واحفظنى فى كل ما تحيط به شفقتى ، وتأتى من ورائه سَبْحَتى[2] ، وتعجَز عنه قُوَّتى ، أدعوك دعاء ضعيفٍ عَمَلُه ، متظاهِرَةٍ ذنوبُه ، ضنينٍ على نفسه ، دعاء مَنْ بَدَنُه ضعيفٌ ، ومُنَّتُه[3] عاجزة ، قد انتهت عُدَّتُه ، وخَلَقَت[4] جِدَّتُه ، وتَمَّ ظِمْؤُه . اللهم لا تخيِّبنى وأنا أرجوك ، ولا تعذِّبنى وأنا أدعوك ، والحمد لله على طول النَّسِيئة[5] ، وحسن التَّباعة[6] ، وتشنُّج العروق ، وإساغة الريق ، وتأخر الشدائد ، والحمد لله على حِلمه بعد علمه ، وعلى عفوه بعد قدْرته ، والحمد لله الذى لا يُودَى[7] قتيلُه ، ولا يَخيبُ سُولُه ، ولا يُرَدّ رسولُه ، اللهم إنى أعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذلّ إلا لك ، وأعوذ بك أن أقول زُورًا ، أو أغْشَى فُجُوراً ، أو أكون بك مغروراً ، وأعوذ بك من شماتة الأعداء ، وعُضال الداء ، وخَيْبة الرجاء ، وزوال النِّعْمة » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٧ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٢٤ — ١٣٧ — ١٣٨)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « أفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النَّارِ » ؟

(٢) فعلة من السبح : وهو التقلب والانتشار فى الأرض ، والإبعاد فى السير ، والتصرف فى المعاش .

(٣) المنة : القوة .

(٤) خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى ، والظمء : ما بين الشربتين والوردين .

(٥) الإمهال والتأخير . (٦) التباعة مثل التبعة بفتح فكسر . قال الشاعر :

أكلت حنيفة ربها ... زمن التقحم والمجاعه

لم يحذروا من ربهم ... سوء العواقب والتباعه

« لأنهم كانوا قد اتخذوا إلها من حيس فعبدوه زمنا ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه » — والحيس كشمس : تمر يخلط بالسمن والأقط المهيض فيعجن شديداً ، ثم يندر منه نواه .

(٧) ودى القتيل كرمى : أعطى ديته ، والسول : وهو ما سألته .

٩٨ ـ دعاء أعرابى

ودعا أعرابى وهو يَطُوف بالكعبة فقال :

« إلٰهى مَنْ أَوْلى بالتقصير والزلل منى وأنت خلقتنى ؟ وَمَنْ أَوْلى بالعفو منك عنى وعلمُك بى ماضٍ ، وقضاؤك بى مُحِيط ؟ أطعتُك بقوتك وَالْمِنَّة لك ، وَعَصَيتك بعلمك ، فأسألك يا إلٰهى ـ بوجوبِ رحمتك وانقطاع حجتى ، وافتقارى إليك وغِناك عنى ـ أن تغفر لى وترحمنى .

إلٰهى لم أُحْسِنْ حتى أعطيتَنِي ، فتجاوزْ عن الذنوب التى كتبْتَ علىّ ، اللهم إنا أطعناك فى أحبِّ الأشياء إليك : شهادةِ أنْ لاَ إلٰهَ إلا أنت وَحدكَ لا شريكَ لك ، ولم نَعصِك فى أبغض الأشياء إليك : الشركِ بك ، فاغفِرْ لى ما بين ذلك .

اللهم إنك آنَسُ الْمُؤْنِسِين لأوليائك ، وأحضَرُهم للمتوكلين عليك ، إلٰهى أنت شاهِدُهم وغائِبُهم ، والمطَّلع على ضمائرِهم ، وَسِرِّى لك مكشوف ، وأنا إليك ملهوف ، إذا أوحشَتنى الْغُرْبةُ آنسَنى ذِكْرُك ، وإذا أكبَّتْ عَلَىَّ الْغُمُومُ لجأتُ إلى الاستجارة بك ، علمًا بأن أزِمَّة الأمور كلِّها بيدك ، ومصدَرها عن قضائك ، فأقِلْنِى[1] إليك مَغْفُوراً لى ، معصومًا بطاعتك بقية عمرى ، يا أرحم الراحمين » .

٩٩ ـ دعاء أعرابى

وقال الأصمعى : حَجَجت فرأيت أعرابيًّا يطوف بالكعبة ويقول :

يا خير مَوْفودٍ سعى إليه الوُفَّد[2] ، قد ضعُفَت قوتى ، وذهبت مُنّتى ، وأتيت إليك بذنوب لا تغسِلها الأنهار ، ولا تحمِلها البحار ، أستجير برضاك من سُخْطك ، وبعفوك من عقوبتك ، ثم التفت فقال : « أيها المشفقون ، ارحَمُوا من شمِلته الخطايا ،

---

(١) أقله : حله .   (٢) وفد إليه وعليه : قدم ، وهم وفود ووفد كشمس وركع ولوفاد .

وَغمَرَته البلايا ، ارحموا من قطع البلاد ، وخلَّف ما مَلَكَ من التِّلاد . ارحموا من وَبَّخته الذنوب ، وظَهَرت منه العيوب ، ارحموا أسيرَ ضُرٍّ ، وطرِيد فقر ، أسألكم بالذى أعْمَلتم الرّغبة إليه ، إلاَّ ما سألتم اللهَ أن يَهَب لى عظيم جُرْمى » ، ثم وضع فى حَلْقة بالباب خَدَّه وقال : ضَرَعَ خدى لك ، وذَلَّ مقامى بين يديك ، ثم أنشأ يقول :

عظيمُ الذنب مكروب　　من الخيرات مسلوب

وقد أصبحت ذا فقرٍ　　وما عندك مطلوب

١٠٠ ـ دعاء أعرابى

وسمع أعرابى بعَرَفات عَشيَّة عرَفة وهو يقول :

« اللهم إن هذه عَشيَّةٌ من عشايا مَحبَّتك ، وأحد أيام زُلْفَتك[1] ، يأمُل فيها من لجَأَ إليك من خلقك أنْ لايُشرِكَ بك شيئاً ، بكل لسان فيها يُدْعَى ، ولكل خير فيها يُرْجَى ، أتتك الْعصاةُ من البلد السَّحيق[2] ، ودعتك العُناة[3] من شُعَب المَضِيق ، رجاء مالا خُلْف له من وعدك ، ولا انقطاعَ له من جزيل عطائك ، أبْدَتْ لك وجُوهَها المَصُونة ، صابرةً على وَهَج السَّمائم[4] ، وبَرْد الليالى ، ترجو بذلك رِضوانَك ، يا غفارُ ، يا مُسْتَزاداً من نِعَمه ، وَمُسْتَعاذاً من نِقَمه ، ارحم صوتَ حزين دعاك بزفير وشهيق » .

ثم بسط كلتا يديه إلى السماء وقال : « اللهم إن كنت بسطتُ يدىَّ إليك داعياً

---

(١) الزلفة : القربة .　(٢) البعيد .　(٣) العناة جمع عان من عنا : أى ذل وخضع ، وفى رواية الأمالى : « أتتك الضوامر من الفج العميق ، وجابت إليك المهارق من شعب المضيق » والضوامر الإبل المهزولة ، والمهارق جمع مهرق (بضم الميم وفتح الراء) : الصحراء الملساء .

(٤) السمائم جمع سموم كصبور : وهى الريح الحارة تكون غالباً بالنهار ، وفى رواية الأمالى : « على لفح السمائم ، وبرد ليل التمائم » — وليل التمام (ككتاب) وليل تمامى : أطول ليالى الشتاء — وفى رواية الأمالى : « تمعك تقلدرها على عند القفلة ، فكيف أيأس منها عند الرجعة » — وأصل القفل (بالتحريك) : الرجوع من السفر : ويطلق على الابتداء فى السفر كما هنا تفاؤلا بالرجوع — .

فطالما كَفَيْتَنى ساهياً ، بنعمتك التى تظاهرتْ علىَّ عِنْد الغفلة ، فلا أيأس بها عند التوبة ، لاتقطعْ رجائِي منك لما قدّمت من اقتراف[١] آثامك ، وإن كنت لا أصِل إليك إلا بك ، فهب لى يا ربِّ الصلاحَ فى الولد ، والأمْنَ فى البلد ، والعافيةَ فى الجسَد وعافِنى من شرّ الحسَد ، ومن شرّ الدهرِ النَّكَد[٢] » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٧ ، والأمالى ٢ : ٢٢٣)

١٠١ — دعاء أعرابى

ودعا أعرابى فقال : « يَاعِمَادَ مَن لَاعِمَادَ له ، ويارُكْنَ من لارُكْنَ له ، ويا مُجِيرَ الضَّعْفَى[٣] ، وَيامُنْقِذَ الهَلْكَى ، وياعظيم الرجاء ، أنت الذى سبَّح لك سوَادُ الليل ، وبياضُ النهار ، وضوء القمر ، وشُعاع الشمس ، وحَفِيف الشجر ، وَدَوِىّ الماء[٤] يا مُحْسِن ، يا مُجْمِل ، يامُفْضِل ، لا أسألك الخيرَ بخيرِهم عندك ، ولكنى أسألك برَحْمتك ، فاجعل العافية لى شِعارًا وَدِثَارًا[٥] ، وجُنَّة دون كل بلاء » .

١٠٢ — دعاء أعرابى

وقال الأصمعى : سمعت أعرابيًا فى فَلاة من الأرض ، وهو يقول فى دعائه :

« اللهم إن استغفارى إياك مع كثرة ذنوبى لَلُؤْم ، وإن تركى الاستغفارَ مع معرفتى بِسَعة رحمتك لَعجْز ، إلهى كم تَحَبَّبْتَ إلَيَّ بنعمتك ، وأنت غَنِيّ عنى ، وكم أتَبَغَّض إليك بذنوبي ، وأنا فقير إليك ، سبحانَ من إذا توعَّد عفا ، وإذا وَعَدَ وَفَى » .

---

(١) اقترف الذنب : أتاه وفعله .

(٢) يقال : رجل نكد ككتف وسبب وشمس وأنكد : شؤم عسر .

(٣) الضعفى جمع ضعيف . (٤) المعنى : أن هذه الكائنات تدعو المتأمل فيها إلى تسبيحه جل شأنه .

(٥) الشعار : ما يلبس على شعر الجسد ، والدثار : ما يلبس فوق الشعار ، والجنة : الوقاية .

١٠٣ ـ دعاء أعرابى

قال : وسمعت أعرابيا يقول فى دعائه : « اللهم إن ذنوبى إليك لاتَضرك ؛ وإن رحمتك إياى لاتَنْقُصُك ، فاغفر لى مالا يَضرك ، وَهَبْ لى مالَا يَنْقُصُك » .

١٠٤ ـ دعاء أعرابى

وقال : سمعت أعرابيًا وهو يقول فى دعائه : « اللهم إنى أسألك عَمَل الخائفين ، وخَوف العاملين حتى أتَنَعَّم بترك النعيم[٤] طَمَعاً فيما وَعدتَ . وخوفاً مما أوعدتَ اللهم أعِذْنى من سَطَواتك ، وَأجِرْنى من نِقْماتك ، سبقَتْ لى ذنوبٌ ، وأنت تغفر لمن يحُوب[٥] ، إليك بك أتوسَّلُ ، ومنك إليك أفِرُّ » .

١٠٥ ـ دعاء أعرابى

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « اللهم إن قوما آمنوا بك بألسنتهم ، لِيَحْقِنوا دماءهم ، فأدرَكُوا ما أمَّلُوا ، وقد آمنَّا بك بقلوبنا ، لِتُجيرنا من عذابك ، فأدْرِك منا ما أمَّلناه » .

١٠٦ ـ دعاء أعرابى

قال : ورأيت أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة ، رافعاً يديه إلى السماء ، وهو يقول : « ربِّ أتراك معذِّبَنا ، وتوحيدُك فى قلوبنا ؟ وما إخالك تفعل ! ولئن فعلتَ لَتجْمَعُنا مع قوم طالما أبغضناهم لك » .

---

(١) أى فى الدنيا (٢) حاب يحوب : أثم .

١٠٧ — دعاء أعرابى

وقال: سمعت أعرابيا يقول فى صلاته : « الحمد لله حمداً لايَبْلَى جديده ، ولا يُحْصَى عَدِيده[1] . ولا يُبْلَغ حدودُه ، اللهم اجعل الموت خير غائب ننتظره ، واجعل القبر خير بَيْت نَعْمُرُه ، واجعل ما بعده خيراً لنا منه . اللهم إن عينىّ قد اُغْرَوْرقتا دموعًا من خَشْيتك ، فاغفِر الزَّلة ، وَعُدْ بحلمك ، على جهل مَنْ لم يَرْجُ غيرك » .

١٠٨ — دعاء أعرابى

وقال : رأيت أعرابياً أخذ بِحَلْقتى باب الكعبة وهو يقول :

« سائلك عند بابك ، ذهَبت أيامُه ، وبَقِيت آثامُه ، وانقطعت شَهوته ، وَبَقِيت تباعَتُه ، فارضَ عنهُ ، وإن لم ترضَ عنه فاعفُ عنه غير راض » .

١٠٩ — دعاء أعرابى

قال : ودعا أعرابى عند الكعبة فقال : « اللهم إنه لاشرفَ إلا بفِعال ، ولا فعال إلا بمال ، فأعْطِنى ما أستعينُ به عَلَى شَرَف الدنيا والآخرة » .

١١٠ — دعاء أعرابى

عن طاوُسٌ قال : « بينا أنا بمكة إذ دفِعت إلى الحجاج بن يوسف ، فثَنَى لى وِسَاداً فجلست ، فبينا نحن نتحدث إذ سمعتُ صوت أعرابى فى الوادى رافعاً صوته بالتلبية ،

---

(١) عدده .

فقال الحجاج . علىّ بالمُلَبِّى . فأُتِى به فقال : مَن الرَّجُل ؟ قال : مِن أفْناء الناس [١] .
قال : ليس عن هذا سألتُك . قال : نَعَم سألتنى . قال : من أى البُلدان أنت ؟
قال : من أهل اليمن . قال له الحجاج . فكيف خلَّفت محمد بن يوسف ـ يعنى أخاه .
وكان عامِلَه عَلَى اليمن ـ قال : خلفتهُ عظيما جسيما خرَّاجا وَلَّاجا. قال . ليس عن هذا
سألتك ، قال : نَعَم سألتنى ، قال : كيف خَلَّفت سيرته فى الناس ؟ قال : خَلَّفْتُه ظلوما
غَشُوما [٢] ، عاصيا للخالق ، مُطِيعاً للمخلوق ، فازورَّ [٣] من ذلك الحجاج ، وقال .
ما أقدمك لهذا ، وقد تعلم مكانته منى ! فقال له الأعرابى : أفتراه بمكانةٍ منك أعزَّ منى
بمكانتى من الله تبارك وتعالى ، وأنا وَافِدُ بيته ، وقاضِى دَيْنه ، ومصَدِّق نبيه
صلى الله عليه وسلم ؟ فوَجَم [٤] لها الحجاج ، ولم يُحِرِ له جوابا [٥] ، حتى خرج الرجل
بلا إذن .

قال طاوس : فتبعته حتى أتى المُلْتَزِم فتعلَّق بأستار الكعبة ، فقال : بك أعوذ ،
وإليك ألُوذُ ، فاجعل لى فى اللَّهف إلى جِوارك ، والرِّضا بِضَمانك ، مندوحةً [٦] ،
عن منع الباخلين ، وَغِنًى عما فى أيدى المستأثِرين ، اللهم عُدْ بِفَرَجك القريب ، ومعروفك .
القديم ، وعادتك الحَسَنَة » .

قال طاوس : ثم اختفى فى الناس ، فألفيته بعرَفات قائما على قدميه وهو يقول :
« اللهم إن كنتَ لم تقبل حَجِّى وَنَصَبى [٧] وَتَعَبى ، فلا تحرِمْنى أجرَ المُصَاب على
مصيبته ، فلا أعلَمُ مصيبةً أعظمَ ممن وردَ حوْضك ، وانصرف محروماً من
وجه رغبتك » .

---

(١) يقال « هو من أفناء الناس » إذا لم يعلم من هو ، واحده فنو كحمل أو فنا كعصا .
(٢) ظلوما . (٣) ازور : انحرف ومال ؛ أى غضب منه . (٤) وجم : سكت على غيظ .
(٥) أى لم يرده . (٦) أى متسعا .
(٧) فى الأصل « ونسبى » وأراه محرفا عن « نصبى » ، ويؤيده قوله بعد « وتعبى » .

١١١ — دعاء أعرابى

وقال الأصمعى . رأيت أعرابياً يطوف بالكعبة وهو يقول :

« إلهى عجَّت[1] إليك الأصواتُ ، بضروبٍ من اللغات ، يسألونك الحاجات وحاجتى إليك إلهى أن تذكرنى عَلَى طول البكاء ، إذا نَسِيَنى أهلُ الدنيا ، اللهم هب لى حقك ، وأرضِ عنى خلقك ، اللهم لاتُعْيِنِى فى طلب مالم تقدِّره لى ، وما قدَّرته لى فيسِّره لى » .

١١٢ — دعاء أعرابى

قال : ودعت أعرابية لابن لها وجَّهته إلى حاجة فقالت : « كان الله صاحِبَك فى أمرك ، وخليفتك فى أهلك ، وَوَلِى نُجْح طَلَبتك[2] ، امْضِ مُصَاحَباً مَكْلُوءاً[3] ، لا أشمت الله بك عدوًّا ، ولا أرى مُحِبِّيك فيك سوءاً » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٦ — ٧٩)

١١٣ — دعاء أعرابى

وقال الأصمعى : خرجت أعرابية إلى مِنًى فَقَطَع بها الطريقُ فقالت :

« يارب . أعطيت وأخذتَ ، وأنعمتَ وسلبتَ ، وكلُّ ذلك منك عَدْل وَفَضْل ، والذى عظَّم عَلَى الخلائق أمرك ، لابَسَطتُ لسانى بمسألةِ أحَدٍ غيرك ، ولا بَذَلت رغبتى إلا إليك ، ياقُرَّةَ أعين السائلين : أغْنِنى بِجُودٍ منك أتبحبح[4] فى فَرَاديس

---

(١) عج يعج بكسر العين وفتحها : صاح ورفع صوته .

(٢) النجح : النجاح ، والطلبة : ماطلبته .   (٣) من كلأه كنعه : حرسه .

(٤) تبحبح : تمكن فى المقام والحلول ، وتبحبح الدار : توسطها ، والفراديس جمع فردوس وهو البستان .

نعمته ، وأتقلب فى رُواق نَضْرته[1] أحلنى من الرَّجْلة[2] ، وأغننى من العَيْلة ، واسْدِلْ علىّ سِتْرك الذى لاتخرقه الرماح ، ولا تُزيله الرياح ، إنك سميع الدعاء » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٨ ، والعقد الفريد ٣ : ١٣٨)

١١٤ — أدعية شتى

ومات ابن لأعرابى فقال : « اللهم إنى وهبتُ له ما قصَّر فيه من بِرِّى ، فَهَبْ لى ما قَصَّر فيه من طاعتك ، فإنك أجود وأكرم » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٨)

* * *

ووقف أعرابى فى بعض المواسم فقال : « اللهم إن لك عَلَىَّ حقوقاً فتصدَّقْ بها عَلَىَّ ، وللناس تَبِعات قِبَلى فتحمَّلْها عنى ، وقد أوجبتَ لكل ضيفٍ قِرًى[3] ، وأنا ضيفك الليلة ، فاجعل قِرَاىَ فيها الجنة » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٨)

* * *

وقال سُفْيان بن عُيَيْنة : سمعت أعرابياً يقول عَشِيَّة عَرَفة :

« اللهم لاتحرمنى خيرَ ماعندك لِشَرِّ ماعندى ، وإن لم تتقبل تعبى وَنَصَبى ، فلا تحرِمْنى أجر المُصَاب عَلَى مصيبته » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

* * *

وقال الأصمعى : سمعت أعرابياً يقول لرجل : « أطعمك الله الذى أطعمتَني له ، فقد أحييتَنى بقتل جوعى ، ودفعتَ عنى سوء ظني ، فحفظك الله على كل جَنْب ، وفرَّج عنك كل كرب ، وغفر لك كلَّ ذنب » . (العقد الفريد ٢ : ٨٤)

* * *

---

(١) فى الأصل « وارورق » وهو المصفاة ، وأراه محرفاً عن « رواق » وهو الفسطاط ، والنضرة : النعمة والغنى . (٢) رجل كفرح فهو راجل ورجلان : إذا لم يكن له ظهير يركبه ، والرجلة بالفتح ويكسر : شدة المشى ، والعيلة : الفقر .

(٣) قرى الضيف كرى ، قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضا : ما قرى به الضيف .

عن الأصمعي قال : رأيت أعرابيا يصلّي وهو يقول : أسألك الْغَفِيرة[1] ، والناقة الْغَزِيرة ، والشرف فى العشيرة ، فإنها عليك يسيرة » . (الأمالى ٢ : ٢٣)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيًا يدعو لرجل فقال : « جَنَّبك الله الأمَرَّيْن[2] ، وكفاك شَرَّ الأجْوَفَيْن[3] ، وأذاقك الْبَرْدَيْن[4] » .

(الأمالى ٢ : ٧٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

* * *

ودعا أعرابى فقال : « اللهم إنى أسألك الْبَقاء ، والنَّماء ، وطيب الْإِتاء[5] ، وَحَطَّ الأعداء ، ورفع الأولياء » . (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

* * *

وقال أعرابى : « اللهم لا تُنْزِلني ماء سَوْء ، فأكونَ امْرَأ سَوْء » وقال أعرابى . « اللهم قِنِى عَثَرَاتِ الكرام » . (البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

* * *

ووهب رجل لأعرابى شيئاً فقال : « جعل الله للمعروف إليك سبيلا ، وللخير عليك دَليلا ، وجعل عندك رِفْدا[6] جَزِيلا ، وأبقاك بقاء طويلا ، وأبلاك[7] بَلاء جميلا » .

* * *

وقال الأصمعى : سمعت أعرابيا يدعو وهو يقول : اللهم ارزقني مالا أَكْبِت[8] به الأعداء ، وَبنين أَصول بهم عَلَى الأقوياء » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

---

(١) الغفيرة : المغفرة . (٢) الأمران : الفقر والهرم ، أو الجوع والعرى . (٣) الأجوفان : البطن والفرج . (٤) البردان : برد العين وبرد العافية . (٥) الإتاء : الرزق ، من أتت الشجرة أتوا وإتاء : طلع ثمرها ، أو بدا صلاحها ، أو كثر حملها . (٦) الرفد : العطاء والصلة .

(٧) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، أبليت عنده بلاء حسنا ، وأبلاه الله بلاء حسنا .

(٨) كبته : صرعه وأذله ، ورد العدو بغيظه .

ودعت أعرابية على رجل فقالت : « أمكن الله منك عدوّا حسودا ، وَفجَع بك صديقاً وَدُودا ، وسلَّط عليك همّا يُضْنِيك ، وجاراً يُؤْذيك » .

(العقد الفريد ٢ : ٩١)

• • •

ودعا أعرابى فقال : « أعوذ بك من الفَوَاقِر[1] والبواقر ، ومن جارِ السوء ، فى دار المُقَامَة وَالظَّعْن ، ومما يَنْكُس رَأس المرء ، وَيُغْرِى به لئام الناس » .

• • •

وقال أعرابى : « أعوذ بك من سَقَم ، وعداوة ذى رَحِم وَدَعْواه ، ومن فاجرٍ وَجَدْواه[2] ، وعمل لاترضاه » . (البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

• • •

ودعت أعرابية لرجل فقالت : « كَبَتَ اللهُ كلَّ عدو لك إلا نفسَك » .

ودعا أعرابى فقال : « اللهم هب لى حَقَّك ، وأرضِ عنى خلقك » .

وقال أعرابى : « اللهم إنك أمرتنا أن نَعفو عمَّن ظَلَمنا، وقدظَلَمْنا أنفسنا فاعفعنا» .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

• • •

وقال أعرابى : « منحكم الله مِنْحَة ليست بِجَدَّاء ، ولا نكداء ، ولا ذات داء » .

وقال أعرابى : « اللهم إنك حَبَسْتَ عنا قَطْرَ السماء ، فَذَاب الشحم ، وذهب اللحم وَرقَّ العظم ، فارحم أنينَ الآنَّة ، وحنين الحانَّة ، اللهم ارحم تحيرها فى مَرَاتِعِها ، وأنينَها فى مَرَابِضِهاَ » .

• • •

---

(١) الفواقر جمع فاقرة :وهى الداهية، والبواقر جمع باقرة : وهى الفتنة الصادعة للألفة الشاقة العصا .

(٢) الجدوى : العطية .

وحج أعرابى فقال : « اللهم إن كان رزق فى السماء فأنزله ، وإن كان فى الأرض فأخرجه ، وإن كان نائياً فقرّبه ، وإن كان قريباً فيسّره » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٢٨)

• • •

ومات ولد لرجل من الأعراب فصلى عليه ، فقال : « اللهم إن كنتَ تعلم أنه كريم الجدّين ، سهلُ الخدّين ، فاغفر له وإلاّ فلا » .

(الأمالى ١ : ٢٠٢)

• • •

وقالت أعرابية لرجل : « رماك الله بليلة لا أُختَ لها » أى لا تعيش بعدها .

(الأمالى ١ : ٢١٧)

• • •

ودعا أعرابى فقال : « اللهم إنى أعوذ بك أن أفتقِر فى غناك ، أو أضِلّ فى هداك ، أو أذِلّ فى عزك ، أو أضامَ فى سلطانك ، أو أُضطهَدَ والأمرُ إليك » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

• • •

وقال الأصمعى : سمعت أعرابية تقول : « اللهم ارزقنى عَمَل الخائفين ، وخوفَ العاملين ، حتى أنعَمَ بترك التنعم ، رجاء لما وَعَدْتَ ، وخوفاً مما أوعدت » .

وقال آخر : « اللهم من أراد بنا سوءا فأحِطْه به كإحاطة القلائد ، بأعناق الولائد[1] ، وأرسِخه على هامَتِه كرسوخ السجّيل[2] ، على هام أصحاب الفيل » .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

---

(١) الولائد جمع وليدة : وهى الصبية . (٢) السجيل : طين مطبوخ ، يشير إلى قوله تعالى : « وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ » وأبابيل أى جماعات .

١١٥ — نوادر وملح لبعض الأعراب

«غزا أعرابى مع النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له : ما رأيتَ مع رسولِ الله فى غَزَاتك هذه ؟ قال : وَضع عنا نِصْف الصلاة[1] ، وأرجو فى الغزاة الأخرى أن يضع النصف الباقى » .

• • •

وَدخل أعرابى المسجد ، والنبى صلى الله عليه وسلم جالِسٌ ، فقام يصلّى ، فلما فَرَغ ، قال : اللهم ارحَمْنى ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً ، « فقال النبىّ عليه الصلاة والسلام : لقد تَحَجَّرْت[2] وَاسِعاً يا أعرابي » .

• • •

وخرج الحجاج متصيداً بالمدينة ، فوقف على أعرابي يرعى إبلاً له ، فقال له : يا أعرابي ، كيف رأيت سيرة أميركم الحجاج ؟ قال له الأعرابي : غَشُوم ظَلُوم ، لا حيَّاه الله ، فقال : فَلِمَ لا شكوتموه إلى أمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال : فأظْلَمُ وأغشَمُ ! فبينا هو كذلك إذ أحاطت به الخيل ، فأومأ الحجاج إلى الأعرابي ، فأُخِذ وَحُمِل ، فلما صار معهُ ، قال : من هذا ؟ قالوا له : الحجاج ، فحرّك دابته حتى صار بالقرب منه ، ثم ناداه يا حجاج ، قال : ما تشاء يا أعرابي ؟ قال : السرّ الذى بينى وبينك أُحِبّ أن يكون مكتوماً ، فضحك الحجاج ، وأمر بتخلية سبيله .

• • •

« وخرج أبو العباس السفاح متنزّهًا بالأنبار ، فأمعن فى نزهته ، وانتبذ من أصحابه ، فوافى خِبَاء لأعرابي ، فقال له الأعرابى : ممن الرجل ؟ قال : من كِنانة ، قال : من أىّ كنانة ؟ قال : من أبغض كنانة إلى كنانة ، قال : فأنت إذن من قريش ؟ قال :

---

(١) يعنى صلاة القصر . (٢) أى ضيقت ما وسعه الله وخصصت به نفسك دون غيرك .

نعم ، قال : فمن أيّ قريش ؟ قال: من أبغض قريش إلى قريش ، قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : فمن أيّ ولد عبد المطلب ؟ قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب ، قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ووثب إليه ، فاستحسن ما رأى منه ، وأمر له بجائزة » .

* * *

وولّى يوسف بن عمر الثّقفى صاحب العراق أعرابيًّا على عمل له ، فأصاب عليه خيانة فعزله ، فلما قدم عليه ، قال له : يا عدوّ الله ، أكلتَ مالَ الله ، قال الأعرابي : فـالَ مَنْ آكُلُ إذا لم آكُلْ مالَ الله ؟ لقد راوَدْتُ إبليس أن يُعطينى فَلْسًا واحداً فـا فعل ، فضحك منه وخلّى سبيله .

* * *

وأخذ الحجاج أعرابيًّا لصًّا بالمدينة فأمر بضربه ، فلما قرعهُ بسَوْط قال : يا رب شُكْرًا ، حتى ضربه سبعمائة سَوط ، فلقيهُ أشْعَب ، فقال له : تَدرى لِمَ ضربك الحجاج سبعمائة سوط ؟ قال : لماذا ؟ قال : لـكثرة شكرك ، إن الله تعالى يقول : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » ، قال : وهذا فى القرآن ؟ قال : نعم ، فقال الأعرابي :

يا ربِّ لا شُكْرًا فلا تَزِدْنِي أَسأْتُ فى شكرِيَ فاعفُ عنى

بَاعِدْ ثوابَ الشاكرين منى

* * *

ونزل عبد الله بن جعفر إلى خيمة أعرابية ولها دَجاجة ، وقد دجَنت[1] عندها ، فذبحتها وجاءت بها إليه ، فقالت : يا أبا جعفر هذه دجاجة لى كنت أُدْجِنها وأَعلِفها من قُوتي ، وأَلمِسُها فى آناء الليل ، فـكأنما ألمس بنتى زَلّت عن كبدى ، فنذَرْتُ لله أن

(١) دجن الحمام والشاة وغيرهما كنصر : ألفت البيوت .

أدفنها فى أكرم بُقْعة تسكون ، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك ، فأردت أن أدفِنها فيه ، فضحك عبد الله بن جعفر ، وأمر لها بخمسمائة درهم » .

• • •

وسُمِع أعرابي وهو يقول فى الطواف : « اللهم اغفِر لأمى » ، فقيل له : مالك لاتذكر أباك ؟ قال : أبي رجل يحتال لنفسه ، وأما أمى فبائسة ضعيفة » .

• • •

«وقال أبو زيد : رأيت أعرابيًا كأنَّ أنفه كُوز ، من عِظَمه، فرآنا نضحك منه، فقال : ما يُضْحِكُكم ؟ فوالله لقد كنت فى قوم ، ما كنت فيهم إلا أفطَسَ ! » .

• • •

«وجىء بأعرابي إلى السلطان ومعهُ كتاب قد كتب فيه قصته، وهو يقول : « هَاؤُمُ اقْرَءوا كِتَابِيَهْ » ، فقيل له يقال هذا يوم القيامة ، قال : « هذا والله شرٌ من يوم القيامةِ ، إن يوم القيامة يؤتى بحسناتي وسيئاتي ، وأنتم جئتم بسيئاتي وتركتم حسناتي » .

• • •

«واشترى أعرابى غلاماً فقيل للبائع : هل فيه من عيب ؟ قال : لا ، إلا أنه يبول فى الفراش ، قال ، هذا ليس بعيب ، إن وجد فراشاً فَلْيَبُلْ فيه » .

• • •

ومرّ أعرابى بقوم وهو يَنْشُد ابناً له ، فقالوا له ، صِفْهُ ، قال : كأنه دُنَيْنِير ، قالوا : لم نره ، ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابى، وعلَى عنقه جُعَل[1] ، فقالوا ، هذا الذى قلت فيه دُنينيرُ ؟ قال، القَرَنْبَى[2] فى عين أمّها حَسْناء » .

• • •

---

(١) الجعل : الجرباء .

(٢) القرنبى : دويبة من خشاش الأرض فوق الخنفساء إذا مسها أحد انقبضت فصارت مثل الكرة .

وقيل لأعرابى ، ما يمنعك أن تغزو ؟ قال ، والله إنى لأُبغِض الموت عَلَى فراشى ، فكيف أن أمضى إليه رَكْضًا ؟ » .

* * *

« وخرج أعرابى إلى الحج مع أصحاب له ، فلما كان ببعض الطريق راجعًا يريد أهله ، لقيهُ ابن عمٍّ له ، فسأله عن أهله ومنزله ، فقال ، اعلم أنك لما خرجت ، وكانت لك ثلاثة أيام ، وقع فى بيتك الحريق ، فرفع الأعرابى يديه إلى السماء ، وقال : ما أحسنَ هذا يارب ! تأمُرنا بعمارة بيتك أنت ، وتخرب بيوتنا ! » .

* * *

وخرجت أعرابية إلى الحج ، فلما كانت فى بعض الطريق عَطِبت راحلتها ، فرفعت يديها إلى السماء ، وقالت ، « يارَبِّ أخرجتنى من بيتى إلى بيتك ، فلا بيتى ولا بيتُك ! » .

* * *

وعُرِضت السجون بعد هلاك الحجاج ، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفًا ، لم يجب على واحد منهم قتل ولا صَلْب ، وفيهم أعرابى ، أخذ يبول فى أصل مدينة واسط ، فكان فيمن أُطْلِق ، فأنشأ يقول :

إذا ما خرجنا من مدينة واسطٍ　　خَرِينا وَبُلْنا لانخاف عِقابا

* * *

ونظر أعرابى إلى قوم يلتمسون هلال شهر رمضان فقال : « وَالله لئن آثَرْتموه لَتُمْسِكُنَّ منهُ بِذُنَابَى[1] عيش أغبر » .

* * *

ونظر أعرابى إلى رجل سمين فقال « أرى عليك قَطِيفة من نَسْج أضراسك » .

* * *

---

(١) الذنابى : الذنب .

وقال أعرابى : « اللهم إنى أسألك مِيتة كَمِيتَة أبى خارِجَة ، أكل بَذَجًا[1] ، وشرب مِشْعَلًا[2] ، ونام فى الشمس ، فمات دَفآنَ شبعانَ رَيَّانَ » .

• • •

وقيل لأبى الْمِخَشّ الأعرابى : أَيَسُرُّكَ أنك خليفة ، وأن أمَتَك حُرَّة ، قال : لا والله ما يسرّنى ، قيل له : ولم ؟ قال ، « لأنها كانت تذهب الأُمَّة ، وتضيع الأَمَة » .

• • •

وحضر أعرابى سُفْرة سليمان بن عبد الملك ، فجعل يمرّ إلى ما بين يديه ، فقال له الحاجب مما يليك فَكُلْ يا أعرابى ، فقال : من أجدب انتجع ، فشقّ ذلك على سليمان وقال للحاجب : إذا خرج عنا فلا يَعُدْ إلينا .

• • •

وشهد بعد هذا سُفرته أعرابى آخر ، فمرّ إلى ما بين يديه أيضًا ، فقال له الحاجب ، مما يليك فكل يا عرابى ، قال : من أخصب تخيَّر ، فأعجب ذلك سليمان ، فقربه وأكرمه وقضى حوائجه .

« وحضر أعرابى سفرة سليمان بن عبد الملك ، فلما أتى بالفَالُوذَج ، جعل يُسْرِع فيه ، فقال سليمان: أتدرى ما تأكل يا أعرابى ، فقال : بلى يا أمير المؤمنين إنى لأجد ريقًا هنيئًا ، ومُزْدَرَدًا[3] ليِّنًا ، وأظنه الصراط المستقيم الذى ذكره الله فى كتابه ، فضحك سليمان وقال : أأزيدك منهُ يا أعرابى ؟ فإنهم يذكرون أنه يَزِيد فى الدِّماغ ، قال : كَذَبوك يا أمير المؤمنين، لو كان كذلك لكان رأسُك مثل رأس البغل ! » .

• • •

« وحضر سفرة سليمان أعرابى ، فنظر إلى شَعْرة فى لقمة الأعرابى ، فقال : أرى

(١) البذج : ولد الضأن .
(٢) المشعل : شىء من جلود له أربع قوائم ينبذ فيه ، وشرب مشعلا أى شرب مافيه .
(٣) ازدرده : ابتلعه .

شعرة فى لقمتك يا أعرابى ، قال ، وإنك لَتراعينى مُرَاعاة من يُبْصِر الشعرة فى لقمتى ! وَاللهِ لا وا كُلْتك أبداً »، فقال : استرها يا أعرابى ، فإنها زَلة ، ولا أعود لمثلها » .

• • •

وقال الأصمعى : قلت لأعرابى : أتَهْمِزُ[1] إسرائيل ؟ قال : إنى إذن لَرَجل سوء ، قلت له : أفتجرُّ فِلَسْطين ؟ قال : إنى إذاً لَقَوِىّ .

• • •

وسمع أعرابى إماماً يقرأ : « وَلاَ تُنْكِحُوا[2] الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا » ــ قرأها بفتح التاء ــ فقال : ولا إن آمَنُوا أيضاً لم نَنْكِحْهم ، فقيل له إنه يلحن وليس هكذا يُقرأ ، فقال : « أخِّرُوه قبحهُ الله ! لا تجعلوه إماماً ، فإنه يُحِلّ ما حرّم الله » .

(العقد الفريد ٢ : ١٠٠ ــ ١٠٥)

• • •

وخطب أعرابى فلما أعجله بعضُ الأمر عن التصدير بالتحميد ، والاستفتاح بالتمجيد ، قال : « أما بعد ، بغير مَلاَل لذكر الله ، ولا إيثارِ غيره عليه ، فإنا نقول كذا ، ونسأل كذا » فراراً من أن تكون خطبته بَتْراء وَشَوْهاء[3] .

(البيان والتبيين ٢١٢ : ٢١٥)

• • •

ودفعوا إلى أعرابية عِلْكاً[4] لتمضُغه ، فلم تفعل ، فقيل لها فى ذلك ، فقالت : « ما فيه إلا تَعَبُ الأضراس ، وخَيْبة الحَنْجَرة » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

• • •

(١) من معانى الهمز : الغمز. (٢) أى تزوجوا .

(٣) وكانوا يسمون الخطبة التى لم يبتدئ صاحبها بالتحميد، ويستفتح كلامه بالتمجيد «البتراء» ويسمون التى لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « الشوهاء » .

(٤) العلك : اللبان (بالضم) .

وقيل لأعرابى : عند مَنْ تحب أن يكون طعامك ؟ قال : « عند أم صبى راضع ، أو ابن سبيل شاسع ، أو كبير جائع ، أو ذى رحم قاطع » .

(البيان والتبيين ٢ : ٤٩)

• • •

وقال أعرابى :

« لولا ثلاث هُنَّ عيشُ الدهر الماء ، والنوم ، وأم عَمْرو ، لما خَشِيتُ من مَضِيق القبر » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٠١)

• • •

وسمع أعرابى رجلاً يقرأ سورة براءة فقال : « ينبغى أن يكون هذا آخر القرآن » ، قيل له : ولم ؟ قال : « رأيت عهوداً تُنبَذ » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٦٩)

• • •

وسمع أعرابى رجلا يقرأ : « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ[1] » ، قالها بفتح الكاف ، فقال الأعرابى : « لا يكون » ، فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء ، فقال الأعرابى : « يكون » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

---

(١) ذات الألواح والدسر : هى السفينة ، والدسر ما تشد به الألواح من المسامير وغيرها جمع دسار ككتاب ، بأعيننا : بمرأى منا أى محفوظة ، وقد قرئ كفر بالبناء للفاعل ، أى الكافرين : أغرقوا عقابا لهم .

الباب الرابع

فى

خطب النكاح

١ — خطبة قريش فى الجاهلية

روى الجاحظ قال :

كانت خُطبة قريش فى الجاهلية ـ يعنى خطبة النساء :

« باسمك اللهم ، ذُكِرَتْ[1] فلانة ، وفلانٌ بها مشغوفٌ ، باسمك اللهم ، لك ماسألتَ ولنا ما أعطيتَ » .

٢ — خطبة النبي صلى الله عليه وسلم فى زواج السيدة فاطمة

« الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المرهوب من عذابه ، المرغوب فيما عنده ، النافذ أمره فى سمائه وأرضه ، الذى خلق الخلق بقدرته ، وميزهم بأحكامه ، وأعزَّهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه . ثم إن الله تعالى جعل المصاهرة نَسَباً لاحِقاً ، وأمراً مُفْتَرَضاً ، وَوَشَّجَ[2] به الأرحامَ ، وألزمه الأنام ، قال تبارك اسمه ، وتعالى ذكره :

---

(١) ذكر فلان فلانة ذكرا (بفتح فسكون) : خطبها أو تعرض لخطبتها .

(٢) وشجت العروق والأغصان كوعد : اشتبكت والتفت وتداخلت ، ورحم واشجة ووشيجة : مشتبكة متصلة ، وقد وشجها الله توشيجا ، وفى الأصل : « وشيج به الأرحام » وأراه محرفا .

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً » ، فأَمْرُ الله يجرى إلى قضائِهِ ، ولكل قضاءٍ قَدَر ، ولكل قَدَر أجَلٌ « يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » .

ثم إن ربِّى أمرني أن أزوّج فاطمة من علىّ بن أبى طالب ، وقد زوّجتها إياه على أربعمائة مثقال فِضّة ، إن رضى بذلك علىّ » .

٣ — خطبة الإمام علىّ كرّم الله وجهه

وخطب الإمام علىّ كرَّم الله وجههُ حين تزوَّج بالسيدة فاطمة رضى الله عنها فقال :

« الحمد لله الذى قَرُبَ من حامِديه ، ودنا من سائِليه ، ووعد بالجنة من يَتَّقيه ، وَقَطَع بالنار عذر من يعصيه . أحمَده بجميع محامده وأياديه ، وأشكره شكر مَن يعلم أنه خالقُه وباريه ، ومصوِّره وَمُنْشِيه ، ومميته وَمُحْيِيه ، ومقرِّبه ومنجيه ، ومُثِيبهُ ومجازيه ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله صلاة تُزْلِفه وَتُدْنيه ، وتعزّه وتُعْليه ، وتشرِّفه وتجتبيه .

أما بعد : فإن اجتماعنا مما قَدَّره الله تعالى ورضيه، والنكاح ما أمر الله به وأذِن فيه، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم قد زوَّجنى فاطمة ابنتهُ على صَدَاق أربعمائة درهم وثمانين درهماً ، ورضيت به فاسألوه ، وكفى بالله شهيداً » .

٤ — خطبة عتبة بن أبى سفيان

خطب عثمان بن عَنْبَسَة بن أبى سفيان إلى عُتْبة بن أبى سفيان ابنته ، فأقعده عَلَى فخذه ، وكان حَدَثاً فقال :

« أقربُ قريبٍ ، خَطَب أحَبَّ حبيب ، لا أستطيع له رَدًّا ، ولا أجد من إسعافه بُدًّا ، قد زوَّجْتُكها وأنت أعزُّ عَلَىَّ منها ، وهى ألْصَقُ بقلبى منك ، فأَكْرِمْها يَعْذُبْ

عَلَى لِسَانِي ذِكْرُكَ، ولا تُهِنْهَا فَيَصْغُرَ عندى قَدْرُكَ ، وقد قَرَّبتك مع قُربك ، فلا تُبْعِدْ قلبى من قلبك » .

٥ — خطبة شبيب بن شيبة

وقال العُتْبِيّ : زوَّج شَبِيب بن شَيْبة ابنَه بنتَ سِوَار[1] القاضى ، فقلنا : اليوم يَعُبُّ عُبَابُهُ[2]، فلما اجتمعوا تكلم فقال :

« الحمد لله ، وصلى الله على رسول الله ، أما بعد : فإن المعرفة مِنا ومنكم ، بنا وبكم[3] ، تمنعنا من الإكثار ، وإن فلاناً ذَكَرَ فلانة » .

٦ — خطبة الحسن البصرى

« وكان الحسن البصرى يقول فى خطبة النكاح ، بعد الحمد والثناء عليه :

« أما بعد ، فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحامَ المنقطعة ، والأنسابَ المتفرِّقة ، وجعل ذلك فى سُنة من دينه ، ومنهاج واضح من أمره ، وقد خَطَبَ إليكم فلان ، وعليه من الله نِعْمَةٌ ، وهو يبذل من الصَّدَاق كذا ، فاستخِيرُوا الله ، وَرُدُّوا خيراً ، يرحمكم الله » .

٧ — خطبة ابن الفقير

وقال العتبى : حضرت ابن الفقير خطب على نفسه امرأةً من باهِلة فقال :

« وما حَسَنٌ أن يَمْدَح المرء نفسَه   ولكنَّ أخلاقاً تُذَمُّ وَتُمْدَح

وَإن فلانة ذُكِرَت لى » .

---

(١) هو سوار بن عبد الله من قضاة البصرة وخطبائها — انظر البيان والتبيين ١ : ١٦١ — واقرأ فى أمالى السيد المرتضى ٤ : ٢٢ حديثا غريبا للجاحظ عنه فى وقاره وضبطه من نفسه وملكه من حركته —

(٢) لأن والدى العروسين خطيبان .

(٣) أى المعرفة منا بكم ، والمعرفة منكم بنا .

٨ — خطبة عمر بن عبد العزيز

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز :

« قد زَوَّجك أمير المؤمنين ابنتَه فاطمة » ، قال : « جزاكَ الله يا أميرالمؤمنين خيراً ، فقد أجزلتَ العطية ، وكَفَيتَ المسألة » .

٩ — خطبة أخرى له

وحدّث محمد بن عبيد الله القرشى عن أبى المِقْدام قال :

كانت قريش تستحسن من الخاطب الإطالة ، ومن المخطوب إليه التقصير[(١)] ، فشهِدْت محمد بن الوليد بن عُتبة بن أبى سفيان خطب إلى عمر بن عبد العزيز أخته أم عمر بنت عبد العزيز ، فتكلم محمد بن عبد الوليد بكلام جاز الحفظَ ، فقال عمر :

« الحمد لله ذى الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتَم الأنبياء ، أما بعد : فإن الرغبة منك دَعَتك إلينا ، والرغبة فيك أجابَتْك منا ، وقد أحسن بك ظنًّا من أودعك كَرِيمتَه ، واختارك ولم يَخْتَر عليك ، وقد زوجتُكها على كتاب الله : إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » .

١٠ — خطبة بلال

وخطب بلاَل إلى قوم من خَثْعَم لنفسه ولأخيه ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أنا بلال وهذا أخى ، كنا ضالَّيْن فهدانا الله ، عَبْدَيْن فأعتقنا الله ، فقيرين فأغنانا الله ، فإن تُزَوِّجُونا فالحمد لله ، وإن تَرُدُّونا فالمستعانُ اللهُ » .

---

(١) وكذلك روى الجاحظ فى البيان والتبيين (١ : ٦٤) قال : « والسنة فى خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ، ويقصر المجيب » والحصرى فى زهر الآداب (٢ : ٣١) قال الأصمعى : « كانوا يستحبون من الخاطب إلى الرجل حرمته الإطالة ، لتدل على الرغبة ، ومن المخطوب إليه الإيجاز ليدل على الإجابة » .

١١ — خطبة خالد بن صفوان

وزوَّج خالد بن صفوان مَوْلاه من أَمَته ، فقال له العبد: لو دعوتَ الناس وَخَطَبت !
قال : اُدْعُهُم أنت ، فدعاهم العبد ، فلما اجتمعوا ، تكلم خالد بن صفوان ، فقال :

« أما بعد : فإن الله أعظمُ وأجلُّ من أن يُذْكَر فى نكاح هذين الكلبين ، وأنا أُشْهِدكم أني زوَّجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية » .

١٢ — خطبة أعرابى

وخطب الفضل الرَّقاشى إلى قوم من بنى تميم نخطب لنفسه ، فلما فرغ قام أعرابى منهم فقال :

« تَوَسَّلْتَ بِحُرْمة ، وأوليتَ بحقٍّ ، واستندت إلى خير ، ودعوتَ إلى سُنَّة ، فَفَرْضُك مقبول ، وما سألتَ مبذولٌ ، وحاجتك مقضية إن شاء الله تعالى » .

قال الفضل : لو كان الأعرابى حمد الله فى أوَّل كلامه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم لفضحنى يومئذ» .

١٣ — خطبة المأمون

وقال يحيى بن أكثم : أراد المأمون أن يزوِّج ابنتهُ من علىِّ بن موسى الرِّضا ، فقال : يا يحيى تكلم ، فأجْلَلْته أن أقول : « أنكحت » ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت الحاكم الأكبر ، والإمام الأعظم ، وأنت أَوْلَى بالكلام ، فقال :

« الحمد لله الذى تصاغَرت الأمور بمشيئته ، ولا إلهَ إلا هو إقراراً بربوبيته ، وصلى الله على محمد عند ذكره ، أما بعد : فإن الله قد جعل النكاح دِيناً ، ورضيه حُكْماً وأنزله وَحْياً ، ليكون سَبَب المناسبة ، ألا وإني قد زوَّجت ابنة المأمون من علىِّ بن موسى،

وأمهرتها أربعمائة درهم ، اقتداء بِسُنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهاء إلى ما دَرَج إليهِ السَّلَف ، والحمد لله ربّ العالمين » .

* * *

وخطب رجل إلى قوم ، فَأُتِيَ بمن يخطُب له ، فاستفتح بحمد الله ، وأطال ، وصلى على النبيّ عليه الصلاة والسلام ، وأطال ، ثم ذكر الْبَدْء وَخَلْقَ السموات والأرض ، واقتصّ ذِكْرَ القرون ، حتى ضَجِر مَنْ حَضَر ، والتفت إلى الخاطب ، فقال : ما اسْمُك أعزَّك الله ؟ فقال : والله قد أُنْسِيتُ اسْمِي من طول خطبتك ، وهي طالِقٌ إن تزوجتها بهذه الخطبة ، فضحك القوم ، وعقدوا في مجلس آخر .

(مفتاح الأفكار ص ٦٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٥ ، ٢١٧ — ٢ : ٥٠ : ١٣٠ — ٣ : ٢٢١ ، وزهر الآداب ٢ : ٣٠ ، ٣١)

الباب الخامس

فى

خطب من أرتج عليهم

ونوادر طريفة لبعض الخطباء

روى الجاحظ قال : صَعِدَ عثمان بن عفَّان رضى الله تعالى عنه المنبَر ، فأُرْتِج عليه ، فقال :

« إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدّان لهذا المَقَام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوجُ منكم إلى إمام خطيب » .

• • •

وروى ابن عبد ربه قال : أول خطبة خطبها عثمان بن عفَّان أُرْتِج عليه ، فقال :

« أيها الناس : إن أوَّل كل مَرْكَبٍ صعب ، وإن أعِشْ تأتِكم الخطبُ على وجهها ، وسيجعل الله بعد عُسْرٍ يُسْرًا إن شاء الله » .

• • •

ولما قَدِم يزيد بن أبى سُفيان الشأم واليًا عليها لأبى بكر ، خطب الناس فأرتج عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فقال :

« يأهل الشأم ، عسى اللهُ أن يجعل من بعد عُسْرٍ يُسْرًا ، وَمن بَعْدِ عِيٍّ بيانًا ،

وأنتم إلى إمامٍ فاعل[١] ، أحْوَجُ منكم إلى إمام قائل[٢] » ، ثم نزل ، فبلغ ذلك عمرَو بن العاص فاستحسنه .

* * *

وكان يزيد بن المُهَلَّب وَلَّى ثابتَ قُطْنَةَ[٣] بعض قرى خُراسان[٤] ، فلما صَعِدَ المنبر يوم الجمعة ، قال : الحمد لله ، ثم أُرْتِج عليه ، فنزل وهو يقول :

فإلَّا أكُنْ فيكم خطيباً فإننى ... بسيفى إذا جَدَّ الوَغَى لَخطيبُ

فقيل له : « لو قلتَها فوق المنبر ، لكنتَ أخطبَ الناس » .

* * *

وخطب معاوية بن أبى سفيان لما وَلِيَ ، فَحَصِر فقال :

« أيها الناس : إنى كنت أعددتُ مَقالا أقوم به فيكم ، فَحُجِبْتُ عنه ، فإن الله يَحُول بين المَرْءِ وقلبه ، كما قال فى كتابه[٥] ، وأنتم إلى إمام عَدْل ، أحْوَجُ منكم إلى إمام خطيب ، وإنى آمُرُكم بما أمر الله به ورسولُه ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ورسولُه ، وأستغفر الله لى ولكم » .

* * *

وَصَعِدَ خالد بن عبد الله القَسْرِيّ يوماً المِنبر بالبصرة ليخطب فأُرْتِج عليه ، فقال :

---

(١) فى عيون الأخبار : « إمام عادل » . (٢) وفى أمالى السيد المرتضى أن هذا القول يروى لعثمان بن عفان ، وفى روايتها : « إمام فعال » و « إمام قوال » بصيغة المبالغة ، وفى الأغانى أنه يروى لثابت قطنة ، وفيه : « أمير فعال » و « أمير قوال » .

(٣) هو ثابت بن كعب ، ولقب قطنة لأن سهماً أصابه فى إحدى عينيه ، فذهب بها فى بعض حروب الترك ، فكان يجعل عليها قطنة ، وهو شاعر فارس شجاع من شعراء الدولة الأموية ، وكان فى صحابة يزيد بن المهلب ، وكان يوليه أعمالا من أعمال الثغور ، فيحمد فيها مكانه لكفايته وشجاعته ، وقد مال إلى قول المرجئة ، وله قصيدة فى الإرجاء ، انظر ترجمته فى الأغانى ج ١٣ ص ٤٧ .

(٤) وفى رواية : أنه خطب على منبر سجستان ، وفى رواية الطبرى : « فخطب الناس فحصر فقال : « من يطع الله ورسوله فقد ضل » وأرتج عليه فلم ينطق بكلمة ، فلما نزل من المنبر قال البيت المذكور .

(٥) الآية الكريمة : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

« أيها الناس : أما بعد ، فإن هذا الكلام يَجِىء أحيانًا ، ويَعزُب أحيانًا ، فيَسِيح عند مَجيئه سَيْبُه[١] ، ويَعِزّ عند عُزُوبه طَلَبُه ، ولربّما كُوبر فأَبَى[٢] ، وعُولِج فنأى ، فالتأَنّي[٣] لِجيّه ، خير من التعاطى لأبِيِّه ، وتَرْكه عند تنكُّره ، أفضل من طلبه عند تعذّره ، وقد يَختلِج[٤] من الجرىء جَنانُه ، وينقطع من الذَّرِب[٥] لسانُه ، فلا يُبْطِره ذلك ولا يَكسِره ، وسأعود فأقول إن شاء الله » ، ثم نزل ، فما رُئى حَصِرٌ أبلغ منهُ .

* * *

وصعد أبو العَنْبَسِ مِنبراً من منابر الطائف ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ، فأُرتِج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فما ينفعنى ما أريد أن أقول لكم ، ثم نزل ؛ فلما كان فى الجمعة الثانية ، وصَعِدَ المنبر وقال : أما بعد ، أرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : نعم ، قال : فما حاجتكم إلى أن أقول لكم ما علِمتُم ؟ ثم نزل ؛ فلما كانت الجمعة الثالثة ، قال : أمَّا بعد : فأُرتج عليه ، قال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : بعضُنا يدرى ، وبعضنا لايدرى ، قال : فَلْيُخْبِر الذى يدرى منكم الذى لايدرى ، ثم نزل .

* * *

وولى اليمامةَ رجل من بنى هاشم يعرف بالدَّنْدَان ، فلما صَعِدَ المنبر أرتج عليه ، فقال :

---

(١) السيب : العطاء ، وفى رواية : « فيتسبب عند مجيئه سيبه » .

(٢) وفى رواية : « قمسا » أى اشتد وصعب .

(٣) تأتى له : ترفق ، وفى رواية : « فالتأنى » بالنون .

(٤) يضطرب .

(٥) الحاد اللسان : وفى رواية : « ويرتج على البليغ لسانه » ، وفى أخرى : « وقد يرتج على اللسن لسانه ، ولا ينظره القول إذا اتسع ، ولا يتيسر إذا امتنع ، ومن لم تمكن له الخطوة ، فخليق أن تمن له النبوة » وفى أخرى : « وقد يتعاصى على الذرب لسانه ، ثم لا يكابر القول إذا امتنع ، ولا يرد إذا اتسع ، وأولى الناس من عذر على النبوة ، ولم يؤاخذ على الكبوة ، من عرف ميدانه ، اشتهر إحسانه وسأعود وأقول » .

« حَيَّا اللهُ هذه الوجوهَ ، وجعلنى فِدَاءَها ، إنى قد أمرت طائِفِى بالليل أنْ لا يرى أحداً إلا أتاني به ، وإن كنت أنا هو » ، ثم نزل .

• • •

وخطب عبد الله بن عامر[1] بالبَصرة فى يوم أضْحَى ، فأُرْتِجَ عليه ، فمكث ساعة ، ثم قال :

« والله لا أجمع عليكم عِيًّا وَلُؤْماً، من أخذ شاةً من السُّوق فهى له ، وثمنُها علىَّ » .

• • •

قال الجاحظ : ولما حَصِرَ عبد الله بن عامر على منبر البصرة ، شقَّ ذلك عليه ، فقال له زياد : « أيها الأمير ، إنك إن أقمتَ عامَّة مَنْ تَرَى ، أصابه أكثرُ مما أصابك » .

• • •

وكان سعيد بن مَجْدَل الكَلْبِىّ على قِنَّسْرِين[2] ، فوثب عليه زُفَر بن الحارث ، فأخرجهُ منها ، وبايع لابن الزبير[3] ، فلما صعد زفر على المنبر قال : « الحمد لله الذى أقعدنى مقعد الغادر الفاجر » ، وَحَصِرَ ، فضحك الناس من قوله .

• • •

وصعد عَدِىّ بن أرْطَاة[4] المنبر ، فلما رأى جماعة الناس حَصِرَ فقال : « الحمد لله الذى يُطْعِم هؤلاء ويُسْقِيهم » .

• • •

وصعد رَوْح بن حاتم المنبر ، فلما رآهم شَفَنُوا[5] أبصارهم ، وفتحوا أسماعهم نحوه ،

---

(١) انظر هامش الجزء الأول ص ٣٥٥ . (٢) كورة بالشأم . (٣) انظر هامش الجزء الثانى ص ١٤١ .

(٤) كان عامل يزيد بن عبد الملك على البصرة .

(٥) شفنه كضربه وعلمه شفونا : نظر إليه بمؤخر عينيه ، أو رفع طرفه ناظرا إليه كالمتعجب أو كالكاره

بَحَصِر قال : « نكِّسُوا رءوسكم ، وَغضُّوا أبصاركم ، فإن المِنبر مَرْكَبٌ صعب ، وإذا يَسَّرَ الله فتحَ قُفْلٍ تَيَسَّر » .

• • •

وكان عبد ربه اليَشْكُرِيّ عاملًا لعيسى بن موسى[1] على المدائن ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فسكت ثم قال : « والله إني لأكون فى بيتى فتجىء على لسانى ألف كلمة ، فإذا قمتُ على أعوادكم هذه جاء الشيطان فمحاها من صدرى ، ولقد كنتُ وما فى الأيام يوم أحبُّ إلىّ من يوم الجمعة ، فصرتُ وما فى الأيام يومٌ أبغضُ إلىّ من يوم الجمعة ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه » .

• • •

وأرتج عَلَى مَعْن بن زائِدة ، فضرب المنبر برجله ، ثم قال : « فَتَى حُرُوب ، لا فَتَى مَنابر » .

• • •

وحدث عيسى بن عمر قال :

خطب أميرٌ مرةً فانقطع فخجِل ، فبعث إلى قوم من القبائل عابوا ذلك وَلَفَّهم[2] ، وفيهم يَرْبُوعِىٌّ جَلْد ، فقال : اخطُبوا ، فقام واحد فمرّ فى الخطبة ، حتى إذا بلغ « أما بعدُ » قال: أما بعد ، أما بعد ، ولم يَدْرِ ما يقول ، ثم قال: فإن امرأتي طالِقٌ ثلاثًا لم أُرِدْ أن أُجَمِّع[3] اليوم فمنعتنى ، وخطب آخر ، فلما بلغ « أما بعد » بقِى ونظر فإذا إنسان ينظر إليه ، فقال : لعنك الله ! ترى ما أنا فيه ، وتلحُنى ببصرك أيضًا ! وقال أحدهم : رأيتُ القَرَاقِر[4] من السفن تجرى بينى وبين الناس ، وَصَعِد اليربوعىّ فخطب فقال : « أما بعد » فوالله ما أدرى ما أقول ، ولا فيم أقمتمونى ، أقول ماذا ؟ »

---

(١) هو عيسى بن موسى ابن أخى المنصور وكان أمير الكوفة . (٢) لفهم : جمعهم .

(٣) جمع الناس بالتشديد : أى شهدوا الجمعة ، كما يقال : عيدوا : أى شهدوا العيد .

(٤) القراقر : جمع قرقور كعصفور : وهى السفينة أو الطويلة أو العظيمة .

فقال بعضهم : قل فى الزيت ، فقال : « الزيت مبارك[1] ، فكلوا منه وادَّهِنُوا » .

قال : فهو قول الشُّطَّار[2] اليوم ، إذا قيل لِمَ فعلت ذا ؟ فقل فى شأن الزيت ، وفى حال الزيت .

• • •

وروى الجاحظ أنه قيل لرجل من الوُجُوه : قم فاصْعَدِ المنبر وتكلم ، فلما صَعِدَ حَصِرَ وقال : « الحمد لله الذى يرزق هؤلاء » وبقى ساكتاً فأنزلوه . وصعد آخر ، فلما استوى قائماً ، وقابل بوجهه وجوهَ الناس ، وقعت عينهُ على صَلَعَة[3] رجل فقال : « اللهمَّ الْعَنْ هذه الصَّلعة » .

• • •

وقيل لوازع الْيَشْكُرِىِّ : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما رأى جمع الناس قال : « لولا أن امرأتى لعنها الله حَمَلَتْنى على إتيان الجمعة اليوم ما جَمَّعْتُ ، وأنا أُشْهِدُكم أنها منى طالق ثلاثا » .

• • •

وَدُعِىَ أيوب بن الْقِرِّيَّة لكلام ، فاحتبس القولُ عليه ، فقال : « قد طال السَّمَرُ ، وَسَقَطَ القمر ، واشتد المطر ، فماذا يُنْتَظَر ؟ » فأجابه فتى من عبد الْقَيْس فقال : « قد طال الأَرَقُ ، وَسَقَطَ الشَّفَقُ ، وكثر اللَّثَقُ[4] ، فلينْطِق من نطَق » .

• • •

( ) يشير إلى الآية الكريمة : « اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ، زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ » .

(٢) الشطار جمع شاطر : وهو من أعيا أهله خبثاً ، والمراد به هنا أهل الدعارة وأصحاب النوادر والتنكيت والفكاهات . (٣) الصلعة : موضع الصلع .

(٤) لثق يوما كفرح : ركدت ريحه وكثر نداه .

وجاء فى أمالى السيد المرتضى :

روى أن بعض خلفاء بنى العباس ـ وأظنه الرشيد ـ صعِد المنبر ليخطب ، فسقطت عَلَى وجهه ذُبابة ، فطردها ، فرجَعت ، فحصِر وأرتج عليه ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم « يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَايَسْتَنْقِذُوهُ[١] مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ثم نزل ، فاستحسن ذلك منه .

• • •

وروى أن رجلا صَعِد المنبر أيام يزيد بن معاوية ، وكان واليًا عَلَى قوم فقال لهم : « أيها الناس : إنى إن لم أكن قارئًا طَبًّا[٢] بهذا القرآن ، فإن معى من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خَلَفًا منه ، وما أساء القائل أخو البَرَاجم حيث قال :

وما عاجِلاتُ الطير يُدْنِين للفتى رَشَاداً ، ولا من رَيْثِهِن يخيبُ[٣]
وَرُبَّ أُمُورٍ لَاتَضِيرك ضَيْرَةً وَلِلْقَلْبِ من مَخْشَاتِهِن وَجِيبُ[٤]
ولا خيرَ فيمن لَايُوطِّن نفْسَهُ عَلَى نائبات الدهر حين تنوب
وفى الشكِّ تفريطٌ وفى الحزم قوةٌ وَيُخْطِى الفتى فى حَدْسِهِ وَيُصِيبُ[٥]

فقال رجل من كلب : إن هذا المنبر لم يُنْصَب للشعر ، بل ليُحْمَد الله تعالى ،

---

(١) وكانوا يطلون أصنامهم بالطيب والزعفران ويغلقون عليها الأبواب ، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله . (٢) ماهرا حاذقا .

(٣) كانت العرب تتيمن بالطير السانح ، وهو ماولاك ميامنه ، بأن يمر من مياسرك إلى ميامنك ، وتتشاءم بالبارح ، وهو ماولاك مياسره ، بأن يمر من ميامنك إلى مياسرك ، وذلك لأنه لا يمكنك رميه إلا بأن تنحرف له ، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير ، فيعتمدها ، وعاجلات الطير هى أن يخرج الإنسان من منزله إذا أراد أن يزجر الطير ، فما مر به أول ما يبصر فهو عاجلات الطير ، وإن أبطأت عنه وانتظرها فقد راثت أى أبطأت ، والأول متقدم محمود ، والثانى مذموم .

(٤) خشيه خشية ومخشاة : خافه، ووجب القلب وجيبا : خفق واضطرب . (٥) الحدس : الظن والتخمين ، والأبيات لضابىء بن الحارث البرجمى (انظر زهر الآداب ٢ : ٨٨) .

وَيُصَلِّ عَلَى النبيّ وآله عليهم الصلاة والسلام، والقرآن، فقال: أمَا لو أنشدتكم شعر رجل من كلب لسَرَّكم، فكُتب إلى يزيد بذلك فعزله، وقال: قد كنت أراك جاهلا أحمق، ولم أحسب أن الحمق يبلغ بك إلى هذا المبلغ، فقال له: أحمَقُ منى مَنْ وَلّانى!

• • •

وخطب عَتَّاب بن وَرْقاء[1] فحث عَلَى الجهاد فقال: هذا كما قال الله تعالى فى كتابه:

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتَالُ علينا   وعَلَى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ[2]

• • •

وخطب يوما فقال: هذا كما قال الله تبارك وتعالى: «إنما يتفاضل الناس بأعمالهم، وكل ماهو آتٍ قريبٌ» قالوا له: «إن هذا ليس من كتاب الله» قال: «ما ظننْتُ إلا أنه من كتاب الله».

• • •

وخطب وَكيع بن أبى سُودٍ[3] بخُراسان فقال: «إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أشهر» فقيل له: «إنها ستة أيام» فقال: «وأبيك لقد قُلتها وإنى لأستقلّها!».

• • •

وصعد المنبر فقال: «إنَّ ربيعة لم تزل غِضَابًا عَلَى الله مذ بعث نبيَّه من مُضَرَ،

---

(١) انظر الجزء الثانى ص٣٣٢ و٤٤٥. (٢) البيت لعمر بن أبى ربيعة، وذلك أن مصعب بن الزبير بعد أن قتل المختار بن أبى عبيد الثقفى دعا امرأته — وهى بنت النعمان بن بشير — إلى البراءة من المختار، فأبت فقتلها، فقال فى ذلك ابن أبى ربيعة:

إن من أعظم الكبائر عندى   قتل حسناء غادة عطبول

قتلت باطلا على غير ذنب   إن لله درها من قتيل

كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جر الذيول

«والعطبول كعصفور: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق». (٣) انظر الجزء الثالث ص ٢١٢

ألا وإن ربيعة قومٌ كُشُفٌ(١) ، فإذا رأيتموهم فاطْعَنُوا الخيل فى مَناخِرِها ، فإن فرسا لم يُطْعَن فى مَنْخَرِه إلا كان أشدَّ عَلَى فارسه من عدوّه(٢) » .

• • •

وضربت بنو مازن الُحتاتَ بن يزيد المُجَاشِعِيّ ، فجاءت جماعة منهم ، فيهم غالِبٌ أبو الفرزدق فقال : « ياقوم كونوا كما قال الله : لايعجَز القوم إذا تعاونوا » .

• • •

وخطب عدى بن زياد الإيادىّ ، فقال : « أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ(٣) » ، قالوا له : « ليس هذا من قول عبد صالح ، إنما هو من قول فِرعون » ، قال : من قاله فقد أحسن » .

• • •

وروى الطبرى أن عبد الله بن الزبير كان وَلَّى أخاه عُبيدة عَلَى المدينة ، ثم نزعهُ عنها ، وكان سبب عزله إياه أنه خطب الناس ، فقال لهم : قد رأيتم ما صُنِع(٤) بقوم فى ناقة قيمتها خَمْسُمائةِ دِرهم ، فسمى مُقَوِّم الناقة ، وبلغ ذلك ابن الزبير فقال : إن هذا لهو التكلف .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذا الخبر فقالا : خطب والى اليمامة(٥) ، فقال : « إن الله لايُغَارُ(٦) عبادَه على المعاصى ، وقد أهلك الله أمة عظيمة فى ناقة ما كانت تساوى مائتى درهم » ، فسمى مقوِّم ناقة الله .

• • •

(١) كشف جمع أكشف : وهو من ينهزم فى الحروب ، ومن لاترس معه فى الحرب ، ومن لابيضة على رأسه . (٢) وروى الطبرى أن عبد الله بن خازم قال ذلك القول لأصحابه بخراسان ، قال لهم : « إذا لقيتم الخيل فاطعنوها فى مناخرها ، فإنه لن يطعن فرس فى نخرته إلا أدبر أورمى بصاحبه » . (الطبرى ٧ : ٤٦) . (٣) الآية الكريمة : « قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى . . . . . » .

(٤) يشير إلى ثمود قوم صالح عليه السلام — انظر هامش الجزء الثانى ص ٣٥٢ .

(٥) لعلها المدينة . (٦) أى لا يقرهم .

وخطب قَبِيصَةُ ، وهو خليفة أبيه[1] على خُراسان ، وأتاه كتابه ، فقال : « هذا كتاب الأمير ، وهو والله أهلٌ لأن أطيعَهُ ، وهو أبى وأكبر منى » .

• • •

ودعى مُصْعَب بن حَيَّان ليخطب فى نكاح تَحْصِر فقال : « لَقِّنُوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ، فقالت أم الجارية ، عَجَّل الله موتك ، ألهذا دعَوناك ؟ » .

• • •

وخطب أمير المؤمنين الموالى — وهكذا لَقَبُهُ — خطبة نكاح تَحْصِر ، فقال : « اللهم إنا نحمدك ونستعينك ولا نُشْرِك بك » .

• • •

وخطب قُتَيْبَة بن مُسْلِم على مِنبر خُراسان ، فسقط القضيب من يده ، فتفاءل له عدوه بالشر ، واغتمّ صديقه ، فعرف ذلك قتيبة ، فأخذه وقال : « ليس الأمر على ماظن العدو ، وخاف الصديق[2] ، ولكنه كما قال الشاعر » :

فألقَتْ عصَاهَا واستقرّ بها النَّوَى كما قَرَّ عَيْنًا بالإِيابِ المُسَافِرُ[3]

• • •

وتكلم صَعْصَعَة عند معاوية فَعَرِق ، فقال معاوية : بَهَرَكَ[4] القول ! فقال صعصعة : إن الجياد نَضَّاحَةٌ بالماء .

• • •

وشخَص يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة إلى هِشَام بن عبد الملك ، فتكلم فقال هشام : ما مات من خلَّف مثلَ هذا ! فقال الأبرش الكلبى : ليس هناك ، أما تراه يَرْشَح جبينُهُ لِضِيق صدره ! قال يزيد : ما لذلك رَشَحَ ، ولكن لجلوسك فى هذا الموضع .

• • •

(١) هو المهلب بن أبى صفرة ، وكان والياً على خراسان — انظر الجزء الثانى ص٢٨٥ .

(٢) وفى رواية : « كما ساء الصديق ، وسر العدو » . (٣) النوى : الغربة البعيدة .

(٤) أى غلبك .

وقال عبيد الله بن زياد : « نِعْم الشىء الإمارةُ ، لولا قَعْقَعَةُ البريد ، وَالتشرُّف للخُطَب » .

* * *

وقيل لعبد الملك بن مروان : عَجِل عليك الشيبُ يا أمير المؤمنين ، فقال : كيف لايَعْجَلُ علىّ ، وأنا أعرض عَقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين ؟ »
« أو قال : شيبنى صعود المنابر والخوف من اللحن » .

(العقد الفريد ٢ : ١٦٢ — ١٦٣ و ٣ : ٢٥٦ ، وعيون الأخبار م ٢ ؛ ص ٢٤٧ و ٢٥٦ و٢٥٩ ، وأمالى السيد المرتضى ٤ : ١٩ — ٢٢ ، والأغانى ١٣ : ٤٧ ، ١٧ ، ١١١ ، وتاريخ الطبرى ج ٧ ؛ ص ٩٠ ، ج ٨ : ١٨٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٧٤ ، ١٦٣ ، ١٨٦ — ٢ ؛ ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، والأمالى ١ : ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٧ ، وسرح العيون ص ١٢٥ ، ٢٠٥ ، والصناعتين ص ٢١).

بدء الخطب وختامها

قال ابن قُتَيْبَة فى عيون الأخبار :

تتبعت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدت أوائل أكثرها : « الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلّ له ، ومن يُضْلِل فلا هادىَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له » ، ووجدت فى بعضها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته » ، ووجدت كلّ خطبة مفتاحها الحمد ، إلا خطبة العيد ، فإن مفتاحها التكبير .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣١)

وروى ابن عبد ربه فى العقد قال :

« وكان آخر كلام أبي بكر الذى إذا تكلم به عُرِف أنه قد فرغ من خطبته : اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخير عملى خواتِمَه ، وخير أيامى يوم ألقاك » .

وكان آخر كلام عمر الذى إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته : « اللهم لاتدعْنى فى غَمْرة ، ولا تأْخذني على غِرّة ، ولا تجعلنى من الغافلين » .

وكان عبد الملك بن مَرْوان يقول فى آخر خطبته : « اللهم إن ذنوبى قد عَظُمت وجلّت أن تُحْصَى ، وهى صغيرة فى جنب عفوك فاعف عنى » .

(العقد الفريد ٢ : ١٣٣ ، ١٤٢)

تمّ بحمد الله

فهرس ذيل الجمهرة

الباب الأول

فى خطب الأندلسيين والمغاربة

الباب الثانى

فى خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

الباب الثالث

فى نثر الأعراب

رقم الصفحة | الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة | الخطبة أو الوصية

الباب الرابع

فى خطب النكاح

تم الكتاب بحسن توفيقه وعونه تعالى

وسيتبعه إن شاء الله كتاب

جمهرة رسائل العرب

فى عصور العربية الزاهرة







